ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري

تأليف

الدكتور ابراهيم بيضون

١٩٧٩

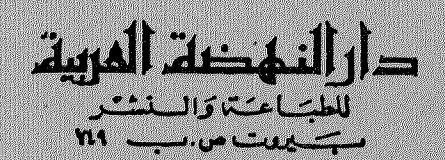

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

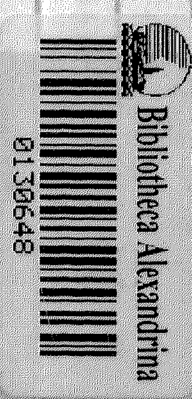

التيارات السياسية

ملامح
التيارات السياسية في القرن الأول الهجري

الدكتور ابراهيم بيضون

١٩٧٩

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

الإهداء

إلى

هيـــام

و

سيرين

المقدمة

في أعقاب ذلك التحول الجذري في شبه الجزيرة العربيـة ، مـن مجتمع السذاجة والاستغلال الى مجتمع العقيدة وبناء الدولة ، توفـي الرسول وهو مطمئن الى رسوخ دعوته فوق انقاض الوثنية المتخلفـة • الا أن هاجس القلق الممزوج بالخوف ربما لازمه في آخر أيامه على مصير دولته الفتية ، وهي الوجه الآخر للدعوة • فالتصدي لبحث مشكلة الحكم الذي ارتبط بشخصية الرسول حتى التلاحم ، كمؤسس ورائد تاريخي لهذه الدولة ، كان يخفي معه الكثير من التعقيد • ولعل الوقت داهمـه قبل اتخاذ قرار اجماعي ، موحّد لكافة التيارات المتنافسة ، فآثر تـرك مسؤولية هذه المهمة للمستقبل •

ولكن الخلافة تحولت مع الزمن ، الى مشكلة مرضية تهدد الدولة الاسلامية الجديدة وتمزق وحدتها بين حين وآخر •• وعاشت كذلـك مشكلة في ضمير المؤرخين التقليديين ، وتطورت في كتاباتهم الى مـادة للجدل العقيم ، حيث العواطف والانتماءات تتشابك مع الحقيقة التاريخية، فتكون عاجزة أحيانا عن التعامل مع الحدث في اطار من المنطق والموضوعية• ورغم الصوفية التي غالبا ما كتب بها المؤرخ العربي القديم ، والاجتهـاد في تلمس الحقيقة، فقد كان بحاجة الى جرأة اكثر في تصديه لتلك المشكلة

وسواها من الأحداث البارزة • وهذا ما حال دونه ، أن حرية التعبير لم تكن في متناول ذلك المؤرخ ، الذي حرص على عدم تنافر افكاره مع نظام له أحكامه الثابتة في هذا الشأن •

ان مجموعة من الاعتبارات قد تدخلت في موضوعية المؤرخ العربي القديم والتزامه بالمنهج العلمي في أخباره • فهو أيضا أسير البيئة الدينية التي فطر عليها بشيء من التصوف ، حيث أن رواد المدرسة التاريخية الأوائل كانوا يفكرون بنزعة الفقيه وليس بعقلانية المؤرخ • ولعل هذا ينطبق على أكثرهم شهرة وهو « أبو جعفر الطبري » ، الذي عمل في التفسير واتنهج فقها خاصا به ، قبل أن يجتذبه التاريخ ، ومعه الرؤية ذاتها التي لازمته فقيها وعالما في التفسير ، ومؤرخا يتوخى الهدف نفسه من أعماله • أي أن الطبري ، كما اعترف في تقديم كتابه المطول ، كان مجرد ناقل للاحداث ، تباعد او تقارب بها الزمن ، دون أن يكون لرأيه دور في تقديمها الا من الجانب السلبي ، حين يجد نفسه أمام رواية مضطربة أو حدث مبالغ فيه • حينذاك يبتعد تاركا للقاريء مسؤولية التقويم والاستنتاج « وليعلم الناظر في كتابنا هذا ، ان اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه ، انما هو على ما رويت من الاخبار التي أنا ذاكرها فيه والآثار التي أنا مسندها الى رواتها فيه ، دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس الا اليسير القليل منه ، اذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحادثين غير واصل الى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم الا أخبار المخبرين ونقل الناقلين ، دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس • فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك قبلنا وانما

أتى من قبل بعض ناقليه الينا ، وانا انما أدينا ذلك على نحو ما أدي الينا » [1] •

غير أن الطبري وأقرانه من كبار المؤرخين التقليديين ، برغم ما نسي اليهم من تقصير أو نقد بعدم الالتزام بالمنهجية التاريخية التي تأخرت بعدهم بضعة قرون ، فان دورهم كان كبيرا كرواد ، وكحافظين لتراث كان يفترض لولا جهودهم أن يفتك به النسيان ، أو يتحول الى أساطير• لقد كانت أعمالهم وليدة تلك الظروف المعقدة والامكانات المتواضعة ، فجاءت نسبيا على قدر المرحلة • ولكن المؤسف أن تبقى هذه الأعمال متداولة حتى في الأسلوب، في كتابات عدد غير قليل من الكتاب المتأخرين، الذين لم يعترفوا بعلمية التاريخ، فجاءت أعمالهم تهذيبا أو ترميما لكتابات الأقدمين •

ولم تكن الدعوة التي ارتفعت في مطلع السبعينات من هذا القرن، الى اعادة النظر في كتابة التاريخ العربي الاسلامي ، وفق مقاييس ومناهج جديدة ، غير تفاعل مباشر مع المستوى الذي بلغه علم التاريخ بصورة عامة في هذا العصر • غير أن هذه الدعوة التي تحمس لها عدد من المشتغلين في التاريخ ، ووصلت الى حد تبني بعض الدول العربية [1] لها حيناً ما ، لا تزال في اطار الأمنيات والمشاريع •

والتاريخ العربي الاسلامي ، انما هو محصل لتفاعلات متعددة ومتشابكة سياسيا وأقتصاديا واجتماعيا • الا ان العامل الاهم في صنع هذا التاريخ ، متجسد بدون تردد في دور العقيدة وتأثيرها الجذري في

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ١ ص ٥ .
(٢) الكويت وليبيا .

هذا المجتمع • فحركة الفتوح مثلا رغم خلفياتها الاقتصادية الا أن العقيدة كانت محورها الأساسي ، اذ تحولت الحركة في ذاتها لا سيما في العصر الاسلامي الأول ، الى قضية فـي وجدان المقاتل العربـي ، فاكتسبت مفهوما خاصا يرقى الى استقطاب الأنسان ، بما لديه من تراث وتاريخ في ظل مبدأ مشترك هو الاسلام • وكان تراجع تأثير العقيدة مـع غيـاب الخلافة الراشدية ، قد أورث اضطرابا في المعادلة واختلالا في التوازن بين جناحي مؤسسة الحكم ، الديني والزمني ، أو بين العقيدة والنظام •

•••واذا كنت قد توصلت في هذا الكتاب عن « التيارات السياسية في القرن الأول » الى تحقيق بعض ما أصبو اليه من التماس للحقيقـة التاريخية ، فأن ذلك هو الهدف في ذاته• فقد حاولت الابتعاد ما استطعت عن المنهج التقليدي ، دون أن أكون أسيرا في طروحاتي لنظرية محـددة أو حكم مسبق أو ذهنية خاصة • وكان رائدي أن أعيش اجواء الحادثة التي اكتب ، بعيدا عن الانفعال أو التأثر بخلفيـة ما ، سياسية كانـت أم انتمائية • والمؤرخ في النتيجة هو جزء من مجتمعه الكبير ، يتوجه اليه لغة ونهجا ومفهوما ، وليس بأفكار العصر الذي يؤرخ احداثه الغابرة •

بيروت في ١٩-١-١٩٧٩

أ•ب

القِسمُ الأَوَّل

الدولـه الراشديـه

- مؤتمر السقيفة والبداية القلقة
- الانتصار على المحنة
- السياسة التوسعية
- مؤسسة الدولة في عهد عمر
- المنعطف الخطير
- الحرب الاهلية

— ١ —

مؤتمر السقيفه والبدايه القلقه

كان مؤتمر السقيفة الذي دعا اليه مسلمو المدينة (الأنصار) ، المبادرة الأولى التي وضعت خلافة الرسول موضع التداول . فمن هناك تجاهرت الأصوات بما كان مكبوتا وتناقلت الألسن ما كان همسا حتى ذلك الحين . ولم يكن تكتل الأنصار ، المبادر الى طرح مشكلة الحكم ، قادرا على أن يكون سيد الموقف وأن يمارس لعبة الذكاء المطلوبة [١] . فقد كان تجمعا يفتقد الى الانسجام والى الزعامة .. وكلتاهما من ركائز الطموح الى السلطة ومن شروطها المبدأية . كذلك لم يكن سعد بن عبادة الخزرجي ، المسن والمريض [٢] في حجم المنصب الكبير ، كما أن زعامته كانت تواجه المنافسة ، سواء من قبيلة الأوس (أسيد بن حضير وعويم بن ساعده) أو من قبيلة الخزرج نفسها (بشير بن سعد الأنصاري) [٣] . فالزعامة كانت غائبة عن تكتل الأنصار ، المطالب بأن

---

(١) راجع كتابنا (التوابون) ص ١٦ — ١٨ . الطبعة الثانية . دار التعارف ، بيروت ١٩٧٨ .

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٥٨ . المطبعة الازهرية ، القاهرة ١٣٠١ .

(٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٣ . ص ٢٠٩ . مكتبة خياط ، بيروت .

تؤول اليه السلطة ، وحجته البديهية ذلك الموقف المصيري الذي سجلته القبيلتان (الأوس والخزرج) الى جانب الرسول ، في وقت نبذه حتـى الأقربون . فقد كان مستبعدا أن يصل الأنصار الى هذا الحد من الجدية في مطالبتهم بالحكم وهم فاقدون معظم شروطه . ولعل موقفهم هذا كان أقرب الى المناورة ، وتلويحا للمهاجرين بأهمية الحجم الذي ينبغـي أن يكون لهم في أية تطورات مستجدة ، خاصة وأن الأنصار أثناء وبعـد المؤتمر ، كانوا أقرب الى الاتجاه الذي تزعمه علي بصورة غير مباشرة [1].

غير أن الأنصار قدّموا بدون قصد خدمة كبرى للاتجاه الوسطـي المعتدل حينذاك . وكان هذا الاخير الأقدر على التحرك ، بما يملكه من رصيد قوي وتراث نضالي مرموق في الدولة الجديدة ، فضلا عن التقدير لزعامته من كافة التيارات . فهو يمثـل اتجاهاً معتدلا لا يغضب التيـار الاجتماعي ــ اذا جاز لنا التعبير ــ الممثل بعلي وأصحابه المتشددين حتى التصلب في متابعة النهج الذي بدأه الرسول ، ولا يثير كذلك مخـاوف المحافظين أو ما يعرف بالتيار التقليدي الارستقراطي ، وهو مـن بقايـا « حلف المطيبين » صاحب النفوذ الأقوى قبيل الاسلام . وهذا الأخير ، من موقع الهزيمة في المجتمع الجديد ، لم يكن قادرا على المشاركة المباشرة في حلبة التنافس على الحكم . فكان من البدبهي أن يتبنى المرشح الأوفر نصيبا ، بما ينسجم كحد أدنى واستمرارية مصالحه ، أو انقاذهـا مـن الدمار .

وهكذا تبلورت اللوحة السياسية في (المدينة) حينذاك على الشكل التالي :

---

(١) « قـالت الانصار أو بعض الانصار لا نبايـع عليـا » الطبـري ج ٣ . ص ١٩٨ .

١ ــ التيار التقليدي الارستقراطي ، وهو في أساس تكوينه عبارة عن تحالفات مصلحية من كبار التجار والأغنياء والصيارفة ، الذين سيطروا على الاقتصاد المكي قبيل الأسلام . وكان أبو سفيان واجهة هذا التحالف وممثل الارستقراطية المهزومة من قريش وثقيف . ولقد استطاع بما لديه من خبرة واسعة ، أن ينجح في ركوب الموجه وأن يتسلل الى مواقع السلطة بعد وقت غير بعيد .

٢ ــ التيار الاجتماعي المتصلب الذي يجسّد النزعة الجماعية في الاسلام[١]أي بمعنى آخر ، المعبر عن أفكار الفئة المتشددة ، والممثلة من حيث المصالح بالفئات الشعبية والمحدودة الدخل ، وهي المستفيدة في المجتمع الجديد ، حيث تحسنت أوضاعها المعيشية والاجتماعية بشكل جذري . وكان الممثل لهذا التيار بصورة عفوية علي بن أبي طالب ، وهو مع أبي بكر رائد النخبة المناضلة تحت لواء الدين الجديد ، والشخصية التي اجتمعت فيها مثالية المبدأ مع الشدة في الممارسة . ولقد ضم هذا التكتل اضافة الى علي وأسرته الهاشمية ، مجموعة نخبوية أخرى ، كانت مقربة من الرسول واحتلت مكانها المرتفع في تاريخ الدعوة الاسلامية ، من أمثال : سلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر والمقداد بن عمرو فضلا عن الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله [١] . ولا يخفى ما كان لهذه الفئة من ثقل معنوي في عاصمة الأسلام ، وفي مسار التطورات السياسية على أرضها في ذلك الحين . ولنا أن نعرف حجم هذا التكتل وما يمثله ، من خلال الامكانات التي توفرت له من أجل

---

(١) أحمد عباس صالح : اليمين واليسار في الاسلام ص ٧ ــ ٨ . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ١٩٧٣ .

(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٢٥ . دار صادر بيروت ١٩٦٠ .

التحرك والسيطـرة على الحكم • وهذا الموقـع لم يخف على تكتـل الأرستقراطيين ، الذي لجأ أولا الى تأييده لاعتقاده أن الورقة الرابحة في يـده [1] •

٣ ــ تكتل الوسط ، الذي يؤلف شخصيات قيادية (أبو بكر ، عمر بن الخطاب ، ابو عبيدة عامر بن الجراح) ساهمت بأدوار مؤثـرة فـي نضالات الدعوة الأسلامية ، خاصة أبي بكر أحد اسبق المؤمنين بها • وكان عمر ، الشريان الرئيسي لهذا التكتل الذي بقي أقرب الى هذا الحجم منه الى التيار ، واليه يعود الفضل في استرداد المبادرة مـن جماعة الأنصار وترشيح أبي بكر للخلافة • وتجدر الاشارة الى أن هذا التكتل وهو في الحكم ، اتجه بصورة عفوية نحو التيار الاجتماعي ، فتمازجت افكارهما في اطار هدف مشترك ورؤية سياسية موحدة • وهذا في الحقيقة مخالف للمعادلة المعروفة ، حيث يكون التحول عادة ، لا سيما من موقع السلطة ، نحو الاتجاه المحافظ أو التقليدي •

هذه هي اللوحة السياسية في (المدينة) عشية وفـاة الرسول •• فهـنالك تياران وتكتل آخر ، احتدم التنافس بينها خفيـة وبشيء مـن الحذر • ولقد أغفلنا دور الأنصار من توزيعنا للقوى السياسية الفاعلة ، حيث كانوا مجرد تجمع عابر ، اقتصر تأثيره على تفجير المشكلة ونقلهـا من الخفاء الى وضح النهار • وكانت الفرصة مشرعة أبوابها أمام التيار الاجتماعي للسيطرة على الحكم ، وذلك بالقليل من الجهد ومن المبادرة• غير أن التردد الذي رافق تصرفات القيادة واحجامها عن التحرك ، فـي

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٢٦ •

وقت ربما كان في رأيها غير مناسب ، أضاع من يدها الفرصة التاريخية. ولعل موقفها كان مبنيا على قناعات محددة وعلى تقدير خاص ، بأن الطريق الى السلطة ، معبدة ومستقيمة .

وكان تكتل الوسط يدرك جيدا الأسباب المختفية وراء تردد القيادة الممثلة للتيار الأجتماعي ، ويعي بعمق أبعاد الفراغ المستجد حينذاك في الحكم . فكان عليه أن يدخل الى السلطة من هذا الباب ، وأن يقفز فوق التردد الجاثم على مواقف التكتل المنافس . وجاءت البادرة الذكية والمبتكرة التي حملها عمر بن الخطاب الى مؤتمر الأنصار في السقيفة، حيث اصابت من تحالفهم المهزوز مقتلا [١] ، ودفعتهم الى التراجع ومن ثم الى الانسحاب من حلبة المنافسة . ولقد عبر عن ذلك أحد زعمائهم (بشير بن سعد ، الرجل الثاني بين الخزرج) ، معلنا انفراط العقد في مؤتمر الأنصار . فسقطت الاقنعة عن الوجوه، واذا هي متنافرة متخاصمة، أضعف من أن تتصدى لمعركة في مستوى الخلافة، فكانت الكلمة الاخيرة التي أنهت الجدل ووضعت حدا للمناورة الفاشلة « يا معشر الأنصار انا والله وان كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في الدين ، ما أردنا به الا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا . فما ينبغي أن تستطيل على الناس بذلك ولا نبتغي به الدنيا ، الا أن محمدا صلى الله عليه وسلم من قريش وقومه أولى به ، وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم » [٢] .

ومن الواضح ان الدور الذي قام به عمر في تفشيل مؤتمر الانصار، أعطى لشخصيته ذلك البعد القيادي، حيث تجلت فيه وقتذاك زعامة

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٥٩ — ١٦٠ .
(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٥٩ .

سياسية غير عادية • لقد كانت مبادرة خطيرة تلك التي اتقنها عمر في مجمع السقيفة ، اذ ادرك أن السرعة هي الحليف الاكثر اهمية في تحقيق الهدف • فما بين براعة الأسلوب وشكيمة القائد ، نجح في تهيئة الأجواء لأبي بكر ، زعيم تكتل الوسط المتنور ليكون أول خليفة في الاسلام ، دون أن يعبأ بتردده واستنكافه أول الأمر [1] • كذلك فأن خطبة أبي بكر [2] في السقيفة ، كان لها وقعها المؤثر في نفوس المجتمعين ، حيث ركز على أهمية الدور الذي قام به المهاجرون في الاسلام ومناصرتهم للرسول في الأيام الصعبة « أنهم أول من عبدالله في هذه الأرض وآمن بالله والرسول » ، دون أن يتجاهل دور الأنصار في تثبيت جذور الدعوة ونقلها الى الاطار التنظيمي ، بوضع اسس الدولة الاسلامية الاولى في مدينة الأنصار في يثرب •

انفض المؤتمرون وقد حسم الأمر لكبير التكتل الوسطي ابي بكر،

---

(١) والطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٣ . ص ١٩٩ ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٥٨ .

(٢) ان الله قد بعث فينا رسولا شهيدا على امته ليعبدوه ويوحدوه وهم يعبدون من دونه الهة شتى من حجر وخشب . فعظم على العرب ان يتركوا دين آبائهم، فخص الله المهاجرين الاولين من قومهبتصديقه والمواساة له والصبر معه على شدة اذى قولهم وتكذيبهم اياه وكل الناس لهم مخالف زار عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنى الناس لهم . فهم أول من عبد الله في هذه الارض وآمن بالله والرسول وهم أولياؤه وعشيرته واحق الناس بهذا الامر من بعده لا ينازعهم الا ظالم . وانتم يا معشر الانصار من لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم في الاسلام رضيكم الله وجعل اليكم هجرته فليس بعد المهاجرين الاولين عندنا بمنزلتكم ، فنحن الامراء وانتم الوزراء لا تفاوتون بمشورة ولا تقضى دونكم الامور . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٥٩ .

الرجل الاكثر قبولا والأقل اثارة للجدل • فقد كانت المبادرة سريعة وجريئة ، بحيث أنها أربكت جماعة الانصار وافشلت مخططهم الساذج للسيطرة على الحكم ، الذي لم يكن في الحقيقة سوى خدمة لتكتل الوسط ، المستفيد الأول من المؤتمر •

لقد اختلف المؤرخون في تقويم الطريقة التي جرى فيها اختيار الخليفة الاول في الاسلام • فهى برأي التقليديين : احدى الفلتات في التاريخ ، حيث الصدفة والمناسبة ، لعبتا دور الحليف القوي • وفي رأي المعاصرين ان ما جرى في السقيفة لم يأخذ بعده الجدي الا مع تحول القرار الى أمر واقع (1) • فالعملية اذن ـ حسب الروايات التاريخية المتعددة ـ كانت فى ذاتها اقرب الى الانقلاب السياسي منها الى اجراء انتخابي، كما يزعم المتمسكون بنظرية الشورى ، على أساس ان طرح البيعة لابى بكر فى السقيفة، جاء متوافقا والمؤشرات الواردة في بعض الآيات الكريمة (2)• والحقيقة ان الظروف التي اسفرت عنها هذه البيعة ، لم تكن متلائمة وتقرير مسألة مصيرية كالخلافة ، خاصة من حيث الممارسات التي استهدفت تطويع الانصار ، أصحاب المبادرة ، الذين يتحملون بشكل مباشر مسؤولية النتائج الاخيرة للمؤتمر • فضلا عن ذلك فأن قرار البيعة، تجاهل عمدا رأي فئة كان لها نضالها التاريخي في الاسلام ، وكانت أيضا على صلة وثيقة بالرسول ، فغاب صوتها عن السقيفة •

وهكذا فان اصعب الحالات قد تنتهي الى حل مفاجيء وسريع ، اذا ما توفرت المعطيات او بعضها لذلك • وخلافة ابي بكر التي اثارت من

---

(1) بيضون ـ زكار : تاريخ العرب السياسي ص ٥٣ ـ ٥٤ . دار الفكر ، بيروت ١٩٧٤ .

(2) (وامرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) . سورة الشورى الآية ٣٨ . المعجم المفهرس ص ٧٩ دار ومطابع الشعب . القاهرة .

الجدل ما لم تصل اليه قضية في التاريخ الاسلامي، ربما انطبق عليها هذا الوصف • غير ان النتائج الاولية ، لا يمكن ان تضع حكما للمستقبل • فقد تكون اداة موقوتة للتفجير اذا مافقدت توازنها الدقيق، الضامن الوحيد لاستمرارها ونجاحها • ولعل الاختلال الذي احدثته سياسة الخليفة الراشدي عثمان في مؤسسة الحكم ، كان احدى محصلات ذلك القرار غير الاجماعي الذي اتخذ في السقيفة • واذا استطاع ابو بكر ، الذي كان المسؤول عن العدل في مجتمع ما قبيل الاسلام ، كذلك عمر ، الدبلوماسي [١] القديم والاداري الصلب ، ان ان يقودا السفينة بحذق الى شاطيء الامان، فان خليفتهما المسن والمرتهن لعائلته الارستقراطية ، الممثلة لمصالح كبار التجار والاغنياء ، كان غير قادر على سد الثغرات التي اخذت في الاتساع ، مما جرّ الى تلك النهاية المأساوية للخليفة وللمؤسسة التي يحكم في نفس الوقت •

وقبل ان نطوي صفحة السقيفة ، لابد من تسجيل بعض الملاحظات حول نجاح التكتل الوسطي في استلام الحكم، دون بقية التكتلات الاخرى •

الملاحظة الاولى : السرعة في التحرك والاتفاق على مرشح واحد، كان حائزا على تأييد التيارات المختلفة • فأبو بكر كان صاحب شخصية هادئة ومعتدلة وأحد المشاركين الكبار الأوائل في النضال المستميت، الذي قاده الرسول ضد الوثنية والتخلف والفساد في شبه الجزيرة •

---

(١) كانت عشيرة (تيم) التي يتزعمها ابو بكر مسؤولة عن الاشناق، أي الديات والغرم . كما كانت (عدي) عشيرة عمر بن الخطاب مسؤولة عن السفارة . ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣٢٥ ــ ٢٣٦ . تحقيق: محمد سعيد العريان ، دار الفكر بيروت .

الملاحظة الثانية: على عكس التكتل الوسطي، كان التيار الاجتماعي بطيئا في تحركه السياسي وفي طرحه لمشكلة الحكم • ولم يكن ذلك من باب الزهد أو العزوف عن السلطة ؛ بل كانت لديه التصورات المستقبلية للحكم عبر برنامج خاص وطروحات ؛ يرى انه الأقدر على تحقيقها بعد الرسول • ولكن المشكلة كانت في التوقيت ، فتردد في اثارة هذه المسألة عبر ظروف محرجة ؛ اول ما تصيب قياداته المقربة من الرسول • ومن جهة اخرى فان الانصار ؛ على غير تخطيط ساهموا بمؤتمرهم السابق الذكر، في انفلات الموقف من قبضة هذا التيار القوي ، مقدّمين خدمة كبيرة للتكتل الوسطي • فكان التردد والاحجام عن المشاركة عمليا في معركة الخلافة في السقيفة ، مبعثة ايضا الشعور بالقوة وبالثقة بأن هذا التيار هو الذي سيسود بعد وفاة الرسول ، وان ما يجري من تحركات في هذا الاتجاه لن يكون برأيهم اكثر من محاولات سطحية وعابرة •

الملاحظة الثالثة : الرضا والابتهاج اللذان قابل بهما التيار التقليدي ـ وان بصورة غير معلنة ـ تنائج السقيفة ، مما اعطى للخليفة المسمى دعما اضافيا لتثبيت اقدامه في السلطة ، دون متاعب ذات شأن• اذ ادرك هذا التيار وهو لا يزال حينذاك محتفظا بمواقع سياسية على قدر من التأثير ، ان تأمين مصالحه او احيائها ، تستوجب في المقام الاول منع التيار الاجتماعي القوي من التحرك نحو السلطة [1] •

---

(١) لا يتنافى هذا الطرح مع الرواية التي تشير الى تأييد ابي سفيان لعلي بقوله : « ابسط يدك ابايعك فوالله لو شئت لاملأنها عليه ـ اي أبي بكر ـ خيلا ورجالا » اذ ان ابا سفيان كان حريصا على تأمين كافة الطرق واستخدامها في سبيل مصالحه والاتجاه الذي يمثل. حتى أن هذا الحماس المفاجيء لمبايعة علي لم يخدع هذا الاخير الذي اكتشف ابعاده بقوله: «والله انك ما أردت بهذا الا الفتنة ، وانك والله طالما بغيت للاسلام شرا » ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ • ص ١٥٧ •

والحقيقة فأن العلاقة لم تكن غير ودية بين الخليفة الأول وبين أبي سفيان زعيم الاتجاه التقليدي • فعلى العكس من ذلك ، اندفع هذا الأخير بكل قوته الى تأييد ودعم الخليفة المبايع له ، الذي قابله أيضا بمودة ظاهرة ، واعاد اليه اعتباره أو البعض منه « ان الله قد رفع بالاسلام قوما وأذل به آخرين » [1] • وهذه العلاقة تبدو كأستمرار للسياسة التي وضع لبنتها الرسول ، لاجتذاب اعداء الاسلام في مكة الى جانبه ، في محاولة لأنتزاع الحقد القبلي من نفوسهم ، وتأليف قلوبهم مع المجتمع الجديد •

الملاحظة الرابعة : من البديهي جدا ، أن عملية السباق الى الحكم تواكبها ظروف ، ربما تكون اكثر تحالفا مع المعتدلين • فهؤلاء غالبا ما يتصدرون السلطة عبر أجواء هادئة ، وبعيدة عن الاثارة •

على أنه رغم نظرة التيار التقليدي الى أبي بكر ، بأنه الشخصية الاقل خطورة في ذلك الوقت ، فهو ليس بالضرورة قريبا بأفكاره وممارساته من التقليديين ، أو منسجما حتى بصورة غير مباشرة مع الحد الأدنى من مصالحهم الخاصة • وهو كذلك لم يشارك سابقا ، لا بالانتماء ولا بالاختيار في تحالف الارستقراطيين الوثني المعروف بحلف (المطيبين)• أي أنه لم يكن من فريق الثروة العظمى في مكة ، الذي قاده الامويون عشية الدعوة• ومن ناحية أخرى فأن موقعه خارج دائرة الحلف الاستغلالي المذكور ، وكونه أحد أقطاب (حلف الفضول) [2] الذي

---

(١) من قول ابي بكر لابي سفيان حسب رواية المسعودي . مروج الذهب ج ٢ ، ص ٢٩٩ .

(٢) كان حلف الفضول انقلابا على حلف المطيبين ، وهو بدوافعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية تطلع الى التقليل من سيطرة واستغلال الحلف الاخير ، ومساعدة الفقراء والمعدمين والضعفاء بنصرتهم من القوي الظالم ، فضلا عن مطالبته باعادة النظر في التجارة المكية ←

قاده صغار التجار ضد (حلف المطيبين) •• ومن ثم مبادرته السريعة في الأنضمام الى دعوة الاسلام والثقة التي حازها لدى الرسول ، كل ذلك جعله أقرب عضويا الى التيار الاجتماعي منه الى التيار الآخر •

ولعل خلافة أبي بكر ، كان مقدرا لها أن تأخذ تقويما أكثر دقة في هذا الاتجاه ، لو طال بها الزمن وتبلورت معها المضامين الاجتماعية والاقتصادية ، حيث كان من العسير أن تأخذ بعدها الصحيح خلال عامين من التحديات في شبه الجزيرة وخارجها • بيد أن ذلك سيأخذ مساره الطبيعي في وقت لاحق ، وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، الذي لم يتردد ، خاصة في النصف الثاني من ولايته ، في ضرب مصالح الارستقراطية الاسلامية الجديدة ، التي عبثا ما حاولت في عهده التسلل الى مراكز الحكم • وهذا ما جعل المجابهة سافرة بين الخليفة وبين هذه القوى ، انتهت باغتياله ، ربما بتدبير محكم ومدروس من هذه الأخيرة•

وتنظيمها وفق اسس جديدة . وقد انضم الى هذا الحلف كل من بني هاشم واسد وزهر فضلا عن تيم عشيرة أبي بكر . وكان الرسول قبيل الدعوة قد شهد ولادة حلف الفضول وقال فيه كلمته المشهورة : « لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ، ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعيت به في الاسلام لاجبت » ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨ •

— ٢ —

الانتصار على المحنة

الحدثان البارزان في خلافة ابي بكر القصيرة همـا : الردّة على المستوى المحلي ، والفتوحات خارج الاطار الجغرافي لشبه الجزيـرة • وكان لكل من الحدثين تأثيره العميق والجذري على مستقبل الدولـة العربية الاسلامية ، التي أخذت شكلها التوسعي وبعدها الاستراتيجـي منذ ذلك الحين •

حركة الردة :

لقد كانت هذه الحركة أول صدمة للمجتمع الاسلامي الجديـد ، الذي أقـام صرحه الرسول ، تصيبه بالشرخ والتمزق •• هذا المجتمـع الموحد في أطار الأسلام ، كسابقة لم يشهد مثلها تاريخ العرب • كمـا كانت المجابهة الأولى للخليفة ، حيث وضعت كفاءته القيادية أمام الامتحان الصعب • والحقيقة أن ابا بكر تصدّى بروح شجاعة ومسؤولية رصينـة لتلك المحنة ، حاصرا تنائجها بالسرعة القصوى • فالاضطراب الذي لازم مواقف القبائل العربية ، بين متنبيء ومرتـد وساخط ، وحّد مشاعـر التيارات المختلفة في (المدينة) • فالتفّت حول ابي بكر ، ناسية همومها في الحكم ، لتتفرغ الى الهمّ الأكبر والأخطر ، الذي استهدف جوهـر العقيدة •

ذلك ان وفاة الرسول أو الشعور باقتراب رحيله ، لم يترك انعكاسه على الواقع السياسي في (المدينة) وعلى الاحزاب فيها ، وعلاقاتها ببعضها ، وانما كان لوفاته التأثير العكسي خارج العاصمة ، حيث القبائل أو معظمها شعر بنوع من التحرر والانفلات من التزاماته المادية والمعنوية ازاء حكومة الرسول • فأرادت هذه القبائل قطع ما وجدت فيه تبعية سياسية ، وامتنعت عن تأدية الزكاة [1] ، التي رأت فيها اتاوة يدفعها الضعيف المهزوم للقوي المنتصر • ومن البديهي جدا أن القبائل الحريصة على تقاليدها الاستقلالية ، لم تكن في غالبيتها متجاوبة مع الاسلام تجاوبا مخلصا وصادقا • فقد مضى وقت قصير وهي ترقب الصراع الضاري بين مكة الوثنية ويثرب الاسلامية ، لتقرر موقفها النهائي على ضوء النتائج الاخيرة لهذا الصراع • ومعنى ذلك أن العقيدة الجديدة ، لم تكن قد تجذرت بعد في عمق القبائل ، لتحدث التحول الايماني الراسخ لديها ، شأن جماعات الأنصار والمهاجرين • فهي لم تأخذ الأسلام عن عقيدة ، وانما رضخت له بدافع الاستسلام للامر الواقع [2] •

ويبدو أن أخبار التطورات السياسية في (المدينة) ، لا سيما البيعة لأبي بكر لم تأخذ طابعها الاجماعي في أوساط القبائل • فكان لبعضها موقف لا ينسجم تماما مع الطريقة التي تم بها اختيار الخليفة ، دون أن

---

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٢٨ •

(٢) لقد الح القرآن الكريم الى هذا الموقف الذي ساد شبه الجزيرة بعيد وفاة الرسول بقوله :

(قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من اعمالكم شيئا ان الله غفور رحيم) سورة الحجرات . الآية ١٣ •

يكون لها رأي في هذا الاختيار • ومن خلال هذه الرؤية، فان لحركة الردة اكثر من خلفية ، لا تبدو بالضرورة متجانسة ، ولكنها تضافرت مع بعضها وأدت الى تفجير الوضع وحدوث ما حدث • وهذا يعني ان الردة (الكلمة المتداولة) ، لا تأخذ بعدها الشمولي لدى جميع القبائل الرافضة لسيادة (المدينة) • لان بعضا منها كانت تحركه دوافع سياسية أو اقتصادية لم تصب مطلقا جوهر العقيدة • ولكن غالبية القبائل قد ثارت على الارجح تحت ضغط عوامل ايمانية ، موصولة في الوقت نفسه وبشكل باطني بعوامل سياسية ، تمثلت فيما عرف بحركة الردة أو الارتداد عن الاسلام•

ومن هذا المنطلق يمكننا تقويم هذه الحركة ، بارجاعها الى أسباب ثلاثة :

١ ـ الاعتراض على نتائج السقيفة ، دون أن يكون لاعتراضها صلة بالعقيدة •

٢ ـ رفض الزكاة واعتبارها نوعا من التبعية والتقييد لحرية واستقلال هذه القبائل •

٣ ـ التنبؤ ، حين اعتقد بعض الزعماء القبليين أن ادعاء النبوة وسيلة الى الحكم والسلطان •

هذه أهم الاسباب التي كانت وراء ثورة القبائل في شبه الجزيرة العربية التي أعلنت انفصالها عن نظام (المدينة) مدفوعة باعتبارات متباينة • وهي مهمة على جانب كبير من الخطورة كانت في انتظار الخليفة الأول ، الذي عمل بسرعة على مجابهة هذا التطورات قبل انفلات زمام الأمر من يده • والحقيقة أن أبا بكر اثبت في مواجهة هذا التحدي، أنه

رجل الدولة القوي وصاحب القرار المسؤول . فانتقل فور بلوغه أنباء تمرد القبائل الى (ذي القصة) [1] حيث اتخذها مركزا للعمليات الحربية. ومن هناك دفع كبار القادة الذين هرعوا الى المعسكر في اتجاهات متعددة، ومعهم أوامر مشددة، بقمع ثورة القبائل دون تمييز بين دافع وآخر . وكانت لدى الخليفة بدون ريب المسوغات الكافية لهذا القرار ، اذ وجد في تمرد القبائل هذا ، ضربة للاسلام كعقيدة اكثر منه كنظام . ولذلك لم يحجم عن أخذها بالشدة ، واتهام جميع الأطراف بالتآمر على العقيدة.

ولم تكن ادارة المدينة تعاني رغم عزلتها حينذاك أية مضاعفات في الداخل . فأزمة الحكم التي راهنت عليها القبائل مرت بهدوء وتجاوزتها الأطراف بروح من المسؤولية . اما نقطة القوة في نظام (المدينة) التي استخف بها المتمردون ، فكانت تتجلى في الجهاز العسكري المتماسك ، وهو أحد انجازات دولة الرسول ، حيث جمع بين مهارة القيادة وبراعة التنظيم وخبرة القتال ، مما جعله متفوقا على أية قوة عسكرية أخرى في شبه الجزيرة .

ويبدو أن وجود الخليفة خارج (المدينة) ، شجع بعض المتمردين على شن هجمات استهدفت معسكره في (ذي القصة) ، وهم من قبائل عبس وذبيان . فأنزل بهم ضربة قوية ، دفعت من بقي منهم الى التراجع نحو (عين بزاخة) ، حيث قبيلة أسد المتمردة أيضا بزعامة متنبيء هو طليحة بن خويلد الأسدي [1] ، الذي كان قد أعلن موقفه السلبي من

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٧ ص ١١٤ .

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٦٧ .

(المدينة) في أواخر أيام الرسول • ولقد أعطى هذا الانتصار السريع ثقة جديدة بالقوة الأسلامية ، التي أصبحت جاهزة لتنفيذ مطاردتها للمتمردين ، وكان على رأسها أحدى عشر قائدا ــ حسب الرواية التاريخية • وتصدر هؤلاء خالد بن الوليد الذي أظهرته الحرب الاسلامية ــ الوثنية مقاتلا محترفا ، وقد مارس عمليا مهام القائد العام في حروب الردة [٢] •

ولقد استطاع خالد بفضل الخطط الحربية المبتكرة ، والمداهمات الصاعقة التي ادارها ضد قبائل المتمردين ، أن يحقق النجاح المطلوب في مهمته الصعبة • ففي أقل من عام ، كانت لديه القدرة لقمع حركة الردة وتصفية جيوب التمرد في كافة شبه الجزيرة • فبعد أن قضى في معركة عنيفة على طليحة بن خويلد في (عين بزاخة) [١] ، تابع تحركه نحو بني تميم الى الشرق من (المدينة) • وكان على رأس المتمردين فيها زعيم بني حنظلة مالك بن نويرة ، المعتمد من ادارة (المدينة) على جباية الزكاة • ولعل موقف هذا الرجل ، ينفرد في جوهره عن مواقف الآخرين في الثورة على سيادة (المدينة) • اذ أننا لا نلحظ أية اشارةفي روايات المؤرخين تطعن بسلوكه الأيماني ، حتى من باب التشكيك • وعلى الأرجح

---

(١) برز الى جانب خالد عدد من القواد الاكفياء ، من امثال عكرمة بن أبي جهل، شرحبيل بن حسنه، عمرو بن العاص، بالاضافة الى عدد اخر غير معروف، كخالد بن سعيد وحذيفة بن محصن ، وعرقجة بن هرثمه ، ومعن بن حاجز ، وسويد بن مقرن والعلاء بن عماد الحضرمي وعدي بن حاتم . ابن الاثير ج ٢ ، ص ١٦٧ .

(٢) هرب طليحة الى الشام ، ثم عاد عن ارتداده وقاتل مع العرب في معارك الفتوح لا سيما في العراق وفارس . اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٢٩ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ، ص ١٦٨ .

أن الخلفيات التي تنازعته حينذاك ، انما هي غير عقائدية تتصل بالتطورات السياسية الأخيرة في العاصمة الاسلامية .

وكان توقف مالك عن دفع الزكاة ، ربما أحد مظاهر الاحتجاج على موقفه من خلافة ابي بكر . كما أن علاقته بـ (سجاح) ـــ المرأة التميمية القادمة من ديار بني تغلب في الجزيرة [1] ، التي جرفتها أيضا لوثـــة الزعامة ـــ ما يشجع على الاعتقاد بهذا الرأي ، خاصة وأن مالكـــا رفض عروضها للتحالف ضد (المدينة) . غيـــر أن هذا الموقف الرصين ، لـــم يعفه من دفع الثمن باهظا ، دون الالتفات الى العوامل التي قـــد تسقط العقاب أو بعضا منه ازاء مالك وجماعته . خاصة وأن هؤلاء كانوا اقرب الى الاحتجاج في موقفهم منه الى الثورة أو الارتداد . غير أن هـــذه الحادثة لم تمر دون ترك بصماتها على شخصية خالد ، الذي وجد مـــن انتقده بشدة على هذا التصرف ، سواء من جانب الخليفة ، أم من جانب عمر بن الخطاب الذي اتهم خالد بالقضاء على رجل لم يتخل عن عقيدته، والزواج من أرملته[2] ، مما ألصق بخالد تهمة القتل عمدا لاغراض خاصة. ولقد ظلت هذه الحادثة من الثغرات في تاريخ هذا القائد الشهير ، وبقيت أخبارها في التداول . وقيل أن الخليفة عمر ، بعد أن آلت له مقاليـــد السلطة ، كان لا يزال تحت تأثير الغضب من سلوك قائده المظفر حينذاك في حروب الشام ، فأمر بعزله . غير أن ذلك ربما خضع للاجتهاد ، اذ أن أسبابا أكثر وجاهة يعتقد أنها كانت وراء هذا القرار ، خاصة وأن حالات مشابهة رافقته ازاء آخرين من القادة في ذلك الوقت .

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٧١ ـــ ١٧٢ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٧٤ . اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٣٢ ج ١ ص ١٣١ .

وكانت المعركة الحاسمة في حروب الردة التي أعادت الموازين الى حجمها في شبه الجزيرة ، هي معركة (عقرباء) في طرف اليمامة ، حيث تمرد بنو حنيفة بزعامةرجل اعتبر من أشهر المتنبئين وأخطرهم، هو مسيلمة الكذاب (١) (الاسم الغالب عليه في الروايات التاريخية) . وكان مسيلمة دائم التجوال في الأسواق والطرقات ، يدعو الناس الى تأييده والاعتقاد بنبوته . ويبدو أنه كان على قدر من قوة البيان والشخصية ، اذ ترك تأثيرا ملموسا في أوساط بني حنيفة والقبائل المجاورة . ولقد جاء انتصاره على عكرمة بن أبي جهل ـ القائد الذي عهد اليه بالقضاء على تمرد بني حنيفة ـ ليعطيه ثقة كبيرة بقوته العسكرية ، ولكن خالدا ما لبث أن تحول بالجيش الرئيسي الى اليمامة ، وخاض أعنف حرب وأشدها شراسة ضد مسيلمة ، وذلك في (عقرباء) أو (حديقة الموت) (٢) كما عرفت في تاريخ الردة ، نظرا للعدد الهائل من القتلى الذين سقطوا في هذه المعركة . ولقد كان لهذه الحادثة التي أنهت اسطورة مسيلمة تأثيرا عميقا على حركة الردة ، حيث أنها أوقعت الرعب في نفوس بقية المتمردين في شبه الجزيرة ، الى درجة أن معظمهم أخذ في التراجع والاستسلام . كما أظهرت (عقرباء) الألمعية القيادية التي اتصف بها خالد بن الوليد ، والتي ستتجلى خصوصا في معارك الفتوح ، حيث ارتفع هذا القائد الى مصاف عباقرة الحرب في التاريخ .

بعد (حديقة الموت) ، لم يبق امام خالد سوى المضي الى البحرين، لأنقاذ العلاء بن عماد الحضرمي ، أحد القادة في حرب الردة ، وكان قد حوصر في (هجر) على يد حركة محلية بزعامة (الحطم) (٣) . ولكن ثورة

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٧٤ ــ ١٧٦ .
(٢) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٣ ص ٢٥٠ ــ ٢٥١ .
(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٥٤ ــ ٢٥٥ .

البحرين لم تكن الى هذا الحد من الخطورة، خاصة وأن قبيلة عبد القيس[1] الكبيرة التي اتخذت مركزها في هذه المنطقة لم تماش المتمردين بعيدا في معارضة (المدينة) • فكانت مهمة غير عسيرة ، انجزها خالد اثر وصوله الى البحرين ، حيث أنقذ القائد المعتقل وسحق حركة التمرد فيها، وهي آخر مهماته في شبه الجزيرة في وقت لفظت ثورة القبائل انفاسها أو كادت • فغادرها خالد الى العراق بناء لأوامر الخليفة، معلنا بدء الأعمال العسكرية وراء الحدود •

وبالفعل ، لم يعد من مواقع المتمردين ما يستحق الاهتمام غير جيوب محدودة، لا سيما في الجنوب حيث ظهر في اليمن متنبيء من قبيلة (مذحج) كان قد أعلن حركته الأنفصالية منذ أيام الرسول ، وهو عبهلة بن كعب المعروف بالأسود العنسي • ولقد حظي بتأييد واسع في اليمن ، خاصة وأن حركته نحت اتجاها قوميا بتصديها للنفوذ الفارسي القوي حينذاك ، وهو من بقايا التطورات الأخيرة التي مرت بها اليمن في الفترة السابقة على الأسلام ، حيث تحولت السلطة الفعلية الى الفرس • ويبدو أن التغييرات الادارية المستجدة في شبه الجزيرة ، لم تصب كثيرا الطبقة الادارية السائدة (الأبناء) ، فظلت في مواقعها كطبقة ارستقراطية متفوقة • وكان الفرس رغم تحولهم الى الاسلام في اليمن ، يثيرون نقمة وسخط الفئات الشعبية ، مما أدى الى تكتل هذه الأخيرة وراء الأسود العنسي وانتقامها من الطبقة الحاكمة • ولكن اليمن لم يطل غيابها عن السلطة المركزية ، فقد تم تدبير اغتيال متقن للعنسي [2] وأمكن القضاء على حركته في وقت لاحق على يد عكرمة بن أبي جهل ، وكان قد اخضع قبيل ذلك حركة الأشعث بن قيس الكندي في حضرموت ، وهي

(١) الطبري ج ٣ ص ٢٥٥ .
(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٢٠ .

الأخيرة في نطاق الموجه الارتدادية التي اجتاحت شبه الجزيرة في ذلـك الحـين [1] •

ومن المؤكد أن ثورة القبائل هذه كانت أخطر مـا واجه الاسلام كعقيدة ونظام بعد وفاة الرسول • ولقد نجح خليفته أبو بكر في قمـع هذه الحركة الخطيرة ، التي كان هدفها تدمير الاسلام والقضاء علـى سيادة (المدينة) المركزية ، كما نجح في تفشيل القبائل بالعودة الـى نظامها القديم والى تطاحنها وصراعاتها التقليدية • فجاء انتصار أبي بكـر في معركة الردة، انتصارا للعقيدة وتكريسا لقيمها الأنسانية ، التـي كانت احدى الحوافز القوية لأندفاع العرب المسلمين وراء حدود شبه الجزيرة بكل ثقة وتحرر من قيود العصبية التى انهارت ، ربما الى حين ، مع انهيار التمرد وزوال المحنة •

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٤ — ١٨٦ •

ـ ٣ ـ

السياسة التوسعيـــة

قبل ان نبحث في حركة الفتوح العربية ، التي اتخذت اطارها المنظم وبعدها الاستراتيجي في عهد الخليفة الأول ، لا بد من التساؤل عن دوافع هذه الحركة المباشرة وغير المباشرة، وخلفياتها السياسية والاجتماعيــة والاقتصادية كذلك . اذ أن قضية الفتوحات أثارت جــدلا ولا تــزال ، خاصة وأن الانتصارات المذهلة التي سجلتها ، وما رافقها من انتشار واسع خلال مدة وجيزة من الوقت ، ما يجعل الباحث أمام قضية شائكة ، أقرب الى اللغز وهو يتحرى جوانبها المختلفة .

فاذا ما رجعنا الى أخبار التقليديين من مؤرخي هذه الفترة ، نلاحظ أنها تمحورت حول عامل رئيسي ، وهو العقيدة التي احدثت انقلابــا ، ليس فقط في المجتمع الذي تحوّل من الوثنية الى التوحيد ومن الاستغلال والفئوية الى العدل والمساواة . ولكن الانقلاب الأهمّ هو الذي أصاب عقول الناس ، حيث أعطيت ابعادا مختلفة وحملت مفاهيم جديدة متنورة. الا أن المؤرخ التقليدي ينساق أحيانا مع نزعته الرومانسية التي هي طابع ذلك العصر ، رغم أنها في الشرق حينذاك أقل جموحا منها في الغــرب ، حيث للغيبيات وللقوى الخارقة، فضلا عن الأساطير الدور الكبير في الذهنية العامة للمجتمع .

لقد أرجع المؤرخ الاسلامي حركة الفتوح العربية ، الى قوى الهية تدخلت لمصلحة المقاتل المؤمن ، كما تدخلت قبل ذلك في انتصار الرسول بقوته المتواضعة ضد قوى الوثنية المتفوقة في شبه الجزيرة • ولعل المدخل الى هذا التصور الذي تبناه المؤرخ التقليدي ، منبثق عن الآية الكريمة [وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون] (١) • ومعنى ذلك أن دعوة الأسلام ، لم تكن مجرد دعوة محلية لعرب شبه الجزيرة ، ولكنها حملت في الذات بعدها العالمي ، باحتوائها كافة البشر على اختلاف عروقهم ، حيث تذوب الفوارق الاجتماعية ومعها التمييز العنصري ، لأن الجميع متساوون في العقيدة وفي حق الحياة بحرية وكرامة •

ذلك هو الجانب النظري في الاتجاه التاريخي الذي يعيد الأسباب الى جوهرها الديني ، دون التعامل مع أسباب أخرى قد تكون لها مسوغاتها الموضوعية والمقبولة • أما الجانب التطبيقي ، حسب اعتقادي ، فتجسده تلك الاستجابة العفوية لدعوة الخليفة أبي بكر ، الى جماهير المقاتلين بعيد القضاء على تمرد القبائل ، دون أن يسبق ذلك ترتيب ما أو تعبئة موجهة • والحقيقة أن الباحث قد يجد بعض الغرابة في اندفاع المقاتلين الى التجمع في معسكر (المدينة) ، حيث أمرهم الخليفة ، وقد كان جلهم لأيام خلت يشهر السيف في وجه الحكم المركزي • ولكن الخيار لم يكن في متناول المسلم القادر على الحرب ، والا تعرض للشك في ولائه وأيمانه • وهاتان الكلمتان ، تتلاحم احداهما مع الاخرى بعمق وانسجام ولا يمكن الفصل بينهما بشكل أو بآخر • لقد كان قرارا سياسيا اتخذه الخليفة بالدعوة الى الجهاد ، وكانت الاستجابة في المقابل سريعة

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٧ •

وعفوية ، والقليلون جدا أدركوا مضمون القرار ومسوغاته التي كانت في ذهن السلطة المركزية •

لقد كانت دعوة للجهاد من الخليفة الى المسلمين في شبه الجزيرة، حيث أمر — حسب رواية البلاذري — «أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم»[1]• ولعل البلاذري ، يدفعنا الى أفق آخر في الاطار التقويمي لهذه الحركة، خاصة ما جاء في نهاية النص حول الاستجابة لقرار الخليفة « فسارع الناس اليه بين محتسب وطامع وأتوا المدينة من كل أوب » [2] • فهل كان صاحب « فتوح البلدان » ، الكاتب المتخصص في أخبار الفتوحات، يدرك ما يعنيه قوله، أم أنه كان مجرد اسهاب وتقويم غير دقيق؟ ذلك أن البلاذري لا يختلف عن أنداده المؤرخين في النظرة الدينية الى هذه الحركة • وكذلك نتساءل عن « الألوية الثلاثة » التي تمّ حشدها في (المدينة)، اذا كانت بكاملها من المرتزقة أو من «المحتسبين الطامعين»[3] على حد قوله ؟ وفي هذه الحالة أين يقع دور العقيدة في دعوة الخليفة ، القائمة عمليا على أحد أركان الأسلام وهو الجهاد ؟ وان كان ظاهرا أن هذا المؤرخ ، كان متأثرا الى حد ما بأجواء الموقف السلبي الذي اتخذته قبائل شبه الجزيرة من سيادة (المدينة) ، علما بأن حركة الردة لم تحركها الدوافع الدينية فقط ، وانما كانت في الكثير من جوانبها العديد ردة سياسة ، حتى في الجانب التنبؤي كما أسلفنا • واذا كان البلاذري يستثني ، كما هو ظاهر في النص ، قدماء المسلمين في مكة والطائف ، فأن عددا من المستشرقين وآخرا من الكتاب العرب المعاصرين ، كانت له

---

(١) فتوح البلدان ص ١٠٧ ليدن ١٨٦٦ •
(٢) المصدر نفسه •
(٣) المصدر نفسه •

نظره أكثر تعميما وشمولية ، فرأى في ذلك مدخلا الى تأكيد اعتقاده، بأن العامل الاقتصادي كان المحرك الأقوى لاستراتيجية الفتح عند العرب. ولقد بلغ الأمر ببعضهم الى اعتبار حركة الفتوح ، احدى الهجرات السامية المتأخرة التي اعتادت على قذفها شبه الجزيرة الجدباء الى الهلال الخصيب [١] .

واذا كان البلاذري قد شكك ــ صدفة أو عن عمد ــ في التزام القبائل بمبدأ الجهاد ، فأن المقولة التي أوردها الطبري في وقت لاحق تبدو أكثر وضوحا في ابراز البعد الاقتصادي للسياسة التوسعية . فالخطبة المنسوبة الى خالد بن الوليد أمام جنوده، قبيل أحدى المعارك ضد الفرس في العراق ــ « ولو لم يكن الا المعاش لكان الرأي أن نقارع هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولي الجوع والاقلال من تولاه ممن أثاقل عما أنتم عليه » [٢] ــ يكاد القاريء لها يعتقد بأن ثمة مجاعة قد أحاطت بشبه الجزيرة ، فدفعت بسكانها الى ركوب المغامرة طلبا للخلاص .

وعلى هذه المؤشرات وأخرى غيرها بنى عدد من المؤرخين المعاصرين رأيا جازما في تقويم حركة الفتوح ، دون أي اعتبار للعوامل الأخرى التي ساهمت بدور أو بآخر في تحريك غريزة الحرب لدى العرب المسلمين . واذا كنا لا نقلل من وجاهة الأسباب الاقتصادية التي تعتبر في مقدمة العوامل المحركة للاحداث ماضيا وحاضرا ، فأن الأصرار على

---

(١) من أبرز الذين قالوا بهذا الطرح ، المستشرق كيتاني : Caetani
Studi di Sotria Orientale P. 831 - 850
راجع كذلك روم لاندو : الاسلام والعرب ص ٥٩ .

(٢) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٤ ص ٩ .

طرح المسألة من زاوية واحدة قد يضعها أحيانا في المكان غير المناسب • فأن يقال مثلا أن دافع الفتوحات لم يكن من أجل « فرض العقيدة أو نشر الديانة الاسلامية فقط ••• وأنما كان غرضها الاستيلاء وفرض السيطرة والحصول على المغانم بالدرجة الأولى » [1] ، ففي ذلك نوع من الحكم المطلق والنظرية المسبقة ، فضلا عن افراغ الفتوحات من كافة محتوياتها الانسانية والعقائدية، بارجاعها الى أسباب قد تصلح منفردة كدافع لأحدى الغزوات القبلية ، الهادفة الى السلب أو أخضاع الخصوم • وهذا الرأي المستمد من نص البلاذري السالف الذكر ، نجد له مثيلا لدى مستشرق آخر « جولد تسيهر » حيث يقول بشيء من السخرية : « لم يكن هذا الفتح موجها نحو المثل الأعلى وحده ، لأن كنوز المدائن ودمشق والأسكندرية لم تسمح طبيعتها بايجاد ميول للزهد والتقشف » •وهو رأي يمثل عقلية استشراقية متزمتة ، انتشرت في القرن الماضي واوائل هذا القرن ، دون أن تخلو مقاصدها من خلفيات سياسية [2] •

لقد جرت حركة الفتوح فيلحظة خاصة من التاريخ، حيث التطورات لا تخضع دائما لقوانين الزمن • ذلك أن ما يكون بديهيا في عصر ما ، قد لا يكون كذلك في عصر آخر • والظروف المتزامنة ، بمناخها السياسي العام وعواملها النفسية المختلفة ، تساهم بدور مؤثر أو بشكل مساعد في تحقيق هذا الحدث أو ذاك • ومن الطبيعي أن حركة الفتوح العربية ، وهي ظاهرة خاصة في التاريخ ، أن تخلف وراءها عاصفة من الجدل ، نتيجة السرعة المذهلة التي تم فيها للعرب تحطيم أمبراطوية وتحجيم أخرى ، في نطاق الامكانات العسكرية المتواضعة لديهم في ذلك الوقت•

---

(١) حسين قاسم العزيز : البابكية ص ٥٢ •

(٢) المرجع نفسه •

I. Goldziher : le dogme et le loi de l'Islam p. 123.

واذا أردنا تحديد مسارات الباحثين حول الدوافع الأساسية لحركة الفتوح ، نجد هناك اصحاب المدرسة التقليدية ، الذين أحاطوا انتصارات العرب بشيء من الصوفية ، حيث كان المقاتل في المعركة ، وأمضى أسلحته الايمان ، والثقة بالحياة الأبدية بعد الموت • وهناك أيضا أصحاب المدرسة الاقتصادية التي تجرّد الفتوحات تقريبا من كل مضامينها• باستثناء الحاجة الـى تطوير النظم الأجتماعية وتحسـين الأوضاع المعيشية لعرب شبـه الجزيرة ، الذين اندفعوا في موجات تشبه ــ حسب زعمهم ــ الموجات السامية القديمة ، أو في غزوات كالتي ألفتها القبائل في مشاحناتها الضارية قبل الاسلام [1] •

ومع وجاهة كل من النظرتين ، فان أية واحـدة لا تصلح منفـردة لمناقشة البواعث الجدية لحركة الفتوح •• فهمـا متلازمتـان بالضرورة ومتكاملتان معا • فالعرب في شبه الجزيرة ، لا سيما الشماليين ، كانـوا عشية الدعوة وبعدهـا يتمتعون بمستوى اجتماعـي ، لم يكن في الواقع سيئا أو متدهورا • لأن مكة ــ المركز التجاري العالمي في الشرق ــ كانت قد ورثت بريق اليمن في هذا المجال • ولم تكن حملة الحبشة ــ التـي قيل أنها صادفت في العام نفسه الذي ولد فيه الرسول أو ما يعرف بعام الفيل [2] ــ وهي الحملة التي تمت بتحريض سافر مـن الامبراطوريـة البيزنطية ، سوى محاولة من هذه الاخيرة لضرب النفـوذ الاقتصادي للمدينة الحجازية ، ووضع طريق التجارة الشرقية في فلـك سيطرتهـا المباشرة •

وهكذا فأن الزعم بأن المقاتل العربي المسلم ، كان يبحث عن ضالته

---

(١) روم لاندو : الاسلام والعرب ص ٥٩ •
(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٧ •

في الحملات العسكرية وراء حدود شبه الجزيرة هربا مـن الجوع ، لا يعبر بدقة عن واقع كان يختلف تماما عن هذا التصور • كما أن الاندراج تحت لواء العقيدة وفق مخطط تبشيري للدعوة الى الاسلام ، ليس كافيا بدوره لتعبئة جماعات كان الأيمان الصحيح يعوز بعضها • ومن هنا فأن الاعتماد على دافع محدد لمناقشة حركة الفتوح يبدو عقيما ولا ينتهي الى نتائج ايجابية • لأن اكثر من عامل ساهم معا في تهيئة الاجواء المناسبة ، لتحقيق انتصارات العرب الساطعة في العراق والشام وأفريقية •

ان القضايا الحيوية في التاريخ ، سياسية كانت أم اجتماعية ، تأخذ مسارها الخلاق عبر تمازج عضوي ، بين مثالية المبدأ وبين واقعية المصلحة المشتركة • والقضية الكبرى هي التي تكون عادة في ضمير الشعب وفي عمق همومه اليومية، حيث تتحول تلقائيا الى ممارسة عملية منظمة ومبدعة، تتلاشى معها النزعة الفردية الضيقـة ، ويسود محلها الاتجاه الجماعـي الملزم لكافة الفعاليات في المجتمع الموحد • ولعل أفضل انواع العمـل الهادف ، ذلك المنبثق في اطار المؤسسة ، حيث تتوفر فيه الضمانات المثلى للنجاح •

وقد تكون العقيدة الاسلامية فريدة في اتخاذها البعد الجماهيري الواضح في العصور الوسطى ، من زاوية الالتحام مع المؤسسة الحاكمة وتغليب مصلحتها العامة على المصالح الفردية • فالمقاتل العربي ، خاصـة في تلك المرحلة المبكرة والمتوهجة من تاريخ الاسلام ، كان متجردا مـن ذاته حتى الانصهار في الجماعة • فهو مقاتل مسيّس او صاحب قضية اذا جاز لنا القول •• ولعل ذلك سر نجاحه وانتصاره • فلم يشعر انه مجند بالاكراه للمشاركة في معركة مجهولة اسبابها لديه، كما كان يحدث غالبا في الازمنة الغابرة ، بل كان على وعي من الاحداث ، ومشاركة متكافئة في اسبابها وفي نتائجها •

ويلاحظ الدكتور شكري فيصل مدى هذا الترابط والالتحام في ظل العقيدة الواحدة بحيث اصاب ذلك كل القضايا المصيرية في حياة العربي حينذاك : « ... اما العقيدة الاسلامية ، فقد كان من اثرها انها انارت بألقها كل جوانب الروح واثارت في هزتها كل اطراف النفس .. والتقى العرب ، هؤلاء المتفرقون ، على هزة تناولت عندهم النزوع والتعقل والانفعال جميعا ، فاذا هم من وحي هذه العقيدة الجديدة في يقظة متنبهة .. لم ينطووا على الاسلام انطواء ضيقا ، ولم يتناولوه من النبي او من رسله على انه شيء يحتفظ به في البيوت او في الخيام، ولم يروا فيه عقيدة ينحلون او يتباهون بها كما كان الشأن في العقائد السابقة التي تحلت بها بعض القبائل ، ولم تحس قبيلة ما او جماعة ان هذا الدين هو لها من دون الجماعات او القبائل الاخرى .. وانما كان الامر على النقيض تماما .. كان هناك نوع من مشاركة بعيدة الآماد في الايمان بهذه العقيدة بين العرب جميعا ، وكان هنالك التقاء متقارب الابعاد على الاستجابة له والاندماج فيه .. وكان هناك صقل لكل مواهب النفس ولكل قواها .. وكان وراء ذلك شعور متوثب لا يقنع بالانطواء على هذه العقيدة ولكنه يريد ان يجاوز بها هذه الحدود الضيقة الى كل مجالات العرب الاخرى من هنا وهناك في الشرق والغرب » [(١)] .

ان الاسلام كعقيدة ونظام ، كان منطويا في الحقيقة على رؤية محدده لها ابعادها التنظيرية والعسكرية ، اعني بها الجهاد وهو الوجه التطبيقي او الاداة العملية لنضال الاسلام في شبه الجزيرة وخارجها. ومن المؤكد ان الجهاد كان في مقدمة الحوافز التي حركت غرائز

---

(١) شكري فيصل : حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول ص ١٣ ــ ١٤ .

القتال لدى العربي ، ولامست في اعماقه النزعة الصوفية الى التضحية• وليس خفيا ما كان لذلك من تأثير ايجابي على نتائج الحملات العسكرية، التي انعقدت في الغالب لمصلحة العرب • وليس خفيا كذلك ان الحرب الصليبية التي قامت بعد بضعة قرون ، كردة فعل على الفتوحات ، لا سيما الاوروبية منها ، استمدت حيويتها واندفاعها من مبدأ الجهاد في الاسلام، او ما عرف حينذاك بحركة الاحياء الديني ، اثناء القرن العاشر الميلادي [1] •

ولا يعني الجهاد فقط ، التضحية والتماس الحياة المثلى في الاخرة• فهو في مضمونه يعني مباشرة الجانب الدنيوي في شخصية المقاتل العربي المسلم ، الذي يضع النصر في مقدمة حساباته ، بما يعكسه من ايجابيات خاصة تعود عليه بالفائدة • اي ان للجهاد محتواه المثالي هو التضحية ، في الوقت الذي اتخذ فيه بعده الدنيوي ، متمثلا في الغنائم وعائدات الحرب الاخرى [2] • وهو بالاضافة الى ذلك ، القضية الموحدة لآمال ومصالح العرب ، الذين خرجوا من محنة الردة اقوياء متلاحمين في اطار عقيدة ونظام هو الاسلام • والقضية هذه ، هي السلاح القوي والمتطور ، الذي اعطى للعرب تلك الثقة الكبيرة والروح المعنوية المرتفعة ، وفتح امامهم الطريق الى صنع تاريخهم العظيم •

وبناء على ذلك ، فان الفتوحات العربية لم تكن عملا خارقا او مدفوعا بقوى غيبية • ولم تكن نمطا جديدا من الهجرة او الغزو ، بحثا عن مستويات افضل للحياة ، وتخلصا من جوع أو جفاف • فهي ذات عمق ابعد بكثير من حاجات دنيوية وسطحية ، كان يمكن ان تحدث

---

(١) ارنست باركر : الحروب الصليبية ص ٩ •
(٢) كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص ٢٥ •

خارج اطار الاسلام ، على غرار الموجات العديدة التي قذفتها شبه الجزيرة باتجاه الشمال • ولان المقاتل العربي تحول في ظل العقيدة الى انسان جديد يحمل في وجدانه قضية مصيرية ، استطاع قهر الصعوبات والانتصار على عدوه، بعد انتصاره على ذاته • انها اللحظة التاريخية التي اختارها العرب المسلمون ، كتوقيت للتحرك العسكري ، وضرب القوتين الاعظم في ذلك الزمن • ولقد كانت الظروف بدورها متحالفة معهم، ضد دولتين نخرتهما الحروب الخارجية والازمات السياسية في الداخل، وفتك بهما النظام المتخلف والعاجز امام الافكار الجديدة ، التي حملها العرب الى ساحات القتال • فكان لهذا التباين في التنظيم والاعداد النفسي وفي المفاهيم العامة ، واخيرا في العلاقة بين الدولة والشعب ، المزيد من المساهمة في توجيه العمليات الحربية لصالح العرب • ويعطي المؤرخ الفرنسي المعاصر (كلود كاهن) مثلا على هذا الاختلال بين قوتي العرب والبيزنطيين بقوله: [1] «كانت قوة العرب كامنة في موقعهم المركزي الذي توسط مختلف الجبهات التي اغاروا عليها ، وهي كامنة ايضا في استعداد جيوشهم استعدادا مستمرا للحرب• ولقد تألفت هذه الجيوش من انصاف الرحل او من المتطوعين عن ايمان• وسرعان ما انتشر في نفوسهم الحماس الديني ، واستقر فيهم على حداثة عهدهم بالاسلام ، وذلك بفضل الغنائم

---

(١) لقد عانت كل من الدولتين الفارسية والبيزنطية ــ عدا الحروب المتواصلة بينهما ــ من ظروف داخلية عصيبة . فمن حركات انشقاق في العقيدة الزرداشتية ، الى استبداد الملوك والارستقراطية الفارسية (المرازبة) ورجال الدين (الموابذة) في الدولة الاولى ، الى صراعات ضارية على الحكم وثورات محلية واضطهادات دينية في الثانية ــ عبد المنعم ماجد . التاريخ السياسي للدولة العربية ج ١ ص ١٩١ ــ ١٩٩ .

التي تدر عليهم خيرات طائلة وتنهض دليلا على تأييد من عند الله • وقبالة المسلمين كانت جيوش الاعداء ثقيلة ، خاملة قواها المرتزقة فقط في دولة الروم • ولقد تدنت معنوياتهم بسبب المنازعات الداخلية وبسبب عداء السكان لهؤلاء المرتزقة » [1] •

أهم الفتوحات الراشدية

لقد اصطلح على تسمية حكم الاربعة الاوائل من الخلفاء بعصر الراشدين ، وهو امتداد لعصر الرسول بمناهجه وممارساته ، وكذلك بشخصيات خلفائه التاريخيين الذين عاشوا قريبا من صاحب الدعوة، حائزين على ثقته • وللاعمال العسكرية ، او الفتوحات في هذا العصر ، لون خاص يختلف هدفا واسلوبا الى حد ما عن الاعمال التالية التي تمت في العصر الاموي ، حيث فقدت بعض الاحيان محتواها الجهادي وخضعت لقرارات سياسية ، تتباين دوافعها بين حاكم وآخر • وسنحاول هنا ان تتناول ابرز النشاطات العسكرية في العصر الراشدي ، مبتعدين ما استطعنا عن الاسهاب المطول والعرض السردي الرتيب •

الجبهة العراقية

قدر لهذه الجبهة ان تشهد بواكير الانتصارات العربية ضد القوى الكبرى ، المهيمنة على المنطقة • وهي من ناحية اخرى متصلة بحروب الردة التي انفجرت في مطلع خلافة ابي بكر •• فكانت امتدادا عسكريا لها ، حين اصبح العرب المسلمون على ابواب العراق بعد تحطيم ردة البحرين • وهذه الجبهة مرتبطة في التاريخ بشخصية قيادية معروفة ، هو

---

(١) كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص ٢٥ .

المثنّى بن حارثة الشيباني من قبيلة بكـــر بن وائل الشهيرة • غيـــر أن الغموض يحيط الى حد ما بظهور هذا القائد في العراق وتوقيت مبادرته التوسعية على ارضه • فلا نعرف تماما ، ان كان ذلـك مجـــرد تصرف خاص ام أن تكليفه جاء من الخليفة • واذا استبعدنا الفرضية الاولـــى ، فلا ريب ان الثانية صالحة للمناقشة ، لا سيما وان الوقت الذي يفترض انه انتقل فيه الى العراق ، لم يكن ملائما لفتح جبهة جديدة خارج شبه الجزيرة • بيد انه من المحتمل ان يكون المثنّى قد التقى الخليفة في وقت سابق ، حيث امره بالتوجه الى العراق فور استكمال المهمة التـــي كلف بها في البحرين الى جانب القائد الآخر العلاء بن عماد الحضرمي ، اذ برز حينذاك كمقاتل محترف وشجاع [1] • وهذا ما تسوّغه رواية ابن الاثير، التي تشير الى أن القائد الشيباني « قد استأذن ابا بكر بأن يغزو بالعراق فأذن له فكان يغزوهم قبل قدوم خالد • وامر ابو بكر خالدا وعياضا [2] أن يستنفر من قاتل أهل الردة وان لا يغزون معهما مرتد ، ففعلا وكتبـــا اليه يستمدانه » [3] • ان اهمية هذه الرواية في انها تلقي الضوء علـــى القرار السياسي ، الذي يفترض ان ادارة (المدينة) قد اتخذته بعد وفاة الرسول لاستئناف المخطط التوسعي ، الذي بدأت ملامحه في الظهور منذ غزوة (مؤته) في السنة الثامنة للهجرة •

وإذا كانت حروب الردة قد اعاقت تنفيذ هذه الاستراتيجية لبعض الوقت ، فان سلبياتها انحصرت في ذلك دون اي تعديل علـــى القـــرار السابق • ويشجع على الاخذ بهذه النظرية، انتقال المثنى ومن ورائه خالد وعياض ، وجميعهم من كبار القواد ، الى العراق للبدء بالاعمال التوسعية

---

(١) عبد الحميد بخيت : عصر الراشدين ص ٧٩ •
(٢) خالد بن الوليد وعياض بن غنم
(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٧ •

هناك • وكان هذا الاقليم في ذلك الوقت تحت السيطرة المباشرة للنفوذ الفارسي ، بما فيه امارة المنادرة العربية في الحيرة • ورغم التبعية التقليدية التي اتصفت بها هذه الاخيرة لدولة الفرس ، الاانها استطاعت عبر حقبات تاريخها الطويل ، ان تكنّون شخصية خاصة بها وان تستقل عنها حضاريا وعقائديا ، حيث كان التأثير اليوناني والبيزنطي هو الغالب عليها في هذا المجال • وقد حدث في مطلع القرن السابع الميلادي ، ما جعل من العراق الارض الممهدة والمهيأة للعمليات العسكرية العربية، حيث تدهورت العلاقات بين امبراطورية الفرس وبين عرب العراق ، لا سيما قبيلة بكر بن وائل التي ينتسب اليها المثنى ، مما جر الى مجابهة مسلحة بين الطرفين • وهي المعركة الشهيرة المعروفة بذي قار (١) ، التي انتهت بهزيمة الفرس• فجاءت برأي المؤرخين، مقدمة للفتوحات الكبرى في العراق والامبراطورية الفارسية بعد ربع قرن من الزمن •

بدأ نشاط المثنّى الحربي على الأرجح في مطلع السنة الثانية عشر للهجرة ، وكان لديه من المقاتلين ما يقارب الثمانية آلاف (٢) ، جلّهم من قبيلته الكبرى (٣) • وكانت المنطقة الفراتية (٤) حيث الحيرة ، الموقع الذي اتخذه مسرحا لنشاطه • ويبدو ان مهمته لم تكن عسكرية اول الامر ، بقدر ما كانت استطلاعية ، اذ انمعرفته الوثيقة بطبيعة المنطقة،

(١) اسم لنبع ماء على مقربة من الكوفة .

(٢)ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٧ •

(٣) يروى ان المثني كتب الى ابي بكر او قال له : « يا خليفة رسول الله استعملني عن قومي فان فيهم اسلاما اقاتل به اهل فارس واكفيك اهل ناحيتي من العدو » ابن الاثير : اسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٤ ص ٢٩٩ . الدينوري : الاخبار الطوال ص ١١١ •

(٤) اتخذ المثني معسكره في مكان يعرف بـ (خفان) على مقربة من الكوفه . راجع : محمد فرج : الفتح العربي للعراق وفارس ص ٧٦ •

ربما كانت وراء اختياره لهذه المهمةالمبكرة[١]. ذلك أن اعمالهالاولى اقتصرت على مناوشات عادية ، وهذا يعني ان الحرب المسلحة ، بدأت مع وصول خالد ، القائد العام للقوات العربية في العــراق ، بعيــد ذلــك بقليل [٢] .

وكان الحاكم الفارسي في هذا الاقليم (هرمز) ، قد تلقى مسبقــا الكتاب التقليدي من خالد ، وفيه دعوة الى المفاوضــة والصلــح حسب القانون الاسلامي [٣] . ولكن دعوته رفضت ، واستبدلت بعملية مبارزة بين القائدين العربي والفارسي ، انتهت بمقتل (هرمز) ، كمــا تشيــر الرواية التاريخية [٤] . ولقد ادى مقتل هذا الاخير الى تشجيع العــرب للافــادة من هذه المناسبة ، خــاصة وان الحــاميات الفــارسية فــــي العراق لم تكن على ما يبدو في اجواء الاستعداد الكامل للحرب . وهذا ما أفسح المجال امام عدة انتصارات حققها العرب بغيــر صعوبــة [٥] ، تتوجت اخيرا باستسلام الحيرة دون قتال او « صلحا » حسب التعبيــر العسكري المتداول في ذلك الوقت .

وتأتي اهمية هذه الانتصارات ، في انها شقت الطريق امام العرب لتثبيت اقدامهم في العراق ، كما كانت بداية تجاربهم العسكرية المنظمــة خارج نطاق شبه الجزيرة . ومن ناحية اخرى ، كان اتفاق الحيرة قبيــل استسلامها ، النموذج العام للعلاقات الانسانية بين المقاتلين العرب وبين

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٧ ــ ١٨٨ .
(٢) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٤ ص ٢ ــ ٣ .
(٣) الدعوة الى الاسلام او عقد الذمة أو القتال .
(٤) ابن الاثير : اسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٤ ص ٢٩٩
(٥) انتصر العرب في معارك : الثني ، المذار ، الولجــة ، اليس .. الطبري : ج ٤ ص ٦ ــ ١٥ . ابن الاثير ج ٢ ص ١٨٨ ــ ١٩١ .

اعدائهم . اذ تحول هذا الاتفاق الى وثيقة تشريعية، وذلك بوضعه اسس التعامل مع البلاد المفتوحة وشعوبها في المستقبل (١) .

ولقد اتخذ خالد مقر قيادته في الحيرة، ربما لان وحدة الشعور بين عربها اليمنيي الاصل وبين العرب الفاتحين ، كانت احدى العوامل المشجعة لاقامة الحامية العربية فيها. ويبدو ان خالدا احتاج لبعض الوقت

---

(١) نص كتاب الاتفاق بين خالد بن الوليد وبين زعماء الحيرة كما ورد في (الخراج) لابي يوسف : « ان خليفة رسول الله امرني ان اسير بعد منصرفي من اهل اليمامة الى اهل العراق من العرب والعجم ، بان ادعوهم الى الله جل ثناؤه والى رسوله عليه السلام وابشرهم بالجنة وانذرهم من النار. فان اجابوا فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. واني انتهيت الى الحيرة ، فخرج الى اياس بن قبيصة الطائي (اخر حكام الحيرة التابعين للفرس) في اناس من اهل الحيرة من رؤسائهم . واني دعوتهم الى الله ورسوله فأبوا ان يجيبوا ، فعرضت عليهم الجزية او الحرب . فقالوا لا حاجة لنا لحربك ولكن صالحنا على ما صالحت عليه من غيرنا من اهلَ الكتاب في اعطاء الجزية . واني نظرت في عدتهم فوجدت عدتهم سبعة الاف رجلَ . ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانه الف رجلَ . فأخرجهم من العدة فصار من وقعت عليه الجزية ستة الاف . فصالحوني على ستين الفا وشرطت عليهم ان عليهم عهد الله وميثاقه الذى اخذ على اهل التوراة والانجيل ، ان لا يخالفوا ولا يعينوا كافرا على مسلم لا من العرب ولا من العجم . فان هم خالفوا فلا ذمة لهم ولا امان. وان هم حفظوا ذلك ورعوه وادوه الى المسلمين فلهم ما للمعاهدةَ وعلينا المنع لهم. فان فتح الله علينا فهم على دينهم لهم بذلكَ عهد الله وميثاقه اشد ما اخذ على نبي من عهد او ميثاق وعليهم مثلّ ذلك لا يخالفه وجعلت ايما شيخ ضعف عن العملَ او اصابته آفة من الآفات او كان غنيا فافتقر وصار اهلَ دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت المسلمين بالنفقة على عيالهم . وايما عبد من عبدهم اسلم اقيم في اسواق المسلمين فبيع باغلى ما يقدر عليهم في وكن ولا تعجيل ودفع ثمنه الى صاحبه ، ولهم كلّ ما لبسوا من الزي الا زي الحرب » ابو يوسف : الخراج ص ٨٤ ـ ٨٥ .

من اجل دراسة الموقف العسكري في امبراطورية الفرس ، خاصة وان هذه الاخيرة قد بادرت الى استنفار قواتها واعلان التعبئة العامة ، بعد أن اصبح العرب على ابوابها . واقتصرت الاعمال العسكرية في تلك الفترة على مجموعة من العمليات ، تم خلالها السيطرة على الانبار وبعض المواقع المهمة الاخرى [1] . غير ان تطورات الموقف على الجبهة الشامية ـ حيث بدأت أيضا العمليات العسكرية ـ ادى الى تجميد خطة الفتح ، بعد استدعاء خالد وتعيين الخليفة له قائدا عاما للجبهة المضطربة . وفي العراق ، عاد المثنى الى القيادة [2] ، الا انه كان غير قادر على القيام بعمليات كبيرة ، ففقدت هذه الجبهة حيويتها نسبيا ، بعد استقطاب الشام الجزء الاكبر من القوات العربية ، بما فيها العاملة في العراق [3]. ولذلك فان مهمة المثني انحصرت في حماية المواقع العربية وصد هجمات الفرس عنها . وهي مهمة تكللت بالنجاح ، حيث حقق انتصارا باهرا على اعدائه في معركة بابل ، ووصل الى مشارف (المدائن) العاصمة الفارسية القديمة .

ولكن التطورات السياسية في ادارة (المدينة) ، من وفاة ابي بكر ومجيء عمر بن الخطاب الى الخلافة ، كانت لها انعكاساتها على القيادات العسكرية ، ليس فقط في العراق ولكن في الشام ايضا . فقد امر الخليفة الجديد بعزل القائدين الكبيرين ، المثنى وخالد ، تحت تأثير أسباب قيل في تعليلها الكثير ، خاصة المتعلقة بإبعاد هذا الأخير ، الذي اتهم ـ حسب بعض المصادر ـ بتجاوزه الخط المسموح له في حروب

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٩٢ . محمد فرج : الفتح العربي للعراق وفارس ص ٩٣ ـ ١٠٦ .
(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٩٥ .
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٩٨ .

الردة ، كما اسلفنا القول ، الا ان تكرار هذه الحالات مع عدد من القواد العرب في عهد هذا الخليفة ، يوحي بأن الاسباب اكثر عمقا من حادثة فردية عابرة ، من المفترض أن تستهدف صاحبها فقط • ولعل المتتبع جيدا لاسلوب عمر في الحكم ، حيث شخصيته القوية طغت على الدولة بكل مظاهرها ، وحيث نزعته الادارية كانت تعمل في اتجاه تقوية المؤسسة على حساب الزعامات الارستقراطية والعسكرية ، لا بد أن يلحظ مدى حساسية العلاقة بينه وبين الشخصيات القوية ، لا سيما المتاح لها فرصا للبروز والتألق السياسي من خلال الانتصارات الحربية التي تصنعها •

واتنقلت القيادة العليا في العراق الى قائد مغمور هو ابو عبيد بن مسعود الثقفي [1] • وهو رغم ثقة الخليفة به ، لم يكن عسكريا على المستوى المؤهل لملء فراغ المثنى • واذ كان قد شارك سلفه في الاندفاع الى الحرب ، الا انه افتقد المعيته القيادية ، فبدأ متهورا تعوزه الحكمة والحسابات الدقيقة • ولقد جر ذلك الى هزيمة قاسية للعرب ، ابان معركة (الجسر) غير المتكافئة [2] ، التي كان من نتائجها السلبية ، انها كادت تفقد العرب جميع مكاسبهم في العراق ، لولا مبادرة المثنى في انقاذ الجزء الاكبر من الجيش والانسحاب الى الحيرة • هذا بالاضافة الى مقتل القائد أبي عبيد وجرح مساعده المثنى ، الذي أثبت أنه جندي محترف وقائد على درجة عالية من الكفاءة والفروسية •

ومرة أخرى أتيح للمثنى أن يعود الى الموقع الذي التصق به

---

(١) ابن الجوزي : تاريخ عمر بن الخطاب ص ٦٧ .

(٢) وقعت هذه المعركة في ١٣ هـ/٦٣٤م في مكان يعرف بقس الناطف على نهر الفرات. ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢١٣–٢١٥

واصبح قدره الحتمي ، منذ ان اختار العراق ساحة لنشاطه الجهادي . وبدوره لم يلجأ الخليفة الى تعيين خلف لابي عبيد ، فجاء ذلك تعبيرا عن تقديره لقائده الكبير ، بتكريس عودته الى المنصب الذي استحقه بجدارة . ومضى المثنى في مهمته ، وبادر ــ رغم جراحه ــ الفرس باستئناف القتال ، فحد من خطرهم بسلسلة من العمليات الجدية ، انتهت الى صدام عنيف معهم في معركة (البويب) [1] الانتقامية ، التي أسفرت عن هزيمتهم واجبارهم على التراجع . لقد نجح المثنى في تصحيح الموقف العسكري في العراق واعادة التوازن الذي اخلت به هزيمة الجسر . ومن ناحية أخرى فان معركة البويب فتحت أبواب الحرب على مصاريعها بين العرب والفرس . بيد أن المثنى لم تتح له المشاركة أبعد من ذلك في هذه الجبهة ، فقد توفي بعد قليل ، متأثرا بجراحه القديمة ، بعد أن وضع لبنة الاستقرار العربي في العراق ، فكان مؤسس هذا الاقليم بشخصيته الجديدة ، كما كان رائد الفتح المنظم وراء حدود شبه الجزيرة .

لقد ترك غياب المثنى فراغا كبيرا في قيادة هذه الجبهة العسكرية، فعادت همومها الى الظهور مجددا لتثير حالة نفسية في (المدينة) شبيهة بأجواء ما بعد هزيمة الجسر . وكان الخليفة شديد القلق ، وهو يتلقى انباء الحشد العظيم للقوات الفارسية ، وتقدمها نحو (الحيرة) معسكر العرب . وكاد الوقت ان يخون هؤلاء ، دون أن يتاح للخلافة القيام بدور ما لتبديد هذا القلق ، اذ أن الوضع على جبهة الشام لا زال ساخنا وخطيرا ، بحيث استقطبت جل طاقات الدولة واهتمامها طوال عامين متواليين . حتى اذا نزلت الضربة القاصمة بالجيوش البيزنطية ، المرابطة في سورية بقيادة الامبراطور هرقل ، تحولت الجهود الجدية الى العراق،

---

(١) على مقربة من القادسية .

في العام نفسه الذي جرت فيه معركة اليرموك الفاصلة (١٥هـ/٦٣٦م) (١)

وما لبث الخليفة عمر ان عين قائدا للجبهة العراقية ، هو سعد بن أبي وقاص أحد التاريخيين في الاسلام حيث كان مقربا من الرسول ومشاركا في العمليات العسكرية الاولى بين (المدينة) ومكة (٢) . وكان لاختياره دلالة على مدى الاهتمام الذي تمحور حول هذه الجبهة . ولعله تجاوز الحد من مزاجه الذي لا يستسيغ كثيرا هذا النمط من الشخصيات البارزة ، ولكنه توسم على الارجح ، المقدرة والكفاءة في القائد الجديد، فجاء تعيينه تحت تأثير الظروف الصعبة .

كان الموقف خطيرا كما اسلفنا في العراق ، وكان قائد القوات الفارسية (المرزبان رستم) يجتاح الاقليم بجيشه الضخم المعزز بالفيلة والادوات الحربية المتطورة (٣) ، قياسا الى الاسلحة المعروفة التي استخدمها العرب في ذلك الحين . فالتفوق كان ملحوظا لمصلحة الفرس، غير ان هؤلاء لم يكن باستطاعتهم الارتقاء الى مستوى القضية ، السلاح العربي الاقوى . اذ ان النظام الفارسي كان قد بلغ حينذاك حدا كبيرا من الانهيار الداخلي، حيث انحدرت قيم المجتمع، بما فيها العقيدة التي أفرغت من محتوياتها الاصلاحية، لتخدم فقط مصالح الفئة الحاكمة المرتبطة عضويا بكبار رجال الدين (الموابذة) . وكان هؤلاء ضالعين في هذا التناقض

---

(١) تتداخل هذه المعركة مع سابقاتها (اجنادين) عند بعض المؤرخين في الاسم وفي التحديد الزمني . على ان السائد والمرجح معا ان هناك فارقا بين الاولى التي وقعت في نهاية عهد ابي بكر والثانية التي وقعت في سنة ١٥ هـ في وقت سابق عن معركة القادسية . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٠٠ وما بعدها .

(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الاصحاب ج ٢ ص ٦٠٧ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٠٢ .

الشاسع بين النظام والشعب ، الذي افتقد حتى قيمه الدينية المتوارثة . وبعبارة موجزة فأن (الزرداشتية) التي ظهرت كدعوة الى الخير والى العمل وتشجيع الزراعة[1]، أصبحت أكثر خصوصية بانقطاع تأثيرها وانعزال تعاليمها عن الفئات الفقيرة والمسحوقة من الشعب . وأخذ تدريجيا يسود المجتمع الفارسي تيّار رفضي لهذا النظام الأستغلالي ، تترجم في نهاية القرن الثالث الميلادي في تلك الموجة من اللامبالاة والسلبية ، جاءت تعكس عمليا النقمة ضد التخمة والترف والفساد . فكانت حركة (ماني) بأفكارها الصوفية المتأثرة الى حد كبير بالفكر الهندي النازع الى الزهد والتقشف [2]. ولكن (المانويه) كانت مجرد احتجاج على واقع مرفوض، ولم تطرح البدائل اللازمة والضرورية لمشاكل المجتمع الفارسي . ولعل طبيعة الحكم المطلق القمعية ، كانت وراء ذلك الاتجاه السلبي في هذه الحركة ، التي انتهت مع اعدام زعيمها في عهد بهرام الأول [3] .

ولكن العنف لم يوقف التيار الاصلاحي والدعوة الى التغيير في الامبراطورية الفارسية . فظهر اصلاحي آخر في نهاية القرن الخامس الميلادي ، وكان أكثر واقعية من سلفه ، مع جنوح الى التطرف في الدعوة الى شيوعية الأرض والأموال والمظاهر المختلفة في المجتمع . ولاقت هذه الحركة التي عرفت بالمزدكية نسبة الى زعيمها (مزدك) ، دعما وتأييدا من الملك قباذ الأول الذي لم يكن على انسجام مع الأرستقراطية السياسية والدينية . فوجد في (مزدك) وتأثيره الشعبي ، السبيل الى تحجيمها والحد من نفوذها . وهكذا قدّر للمزدكية أن تصبح ظاهرة ذلك العصر ، معتمدة على قوتها الشعبية ؛ حيث كان لأفكارها المتطورة الصدى العميق

---

(١) حسين قاسم العزيز : البابكية ص ١٠٩ .
(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٥٩ — ١٦١ .
(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦١ .

والتجاوب الواسع ، ومعتمدة أيضا على غطاء السلطة العليا لها بقيادة الملك قباذ [1] .

غير أن هذه الحركة الجريئة ، فقدت بعض دعائمها بعد وفاة قباذ الأول (٥٣١ م) ، ومجيء شخصية مختلفة في النهج والذهنية الى الحكم . ولم يكن الملك الجديد خسرو الأول أو (أنو شروان) كما سيعرف فيما بعد ، معجبا بأفكار (مزدك) التي وجد فيها نزوعا نحو التطرف . كما وجد ، وهو الأرستقراطي مزاجا وممارسة ، أن هذه الحركة ستحدّ كثيرا من نفوذه الساعي الى تحقيقه . فتضافر مع الأرستقراطية (المرازبة والموابذة) ، وقضى على (مزدك) وجماعته [2] ، ممهدا لذلك بحملة واسعة ضد الأباحية في حركة مزدك ، التي لم تجد حماسة في أوساط الفقراء والفلاحين ، وهم الأغلبية في الحركة . ولكن نزعة الأباحية ، ربما كانت أحدى التهم التي رافقت الحملة ضد المزدكية، وهي تهمة لا تتغير برأي أحد المؤرخين المعاصرين ، يرمى بها دائما من يتعرض لنظام الملكية الفردية [3] . وعاشت أفكار (مزدك) طويلا في وجدان الشعب الفارسي ، لأن عودة الأمور الى سابقها بعد أخماد هذه الحركة ، أباح للارستقراطية المنتصرة ، أن تأخذ حجما أعمق تأثيرا في الدولة التي أصبحت، مع تحرك العرب وارتفاع دعوة الاسلام على أبوابها في العراق ، قريبة من السقوط والأنهيار .

وتأخذ الأزمات الداخلية في التفاقم ؛ ثم تأتي الهزيمة المدمرة على يد البيزنطيين ودخول أمبراطورهم ظافرا الى العاصمة الفارسية ، فيؤدي

---

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٦٤ .
(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٤ .
(٣) حسين قاسم العزيز : البابكية ص ١٢٣ .

ذلك الى غياب التوازن في دولة هرمه وعاجزة • وبدا واضحا أن الأرتباك والتقصير اللذين سادا مواقف الدولة ازاء الوجود العسكري للعرب في ممتلكاتها العراقية ، أنها أضاعت كليا الفرصة النادرة لوقف الخطر ، عبر أعوام ثلاثة من المجابهة الحذرة والمترددة •

هكذا بدت امبراطورية الفرس قبيل توافد القوات العربية الى العراق ، ومعها الانتصارات الباهرة في الشام ورصيد المعنويات المرتفعة، يضاف الى بقية العوامل المساعدة • وفي القادسية التي عرفت بأنها (باب فارس) [1]، حيث اتخذ سعد بن أبي وقاص مركز قيادته ، سجّل التاريخ نصرا جديدا ورائعا للقوات العربية المنسجمة والمتلاحمة ، كما سجّل بداية الأنهيار للأمبراطورية الفارسية ، التي فقدت قائدها الكبير (رستم) والجزء الأعظم من جيشها في هذه المعركة الخالدة [2] • وبعد انتصارها ، اندفعت القوات العربية باتجاه الشرق مستهدفة (المدائن) أو طيسفون ــ اسمها الفارسي القديم ــ حيث كان الملك يزدجرد الثالث ، يحاول اعادة تنظيم جيشه الممزّق . ولكنه أدرك عبث المقاومة ، فتراجع الى الوراء دون أن يفقد الأمل الأخير في التصدي للعرب [3] . وفي تلك الأثناء كانت القيادة العربية تعمل على الافادة من الوقت ، بعد أن حاذت شواطيء الخليج ، وذلك باقامة معسكرات دائمة للتموين ولتسهيل التحرك العسكري وحماية الخطوط الخلفية • فظهر الى الوجود معسكرا الكوفة والبصرة تحقيقا لهذا الهدف : الأول في منطقة الحيرة ، والثاني على مقربة من شط العرب [4] •

(١) عبد الحميد بخيت : عصر الراشدين ص ١٠١ •
(٢) حدثت الموقعة في سنة ١٥ هـ/٦٣٦ـ٦٣٧م •
(٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٤ ص ١٩٤ ــ ١٩٥ •
(٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٥٩ ــ ٢٦٠ •

وفي الجانب الفارسي أصيب النظام بزلزال مدمّر ، ولكن الملك وحلفاءه الأرستقراطيين لم يدّخروا مبادرة أخرى للمجابهة ، خاصة بعد تبلور الموقف ووضوح الخطر العربي ، الذي لم يستهدف العراق فقط ؛ وأنما الأمبراطورية بكافة ولاياتها . وكان ذلك نذيرا للمتمسكين بأمجاد الكسروية أن يتحسسوا فداحة الواقع المظلم . وأخذت دعوة الملك الى تجديد التعبئة العامة تلقى ثمارها ، واذا بقوة ضخمة تعود الى الزحف نحو الغرب . ومرة أخرى يعود شبح الحرب الدامية ، وتجد القيادة السياسية في (المدينة) أن الموقف على جانب من الخطورة ، فتلجأ الى البحث عن وسائل أكثر فاعلية للتصدي والحسم .

ويبدو أن أكثر ما شغل الخليفة حينذاك ، هو القائد الذي سيوكل اليه أمر المهمة الجديدة . اذ أنه قرر عزل سعد بن أبي وقاص من منصبه، ربما للأسباب ذاتها التي أسلفنا شرحها ، أو لأسباب أخرى تخضع للعلاقة بين القائد والخليفة . وهذا ما تعرضت له أحدى الروايات التاريخية، من أن الأول أغضب الثاني بتجاوزه الحدود في استعمال مركزه في العراق [1] . بيد أن للخليفة مسوغات أكثر بعدا ، خاصة في أجواء القلق التي انتشرت في (المدينة) ، في أعقاب الحشود الفارسية الجديدة . فقد توجس خطورة الموقف الى حد عزم معه على أن يشغل بنفسه هذا المركز، ثم عاد الى الأتجاه الذي نصح باختيار القائد من الجبهة. ولعل هذا التدبير – أي عزل سعد – يأتي ليؤكد مرة أخرى موقف الخليفة عمر من القيادات العسكرية ، المهددة اكثر من غيرها لنفوذ القيادة السياسية . ولأنه كان يرفض لها المزيد من التألق والشهرة ، فقد لجأ الى معالجة الأمر بالتغيير ، منعا لتحقيق انتصارات متكررة للقائد الواحد . وغالبا ما تتبع

---

(١) عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج ١ ص ٣٣

هذا النهج بعض الدول الحديثة ، وذلك بتحديد الفترة الزمنية للقائد العسكري ، خوفا من استثمار انتصاراته في مقارعة السلطة السياسية .

وهكذا استبدل سعد بن أبي وقاص بالنعمان بن مقرن المزني ، أحد قادة الجيش البارزين في العراق ، وأحد المشاركين في القادسية [١] . وكان قبيل تعيينه قائدا على خوزستان ، الأقليم الفارسي الذي تم فتحه على يديه [٢] . وكانت أولى مؤشرات الصدام الدموي في ظل القيادة الجديدة ، ايفاد مجموعة من الجند في عملية استطلاعية لمراقبة القوات الفارسية ورصد تحركاتها ، وكانت قد اتخذت معسكرها على مقربة من (نهاوند) [٣] ، بقيادة (الفيزران) قائدها العام . وكان هذا الأخير على ما يبدو شديد الانفعال وتواقا الى الانتقام من العرب ، تدل على ذلك لهجته الاستفزازية في مخاطبة النعمان [٤] . ولم يكن القائد العربي ، أقل اندفاعا من (الفيزران) الى الحرب ، اذ شهدت (نهاوند) معركة ضارية ، خاضها المقاتلون العرب ببسالة وراء قائدهم النعمان ، الذي دفعته شجاعته الى اختراق صفوف اعدائه بفروسية ورباطة جأش ، ولكنه سقط بجواده في قلب المعركة صريعا . فتسلم راية القيادة معاونه حذيفة بن اليمان [٥] ، دون أن يحدث مقتل القائد أي ارتباك في صفوف العرب . وكانت المعركة حينذاك في طريقها الى الحسم ، حيث استطاع

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٢) عبد الحميد بخيت : عصر الراشدين ص ١١٤ ــ ١١٥ .

(٣) مدينة كبيرة تقع على بعد عشرة فراسخ من همذان . ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ٣٢٩ .

(٤) محمد فرج : الفتح العربي للعراق وفارس ص ٢٣٥ .

(٥) كان حذيفة قائد الميمنة في الجيش العربي اثناء معركة نهاوند . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤ .

حذيفة انتزاع النصر في اليوم نفسه ، وتدمير القوة الفارسية تدميرا كاملا [1] .

وبعد (نهاوند) لم يعد ثمة شك في انهيار امبراطورية الفرس ، بعد هرب يزدجرد الثالث متخفيا ، ورضوخ الأرستقراطية الفارسية للأمر الواقع ، وطوي فكرة المقاومة . أما العرب فأعقبوا انتصار نهاوند العظيم بزحوف منظمة في عمق الأمبراطورية المتهاوية . فسقطت الأقاليم والمدن الرئيسية التي خضعت للحكم العربي الأسلامي مثل : أصبهان وهمذان والري وخراسان وغيرها . أما يزدجرد آخر الأكاسرة ، فقد ظل سنوات طويلة يعيش في الظلام على حدود مملكته الضائعة . بيد أنه لم يتخل عن ارادته في مقاومة الفاتحين العرب ، اذ عقد اتفاقا مع ملك الترك المعروف بالخاقان ، واستطاع تجميع عدد غير قليل من الأنصار حوله . ولكن هذا الأخير لم يصمد طويلا في تحالفه مع الملك الفارسي ، حيث كانت له مآربه الخاصة فيه ، وانتهى الأمر بتخلي يزدجرد عن آحلامه الكسروية، ولجوئه الى سمرقند . ولكنه لم ينج من مؤامرة اغتيال ، جاءته من الأرستقراطية نفسها ، حيث قتل على يد أحد المرازبة في وقت لاحق .

الجبهة الشامية :

يكاد يتفق الباحثون في تاريخ الفتوحات العربية الأسلامية ، على أن بلاد الشام كانت في مقدمة اهتمامات الخلافة ، الهادفة الى التوسع عبر المناطق المألوفة لها جغرافيا بوجه خاص . وكانت الشام اكثرها التصاقا بذاكرة العربي التاجر ، حيث سعى اليها في رحلة الصيف الشهيرة ، أو سمع الكثير عنها من رجال القوافل ورواة الأخبار . وتعود بواكير

---

(١) وقعت هذه المعركة في سنة ١٩ هـ/٦٤٠م. ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٦ .

السياسة التوسعية في هذه المنطقة الى السنة الثامنة للهجرة ، عندما خرجت أول حملة وراء الحدود ، كبادرة لسياسة الرسول الخارجية • ورغم ما قيل من أن هذه الحملة التي تصدرها بعض مشاهير المسلمين [1] ، قد حركتها دوافع انتقامية ضد عرب الشام المتحالفين مع الدولة البيزنطية [2] ، فأن لها أبعادا أخرى جدية ، تصب في الأتجاه الأستراتيجي التوسعي ، حيث كان الرسول يضع نواته الأولى في ذلك الوقت المبكر •

ومن المفترض أن الدولة الأسلامية التي كانت حينذاك تعيش مرحلة ما قبل الحسم النهائي في الصراع ضد الوثنية المتراجعة في مكة ، لم تكن على قدر من القوة يؤهلها لفتح جبهة مجهولة النتائج ، خارج دائرة الأهداف المباشرة لها • ولكن النظرة البعيدة لحملة (**مؤته**) [3] ، التي هزمت عند قرية تحمل نفس الأسم الى الجنوب من البحر الميت ، انها كانت في جوهرها مبادرة خاصة تستهدف ابراز الحضور المعنوي للقوة الأسلامية الجديدة • وكان الرسول مطمئنا الى أن تحرشه بالخصم البيزنطي القوي ، لن يكون له أي مردود عكسي على أوضاعه في شبه الجزيرة ، حيث اصبحت شبه محسومة لمصلحته • ذلك أن البيزنطيين رغم امكاناتهم العسكرية المتفوقة ، كانوا غير متحمسين ، أن لم نقل غير مؤهلين للقيام بمغامرة تتعدى حدود الشام • والتجارب الماضية تضع

---

(١) كانت هذه الحملة بقيادة زيد بن حارثة ومعه عدد آخر من امثال جعفر بن ابي طالب وعبد الله بن رواحة وخالد بن الوليد . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١١٢ •

(٢) تقول المصادر أن الرسول أراد الثأر لموفده الحارث بن عمير الازدي الذي قتل على يد أمير مؤتة شرحبيل بن عمرو الغساني •

(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١١٣ •

هذا القول موضع الحقيقة • فهم على اهتمامهم بشؤون هذه المنطقة ، الا أن ذلك لم يصل الى مستوى التدخل المباشر . ومن جهة ثانية فأن الحبشة التي استخدمت كأداة تنفيذية لسياسة البيزنطيين في شبه الجزيرة ، كانت بدورها مستنكفة عن متابعة هذا الدور ، بعد الخسائر الجسيمة التي منيت بها في محاولتها الفاشلة • فضلا عن ذلك ، فأن الرسول عمل على تحقيق علاقة ودّية مع هذه الأخيرة ، كان من نتائجها الأيجابية هجرة المسلمين الأوائل اليها ، هربا من اضطهاد الوثنيين في مكة [١] •

وجاءت الحملة الثانية التي قادها الرسول بنفسه في العام التاسع الهجري ، وهي المعروفة بغزوة (تبوك) . ولقد انتهت الى غير ما انتهت اليه الحملة الأولى ، اذ أن الرسول كان مستوعبا الدوافع التي تحمله على التحرك في هذا الأتجاه ، وهي دوافع سياسية في المقام الأول • وعلى ذلك فقد اقتصر الأمر على مناوشات طفيفة ومعاهدات جوار بين العرب المسلمين وبين عرب الشام ، في (جرباء وأذرح وأيله ودومه) [٢] • واذا كان هدف الحملة الأولى ، خروج الدولة الناشئة من عزلتها وتحقيق الاتصال التمهيدي مع عرب الشام ، وصولا الى فرص وجود معنوي الى جوار الدولة الكبرى في المنطقة ، وهي الدولة البيزنطية ، فأن هدف الثانية كان بدون ريب التمهيد لطموح أكبر ، متجسداً في توسيع نطاق الدعوة ، ورسم الأطار العام لحركة التوسع التي عرفت بالفتوح •

وهذه الرؤية ، كانت حاضرة في ذهن الخليفة أبي بكر ، الحريص

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٥ •

(٢) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٣ ص ١٤٦ •

على انتهاج سياسة الرسول التوسعية منذ أيام عهـده الأولى [١] . واذا كانت ملامح هذه السياسة قد ظهرت أولا في العراق ، فأن الجبهة الشامية استقطبت الجانب الأكبر من اهتمام الخليفة ، رغم محاولة التنسيق بـين الجبهتين . ولقد أشرنا سابقا الى الأوامر الصادرة الى خالد بن الوليـد للالتحاق بالشام ، في أعقاب تعيينه القائد العام لهذه الجبهة . وهذا الأخير اثبت دائما انه رجل المهمات الصعبة ، خاصة منـذ حروب الردّة التـي أبرزته مقاتلا من طراز نادر .

وكانت خطة التحرك نحو الشام قد تم تنفيذها في غياب خالـد عن (المدينة) ، أي في السنة الثالثة عشرة للهجرة . وهي تقضي بتشكيل عدة ألوية من الجيش ، تتولى مهمات متعددة ، على أن تلتئم أخيرا تحت قيادة واحدة . أما اللواء الأول فكان بقيادة خالد بن سعيد بن العاص ، وهدفه المرحلي المرابطة في (تيماء) [٢] ، ولا يشترك في أي قتال قبل الرجوع الى الخلافة . واللواء الثاني بقيادة عمرو بن العاص ، الذي تحرك بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، على أن يكون محوره المفترض فـي فلسطين. والثالث والرابع بقيادة شرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان. وقـد سار الاثنان معا عبر البلقـاء الى الأردن ، على أن يتخـذ الأول معسكره الى الشرق من النهر ، بينما يتابع الثاني مسيرته الـى دمشق . وفي أعقاب هؤلاء سار أبو عبيدة بن الجرّاح على رأس المتطوعين الجدد الذين وفدوا على المدينة . بيد أن مهمته كانت ادارية اكثر منها عسكرية، حيث كان واسطة الأتصال بين القيادة العليا في الشام، وبين الخلافة فـي المدينة [٣] .

---

(١) اصرار ابي بكر على انفاذ بعث اسامة الذي أمر به الرسول. ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٦١ ــ ١٦٢ .

(٢) الى الجنوب الشرقي من تبوك في جنوب الشام .

(٣) بيضون زكار : تاريخ العرب السياسي ص ٦٤ .

وكان على هذه الجيوش أن تتحدى بعض المصاعب ، وفي مقدمتها الاصطدام بمقاومة الغساسنة [١] ، حلفاء الدولة البيزنطية . ولقد استطاع قادتها اختراق هذه الحواجز والانتهاء الى جنوب الشام ، حيث القائد العام سيوافيهم من العراق ، وذلك باستثناء خالد بن سعيد بن العاص الذي لم تشر المصادر الى ما يوحي باشتراكه في حروب الشام [٢] . ويعلل الدكتور شكري فيصل غيابه بأن مبعثه تحفظ الخلافة نحو هذا القائد، ونتيجة موقف سابق ازاء بيعة أبي بكر [٣] ، فلجأ هذا الأخير الى عزله بعد شكوكه في انضباطه .

وصل خالد بن الوليد ، بعد عملية عبور غير عادية للصحراء عن طريق تدمر ، منتهيا الى بصرى ، باكورة المدن الشامية التي سقطت في أيدي العرب [٤] . وفي تلك الأثناء كان الأمبراطور البيزنطي (هرقل) يتابع الموقف العسكري عن كثب ، متخذا من حمص مركزا له قبل أن ينتقل الى الرها ، حسب رواية ابن الأثير [٥] . وكان قد تجاهل كما يبدو أهمية الحشود العربية في باديء الأمر ، يؤكد ذلك غياب المقاومة الجدية من جانب البيزنطيين . أو لعله لم يعط هذا الأمر ما يستحقه من اهتمام، وهو المنتشي حينذاك بخمرة انتصاره الكبير على الفرس. ولما أدرك خطورة الموقف ، بادر الى حشد قواته الضخمة بقيادة (تيودوروس) Theodoros في معسكر (أجنادين) [٦] . وهو على الأرجح مركز لأحد الحصون

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٩٧ — ١٩٨ .
(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٩٨ — ١٩٩ . البلاذري : فتوح البلدان ص ١٠٩ .
(٣) شكري فيصل : حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول ص ٣٥ .
(٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٠١ .
(٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٤١ .
(٦) من اعمال فلسطين .

البيزنطية . وليست هنالك تقديرات واقعية حول كثافة هذا الجيش، الذي كان خليطا من البيزنطيين وحلفائهم ، خاصة من عرب الشام . ولكن يبدو أن العدد التقريبي لا يتجاوز الأربعين أو الخمسين ألفا ، أي ما يعادل ضعف القوة العربية التي لم تزد في أحسن الحالات عن خمسة وعشرين ألفا [1] . الا أن هذه الأخيرة كانت لديها الكفاءة التنظيمية والقيادية العالية . فقد دأب خالد بن الوليد ، على توزيع قواته وفقا للتقليد الحربي القديم ، ولكن مع تعديل اكثر مرونة ، مما يعطي لتحريك الجنود في المعركة السرعة المطلوبة . هذا وقد حدث ذلك في اجتماع كبار القواد الذي نوقشت فيه ترتيبات المعركة المنتظرة .

وفي جمادي الأول من السنة الثالثة عشرة [٢] ، اشتبك الجيشان العربي والبيزنطي في ملحمة رائعة تجلت فيها الشخصية القتالية المتطورة لدى العرب ، رغم الأختلال الواضح بين امكانات كل من الطرفين . فالبيزنطيون كانوا أكثر كثافة وتفوقا في التسليح ، وكذلك عراقة في القتال ، بينما كانت القوات العربية محدودة الأمكانات والخبرة فضلا عن العدد . وكانت المعركة تجربة عظيمة للمقاتل العربي ، المتحرر من رواسب التخلف للعطاء بسخاء دون تهيب أو تردد . فجاءت النتيجة مذهلة في مفاجأتها للأمبراطور ، وهو يتلقى أنباء تحطيم قواته في أجنادين ، بعد أن كان مطمئنا الى قدرتها على دفع العرب خلف حدودهم في شبه الجزيرة . غير أن انتصار العرب الباهر لم يحسم الوضع في بلاد الشام ، حيث النفوذ البيزنطي الواسع ، ولكنه أسفر فقط عن سقوط فلسطين نهائيا في أيدي القوات العربية، فكانت المدخل الذي غير مجرى الأحداث

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ١١٤ .

في تلك المنطقة . فمن هناك أخذت هذه القوات في التقدم نحو الأردن ودمشق ، محاولة الأستفادة من انتصارها الكبير .

بيد أن ما حملته أخبار (المدينة) عن وفاة الخليفة أبي بكر ، بعد أسابيع قليلة من المعركة ، ساهم ليس فقط في تجميد الموقف الحربي على الجبهة الشامية ، ولكن في خسارة العرب بعض المواقع العسكرية المهمة. اذ أن (المدينة) التي حسمت مسألة الخليفة الجديد بالسرعة القصوى ، أجرت في الوقت نفسه بعض التغييرات في القيادات العسكرية ، كان منها عزل خالد من قيادة الجبهة الشامية وتعيين أبي عبيدة بن الجراح مكانه ، وهو أحد المقربين من الخليفة والمتحالفين معه في مؤتمر السقيفة . ولقد كان لذلك بدون ريب تأثيره غير الايجابي على الموقف العسكري للعرب في الشام . وكنا قد أشرنا سابقا الى المسوغات التي دفعت عمر بن الخطاب الى ازاحة خالد عن القيادة ، وهي في ذاتها تجسيد للنهج الذي سار عليه هذا الخليفة في الحكم ، دون أن يكون مجال للاخذ بأي اعتبار يتناول العلاقة الخاصة بين الرجلين . اذ أن خالدا ظل من الناحية العملية شاغلا معظم صلاحيات القائد العام ، خاصة ما أظهره أبو عبيدة من روح تعاونيه نحو القائد المعزول والحرص على الافادة من مواهبه وخبراته . وكان لموقف ابي عبيدة تأثيرا ايجابيا على مسار المعركة ، بحيث أن العرب ما لبثوا أن استعادوا زمام المبادرة واستأنفوا تحركهم العسكري ، فزحف خالد نحو دمشق وحاصرها بالتنسيق مع أبي عبدة ، الذي زحف بدوره الى الشمال مستهدفاً حمص ، مركز الامبراطور .

غير أن هرقل ، العسكري المحترف، لم يدع الهزائم تدفعه الى اليأس والتراجع . وكان قد شغل وقته بعد (أجنادين) باعادة تشكيل قواته وتكثيفها ، على نحو يطمئن معه الى تعديل الموقف في الشام لمصلحة

البيزنطيين . وأحاط الحملة الجديدة التي أعدها ، بهالة من الضخامة والدعاية ، فضلا عن تعيين قائد أرمني الاصل عليها ، في اتجاه الى استنفار الشعوب المسيحية الواقعة تحت الحكم البيزنطي ، مما جعل هذه الحملة تتخذ طابعها الصليبي المقدس. ومرة أخرى نصطدم بضخامة الأرقام التي يوردها المؤرخون العرب ، التي تشير الى أن الجيش البيزنطي بلغ نحو مئتي ألف مقاتل [1] ، حشدوا في وجه القوات العربية التي لم يتحسن وضعها الا قليلا عن (اجنادين) . والحقيقة انه رغم قدرة البيزنطيين على استقطاب ما يفوق بكثير الامكانات العربية ، الا أن هذا الرقم مبالغ فيه الى حدّ كبير ، على ضوء ما نعتقده من استحالة التحرك بهذا العدد الضخم ، ضمن الوسائل المحدودة المتوفرة في ذلك الوقت . كذلك فأن مسألة الاحصاءات في التاريخ ، لا تبعث على الثقة في الغالب، فهي تخضع عادة لتقدير سريع وغير دقيق ، ولا نستثني أيضا الاحصاءات الحديثة التي تأخذ أرقامها أحجاما لا تتلاقى معظم الأحيان والواقع .

وكان لا بد أن يؤدي هذا الأختلاف الظاهر في حجم القوتين المتصارعتين ، الى اضطراب في الموازين والمعادلات . فالعرب صدمتهم المفاجأة وأرتبكوا أمام هذه الجحافل في الجيش البيزنطي ، ولم تجد القيادة بدا من اتخاذ قرار بالأنسحاب الى الجنوب متخلفة عن دمشق وبقية المواقع . وعلى مقربة من اليرموك ، أحد روافد الأردن ، توقف الأنسحاب بانتظار قرار نهائي على ضوء المعطيات المستجدّة . وحينذاك احتدم الجدل والنقاش ، لأن تيّارا تراجعيا ساد المعسكر ونصح بالانكفاء الى الحجاز ، حيث احتمالات النصر تكاد تكون برأيه معدومة . غير أن التيّار المؤيد للحرب ، هو الذي رجّح القرار الأخير وكان على رأسه خالد

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٣٥ .

بن الوليد ، بما لديه من تأثير قوي على المقاتلين ، فأدى موقفه الى رجحان المواجهة والتصدي ، دون الأهتمام بالتفاوت الكبير في القوى بين الطرفين [1] .

وفي السهل المجاور لليرموك ، اتخذ العرب معسكرهم بعد مسح دقيق لجغرافية المنطقة الواقعة في دائرة المناخ الصحراوي المتطرف . حتى اذا التحم الجيشان في يوم لاهب من شهر آب ، تدخلت الطبيعة أيضا برياحها الساخنة [2] ، ولكن لغير مصلحة البيزنطيين ، الذين وصلوا منهوكي القوى بعد مطاردة طويلة ، وتحت تأثير ظروف جغرافية صعبة لم يألفوها تماما في تجاربهم العسكرية . بالأضافة الى مؤشر آخر ، يتعلق بتركيبة الجيش البيزنطي ، الذي كان خليطا غير متجانس ، مما أسفر عنه غياب التعاون وفقدان الأنسجام ، فبدا الجند متثاقلين ومتحركين ببطء ، تفتك بهم حرارة الشمس القوية . أما المؤشر الأخير ، فهو أن العرب ، الذين كانوا على معرفة جيدة بالتفاوت العسكري بينهم وبين اعدائهم ، خاضوا مع ذلك حربا بطولية جريئة ، حيث خيارهم الوحيد . فقد عاشوا حينذاك لحظات الفداء ووضعوا سلفا حساب التضحية ، قبل أي حساب آخر . ولا ريب أن هذه الروح المتوثبة العالية كانت في مقدمة الأسباب التي حققت النصر للعرب في اليرموك ، أعظم معارك التاريخ العسكري ، وذلك بما حققته من نتائج انقلابية وجذرية في حياة المنطقة الشامية وغيرها من المناطق المجاورة التي خضعت في وقت لاحق للعرب . ويعطي المستشرق المعروف لامنس Lammens [3] ، في تقويمه

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٢) الازدي : فتوح الشام ص ٢٠٧ .

(٣) H. Lammens : la syrie ‘précis historique I 1 1 p. 56

لأسباب هزيمة البيزنطيين ، الأولوية للتناقضات التي سادت بين عناصر الجيش خاصة بين البيزنطيين وحلفائهم الأرمن ومن ثم الغساسنة ، الذين عدّلوا موقفهم في آخر ساعات المعركة (١) .

ولم يعد ثمة ما يعيق العرب من التقدم نحو الشمال، فانفتحت أمامهم أبواب المدن بعد القضاء على الجيش البيزنطي الكبير وما أعقبه من قرار (هرقل) بالانسحاب من سورية والتراجع الى القسطنطينية ، ومعه ذكريات هزيمته الحزينة والأولى في حياته العسكرية (٢) . أما العرب فقد انتشروا في كافة الأقاليم الشامية حتى جبال طوروس ، واستسلمت لهم المدن الكبرى ، باستثناء بيت المقدس (ايلياء) ، التي رغبت في تسليم نفسها للخليفة مباشرة . ومن جهة ثانية ، لم يتردد هذا الأخير في الأستجابة لهذه الرغبة ، فجاء الى الشام في أول رحلة له خارج شبه الجزيرة،تاركا لعليّ بن أبي‌طالب مهمة القيام بشؤون‌الخلافة‌أثناء غيابه(٣). فتسلّم مفاتيح المدينة من البطريرك (صفرنيوس) ، وعقد معه اتفاق الصلح الشهير الذي ينصّ على حماية أرواح وكنائس وممتلكات سكانها النصارى (٤) .

ولم يكن مجيء عمر الى الشام بهدف استلام القدس فقط ، لأن مهمات أشد خطورة كانت في انتظاره للبتّ بشأنها . ذلك أن العرب بعد

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ١٣٦ .

(٢) الطبري : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٥٥ .

A, Cheira :La Lutte en arabes et Byzantins .

(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ١٥٣ . ابن الاثير الكامل في التاريخ ج م ص ٢٤٦ ــ ٢٤٧ .

انتصاراتهم الباهرة فـي الشام والعراق ، وجدوا أنفسهم فـي مـأزق الأختيار .. اما التوقف عند هذا الحدّ ، والأهتمام بشؤون البلاد التـي سادت لهم ، واما المضيّ فـي الاتجاه التوسعي الـى مناطق جديدة . وكلاهما كان يصعب على القيادة العسكرية فـي الشام الأخـذ به دون الآخر . ولكن الخليفة ، وقد كان حاضر الذهن دائما ، دعا كبار القـادة الى اجتماع عسكري في (الجابيه) ، احدى عواصم الشام القديمـة ، نوقشت فيه السياسة التوسعية والخطوات اللاحقة . وانتهى المجتمعون الى قرار باستئناف الفتوح ، حفاظا على الانتصارات الكبيرة من جهـة ، ومحاولة للاستمرار في الأفادة من ظروف الدولة البيزنطية المواتية ، حيث انكفأت تداوي جراحات الهزيمة .

وهكذا ساد قرار الحرب ، وقفل عمر عائدا الى (المدينة) بينمـا تابع العرب فتوحاتهم في العراق، بما فيها فتح الجزيرة أو بلاد ما بين النهرين Mesopotamia [1] . وكانت هـذه الانجـازات بمستوى انتصاراتهم الشامية، بيد أنها تفوقت في نتائجها السياسية حيث أزالت أمبراطورية عريقة من الوجود ، هي أمبراطورية الفرس التي خضعت بكاملها للحكم العربي الأسلامي .

الجبهة الافريقية :

كانت مصر بظروفها السياسية والعقائدية ، امتدادا طبيعيا لبلاد الشام مع قليل من الأختلاف في المدى الذي ترتبط به هذه أو تلك بالحكـم

---

(١) تمّ فتح اقليم الجزيرة في سنة ١٨هـ/٦٣٩ م على يد عياض بن غنم القائد الذي ورد اسمه في سجلات الفتوح الأولى في العراق الـى جانب المثنى بن حارثة الشيباني . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٧ و ٢٦١ — ٢٦٢ .

المركزي البيزنطي • فقد وحدت بينهما العقيدة المسيحية ، ولكن حسب مفهوم لا يتفق كثيرا مع المذهب الأمبراطوري (الملكاني) [1] ، حيث أدى الى ما عرف باليعقوبية [2] التي اعطت المسيحية في جنوب الشام ومصر شخصية خاصة ومستقلة • وكان ذلك مبعثا لسخط البيزنطيين ولجوئهم الى اضطهاد اليعاقبة بين حين وآخر ، رغم الأعتراف الرسمي بكنيستهم منذ منتصف القرن السادس والميلادي •

ومن ناحية أخرى ، فان الفارق الرئيسي بين الأقليمين الشامي والمصري ، كان في العلاقة الادارية مع الحكم البيزنطي • فهو غير مباشر في بعض أجزاء الأولى ، حيث قامت دويلة عربية (الغساسنة) متحالفة مع البيزنطيين، بينما كان مباشرا في الأقليم الثاني، يدار بواسطة حاكم بيزنطي• أن الحضور السياسي ، حتى في مصر ، كان حضورا واهيا ، مما أدى الى انعدام التوازن في العلاقة بين الأمبراطورية وبين رعاياها في الأقليمين • واقتصر الأمر على مراكز عسكرية في المدن الكبرى ، وبعض الحاميات المنتشرة في الداخل ، فكانت المظهر الوحيد للسيادة المركزية ، والأداة التي تؤمن المصالح الحيوية للدولة الحاكمة •

والحقيقة أن مصر، شأن سورية، لم تكن متحمسة لهويتها البيزنطية، التي افقدتها ما يمكن أن نصفه بالمسؤولية الوطنية • فقد سادت حينذاك موجة من اللامبالاة، اجتاحت عواطف الشعب وعزلته عن الأمبراطورية ومواقفها• ذلك أن أن سطحية الولاء المصري للسيادة البيزنطية ، خاصة في الفترة

---

(١) معتقد الدولة البيزنطية الذي يؤمن بطبيعتين للمسيح : الهية وبشرية ، عبد المنعم ماجد :التاريخ السياسي للدولة العربية ج ١ ص ٢١٣ .

(٢) سميت بهذا الاسم نسبة الى مؤسس الكنيسة السورية يعقوب البرادعي في سنة ٥٤٢ م نولدكه : امراء غسان ص ٢٠ .

المعاصرة لظهور الأسلام ، كانت تغذّيها الممارسات القمعية ، التي ارتبطت خصوصا بآخر الحكام البيزنطيين قيروس Cyrus [(١)] ، الذي سعى الى تنفيذ برنامج (هرقل) الهادف الى تدعيم مركزية النظام ، بضرب المذاهب المتعارضة مع المذهب الرسمي للامبراطورية .

لقد كانت الأجواء السياسية والأجتماعية في مصر مهيأة الى حد كبير ، لخدمة المشاريع التوسعية لدى العرب . وعدا ذلك فهي تمثل الامتداد الطبيعي من وجهة النظر الأستراتيجية لبلاد الشام وبالعكس أيضا [(٢)] . ولعل في ذاكرة التاريخ النماذج الكافية لهذا التصور ، حيث كان الأرتباط عضويا بين كل من القطرين ، تحتّمه الضرورات الجغرافية والعسكرية والأقتصادية . وكان من البديهي أن يتأثر العرب بعد سيطرتهم على الشام بهذه الحقيقة للاسباب نفسها . فكانت مصر في الأطار العام ذات بعد استراتيجي ، وهو ما ناقشه مؤتمر الجابية الحربي بجدّية ونظرة بعيدة للامور .

وفي الجانب الآخر ، ترتبط خطة الأستيلاء على مصر ربما بالموقف الذي اتخذته بيت المقدس وقرار حاكمها [(٣)] ــ حسب ما يرويه الطبري ــ في اتخاذ مصر مركزا للمقاومة ضد العرب ، الأمر الذي دعا القيادة العربية في الشام الى مطاردة الحاكم بناء على اقتراح عمرو بن العاص في الجابية. ويعود اسم هذا الأخير الى التداول في رواية ابن عبد الحكم ، الذي يورد

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٣٧٥ .

(٢) محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية ص ٤٧ .

(٣) كان يدعى (أرطبون) . الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٤ ص ١٦١ .

اقتراح ابن العاص على الخليفة حول أهمية مصر وضرورة السيطرة عليها دعما للمشاريع العسكرية ، وذلك بما لديها من خصائص وما توفّره من امكانات على جانب كبير من الأهمية [1] . فان صحت هذه الرواية ، وان فتح مصر جاء اقتراحا من أحد كبار قواد الشام ، (عمرو بن العاص) ، فان هذا الأخير كان يملك على الأرجح معلومات مفصّلة ودقيقة عن الأوضاع الداخلية في هذا الأقليم . اذ أن هوة عميقة فصلت بين الدولة الحاكمة وبين المصريين ، المشدودين نحو تراثهم القومي التليد ، حيث فشل البيزنطيون في املاء فراغه . فاستحكمت السلبية في العلاقات بين الطرفين وأفرزت شعورا من التجاهل والاعتزال عن الأحداث المتواترة فوق هذه الأرض .

لقد كانت مصر في ذهن العرب حينذاك « من اكثر الأرض اموالا وأعجزها عن القتال والحرب » حسب عبارة المؤرخ المصري القديم ابن عبد الحكم [2] . ولا شك أن هذا الأخير كان يتحسس جيدا الدوافع التي شجعت العرب على اتخاذ قرارهم بالزحف على مصر . فهناك الحاجة الى مصادر هذه البلاد الغنية والى مواردها الغذائية تحديدا ، وذلك مع ازدياد الضغط الأقتصادي على شبه الجزيرة ، وتضاعف الأقبال على مواسم الحج بشكل خاص [3]. وهناك أيضا العامل الاستراتيجي المتكامل

---

(١) يروي ابن عبد الحكم : أن عمرو بن العاص اشار على الخليفة عمر بقوله : انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهي اكثر الارض أموالا واعجزها من القتال والحرب . فتوح مصر والمغرب ص ٨١
Mauric Lambaıd : L'Islam dans sa premiére grandeur p. 22 - 26

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٨١ .

(٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٦ ص ٢٢٧ . بليابيف : العرب والاسلام والخلافة العربية ص ١٨٠ .

مع العامل الاقتصادي كما أشرنا قبل قليل • وأخيرا الظروف المهيأة كما جسّدها (ابن عبد الحكم) في عبارته الآنفة ، وهي ليست طعنا بالروح القتالية لدى المصريين [1] ، بقدر ما هي تصويرا واقعيا للعلاقة السلبية بين الحكام البيزنطيين والمحكومين المصريين . وسنرى أن التجاوب مع الفتح العربي ومن ثمّ التحول السريع الى العقيدة الاسلامية في مصر ، كان أحد ابرز ظواهر تلك العلاقة الواهية بين الفريقين المتناقضين •

وفي سنة ١٨هـ/٦٣٩ــ٦٤٠ م ، أي بعد عام من مؤتمر الجابية ، تقرّر تنفيذ القرار الذي اتخذ بفتح مصر ، وعهد الى عمرو بن العاص أحد البارزين في حروب الشام بقيادة هذه العملية • ويبدو أنه كلف خلال هذا الوقت بدراسة للاوضاع المصرية ، خاصة وانه كان حينذاك قائدا للحامية العربية في فلسطين المحاذية لمصر • حتى اذا استكمل ذلك، تحرك ومعه أربعة آلاف مقاتل باتجاه الجنوب نحو رفح ومنها الى العريش ثم الى حصن الفرما [2] ، حيث توقف قليلا دون أن تعترضه مقاومة ما . والحقيقة أن العرب اعتادوا عدم المجازفة باعداد كبيرة من قواتهم ، الا بعد الأختبار والأستطلاع على دقائق الموقف العسكري، ولقد رافق ذلك معظم أعمال الفتوح تقريبا • وتوقف عمرو بن العاص في الفرما بانتظار تعزيز قواته ، قبل الزحف على هليوبوليس Holiopolis (عين شمس) ، الواقعة في اقليم الدلتا • فسقطت بعد معركة قصيرة ، ومنها تابع العرب تقدمهم في قلب الدلتا الى حصن بابليون ، حيث اعتصم الحاكم البيزنطي (قيروس) ليصطدموا بأول مقاومة جدّية في مصر •

---

(١) عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج ١ ص ٢٤٤ •

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٥٨ .

وكان حصارا طويلا (أيلول ٦٤٠ م ــ نيسان ٦٤١ م) وتجربة جديدة بالنسبة للعرب ، الذين لم يمارسوا عمليا سوى حرب المواجهة التقليدية حتى ذلك الحين . وما لبثت فرقة أخرى أن التحقت بالحملة بقيادة أربعة من شخصيات (المدينة) [١] . وفي المقابل شعرت الحامية البيزنطية بعقم محاولاتها الدفاعية لاحباط الحصار ، ربما تحت تأثير الموقف غير الأيجابي في القسطنطينية ، الأمر الذي حمل (قيروس) على المفاوضة وتسليم الحصن للعرب . وكان لسقوط موقع حربي كحصن بابليون ، حشدت فيه أعظم طاقات البيزنطيين العسكرية في مصر ، التأثير الجذري على مسار المعركة . فلم يعد هناك مجال للشك ، بأن المبادرة قد اصبحت في أيدي العرب ، وأن أبواب السيطرة قد انفتحت أمامهم على هذه البلاد الواسعة . وفي رأي بعض المؤرخين المعاصرين ، بأن سقوط (بابليون) كان بمثابة انهيار خط الدفاع الأول في مصر [٢] ، حيث أن الطريق الى الأسكندرية التي يفترض أنها خط الدفاع الثاني وفقا لهذا التصور ، باتت سالكة بدون تعثر .

وفي الأسكندرية تعرضت الحامية البيزنطية لحصار طويل ، تراوح في روايات المؤرخين بين الثلاثة أشهر [٣] وبين السنة أو اكثر بقليل [٤]. ولم يكن مفترضا لعاصمة مصر العريقة والمحصنة ، أن تستسلم باليسير من الوقت ، خاصة وأن موقعها البحري ، كان من الممكن أن يساهم بدور

---

(١) الزبير بن العوام ، مسلمة بن مخلد ، المقداد بن عمرو ، عبادة بن الصامت . ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٩١ .

(٢) عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ص ٤٨٨ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٠٦ .

(٤) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٦٥ .

الحليف للمدينة المحاصرة • ولكن القسطنطينية التي افتقدت حينذاك أمبراطورها المهزوم (هرقل) ، وحملت حفيده (قنسطانز الثاني) الى العرش ، كانت متثاقلة الخطى منكفئة على معالجة شؤونها الداخلية • وهذا ما أوجد الفرصة الجيدة للدخول في مفاوضات نهائية بأشراف الأمبراطور ، الذي منح ممثله (قيروس) صلاحيات الأتفاق باسمه مع العرب • فاستسلمت الأسكندرية بشروط محددة ، على أن يمنح الفاتحون سكانها حرية المعتقد وحماية الكنائس والممتلكات (٢١ هـ/ ٦٤٢ م) [1] •

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٤ ص ٢٢٦ ـ ٢٣٠ •
السيوطي المحاضرة ج ١ ص ٥٢ •

استئناف التوسع نحو الغرب :

من الصعب الأجتهاد حول دوافع المبادرة التوسعية ، التي قام بها عمرو بن العاص باتجاه الغرب ، وذلك في اعقاب سقوط الأسكندرية • فقد تكون جزءا من الخطة التي استهدفت مصر ، أو نتيجة لظروف طارئة جابهت القيادة العسكرية ، فارتأت ضرورة تأمين الغطاء الدفاعي للحدود الغربية ، باحتلال مواقع أخرى تشغلها حاميات ومراكز مراقبة • ذلك أن الحملة التي قام بها عمرو بن العاص في هذا الأتجاه ، وهي التي أثمرت عمّا يعرف بفتح برقه وطرابلس ، لم يكن عملا توسعيا منظما مقرونا بجهود استيطانية أو تبشيرية على غرار ما سيحدث في مصر • ويبقى ثمة أفتراض ، بعدم وجود خطة مسبقة للفتح المنظم يتعدى مصر في تلك الفترة ، هو أن الجيش الذي قام بالسيطرة على هذه الأخيرة ، كان جزءا من القوات العامة التابعة للخلافة ، مما حال قطعا دون قيامه بعمل عسكري جديد في أرض غير معروفة • ومعنى ذلك أن أية مساعدات اضافية ، لا بد أن يكون مصدرها الخلافة وليس مصر ، الحديثة العهد بالحكم العربي [1] •

ونعود الى التساؤل مرة أخرى عن الطريق الذي استخدمه عمرو بن العاص في مهمته الجديدة ؟ فالمصادر التاريخية تعتقد أنه سلك الطريق المحاذي للساحل •• وهو اعتقاد مقبول ، لأن التحرك العسكري انطلق

---

(١) ابراهيم بيضون : الدولة العربية في اسبانيا ص ٢٠ •

حينذاك من الأسكندرية على الأرجح . ولكن هذا الاعتقاد يحمل افتراضا بغياب البحرية البيزنطية، وقد لا يكون هذا الفراغ العسكري أمرا طبيعيا، الا اذا سلمنا بأن المنطقة كانت خالية من القواعد الحربية [1] ، أو أن البيزنطيين تابعوا هنا سياسة التجاهل التي ظهرت في مصر . ويشير ابن عذاري المراكشي [2] ، الى أن عقبة بن نافع ، أحد مشاهير الفاتحين العرب في المغرب في وقت لاحق ، قاد عملية استطلاع الى برقه ، وعاد يحمل تشجيعا للقيادة بتنفيذ تحركها نحو الغرب . وما لبث الجيش الرئيسي بقيادة عمرو بن العاص ، أن اتخذ طريقه الى برقه ، البوابة الأولى للمغرب الكبير ، وكانت على الأرجح تتمتع باستقلال ذاتي بزعامة القبيلة (البترية) لواتـه ، وكما يحدث عادة فأن الدول الكبرى لا تشجع على هذا النوع من الأستقلالية ، الأمر الذي جعل الوفاق مفقودا بين هذه القبيلة وبين البيزنطيين ، وحملها على الترحيب بالقوات العربية والأستسلام لها ، وربما احتفظت باستقلالها الذاتي مقابل ضريبة سنوية تؤديها للعرب [3] .

وتابع القائد العربي تقدمه الى طرابلس ، وكانت أكثر مناعة وتحصينا من برقه ، مما أدى الى حصارها نحو شهر تقريبا . وكان لعامل المفاجأة دوره في اسقاطها ، اثر هجوم ناجح قام به العرب من ناحية البحر [4] . وبعد استسلام المدينة ، توقفت العمليات الحربية غربا ، لتستأنف نشاطها

---

(١) من المعتقد ان التواجد العسكري البيزنطي كان محصورا بشكل أساسي في قرطاجنة القاعدة الكبرى .

(٢) البيان المغرب في اخبار المغرب ج ١ ص ٨ .

(٣) يحددها ابن عذاري بثلاثة عشر الف دينار . البيان المغرب ج ١ ص ٨ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٣١ .

نحو الجنوب ، حيث الواحات التي اتخذها البربر مراكز استقرارهم في الداخل • وكان عقبة بن نافع يعمل منذ سقوط برقه بالتنسيق مع الجيش الرئيسي ، وذلك لأحباط العمليات المضادة والمفاجئة ، المتوقعة من البربر، وأسفرت جهوده عن احتلال فزان وزويله [٣]• وبينما عاد عمرو بن العاص الى (الفسطاط) [٤] ، المعسكر الجديد الذي آقامه العرب على مقربـة من حصن بابليون ، ظلّ عقبة في افريقية متفرغا لنشاط العسكري في هذه الأرض ، حيث أصبح متلازما بشكل عضوي مع الفتوحات العربية فـي هذه المنطقة •

وفي مصر ، انصرف عمرو بن العاص وقتا للشؤون الداخلية وتنظيم المؤسسات المالية والعسكرية ، بعد أ ان صبح أول حاكم عليها في اطـار الأسلام • ورغم ما قيل في شخصية هذا القائد من نزوع الى المغامـرة والانتهازية [٥] ، فأن الانجاز الحربي العظيم الذي حققه ، بسيطرة العرب على مصر وبعض أفريقية ، قد دفعه الى مصاف البارزين في القيـادات العسكرية والسياسية في ذلك العصر • ولنا أن نتساءل عن علاقة هـذا القائد ــ الذي أظهرته الأيام بنزعة الوصولية وتعطشه الـى السلطة ــ بالخليفة القوي والمتشدد عمر بن الخطاب ؟ وهل كان سيحتفظ بمنصبه طويلا ، أم أن مصيره لن يختلف عن الذين سبقوه من أمثال خالد والمثنى وسعد ؟ ولكن ما حدث في (المدينة) أبقى هذا التساؤل من دون جواب، اذ تمّ اغتيال الخليفة بعد عام واحد فقط مـن استلام عمرو بـن العاص

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٣٠ . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٦٠ •

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٦ ص ٣٧٧ •

(٣) بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٨٤

مهامه كعامل على مصر (٢٣هـ/٦٤٤ م) • ويبدو أن هذه الحادثة لـم تكن عادية في اسبابها وملابساتها ، فالظروف التي رافقتها والبراعـة المدهشة في حبك خيوطها ، كل ذلك يبعث على الاعتقاد بأن وراء الأغتيال اسبابا سياسية ، تتعدى التعليل الرسمي الساذج الذي صدر عن الخلافة بعد ذلك • وسنعود الى مناقشة هذه القضية مفصلة ، بعد الأنتهاء مـن الفتوح الراشدية في افريقية ، حيث استؤنفت فـي عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفّان •

تسلّم عثمان الخلافة في ظـلّ اجواء خاصة ، تشبه فـي بعض جوانبها تلك التي اعقبت وفاة النبي . ولقد جمع هذا الخليفة بين هويته الأرستقراطية بحكم انتمائه للبيت الأموي ، صاحب النفوذ الأقوى فـي المجتمع المكّي القديم وبين هويته الأسلامية المبكرة ، التي منحته موقعا مميزا ليس فقط في بيئته التجارية حيث كان رائدها الى العقيدة الجديدة، ولكن أيضا في اطار النخبة الأولى المناضلة مع الرسول في بدايات الدعوة• واذا كانت هويته الثانية قد رشحته لمنصب الخلافة ، فلقد زكّي هـذا الترشيح ووضعه موضع التنفيذ ، فئة معينة كان من أهـدافها أن تمتّد خطاً الى مراكز السلطة عبر الهوية الأولى للخليفة ، الموحّدة للمصالـح المشتركة . ذلك أن التيّار الأرستقراطي الـذي كان لا يـزال يمثّلـه الأمويون وحلفاؤهم ، كان هو الاتجاه الغالب فـي مجلس الشورى أو مجلس السته [1] ، الذي كان عليه أن ينتخب خليفة لعمر بـن الخطاب • وجاءت النتيجة كما توقعها العارفون بالخلفيات المحركة لهذا المجلس ، لمصلحة الشيخ الأموي المسّن عثمان بن عفان . فكان انتخابه كما قـال

---

(١) الزبير بن العوام ، طلحة بن عبيد الله، علي بن ابي طالب، عثمان بن عفان ، سعد بن أبي وقاص ، عبد الرحمن بن عوف •

مؤرخ معاصر « مصطبغا بصبغة التحيّز نحو الأمويين » [1] .

وهكذا ، لأول مرة في تاريخ الدولة العربية الأسلامية ، سجّل منصب الخلافة على هذا النحو السافر عملية انتصار لتيّار وهزيمة لآخر. فقد كان الخليفتان السابقان ، نتيجة انتمائهما السياسي والأجتماعي لاتجاه معتدل ، قادرين على اتباع خطّ متوازن يرضي الأطراف المختلفة ولا يثير الخصوم . وقبل كل ذلك ، كانت لكل منها ارادته الصلبة في الحكم وأسلوبه الصارم في تطبيق القوانين دونما استثناءات ، وخلافا لهذا الواقع جاءت خلافة عثمان مرتهنة لأولئك الذين ساهموا بشكل أو بآخر في اختياره.فكان لا بد أن تشرّع الادارة الجديدة أبوابها للعديد منهم، يتقاسمون النفوذ فيها دون مراقبة أو حساب.واذا كان أي نظام يقوم من خلال الأدوات البشرية البارزة فيه ، فأن عهد عثمان يمثّل ذروة التدهور السياسي في ذلك الوقت ، حيث القانون يحكم بمنطق المثاليات والردع الذاتي [2] . لقد كان مروان بن الحكم ، الرجل القوي في خلافة عثمان ، فهو المستشار الأول وهو رأس السلطة التنفيذية، وهو الذي يعين الولاة والموظفين ويعزلهم الى آخر ذلك . ولم يكن مروان يملك من مقوّمات هذه الامتيازات الا انه ابن عم الخليفة [3] . ومعنى ذلك أن عثمان تجاهل كل الشخصيات التاريخية التي عاصرت الرسول وناضلت معه في الدعوة ، وانصرف الى اختيار معاونيه من اتجاه معروف بغير مودته للنهج التغييري والأصلاحي الذي ساد المنطقة حينذاك . واتخذ حكم الأقارب هويته الأموية السافرة في بقية المراكز في الدولة ، فاذا

---

(1) محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية ص ٥٧ .

(2) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٤ .

(3) المصدر نفسه .

بالخليفة الذي جاء لتنفيذ دور معين من وراء شخصيته المسنة والضعيفة، أصبح أسير مجموعة [1] غير مسؤولة ، أثارت بسلوكها المشبوه النقمة والكراهية ضد الخليفة نفسه، الذي كان عليه أن يدفع ثمن اخطاء استدرج اليها .

بيد أن هذا العهد اقترن بجوانب ايجابية ذات أهمية ربما أبرزها المبادرة التي جمعت القرآن في كتاب واحد ، بعد أن كانت سوره وآياته متناثرة في ذاكرة الصحابة والتابعين والكتّاب . ولقد جاء هذا الانجاز بعد فتح أرمينية [1] ، حيث لاحظ أحد القادة ، وهو صحابي كبير [2] ، التفاوت الواضح في قراءات القرآن بين الجند . فقدّم تقريرا الى الخليفة بهذا الشأن ، لتدارك التغيير أو التحريف في الآيات القرآنية ، وذلك بجمعها في كتاب موحد ، فدعا عثمان كبار الصحابة ، خاصة الذين يحتفظون بالنصوص الكاملة ، وطلب منهم الشروع في تدوين القرآن ، حيث خرج من بين أيديهم ما يعرف حتى اليوم بمصحف عثمان، تخليدا للمبادرة التي قام بها هذا الخليفة .

ولا يستطيع الباحث أيضا أن يتجاهل دور عثمان في السياسة التوسعية ، التي كان لها بعض القفزات في عهده . ورغم أنها جهود

---

(١) من ابرز معاوني عثمان الذين اثاروا السخط عليه الى جانب مروان : معاوية بن أبي سفيان . واليه على الشام ، عبد الله بن سعد بن أبي سرح (مصر) ، عبد الله بن عامر (البصرة) ، الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص (الكوفة) . وجميع هؤلاء من اقارب الخليفة . المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٤ .

(٢) فتحت ارمينية على يد حبيب بن مسلمة الفهري سنة ٢٥هـ. ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٠ ـ ٤٢ .

(٣) حذيفة بن اليمان . راجع السيوطي : كتاب الاتقان في علوم القرآن ص ١٠٢ .

متواضعة اذا ما قيست بأعمال سلفية ، فأن قيمتها العسكرية كانت على جانب من الأهمية ، فعلى الساحل السوري . الذي كان حتى ذلك الحين مكشوفا للسفن البيزنطية المعادية، ظهرت نواة الأسطول العربي الأسلامي، وهو أحد انجازات واليه على الشام معاوية بن أبي سفيان . ولقد أدرك هذا الأخير منذ وقت مبكر خطورة هذا السلاح ، فدأب على انشاء دار لصناعة السفن معتمدا على الخبرات المحلية في سورية ومصر . وكان معاوية منذ أن تسلم قيادة الشام بعد وفاة أخيه يزيد (١٨هـ/٦٣٩ م) ، وهو يعمل على تثبيت أقدامه في تلك الأرض ، التي ارتبطت بعلاقة خاصة مع الأسرة الأموية قبل عشرات السنين . ويبدو أن ضعف السيادة المركزية من جهة ،وعلاقات القربى من جهة أخرى ، شجعا حاكم الشام على اتخاذ مبادرات ، ربما لم تكن الخلافة على صلة وثيقة بها ، فجاءت منسجمة مع طموح معاوية في أن تكون الشام مركز استقطاب لمشاريعه السياسية المستقبلية . ووجد أن أولى الخطوات في سبيل ذلك ، هي اضفاء نوع من المركزية على ادارته وانشاء قوة عسكرية ضاربة ، تتولى حماية هذا النمط الاستقلالي الرائد في الدولة العربية الأسلامية ، ومن ثم الدفاع عن شواطىء ولايته المهددة بين حين ،وآخر بغارات الأسطول البيزنطي المهيمن على مياه المتوسط .

وكان من حسن الصدف أن لا يكون للبحرية البيزنطية أي دور ملحوظ خلال العشرين عاما التي أعقبت هزيمة هرقل في اليرموك وانسحابه الى القسطنطينية . فقد عانت هذه الأخيرة من الشلل الذي أصاب مؤسساتها ، خاصة العسكرية وذلك تحت تأثير الهزيمة التي وضعت حدًا لطموح هرقل وحياته ، وأحدثت فجوة في النظام البيزنطي ، حيث

الأنقسامات في الأسرة الحاكمة [1] ذرّت قرنها وقتا ، مما أدى الى بعثرة طاقات الدولة في مشاكل داخلية ، وأضاع من يدها فرصة لن تعوض في الصراع بينها وبين العرب .

غير أن الأوضاع البيزنطية أخذت تستعيد مسارها الطبيعي ، بعد انحسام الأمر لمصلحة قنسطانز الثاني حفيد هرقل . وكان متأثرا شأن هذا الأخير بالكارثة التي أحاطت بدولته في سورية ، وجعل في صلب أهدافه ، الانتقام من القوة الجديدة التي فرضت نفسها على الساحل السوري . ولكن الأمبراطور رغم نجاحه في تطويق الأزمة السياسية في الداخل ، فان هموما أخرى كانت تعيق تحركه بحرية ، وفي طليعتها التهديدات السلافية لحدوده في البلقان . فأمضى وقتا ، انصرف فيه الى معالجة مشاكله الحدودية في الغرب ، قبل أن يتفرغ لمعركته ضد العرب . حتى اذا تجاوز هذه المشكلة ، خرج على رأس قوة بحرية بمحاذاة الساحل السوري ، تنازعه أحلام العودة الى هذه المنطقة . ويبدو أن استخبارات الأمبراطور فاجأته بالقوة الدفاعية المنيعة التي اعدّها معاوية لحماية ولايته ، فحوّل هدفه الى الأسكندرية ، وكانت هذه على أهبة الاستعداد أيضا ، اذ أن حاكمها عبد الله بن سعد ما كاد يشعر بنوايا الأمبراطور البيزنطي حتى تحرّك بدوره على رأس الأسطول الشامي القوي ، متعقبا آثار تّده البيزنطي . وكانت ردّة الفعل

---

(١) لقد حدث خلاف بين قسطنطين الثالث ابن هرقل وولي عهده ، وبين زوجة ابيه مارتينا التي كانت تسعى للمجيء بابنها هرقلوناس الى الحكم تحت تأثير علاقاتها القوية في الدولة . ولكن مشاريعها احبطت لصالح ولي العهد المحبوب شعبيا ، غير ان حكمه لم يستغرق اكثر من شهور قليلة ، فتوفي في ظروف غامضة وانتقل الحكم بعده الى ابنه قنسطانز الثاني (٦٤٢ م) . ابراهيم العدوي : الامويون والبيزنطيون ص ٧٤ — ٧٦ .

العربية علـى قدر مـن المستوى ، سرعـة وتنظيمـا ، الأمـر الـذي أربك الأمبراطور ودفعه الـى التراجع ، خاصة وأن المكـان حيث جرت المعركة [1]، يوحي بأن هذا الأخير قرّر على الارجح العودة الى عاصمته وصرف النظر عن خطته الهجومية • لقد كانت تجربة رائعـة للاسطول العربي الذي انتزع النصر فـي معركة مبتكرة ، خاضها المقاتلون علـى متن السفن بأسلوبهم التقليدي المعروف في الحرب [2] • وجاءت نتائجها المذهلة صدمة لأحلام الأمبراطور وخلفائه فيما بعد ، بالعودة الى المنطقة• ولا بّد من الاشارة الى أن هذا الاقتصاد كان محصّلا لجهود معاوية ، مؤسس البحرية العربية التي كانت الأداة الفاعلة لتثبيت اقدامه في هـذا الأقليم ، ومن ثّم تحقيق اهدافه السياسية الخاصة وسط هذه التحدّيات الداخلية والخارجية •

واذا تخطينا النطاق البحري لسياسة الخليفة التوسعية ، حيث كان لمعاوية الدور الريادي في المقارعة البحرية مع البيزنطيين في أقليم الشام، فأن ملامح هذه السياسة قد تجلّت في وقت سابق ، واتخذت محورهـا الرئيسي على الجبهة الأفريقية • والحقيقة ، فأن عثمان حاول في هـذا المجال الألتزام بنهج سلفية أبي بكر وعمر ، حيث نجحا في تحويل الفتوح الى قضية محورية تسير وفق برنامج زمني واستراتيجية ثابتة . بالأضافة الى ذلك ، كانت هذه المسألة تستأثر بتشجيع الخليفة ومعاونيه ، الذيـن وجدوا فيها تغطية لأخطائهـم وتجاوزاتهم ومـن ثّم اسكاتـا للضجيج والانتقاد حولهم • ومـن هؤلاء كـان عبد الله بن سعد بـن أبي سرح،

(١) معركة «ذات الصواري» التي جرت في سنة ٣١ هـ على مقربة من سواحل آسيا الصغرى . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٥٥ — ٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٦ •

حاكم مصر الذي تحمس لسياسة التوسع هذه وعمل على استئناف ما قام به سلفه عمرو بن العاص في أفريقية ، ممهدا لذلك بسلسلة من الحملات الأستطلاعية الصغيرة .

وفي سنة ٢٧هـ / ٦٤٧ م ، تقرر البدء بالتحرك في أعقاب وصول المساعدات العسكرية من (المدينة) . بيد أن الترتيبات التي أعدت لهذه العملية ، وما رافقها من ضجة اعلامية ، أدت الى اصطباغها بصبغة سياسية أكثر منها جهادية . وقد شجع على هذا الأعتقاد ، اصرار الخليفة على أشراك عدد من أبناء الصحابة البارزين فيها [١] ، بعد أن كان الخليفة السابق قد جمّد نشاطهم سياسيا وعسكريا خارج (المدينة) طوال عهده. وفي تلك الأثناء ، كان الحاكم البيزنطي في أفريقية (جريجوريوس) ، الذي امتدّ نفوذه المباشر الى الغرب من طرابلس ، قد اتخذ مركزه في قرطاجة القاعدة البحرية الشهيرة [٢] . ويبدو أن ظروف دولته غير المواتية،حالت دون تدخله قبل ذلك واعتراضه تقدم العرب قبل نحو خمسة أعوام . فعمل على الافادة من غياب النفوذ العربي الفعلي في طرابلس، مستدرجا سكانها الى التمرّد في محاولة لأشغال الحملة بمعركة جانبية [٣] . بيد أن خطة الحاكم البيزنطي لم تحقق النجاح ، فقد استطاع العرب رغم مفاجأتهم ، قمع العصيان في المدينة ومتابعة

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٦ . ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٣٦٢ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٣٤٦ . ابن الاثير : الفاعل في التاريخ ج ٣ ص ٤٣ .

(٣) ابراهيم بيضون : الدولة العربية في اسبانية ص ٢٣ .

الزحف دون تأخير حتى سبيطله [1] ، معسكر البيزنطيين . وهناك جرت معركة عنيفة انتهت لصالح العرب وتدمير الجيش البيزنطي ، ومقتل قائده (جريجوريوس) [2] . على أن نتائج الأنتصار السياسية كانت متواضعة، باعتبار أن الفائدة الوحيدة التي عاد بها العرب من حملتهم اقتصرت على الغنائم ، دون مساهمة ما في تغيير خارطة المنطقة أو أضافة جديد الى الولاية الأفريقية [3] .

ولم تندرج هذه الحملة في عمليات الفتح المنظم الذي استهدف أفريقية الشمالية حقبة طويلة من الزمن ، فقد عكست في المقام الأول شخصية قائدها ورغبته في الأكتفاء بعمل استعراضي محدود الأهداف.

ولا بد من تسجيل خطأ استراتيجي ارتكبه عبد الله بن سعد بعد انتصاره في سبيطله ، وهو تجاهله للظروف المشجعة حينذاك لأستقرار العرب في هذه المنطقة ، وذلك في اعقاب الضربة الموجعة التي تلقاها البيزنطيون ، والغياب الملحوظ لمقاومة البربر . فعودة القائد العربي الى حيث بدأ ، دون أن يترك وراءه حاميات عسكرية أو يقيم مراكز استقرار دائمة ، الغت كل جهوده بما فيها الانتصار الكبير . وهذا سيترك آثاره السلبية على هذه الجبهة ، التي قدر لها أن تشهد أطول محاولة توسعية قام بها العرب في تاريخهم العسكري .

---

(1) تقع الى الغرب من صفاقس في تونس حاليا . كما تقع الى الجنوب من القيروان ، القاعدة العسكرية التي انشأها عقبة بن نافع في وقت لاحق .

(2) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٤ .

(3) التعبير الذي استعمل في عهد عمر ويقصد به البلاد الواقعة الى الغرب من مصر .

وباستثناء العمليات العسكرية الخفيفة التي قام بها عقبة بن نافع من حامية برقه ، والتي تركت بعض التحفظ لدى البربر ، المتذبذبين حينذاك في موقفهم من العرب بين الترحيب والحذر والعداء ، فأن جمودا ملحوظا طرأ على هذه الجبهة وعلى بقية الجبهات ، في المشرق والمغرب • ففي أعقاب الأضطراب الذي عصف بالسلطة المركزية ، والذي كان أخطر ما فيه انصراف القادة العسكريين عن ثكناتهم وفتوحاتهم ، الى الأنغماس بالشؤون السياسية • ولعل موقف هؤلاء كان نابعا من الشعور بالغبن والحرمان ، وهم صانعو الأنتصارات وفاتحو البلاد ، المحتكرة في ذلك العهد من جانب الأقارب والمعاونين الذين شكلوا دعامة (الحكم العثماني) • فكانت تلك المحنة ، التي فجرت لأول مرة ما تفاعل في النفوس من انتقاد واعتراض ، أخذ يتمحور تدريجيا وبجرأة حول مركز الخلافة ، الذي أصبح في موضع التهمة المباشرة •

مؤسسة الدولة في عهد عمر

لم تكن الخلافة في الجانب اللفظي والمعنوي اكثر من اصطلاح تـم التداول به عفويا في مستهل العهد الراشدي • أما دلالتها المباشره فتعني أن حاملها هو خليفة الرسول بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، ينتهج نهجـه ويسير مساره دون تعديل أو تغيير • ولعل (الماوردي) كان الأكثر دقة في تحديد المفهوم الأسلامي لهـذه الكلمة بقوله : « الامامة موضوعـة لخلافة النبوة في حراسة الدين وساسة الدنيا وعقدها لمن يقوم في الأمة واجب بالأجماع » (١) • فالرسول قبـل موته لم يحـدد المضمون ولا الشكل للمنصب الذي تولاه كرجل دولة بالأضافة الى صفته النبوية • ولكنه ترك تراثا غنيا ، كان بمثابة الضوء الذي تلمس أثره واستهدى به الخلفاء الأوائل • وكان هـذا الأزدواج المتقن بـين السلطات الروحيـة والزمنية الذي مارسه محمد ، الرسول ورجل الدولة ، كأول ظاهرة فـي التاريخ ؛ أن حدد الأطار العام لمؤسسته الخلافة عبر هذا الأنسجام المطلق في الصلاحيات • ولقد حافظ أبو بكر على روحية هذا التلاحم وأعطى ــ رغم التمثل الدقيق بالعهد الذي سبقه ــ للخلافـة دورها المحـدد ومضمونها الخاص ، الذي اتصفت به خلال القرون اللاحقة من التاريخ العربي الأسلامي •

ولم يكن مطلوبا من الخليفة الأول وولايته القصيرة ، والمتخمـة

---

(١) الاحكام السلطانية والولايات الدينية ص ٣ .

عن شروط الخلافة راجع : A. Sanhoury : Le Califat Tome 4 p. 53 - 61

بالأحداث المهمة ، أن يعطي لهذا المنصب شخصية أكثر خصوصية ، حيث ستقع هذه المهمة على عاتق خليفته عمر • فقد وجد هذا الأخير نفسه ، ومن خلال ذلك الأمتداد الواسع للدولة الجديدة ، أمام ظروف مستجدة لا يمكن معها السير وواقع الحال • وكان الأمر يتطلب جرأة ومجابهة ، لا سيما في مجال الأصطدام بحالات خاصة ، ليست لها سابقة في العهد الأول من الأسلام • ولقد حدا ذلك الخليفة ، كونه رأس السلطتين الدينية والزمنية ، الى أن يتخذ صفة تشريعية كذلك لمعالجة المواقف الطارئة التي تواجه الحكم • وكانت هذه المبادرة الخطوة الأولى في عملية المزاوجة العضوية بين فكرة الخلافة في مفهومها الروحي في المقام الأول ، وبين مؤسسة الدولة كنظام زمني، معني بالأدارة والجيش والأقتصاد والفتوحات وغيرها •

ولم يكن عمر مبتدعا أو رائدا لفكرة الدولة ، كما قد يتبادر الى الذهن، وانما كان في الحقيقة المنفذ العملي لها حسب مفهومها المتطور في ذلك العصر • فقد تسلم تراثا غنيا في هذا المجال ، حيث التمازج العفوي بين عقيدة ونظام، متكامل أحدهما مع الآخر • ولكن التطوير الذي طرأ على أجهزة الحكم في عهد هذا الخليفة ، اعتبر أيضا نقلة غير عادية في اطار بناء الدولة ، بما يتجاوز ومفهوم العرب الذين كانت لهم مجرد معرفة سطحية بها قبل الأسلام • وبعد هجرة الرسول الى (المدينة) وظهور نواة الدولة الأسلامية الأولى، كانت المباديء الأساسية لهذه الدولة متمثلة بما عرف بـ (الصحيفة) ، التي كانت في محتواها نظاما خاصا ، حدد قواعد التعايش بين أفراد المجتمع الاسلامي الجديد ، ووضع اسس العلاقات الخارجية وعالج شؤون الحرب الى آخر ذلك • ولكن هذا النظام رغم الحاجة الماسة اليه في ذلك الوقت ، ورغم الأنقلاب الذي أحدثه في قوانين التعامل الأجتماعي والعلاقات السياسية ، فأنه ظل

الفترة في نطاق الأقليمية الحجازية والظروف الخاصة المتزامنة معه •
ولقد بقي هذا النظام يشغل دوره الطليعي في شبه الجزيرة، دون أن تكون حاجة لتطويره في ظل" مجتمع متجانس ، لا زال رجل الدولة فيه يجمع في قبضته كافة المسؤوليات •

واذا كان بديهيا أن عهد أبي بكر ، لم يكن أكثر من استمرار للعهد الأول وتطبيق مطلق للنهج السابق • فأن عهد عمر كان اكثر تعقيدا ، وذلك بفعل الأنتشار الكبير لنفوذ الخلافة ، والاحتكاك بشعوب أقدم تجربة في شؤون الحكم والعلاقات السياسية • وهكذا فأن التنظيمات التي أحدثها عمر في أجهزة الدولة ، جعلت هذه الأخيرة قادرة على القيام بدورها المطلوب في الظروف البيئية والأجتماعية المختلفة • وهي في مضمونها الخاص استجابة حتمية لتحدّيات أفرزتها الفتوحات الكبرى التي تمتّت بسرعة مذهلة [١] •

وكان (الديوان) أول أشكال الادارة العربية الجديدة ، المتأثرة بالتجربة المتقدمة لشعوب البلدان المفتوحة أو المجاورة لها • وكلمة (ديوان) في ذاتها فارسية الأصل ، معناها السجل أو الجدول [٢] • على أن لكلمة مضمونا أوسع في اللغة العربية ، اذ يصبح (الديوان) مترادفا

---

(١) يرفض المؤرخ الفرنسي المعاصر كلود كاهن القول بأن عمرا كان صاحب المبادرة الاولى في معظم المؤسسات التي نشأت في العالم الاسلامي . اذ من المسلم به حسب رأيه ، المباشرة منذ زمن الفتوخ بتنظيم الاوضاع الجديدة الناجمة عنها. تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص ٢٧.

(٢) يروي ابن طباطبا أن بعض مرازبة الفرس في (المدينة) نصح الخليفة عمر بقوله : « يا أمير المؤمنين ان للاكاسرة شيئا يسمونه ديوانا، جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شيء، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل » .الفخري في الآداب السلطانية ص ٨٣

مع الجهاز الأداري ، المنوط بـه تنفيـذ أعمال الـدولة الأدارية والمالية والعسكرية • فكانت مهمته كما نظر اليها ابن خلدون « القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج ، واحصاء العساكـر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف اعطياتهم في اباناتها ، والرجوع فـي ذلك الى القوانين التي يرتبها قومة تلك الأعمال وقهارمة الدولة ، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبنـي على جزء كبير من الحساب لا يقوم به الا المهرة من أهل تلك الأعمال ، ويسمى ذلك الكتاب بالديوان » (١) •

ولقد كانت بداية التحول الأداري في الانتقال من القاعدة البسيطة في المعاملات ، التي بدأت بالتوزيع المباشر للموارد المالية بين المسلمين ، وذلك وفقا للتقليد المعروف في توزيع الغنائم بين العرب في شبه الجزيرة• فلم يكن هنالك أي اختلاف بين ما يعود للمسلمين وما يعود لبيت المال، لان هذا الاخير لم يأخذ حينذاك دوره الطبيعي ، كمؤسسة عامة ، خاضعة لموجبات ادارية ورسمية • فقد ظلت النظرة السائدة الى بيت المال ، بأن كل عائداته المالية والعينية ملك للمسلمين ، وفـق المعنـى المجرّد لهذه الكلمة (٢) •

لقد كان ذلك أحد أبرز الدوافع التي ساهمت في خلق ادارة مالية، تعمل على تنظيم عائدات الخلافة وتوزيعها حسب جداول ثابتة ، علـى نحو تخرج معه هذه المؤسسة من دائرتها الضيقة الى الاطار الشامل والعام• وهكذا ظهر (الديوان) الذي كان أول مظاهر الادارة العربية الأسلامية،

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٣٠ .

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية ص ٨٣ .

والخطوة التنفيذية المباشرة في مسار بناء الدولة ، التي أخذت في النمو والاستقرار التدريجي منذ ذلك الحين •

وكان (بيت المال) في عهد عمر يستمدّ موارده من الغنائم بشكل رئيسي ، ومن الزكاة والعشر والجزية والخراج [١] • وكانت هذه الأخيرة على جانب من الأهمية ، خاصة بعد قرار الخليفة بابقاء الأراضي الزراعية في أيدي اصحابها الأصليين ، مما ساهم في توفير مناخ مشجع للاستقرار في البلاد المفتوحة من جهة ودعم عائدات الدولة المالية مـن جهة ثانية • وكان هذا القرار معبّرا عن نظرة الخليفة البعيدة في الوصول الى تحقيق الأنصهار والتلاحم بين مجتمعات هذه البلدان وبين العرب الفاتحين ، لا سيما وأن هؤلاء لم تكن لديهم التجربة الزراعية الكافية للقيام بهذا الدور• غير أن ذلك سيعكس تحفظا لدى الأرستقراطية الاسلامية في الحجاز ، وجلّها كان من بقايا التجار وأهل الثراء قبيل الأسلام• فقد وجد رجالاتها أن في قرار الخليفة هذا ، كبح لطموحاتهم في استثمار الأراضي الزراعية والاستفادة من الظروف المستجدة ، بعدمـا ألزمهم بالبقاء في الحجـاز والأقامة تحت مراقبته •

---

(١) الزكاة ضريبة يدفعها المسلمون وكانت غالبا على الابل والخيول في بعض الاحيان . اما **العشر** فهو الضريبة المفروضة على الضياع الكبيرة. وفي عهد عمر فرضت ايضا على التجار في شبه الجزيرة . **والجزيـة** ، ضريبة الرؤوس على غير المسلمين . وكانت تتأرجح قيمتها بين عهد وآخر غير المسلمين أيضا ، وتختلف باختلاف الفتح . فاذا كـان صلحا اتفق على
غير المسلمين أيضا ، وتختلف باختلاف الفتح . فاذا كـان ملحا اتفق على
قيمتها ، واذا كان عنوة ـ أي بالقوة ـ اعتبر البلد المفتوح قيمة للمسلمين او ما يعرف بالفيء . غير أن هذا النوع الاخير لم يطبق غالبا . مولوي حسيني : الادارة العربية ص ٨٤ ـ ٩٢ .

هذه المصادر ، كان يجري تسجيلها في (بيت المال) بأشراف ومسؤولية جهاز ينتدبه لهذه المهمة ، وفي مقدمته المسؤول الأول أو ما عرف بـ (صاحب بيت المال) • وكانت عمليات التوزيع تأخذ شكلها المنظم الذي يتعدى الهبة او المكافأة الى الرواتب المستقرة أو الى عطاء (الأسم التقني لها) ، فضلا عن الأموال المحوّلة بأمر الخليفة الى مشاريع ذات خصائص عامة • أما القاعدة التي اتخذت مقياسا لتوزيع العطاء ، فكانت لها خلفيات متصلة مبدأيا بالعقيدة التي هي جوهر المجتمع وشريانه الرئيسي • فقد قرر الخليفة تقدم بني هاشم (اسرة الرسول) على غيرهم في العطاء [1] • ومن ثَمّ أخذ بمبدأ الأسبقية في الاسلام [2] أو المشاركة في احداثه التاريخية البارزة ، لا سيما المعارك الأولى ، كبدر وأحد وبقية المعارك الكبرى في الشام والعراق [3] •

لقد كان لهذا الأجراء مدلوله العملي والجماعي . من حيث التزام الخلافة بمضمون العطاء المادي والمعنوي • فعلى الرغم من التصنيف الذي جعل من بني هاشم في رأس الأفضلية ، الا أنه أوجد الفرصة المتكافئة للذين صنعوا الأحداث الكبيرة ، بمعزل عن أي اعتبارات فئوية

---

(١) قيل أن نصيب العباس بن عبد المطلب كان سبعة الاف درهم ، بينما زوجات الرسول تعدى عطاؤهن العشرة آلاف . ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية ص ٨٣ ــ ٨٤ . ابن ا لاثير : الكامل في التاريخ ج٢ ص ٢٤٧ .

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية ص ٨٤ .

(٣) يروي ابن الاثير ان الخليفة عمر بدأ بالعباس ــ عم النبي ــ ثم الاقرب فالاقرب . ثم فرض لاهل الحديبية الى ان اقلع ابو بكر عن اهل الردة ثلاثة آلاف . وكذلك من شهد الفتح وقاتل مع ابي بكر ومن ولي الايام قبل القادسية كل هؤلاء ثلاثة آلاف . ثم فرض لاهل القادسية واهل الشام الفين ... » الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٤٧ .

أو أجتماعية• ومهما كانت النظرة الى هذا الأجراء، فهو يعتبر، بالمقارنةمع ظروف تلك المرحلة ، حدثا غير عادي وتحو"لا نحو نحو مصالح الفئـات الشعبية ، التي أخذت تتحسس عمليا حجمها المعنوي في مجتمع تتكافأ فيه الفرص والتضحيات بصورة نسبية •

ولعلنا نتساءل عن الطريقة التي سادت توزيع العطاء في ذلك الوقت؟ وما هي العملة المتداولة رسميا في الدولة ؟•• والجواب على ذلك ، هو أن هذه الأخيرة لم تكن لديها عملة خاصة تصدر باسمها ، بل كانت النقود الأجنبية هي الأداة المنتشرة ، تبعا للموقع الجغرافي في هذه الولاية أو تلك • فالمعروف أن العرب قبل الأسلام ، رغم شهرتهم التجارية ، كانوا من الناحية النقدية يدورون في فلك الأمبراطورية البيزنطية بوجه خاص • ولا شك أن ظروفا معينة كانت تحول دون اصدار نقد مستقل في دولتي الرسول والراشدين ، اذ أن أولويات اكثر أهمية ، كانت تفرض الأنصراف اليها ، مما أدى الى تأخير ذلك حتـى تتوافر الأجواء والشروط اللازمة، فظلّت النقود المتداولة هي البيزنطية والكسروية • بيـد أن الأولى كانت اكثر استعمالا ، خاصة في شبه الجزيرة والشام ومصر ، بينما الثانيـة انتشرت في العراق والمشرق [1] • ولكن الخلافة لجأت في الوقت نفسه الى تدبير يحفظ للعملة مستواها ويحميها من محاولات التلاعب والتزوير، وذلك باحداث جهاز للمراقبة وأضافة بعض الشعارات الأسلامية الـــى نقوشها أو الاكتفاء بوضع كلمة (جائز) [2] لاعطائها الصفة الرسمية •

واذا بحثنا في نظام الحكم في عهد عمر ، نجد أنه من حيث الجوهر استمرار للثيوقراطية [3] التي سادت في العصر الأسلامي الأول • ومعنى

Maurice Lambard : L'Islam dans sa premiire Grandeur p. 10 (١)

(٢) المقريزي : النقود الاسلامية ص ٩ .

(٣) المقصود بالحكم الثيوقراطي بأن كل شيء في الدولة مرده الى الله . والخليفة في هذه الحالة هو المنفذ لارادة الله والرسول .

ذلك أن الخليفة جمع في يده السلطة المطلقة ، دون أن يكون لهيئة مـا دور المشاركة في قراراته • كان ذلك من حيث المبدأ الذي يسنح خليفة الرسول الحق في الحكم المطلق ، وفقا لشروط واعراف غير مكتوبـة ؛ وهي محصلة في النتيجة للممارسات اليومية التي صدرت عن الرسول • بيد أن خلفاء العهد الراشدي ، على الرغم من الهالة التي توفرت لهم بين جماهير المسلمين وزعمائهم ، فأن قراراتهم لم تأخذ طابعها الفردي المحض؛ بل كان هنالك نوع من المجلس الأستشاري غير الرسمي ، غالبا ما رجع اليه الخليفة • اذ ان فئة من كبار الصحابة وذوي التجربة والمعرفـة ، كانت تزوّد الخليفة أحيانا بالنصيحة وتتناقش معه في القضايا المصيرية • وكان المسجد في (المدينة) هو المقر التقليدي لهذا النوع من الأجتماعـات والمناقشات [١] • ووصل الأمر ربما الى حد المبالغة فـي تقويم مداولات المسجد هذه ، بمقارنة المؤرخ (أمير علـي) لها بمجالس الشيوخ التـي تستقطب عادة زعماء الدولة وشخصياتها ، حيث أن الخليفة لـم يكـن يقطع برأي دون استشارة المجلس على حد قوله • ثـم يستطرد محاولا التأكيد علـى « الشكل الديموقراطي » للمرحلة الأولى مـن الأسلام ، فيصفها بقوله أنها « أقرب ما تكون الى النظام الجمهوري » [٢] •

ومن الواضح أن هذا التصوّر ، لا يرقى كثيرا الى الواقع الذي ساد نظام الحكم في العهد الراشدي وعلى الأخص في عهد عمر • فقد كانت شخصيته القوية ، الشخصية المؤثرة والطاغية في جميع مرافق الدولـة وسياستها الداخلية والخارجية • وما يقال عن (مجلس الشورى) الذي

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٣٠ •

(٢) أمير علي : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ص ٥٠ .

كان على الأرجح غير متواجد بصفته الهيكلية ، فان ذلك لا يخرج عن تقليد كان متبعا في دولة الرسول واستمر في العهد الراشدي . واذا رجعنا الى قول القاضي أبي يوسف بهذا الشأن ، لا نجد ما يقطع بوجود هذا المجلس من الناحية العملية ، سوى مجرد ايحاء بدور شيوخ الصحابة الى جانب الخليفة . وهؤلاء حسب ما جاء في كتابه (الخراج) ، «مجلس من الكبار المسنيين ، هم أهل الشورى ، وكان يتألف من كبار الصحابة، وكانت جلساته تعقد في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي أغلب الأحيان كان يساعد هذا المجلس اعيان (المدينة) وزعماء البدو الوافدون الى المدينة ، فضلا عن أنه كان في مقدور كل فرد ممن حضر المجلس أن يدلي برأيه » [1] . فالعبارات الواردة في هذا النص لا ينبغي أن تؤخذ بغير محتواها الحقيقي ، ولا أن تتداخل الألفاظ في المعاني . فكلمة (مجلس) هنا لا تعني أي مدلول تنظيمي بقدر ما تعني الفئة أو المجموعة. كما أن الكلمة الثانية (أهل الشورى) لا تتجاوز المحتوى المقصود بها ، وهو الدلالة النوعية على الجماعة التي يستأنس اليها الخليفة بالمشورة والرأي. دون أن ننسى الأطار العام لهذا المجلس في قول (أبي يوسف) ، الذي يضم من حيث المبدأ كل من خوّلت له النفس في المشاركة ، بصرف النظر عن المستوى الذي يؤهله للقيام بهذا الدور الاستشاري المسؤول .

وهكذا يتبين لنا أن (مجلس الشورى) كهيئة مستقرة ، لم يكن له وجود محسوس الى جانب الخلافة في العصر الراشدي . غير أنه كان حاضرا بصورة معنوية من خلال لقاءات المسجد التقليدية ، بالقدر الذي يتاح للزعماء المشاركة في مناقشة القرارات المهمة ، دون أن ننسى ما كان للمسجد من دور تاريخي في الحياة السياسية ، الى جانب دوره الديني كبيت للصلاة .

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٣٠ .

وفي أثناء العهد الراشدي تألقت أسماء قيادية الى جانب الخليفة وتحملت اعباء مهمات كبيرة . فعمر مثلا كان مسؤولا عن القضاء في عهد أبي بكر، فضلا عن قيامه بما يشبه مهام المستشار الأول للخليفة . وفي عهد عمر ، قدّر لعلي — رغم التحفظ في العلاقة بين الرجلين أول الأمر — أن يشغل دورا خاصا ، كمستشار حينا ومسؤولا عن القضاء وأسرى الحرب أحيانا أخرى .. حتى وصل الأمر بتعيين علي نائبا للخليفة أثناء غياب هذا الأخير في الشام [١] .

ومن الجائز القول ، أن دولة لها ذلك الأتساع وتلك الطاقات ، من الصعوبة أن تدار بقبضة واحدة مهما كانت قوية وشديدة . ورغم أن للحكم مفهوما خاصا عند عمر ، مستمدا من أيمانه بالنظرية (الثيوقراطية) وعدم التساهل في نشوء مراكز قوى داخل الحكم ، فالمفترض أيضا أن هذا الخليفة كان ميالا الى مناقشة كبار الصحابة واتخاذ اعوان له من بين الصفوة منهم . ولقد اثبت أنه يحسن جيدا الاختيار سواء في الادارة الواسعة حيث سيطر العرب ، الى ولايات ثمان : (المدينة) ، مكة ، الشام، الموظفين ، الصورة المثلى للعهد سلوكا وانضباطا .

كانت تلك صورة الحكم المركزي في (المدينة) ، حيث تمتع الخليفة بنفوذ رئيسي هو في الحقيقة نابع من مركزه الجامع لكافة الوظائف الدينية والمدنية . أما خارج هذا النطاق فقد جرى تقسيم الأراضي الواسعة حيث سيطر العرب الى ولايات ثمان : (المدينة) ، مكة ، الشام ، الجزيرة ، البصرة ، الكوفة ، مصر ، فلسطين [٢] وقد تنقسم الولاية

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج٢ ص ٢٤٦ . مولوي حسيني : الادارة العربية ص ٧٩ .

(٢) مولوى حسيني : الادارة العربية ص ٨٠ .

أحيانا الى وحدات محلية تتبع (الوالي) أو (الأمير) كما كان يطلق عليه• وكان نظام الولاية صورة مصغرة في هيكليته لنظام (المدينة) المركزي • فالى جانب الوالي ، كان (القاضي) يتمتع بسلطة واسعة وغالبا ما كانت له صفة استقلالية • ثم (صاحب بيت المال) و (صاحب الديوان) ، المسؤول المباشر عن مرتبات الجند • ولا بد من الاشارة الى أن حاكم الولاية ، هو في نفس الوقت قائد الجيش فيها ، وكان يختار اعوانه من القواد ويشارك في الحملات العسكرية أو ينتدب لها ممثلا عنه ، وذلك بالتنسيق مع السلطة المركزية في (المدينة) •

ومن البديهي أن العرب وقد غادروا شبه الجزيرة كمقاتلين ، فأن التجمعات السكانية في المدن والقرى ظلت كما في السابق ، مقتصرة على سكانها الأصليين دون تمازج حتى ذلك العهد بين هؤلاء وبين العرب الفاتحين • اذ أن الخليفة كان حريصا على أن يكون العنصر المحارب في الدولة من العرب وحدهم • وهذا أمر طبيعي في وقت لم يكن فيه اسلام الشعوب الخاضعة لهم ، قد طرح جدّيا في تلك المرحلة المبكرة • ولشدة الحاجة الى الاحتفاظ بالروح القتالية لدى القوة المحاربة ، فقد عمد الخليفة الى ابعاد العرب عن المراكز الحضارية خارج شبه الجزيرة ، وتجميعهم في قواعد (امصار) أو ثكنات (اجناد) • وكان يتم اختيار الأولى عادة على شواطىء الأنهار الكبيرة ، وهي قريبة الشبه بالقواعد العسكرية من حيث المهمات المنوطة بها ودورها في استراتيجية الفتح •

وكانت (قاعدة البصرة) في جنوب العراق من اقدم هذه الأمصار• ولقد انشأها بناءً على أوامر الخليفة القائد عتبة بن غزوان ، في سنة غير

محددة تماما [١] • وتأتي بعدها (الكوفة) التي انشئت في أعقابهـا علـى يد قائد القوات العربية في القادسية سعد بن أبي وقّاص ، وذلك فـي سنة ١٧ للهجرة [٢] • وتطورت كـل من هاتين القاعدتـين أو (المصرين) بصورة مدهشة ، حيث اصبحا خلال السنوات العشرين اللاحقة من أكبر المدن العراقية واكثرهـا اكتظاظا بالسكان • ورغم نشأتهما فـي ظروف متشابهة في المكان والزمان ، فقد انفردت كل مدينة بشخصيتها المتميزة والخاصة • فبينما عاشت البصرة في ظـل" الموالاة بصورة شبه دائمـة للسلطة في العصرين الراشدي والأموي ، وذلك تحت تأثير مصالحهـا الأقتصادية التي كانت أكثر انتعاشا من الكوفة ، عاشت هذه الأخيـرة أوضاعا متناقضة تماما ، حيث حملت لـواء المعارضة ، واستقبطت معظم الحركات الثورية ضد النظام الأموي [٣] •

أما القاعدة الثالثة فقد انشئت في مصر وعرفت باسم (الفسطاط) ، وذلك باشراف عمرو بن العاص في أعقاب السيطرة على هذه الولاية [٤]• ونمت هذه القاعدة أيضا وتحولت بسرعة الى مدينة كبيرة ، على غـرار (المصرين) العراقيين، حيث ظلت حتى انشاء القاهرة في العصر الفاطمي المركز الاداري ، ليس فقط لهذا الأقليم ولكن للولاية الأفريقية التي كانت تابعة لمصر في أكثر سنوات الحكم الأموي • ولعلنا ندرك أهمية هذه القواعد

---

(١) تتراوح بين سنة ١٤ هـ (الطبري ج ٤ ص ١٤٨ . ابن الاثير ج ٢ ص ١٣٩) وبين سنة ١٥ هـ (ابن حوقل : صـورة الارض ٢١٢) وبـين سنة ١٦ هـ (ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٤٣٠) .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٢٩٠ .

(٣) I. Beydoun : Elements d'Analyse de l'Irrédentisme Iraqien sous les Omayyades p. 29 - 31 .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٦٠ وما بعدها .

الثلاث ودورها (الأستراتيجي) في خدمة السياسة التوسعية ، وذلك من خلال الأختيار الجغرافي لمواقعها ، في مناطق قائمة على تخوم دول وشعوب ؛ لا زالت خارج اطار السيادة العربية الأسلامية • ولقد انطلقت من هذه القواعد الحملات العسكرية ، سواء في العراق ، مطاردة فلول الفرس في المشرق ، أو في مصر حيث زودت الفسطاط أطول عملية ضد البيزنطيين والبربر في المغرب •

وكان يتفرع عن هذه القواعد الكبرى مناطق عسكرية (أجناد) ، أشبه ما تكون بشكنات تتجمع فيها الجيوش ، وهي تتخذ اماكنها في المدن الكبرى بصورة عامة [١] • وهذا النظام الحربي مقتبس عن البيزنطيين الذين درجوا على اقامة هذا النوع من الحاميات أو ما يعرف عندهم باسم (Thema) [٢] ، وذلك في المواقع نفسها تقريبا حيث أقام العرب نظامهم العسكري في الشام • وأخيرا هناك (الثغور) [٣]، وهي المعاقل الحربية الواقعة على الحدود مع العدو ، وهي عبارة عن نقاط عسكرية ثابتة لمراقبة الجيوش البيزنطية ورصد تحركاتها • وقد تطور هذا النظام الى حرب تقليدية بين الأمويين والبيزنطيين في وقت لاحق ، عرفت بحرب الثغور [١] •

ولقد استطاع عمر أن يتجاوز باصلاحاته المدنية والعسكرية الأطار

---

(١) من أبرز هذه الأجناد : دمشق ، حمص ، قنسرين ، فلسطين ، الاردن •

(٢) هونجمان • E. Honigmann : دائرة المعارف الاسلامية ج ٦ ص ٢٠٣ – ٢٠٥ •

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٦ •

(٤) عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج ٢ ص ٣٦ •

المحلي للحكم الى اطار الدولة المتطورة ، بجهازها الأداري ودواوينها ونظامها الحربي • ومن المؤكد أن هذه المحاولة جاءت تعبيرا عن حاجة شديدة الى متطلبات ، لم تعد تفي بها التنظيمات المحلية القائمة في شبه الجزيرة • فهذا المجتمع الجديد الذي خرج بـه الاسلام ، من موقع التخلف والأنحلال الأخلاقي والاستغلال الأجتماعي ، الى موقع المبادىء والقيم والى تحرير الأنسان العربي من رواسبه القديمة ، بات مطلوبا منـه القيام بـدوره الحضاري ، النافـذ الـى وجـدان الشعـوب المغلوبة • اذ أن حركة الفتوح اصبحت في ذاتها القضية بالنسبة للمقاتل العربي في ذلك العهد • فلم تعد مجرد رغبة في التوسع أو نزوع الـى الغنيمة ، وانما أصبح لها مفهوم يرقى الى استقطاب الأنسان بما لديه من تراث وتاريخ ، وذلك في اطار مجتمع واحد وعقيدة مشتركة • لقد تطلع عمر الى مزيد من التكافؤ بـين القضية والنظام ، وبـين الفكـرة والممارسة • فهي المعادلة الفذة التـي تبلورت حينذاك ، والتـي كانت الدعامة الأساسية لذلك العهد •

واذا كانت شخصية عمر القوية ، قد وفرّت الأرضية الجيدة لهذه التجربة المتطورة التي اسفرت عـن قيام الدولة ضمـن مركزية شاملـة ومتكافئة ، فمن الجائز أن هذه المحاولة كانت موصولة بخطوات أوسع على الصعيد التنظمي قبل ان تتخذ اطارها الشامل والمستقر • ولقد أثبتت التطورات العكسية التي أودت بحياة الخليفة أن التجربة لم تكن متكاملة، بل كانت تستمد حياتها من حضوره ، حتى اذا غاب عن السلطة بدا وكأن هجمة مضادة ، اغتالت انجازاته وبعثت الحياة مجددا في ذهنية ، اعتقد الكثيرون أنها اضمحلت وغابت في التاريخ • غير أن أصحابها وقد عرفوا جيدا ماذا يريدون ، لم يكن غيابهم سوى هدنة مؤقتة أو مجـرد كمين، يتربصون وراءه بهدوء الخصم القوي •• ولم يطل الأمر حتى سقطت هذه المحاولة ، ومعها تراث السنوات الأولى العظيم •

"Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)"

المؤامرة ؟

•• وفجأة سقط عمر بن الخطاب في المسجد (٢٣ هـ/٦٤٤ م) • وكان القاتل شخصا مغمورا، لا يعرف الناس من أمره الا أنه خادم للمغيرة بن شعبة ، من زعماء ثقيف في الطائف • أما اسمه فهو (أبو لؤلؤة المجوسي) ، وبقية التفاصيل تشير الى أنه فارسي الأصل من (نهوند) ، كان قد شكا الى الخليفة ثقل (خراجه) (١) •• وأما المبلغ موضوع التذمر فلا يتجاوز الدرهمين (٢) • وتتابع الرواية سرد الحادثة بغير وضوح وأحيانا بغير تسويغ ، فتنتهي الى انتحار القاتل (٣) ، ومن ثمّ انتقام عبيد الله ابن الخليفة المقتول من (الهرمزان) ، أحد رجالات الفرس في (المدينة) • وتنطوي القضية ويتوقف التحقيق (٤) ، مكتفيا أو متظاهرا بالأسباب الشخصية المعروفة ، ويسدل الستار على الحادثة الغريبة ، وتشخص بعدها الأنظار الى الخليفة الجديد •

واذا كانت الرواية متداولة ومعروفة ، فسأكتفي منها بالتوقف عند نقطتين ، من الصعب على الباحث الموضوعي أن يمّر بهما مرورا سطحيا •

النقطة الأولى تتعلق باسباب الأغتيال ، والثانية بدور عمر في اختيار (هيئة الستّة) من الصحابة ، الموكول اليها انتخاب الخليفة •

وبالنسبة للاولى ، فأن الحادثة كما نقلتها روايات المؤرخين ، تبدو مشوهة وغامضة ، لا سيما وأن حادثة على هذا المستوى تحتاج الى أدلة

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢٠ .
(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٤ .
(٣) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .
(٤) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢١ .

ثبوتية ومقنعة ، قبل دخولها في دائرة المنطق والموضوعية • فأن يقدم رجل كأبي لؤلؤة من تلقاء نفسه ؛ على اغتيال الرجل الأول في الدولة والشخصية المهيمنة فيها ، لأمر يخرج عن القواعد المألوفة الا اذا كان محكوما بمسّ ما ، وهذا لم تشر اليه الرواية التاريخية• وفي هذه الحالة لا تكون ثمة دوافع وجيهة وراء أبي لؤلؤة ، لاقتحام هذه المغامرة الجريئة ، في وقت لا يستطيع أحد ربط هذه القضية بعوامل خارجية ، مبنية على هوية القاتل الفارسية • وفي حالة انتفاء الدافع الشخصي ومعه الدافع القومي ، يبقى الأفتراض الأكثر واقعية ، وهو أن تكون القضية في مضمونها سياسية • فقد لا يكون بعيدا عن الاحتمال بوجود مؤامرة محبوكة الخيوط ، استهدفت الخليفة عمر ، كان أبو لؤلؤة أداتها المنفّذة • وهو اعتقاد مبني في المقام الأول على رفض الأسباب الهزيلة التي تناقلها المؤرخون التقليديون • واذا كان لهذا التصوّر حظه من الموضوعية . فأن الأتهام لا بد أن يتجه الى الفئة المستفيدة من اغتيال الخليفة القوي ، ومدى علاقتها بهذا الأخير عشية الحادثة • وفي الحقيقة فان هذا الخليفة ، لم يكن في معزل عن سخط المتذمرين من بقايا التجار وذوي الثراء ، الذين وجدوا في نظامه الصارم ضربة لمصالحهم الحيوية• ولعلنا نذكر القرار الذي اتخذه عمر ، بفرض الرقابة الشديدة على انتقال الشخصيات الحجازية الى المدن والقرى في البلدان المفتوحة ، مما أثار صدمة لدى هؤلاء الأرستقراطيين ، الذين شعروا بأن فرص الثراء تضيع من أمامهم ، دون أن يحالفهم الحظ في حمل الخليفة المتشدد على تعديل قراره •

لقد تعارضت الأهداف والمواقف بين عمر ، الملتزم بفكرة الدولة وقوانينها حتى التصلب ، وبين الأرستقراطية التقليدية ، المرتهنة لتراثها

الأجتماعي والقبلي ونزعاتها الفرديـــة الخاصة • ولعـــل أبرز مؤشرات الأنفصال في الذهنية لدى الطرفين ، هي أندماج الخليفة بصورة عضويه مع الفئات المتوسطة والشعبية ، خاصة هذه الأخيرة : المستفيدة عمليا من تنظيم العطاء الذي أقرّه الخليفة على قواعد نسبية مـــن تكافؤ الفرص والجهود •

أما النقطة الثانية فهي محصلة لسابقتها بدون ريب ، حيث أن الفئة المتهمة بأنها ربما حاكت مؤامرة الأغتيال ، من المفترض أيضا أنها نسجت باتفاق مشابه شخصية البديل ، بما يتوافق والحوافز المحركة لهذه الفئة• ولعل السؤال الملحّ هنا يتعلق باكتشاف الظروف التي أدت الى ظهـــور هيئة الصحابيين الستّة [1] وهو ما عرف أحيانا بمجلس الشورى • فهل كان ذلك المجلس الذي ظهر فجأة وبدون مقدمات فور اغتيال عمر ، قائما بصورة ما قبل ذلك ؟ أم أن عمر قبيل موته سعى الى تشكيله ، تفاديـــا للانقسام والتصارع على خلافته ؟ والحقيقة ، أن أي جواب نهائي ومقنع قد لا تحمله لنا الروايات التاريخية • ففي مروج الذهب نلاحظ عزوف عمر عن تسمية أي مرشح أو هيئة مؤقتة ، على الرغم من الحاح عبد اللـــه ابنه [2] • أما رواية الطبري ، فقد ارتدت مسحة من الخيال [3] ، وهي توحي بأن الخليفة الذي اصيب بست طعنات قاتلة ، كان في وضع قد لا

---

(١) عبد الرحمن بن عوف ، عثمان بن عفان ، علي بن أبـــي طالب ، سعد بن ابي وقاص ، طلحة بن عبيد الله ، الزبير بن العوام .

(٢) « وان اتركهم فقد تركهم رسول الله صلى عليه وسلم ». من قول عمر الى ابنه عبد الله قبيل وفاته .
المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥١ .

(٣) انظر حوار عمر وكعب الاحبار الذي أسرّ الى الخليفة بخبر موته بعد ثلاثة أيام دون أن يتدارك الخليفة النتائـــج علـــى معرفته بهـــا حسب الرواية . الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص ١٣ .

يمكنّه من تشكيل المجلس المذكور . ومع ذلك فأن الخليفة وهو على فراش الموت ، يتخطى النزف الشديد والآلام المبرّحة بضعة أيام استطاع خلالها حسب الرواية ، أن يتناقش بأمر الخلافة مع الصحابة الكبار [1] . والسؤال هنا .. هل كان عمر يملك قراره التاريخي في لحظة النزاع تلك ؟

ويجد الباحث نفسه تحت الحاح فضوله ربما ، في مواجهة مواقف قد لا تكون عفوية الى هذا الحد . ذلك أن تركيبة « المجلس » الذي قيل أن عمرا قد وضع ثقته فيه ، لا تحمل مطلقا على هذا الاعتقاد . فجميع أعضائه ، باستثناء علي وسعد بن أبي وقاص لم يكن لهم أي دور ملحوظ في الحياة السياسية حينذاك ، كما أن معظمهم بمن فيهم سعد ، كان من أقطاب الأرستقراطية التقليدية ، التي لم تستسغ كثيرا اجراءات الخليفة وقوانينه الصارمة ، حتى أن هذا الأخير لا ينجو من تهمة الاستغلال ، التي كلفته منصبه كحاكم على العراق وقائد للقوات الشرقية [2] .

ومن ناحية أخرى ، فأن البروز المفاجىء لعبد الرحمن بن عوف بعد حادثة الاغتيال وظهوره في الوقت المناسب الى جانب عمر ، حيث دعاه لأن يؤم الصلاة بعد طعنه [3] ، يحتاج أيضا الى بعض المناقشة . فقد انتقل هذا الصحابي الأرستقراطي فجأة الى واجهة الأحداث بعد أن عاش على هامشها طويلا ، ليقوم بالدور الأول في تسمية الخليفة .

---

(١) الطبري ج ٥ ص ١٢ — ١٣ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٥ . ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية ٩٦—٩٧ .

(٢) ابن سعد : كتاب الطبقات ج ٣ ص ٧٩ .

(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٥ .

وتبقى فصول القضية معروفة لا تحتاج الى مزيد من التوضيح • فقد جرى اختيار عثمان بن عفان لخلافة عمر بن الخطاب، وهو رغم المكانة التي اتخذها لنفسه بين صفوف التاريخيين في الاسلام ، فأن عقبات ربما حالت دون وصوله لو اتخذت الأمور مسارها الطبيعي • ذلك أن عثمان كان متقدما في السن وغير قادر لعدة اعتبارات على املاء فراغ الخليفة القوي السابق • ولقد تبين أنه لم يكن صاحب القرار الأخير حتى في أسرته الأموية ، التي حذّر من تسلطها الخليفة المقتول ، ان جرى اختيار عثمان ، على حد تعبير الرواية التاريخية [1] • وكان أول امتحان على مستوى المسؤولية لكفاءة الخليفة الجديد في السياسة ، تلك المهمة شبه الفاشلة التي كلف بها للتفاوض مع قريبه أبي سفيان ، عشية اتفاق الحديبية يوم أراد الرسول الأعتمار الى مكة •

وهكذا منذ اللحظة الأولى للمداولات ، شعر علي بغربته في الأجتماع ، وبأن اتجاه الرياح التي كاد يطمئن اليها في أواخر عهد عمر ، تحولت الى مسار آخر • ولم يعد ثمة أمل في تغيير النتائج •• فالمجموعة التي أصبح في يدها القرار ، كانت متجانسة الأفكار والمواقف ، اذ وحّد بينها الحؤول دون وصول علي الى الخلافة • وكان واضحا أن هذا الأخير، الذي مثّل دائما التيّار المتشدد في الأسلام ، المستقطب بصورة عامة الفئات الشعبية والفقيرة ، والمعبر عن مصالحها وأفكارها •• كان يثير مخاوف هذه المجموعة ذات المنحى الأرستقراطي العريق • فأبعد علي عن السلطة مرة أخرى ، ليس بسبب انتمائه الهاشمي ، ولكن بسبب افكاره المتصلبة والتزامه المطلق بالجانب الأجتماعي من العقيدة بوجه خاص • وهو الموقف نفسه الذي أثار هذه الأرستقراطية الجديدة أو « المتجددة » ضد الخليفة المقتول •

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٥ •

المنعطف الخطير

لقد جاء عثمان الى الخلافة ، وهو لا يدري على الأرجح بدور القوى الخفية التي مهدت له الطريق . فالقوم ، أصحاب الرأي ، وجدوا في شخصيته الضعيفة والمسنّة ، ومن ثم في انتمائه الأموي ، المدخل الى تحقيق رغباتهم في السلطة والثراء . ومن هذا الموقع فأن اعتلاء عثمان سدة الحكم في تلك الظروف ، كان يحمل وراءه انتصارا مقنّعا للتيار التقليدي الأرستقراطي ، الذي ما لبث أن تسلّل برجاله الى السلطة ، عبر عملية متقنة وذكية . ولو أردنا معرفة أوضاع الفئة التي ساهمت في صنع احداث هذه المرحلة ، نجد أنها بلغت من الثراء حدّا فاحشا ، وذلك خلال السنوات القليلة من عهد عثمان . فالزبير بن العوام مثلا ، كان أول الخارجين الى العراق بعد ابطال قرار الخليفة السابق .. فأذا به يمتلك ثروة ضخمة ومزارع في (السواد) وبيوتا في الكوفة الى آخر ما روته المصادر . وكذلك عبد الرحمن بن عوف الذي كان أوسع ثراء ، وسعد بن أبي وقاص، وهو أحد كبار المتمولين، وطلحة بن عبيدالله الذي تفوّق على أقرانه أموالا وضياعا . هذا عدا عن حياة الترف والتخمة التي عاشها هؤلاء وفي مقدمتهم الخليفة ، المتناقضة مع حياة البساطة والعفوية السائدة في الدولة حتى ذلك الحين [1] .

واذا كانت النخبة التي وضعت في يدها تقرير مسألة كالخلافة ، قد انزلقت بعد ارتقاء عثمان السلطة في شركة الأثراء غير المشروع ، فكيف

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٢ — ٣٣٣ . بليايف : العرب والاسلام والخلافة العربية ص ١٦٦ . محمد عمارة : مسلمون ثوار ٣٣ — ٣٥ .

بالجماعات الأخرى المغمورة ، ذات الأيمان السطحي • ولقد أشرنا سابقا الى أعوان الخليفة ومساعديه ، الذين شكلوا جهاز الحكم في عهده ، وكلهم كأن يمت بالقرابة ، بشكل أو بآخر اليه • فهي عودة اذن الى مرحلة ما قبل الدولة ، حيث ملكية المال هي المحور وهي الهدف لكبار الساسة والقيادات القبلية والاجتماعية البارزة • وتدريجا أخذت ملامح العهد السابق في الأنهيار ، وغابت القضية المشتركة مع بداية تفسخ المجتمع وتراجع القيم • واذا كان الرافضون في (المدينة) لممارسات العهد ورجله البارز مروان ، قد انكفأوا وراء جدران الصمت بعد أن ضلت طريقها النصيحة والكلمة المخلصة •• فان (الامصار) حيث يعيش الصفوة من المقاتلين وصانعي الانتصارات ، كانت أسرع الى تسجيل موقفها السلبي من المتسابقين على الثراء والمتطاحنين على السلطة •

وكان هناك مؤشران ، سبقا الثورة الدموية على الخليفة الذي انزلق حتى اللاعودة في اخطاء اعوانه • أحدهما سلمي اقترن بانتفاضة أبي ذر الغفاري في (المدينة) ، الداعية الى التقشف ومحاربة الغنى واكتناز المال • وثانيهما صدامي ، عندما رفض عرب الكوفة ولاية سعيد بن العاص الأموي ، صاحب المقولة الشهيرة (السواد قطين لقريش) [1]• فقد خرج اليه الأشتر النخعي [2] ، على رأس مجموعة مسلحة ومنعه بالقوة من دخول الكوفة • وهذه الحادثة وما أسفرت عنه من رضوخ عثمان لمطالب الأشتر ورفاقه [3] ، كانت المؤشر الخطير في المجابهة الأولى، حيث

---

(١) اي بستان لقريش . المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٧ .

(٢) أحد أبرز أركان علي لاحقا ، واسمه الكامل مالك بن الحارث النخعي .

(٣) عين عثمان أبا موسى الاشعري بعد موافقة الكوفيين . مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٨ .

خرجت منها الخلافة مهزومة .

واذا كانت الكوفة سبّاقة في تسجيل موقفها من ممثل الخليفة المتغطرس ؛ فان انتفاضة أبي ذّر الغفاري ؛ أحد كبار الصحابة ، حملت صوت الشعب وضمير الفقراء . فقد كانت صرخة شجاعة في وجه طغيان الأرستقراطية المتخمة . وتسلّح الغفاري في حملته التعبوية هذه بما جاء في الآية الكريمة (.. والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) [٤] . وكذلك بالآية الكريمة (يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) [٥] . لقد كان الغفاري وهو يصعّد حملته الانتقادية ضد سياسة الاستغلال والترف ، الصوت العلني الجريء ، المعبّر عن مواقف مختلف الاتجاهات السياسية في الدولة الاسلامية ، خاصة الفئات المتمثلة فيما اسميناه بالتيّار الأجتماعي ، الأكثر تضررا من سياسة العهد « العثماني » . وكون الغفاري يمثّل اتجاها عريضا بين جماهير الحجاز ، ويجسد ، بحكم انتمائه اجتماعيا الى أسرة متواضعة ، هموم هذه الجماهير ومشاكلها اليومية ، أخذت الخلافة ترتاب في تحركاته ، ورأت أنها تجاوزت الأطار العفوي ، لتصبح دعوة تعبوية ضد التيار التقليدي المستأثر بالحكم والثراء .

وتقرر الخلافة ابعاد الغفاري الى الشام ليكون تحت مراقبة واليها القوي معاوية بن أبي سفيان ، وذلك في محاولة لاخفات صوته في أرض يسكنها النظام ولا تنشاحنها السياسة المحلية ، كما هو الحال في الحجاز .

---

(١) سورة التوبة رقم الآية ٣٣ .
سورة التوبة رقم الآية ٣٤ .

ولكن هذا الثائر الذي التزم بموقفه النهائي من الحكم الأرستقراطي ، تابع ما بدأه في (المدينة) بالجرأة نفسها . وفي منطقة نائية في ولاية الشام [١] ، سمع الفقراء للمرة الأولى كلاما جديدا يتغلغل الى القلوب والعقول . واذ يجد معاوية ، الانضباطي بطبعه ، أن صوت أبي ذرّ لا زال يدوي بعنف ، دون أن تؤثر فيه اجراءات السلطة بابعاده عن بلده وأهله ، لجأ الى اسلوب آخر ، هو اسلوب التجار المعروف ، وغالبا ما اعتمده في اجتذاب الأنصار والمؤيدين ، فبعث اليه سرا ألف دينار مقابل سكوته. فلم يرفض الغفاري المال ، ولكن ما لبث أن وزعه على الفقراء [٢] . وكانت صدمة لمعاوية الذي قرر اعادة أبي ذر الى الخليفة قبل أن يتحول الأمر الى ثورة شعبية ؛ تفسد عليه هدوء الولاية المطمئنة.

ومن جديد يعود الغفاري الى (المدينة) وتعود معه هموم الخلافة ، التي ازدادت مع تقرير معاوية المحذّر من هذا الثائر . وتسارع الخلافة الى اتخاذ موقف حاسم ضد حركة الغفاري ، دون الأخذ بالاعتبار محاذير أية خطوة سلبية ، تستهدف صحابيا كبيرا ومناضلا شديد المراس ، وما يعكسه ذلك على جمهور (المدينة) بوجه خاص . وينتهي أبو ذر محكوما بالنفي الى (الربذة) [٣] ، وتمنع السلطة اتصال الناس به حتى في وداعه . ولم يجرؤ على الخروج معه سوى بضعة أشخاص [١] ، من المتعاطفين مع أفكاره دون أن يأبهوا لتحذير مروان بن الحكم ، مستشار الخليفة ، الذي أراد لأبي ذر مغادرة (المدينة) كأي « سجين » عادي يأخذ طريقه الى المنفى .

---

(١) نفي أبو ذر الغفاري الى جبل عامل في جنوب لبنان حاليا .

(٢) محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية ص ٦٣ . محمد عمارة : مسلمون ثوار ص ٤٦ .

(٣) احدى قرى الحجاز ، على مسافة غير بعيدة من (المدينة) .

لقد جاءت انتفاضة أبي ذر الغفاري ضد طغيان الأرستقراطية ، أول مصادمة علنية بين التيار الاجتماعي وبين الخلافة التي فقدت مع عثمان هالتها الكبيرة ، بعدما أصبحت ستارا لحكم الأقلية الاستئثاري • وسواء كان عثمان راضيا عن هذا الواقع الذي انزلقت اليه السلطة العليا ، أم كان مرغما على اتخاذ مواقف لا تنسجم وتراثه الاسلامي ، وذلك تحت ضغط الارستقراطية التي تقاسمت النفوذ الفعلي في الدولة ، فلا شك أنه كان المساهم الرئيسي في الأنهيار الذي تعرضت له مؤسسة الخلافة وأدى الى افتقادها عنصر الثقة •

ولم يكن موقف أبي ذر الجريء ، هو الوحيد في التصدّي لسياسة عثمان وأصحابه • فما لبث أن امتدّ تأثيره الى داخل السلطة، عبر صاحب بيت المال عبد الله بن مسعود • وهذا الأخير كان متصلا في أفكاره بالمنابع التي تغذّت منها حركة الغفاري السالفة • فقد وجد ابن مسعود نفسه خارج سربه ، منفيا بدوره ، ولكن في السلطة ، بين جماعة من الأرستقراطيين المتهالكين على الثراء • وبحكم المنصب الذي تولاه ، فأنه كان الأكثر معرفة بما يجري في الداخل • ولم يكن مفر في النهاية أمام عبد الله بن مسعود ، من أن يدفع ثمن موقفه المتناقض مع الجهاز الحاكم ، فعزل من منصبه بعد ارتفاع صوته ضد هدر الأموال • وحسب الرواية التاريخية فأن هذا الرجل كان في منتهى الجرأة، وهو يتصدى للخليفة الذي قال له : « انما أنت خازن لنا ، اذ اعطيناك فخذ واذا سكتنا عنك فاسكت » •• فاذا به يرد عليه : « كذبت والله ما أنا بخازن لك ولأهل بيتك ، انما أنا خازن للمسلمين » [1] • لقد خرج عبد الله بن

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٧ . احمد فريد الرفاعي : عصر المأمون ج ١ ص ٦ •

مسعود مطرودا من منصبه ، ولعله كان الوحيد من ذوي المراكز العالية الباقين في السلطة خارج نطاق الأقارب • وهو باتنفاضته على سياسة الخليفة المالية ، يسجل موقفا جريئا آخرا واحتجاجا علنيا من داخل السلطة على التبذير ، والتصرف بأموال الدولة •

ولعل هذا الأجراء القمعي ضد صاحب بيت المال ، كانت له مسوغاته لدى الخليفة المتمسك بنظرية الحق الالهي في الحكم • فالخلافة كانت تعني حسب مفهومه ملكا منحه اياه الله ، أو كما قال للذين طالبوه بالتنازل « ما كنت لأخلع قميصا ألبسنيه الله » [1] • ومن خلال هذا المفهوم ، باتنفاء دور الشعب في اختيار الحاكم أو محاسبته ، رفض عثمان الاحتجاج على سياسته أو النقد لها • وكان يغذّي هذه النزعة لديه ، الشعور السائد في أسرته الأموية ، بأنها استعادت ملكا مفقودا وحقا قديما في السلطة والنفوذ •

لقد فقدت خلافة عثمان الثقة ، التي اعطيت لصاحبها كمناضل قديم في الاسلام وليس كأرستقراطي يتحدر من أسرة نافذة وغنية • وتشعبت ضدها حملة المعارضة ، فامتدت جذورها الى مختلف الاتجاهات السياسية بما فيها الذين ساهموا في قيام هذا العهد •• حتى اذا حققوا اهدافهم الخاصة ، تخلوا عنه بعد اشتداد المحنة وتركوه امام مصيره • ولم يبق معه في النهاية ، سوى جماعته المقربين الذين كانوا اكثر تصلبا في مواجهة المعارضة ، خاصة مروان بن الحكم ، المسؤول الفعلي عن تدهور الموقف والمصير المأساوي الذي انتهى اليه الخليفة •

ومع تضاعف العزلة التي اختارها عثمان لعهده ، اخذت بوادر الانفجار الشعبي والعسكري تقترب من (المدينة) • بيد أننا نخطيء في التقويم اذا

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٨٣ .

نظرنا الى التيار الأجتماعي ، على أنه المحرّض الرئيسي ضد خلافة عثمان. فقد قاوم هذا التيار بوسائله السلمية عبر الغفاري وابن مسعود ، وكذلك عبر انتفاضة الأشتر النخعي ضد ممثل الخلافة في الكوفة . ولكنها كانت مقاومة ايجابية ، تستهدف الخلل ومحاربة الاستغلال والتسلّط العائلي، دون اللجوء الى العنف أو المسّ بالمنصب الخلافي . الا أن اشتداد النقمة واتساع المعارضة فتح المجال ، كما يحدث عادة ، أمام محترفي السياسة، لركوب الموجه والقفز الى الاتجاه الذي يحفظ مصالحهم ويبعد عنهـا الخطر .

وكان أن أدرك عثمان ، ربما متأخرا ، جسامة الخطأ الذي دفع اليه ، بيد أنه لم يكن في موقع من يمتلك القرار ، أو العدول عن سياسة تورط بها . وكان القرار الذي توخى من ورائه الحل ، دعوة كبار معاونيه في (المدينة) والولايات الى مؤتمر يعالج مأزق الحكم واتساع حجم المعارضة . وعندما التأم الأجتماع في موسم الحج من سنة ٣٤ هـ ، لم يكن في ذهن أحد منهم ما كان يقلق الخليفة ، حيث أجمعوا على تجاهل الأزمة وعملوا ما استطاعوا على تحجيمها والتقليل من اخطارها .. من (ناصح) [١] بالهاء المعارضة بالحملات العسكرية ، وآخر [٢] باسكات احتجاجها بالمال ، وثالث[٣] من رأيه أن القمع هو خير الوسائل وأنجع الأدوية .. الى آخر هذه الطروحات السلبية والارتجالية . وكان آخرها ما أشار به معاوية على الخليفة، وهو الانتقال الى الشام للدفاع عن مركزه، حيث الولاء المطلق والنظام الصارم [٤] . ولعل معاوية كان يطمح الى

(١) عبد الله بن عامر .
(٢) عبد الله بن سعد بن أبي سرح .
(٣) معاوية بن أبي سفيان ، وسعيد بن العاص .
(٤) سيف بن عمر الضبي الأسدي : الفتنة الاولى ص ٥٣ .

استخدام هذه الورقة ، في وقت أدرك فيه سقوط الخليفة الوشيك . اذ أن ذهابه الى الشام ، في وقت جاوز فيه الثمانين من عمره ، لا بد أن يفتح الباب على مصراعيه أمام معاوية واعلان خلافته باسم حق الوراثة في الأسرة الأموية .

واشتد على عثمان الحرج وهو يتلمس البحث عن حل للازمة ، فعقد اجتماعا عاما لكبار الشخصيات الصحابية في الموسم نفسه ، وكان على رأسهم علي والزبير وطلحة وسعد، وهم الفئة التي اختير من بينها للخلافة. ولكن الاجتماع ارفض دون أن يسفر عن أية ايجابيات، خاصة وأن معاوية كان مشاركا فيه الى جانب عثمان ، بموقفه المعروف من المسألة كما سبق أن أشرنا [1] . وفي تلك الأثناء ، كانت المعلومات عن مؤتمر الولاة تتسرب الى القواعد العسكرية في الكوفة والبصرة والفسطاط . وكان المقاتلون فيها أكثر الفئات تأثرا بهذه التطورات ، تحدوهم الى ذلك أسبابهم الخاصة وظروفهم المختلفة . فقد ساد بينهم شعور من التململ والمرارة ، نحو اولئك الذين يستثمرون انتصاراتهم وتضحياتهم، ويعيشون مترفين على حسابها ، بينما هم يجترون أيامهم في الثكنات وفي ساحات الحرب . فالمسألة كانت تعنيهم مباشرة ، وهم أولى الناس بالتحرك من هذا المنطلق ، فضلا عن ذلك ، أنهم الأداة القادرة على حسم الوضع بالسرعة الممكنة . وهكذا فان ما سعى اليه الخليفة السابق عمر ، وما خططه لابعاد الجيش عن السياسة ، سقط في التجربة الصعبة ، لتصبح أخيرا هيبة الخلافة في المواجهة العسيرة .

وكانت الجماعة الكوفية ، الأسبق الى التحرك والمبادرة في اعلان

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٧٦ ــ ٧٧ .

موقفها العدائي كما أشرنا، ثم سارت البصرة ومن ثم الفسطاط على خطى الكوفة أيضا • وما لبثت القواعد الثلاث أن قرنت القول بالفعل ، وأرسلت مجموعات مسلحة الى الحجاز ، وذلك تحت ستار الحج • وكان الانسجام في التوقيت ، وكذلك السرعة في استقطاب المتطوعين ، من مظاهر الموقف الموحد ، والخلفية المشتركة للمقاتلين في (الأمصار) الثلاثة [1] • ولم تكن (المدينة) في وضع عسكري معزز ، وذلك لتوزيع الجيش في القواعد والأجناد والثغور • من هنا فان مهمة الثوار كانت غير عسيرة، بحيث أنهم تنقلوا في عاصمة الخلافة وأجروا اتصالات مكثفة بكبار الصحابة ، دون أن يعترضهم معترض • بيد أن أحدا من الصحابة لم يتجرأ على مناقشة عزل الخليفة مع الثوار ، أو التعاطف معهم في تفجير مشكلة الحكم • هذا على الأقل هو الموقف العلني ، لأن بعضهم كانت لديه مصلحة مباشرة في الاطاحة بعثمان • والحقيقة ، فان شيئا لم يكن واضحا في تلك الساعات القلقة ، وان أحدا لم يكن لديه التصور حينذاك فيما سينتهي اليه الثوار ، أهو الأصلاح ؟ أم الخليفة نفسه ؟

وقد يكون مفترضا أن الاطاحة بعثمان ، ليست هدف الثوار في بادىء الأمر ، بل الضغط عليه من خلال وسائل استعراضية مختلفة وذلك لحمله على تعديل نهجه في الحكم ومحاسبة المسؤولين عن الأخطاء والتجاوزات • ولعل هذا ما توحي به على الأقل ، ضآلة القوة العسكرية المؤلفة منها مجموعة الثوار الوافدة الى (المدينة) ، والمحاولات المستميتة

---

(١) شارك كل من الامصار الثلاثة حسب رواية الاسدي بـ ٦٠٠ متطوع . وقد خرجوا الى المدينة في شوال سنة ٣٥ هـ . الفتنة الاولى ووقعة الجمل ص ٥٧ .

التي قامت بها قبل اللجوء الى الحصار • وحتى هذا الأجراء ، كان مجرد مناورة أخيرة لحمل الخليفة على الرضوخ والاستجابة •• فقد امتد هذا الحصار الى أربعين يوما (١) دون تسجيل ما يشير الى استعمال العنف •

غير أن تواتر الأحداث ، وفشل الصحابة ، وعلى رأسهم علي في تعديل موقف الخليفة ، الذي التزم في النهاية برأي مستشاره مروان والآخرين من اصحابه ، وهو الرأي المحرض على الصمود ، والرافض لحملات الضغط التي قام بها الثوار • وكذلك تسرب معلومات الى هؤلاء عن تحرك قوة شامية نحو الحجاز بناء على طلب الخليفة (٢) ، قد وضع الثوار أمام الخيار الصعب ، يدفعهم الى ذلك انهيار الثقة بالخليفة ، لا سيما بعد اكتشاف نواياه عبر الكتاب الخاص الذي أرسله الى واليه على مصر ، وفيه من الحقائق ما يتناقض ووعوده التي قطعها على نفسه في مسجد (المدينة) (٣) • وفي الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٥هـ/ ٦٥٥ م ، اقتحم الثوار منزل عثمان وقتلوه ، وهو يتلو آيات من القرآن• فأنهوا بذلك جدلا طويلا ، أبى الخليفة أن يحسمه الا بالعنف • وكانت خاتمة مأساوية لفصل مثير من تاريخ الخلافة الراشدية ، التي اصبحت أمام المنعطف الخطير •

ان خلافة عثمان كانت احدى أخطر المراحل في تاريخ العرب والاسلام • فقد تفوقت في نتائجها السلبية على حركة الردة ، التي أمكن

---

(١) الاسدي : الفتنة الاولى ووقعة الجمل ص ٦٥ .
(٢) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص ١١٥ — ١١٦ .
(٣) جاء في الكتاب : اذا أتاك محمد بن أبي بكر وأصحابه ، فاقتلهم وابطل كتابهم ، واقر على عملك حتى يأتيك رايي . ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٩ .

حصرها والقضاء عليها . ذلك أن المعركة الشرسة التي خاضها التيار التقليدي الارستقراطي من وراء خلافة عثمان، ومن ثم تسخير هذا المنصب لمنافعه وأهدافه . كشفت بدون ريب ذلك القناع الذي تسترت به جماعة هذا التيار ، الموالية بالغريزة لمصالحها وتغليبها على المصالح العامة . واذا بعثمان في المقابل بعد أن أصبح خليفة ، هو أقرب الى مصالح أسرته الاموية ذات الشهرة العريضة في عالم التجارة ، قبل أن تلتحق بالاسلام في أواخر أيام الوثنية . وتحول شيخوخته الثقلية دون التصدي لأولئك الذين تمادوا في استغلال السلطة [1] ، حيث وجدوا فيها نوعا من الارث الخاص أو احدى وظائف الكعبة في مكة القديمة .

ان تاريخ هذه المرحلة الدامية جدير بالمزيد من الاهتمام والتقويم، وذلك خارج نطاق المفهوم التقليدي الذي عولجت به حتى الآن . فبين صفحات هذه الحادثة يكمن الخلل الذي دمَّر الطاقة العربية ، الخلاقة والمعطاء ، وشل نهوضها العقائدي بما يتماثل والفترات السابقة في عهدي الرسول والخليفتين الاولين . ولقد كانت المؤامرة على عمر في الحقيقة، بداية التحجيم للقضية التي تمحور حولها المسلمون الأوائل ، كما كانت مؤشرا لسقوط الذهنية الجماعية في الحكم ، القائمة على العدل والمساواة وتكافؤ الفرص .

ولعل أعجب ما يصطدم به الباحث، ذلك التناقض السافر بين الروايات المتعلقة بهذه المحنة [2]، بحيث لم ينج من الوقوع فيها معظم المؤرخين المهتمين بهذه المرحلة . فلم يتعرضوا لاحداثها بواقعية المؤرخ، بقدر ما سجلوها

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٨١ — ٨٢ .
(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٧٧ .

بعواطفهم وخلفياتهم الخاصة • ولم يجدوا أي حيف في سرد التراكمات ووصف مظاهر الاثراء والبذخ والانحراف في ذلك العهد ، وفي الوقت نفسه لا يوفرون من هذه التهم لا سيما الأخيرة جماعة الثوار ، الذين حاولوا تصحيح الأوضاع في الدولة وتقويم مسارها الذي انحرف على يد الارستقراطيين وكبار التجار وأصحاب القرى والضياع • فالموقف المتجانس الذي اتخذه المقاتلون في القواعد والثكنات ، عبر المجموعة المسلحة التي انتهى حصارها الى مقتل الخليفة ، كان أحد مظاهر الرفض لسياسة العهد (العثماني) في شبه الجزيرة وخارجها • ولم يكن السواد الأعظم من الناس أقل سخطا من العسكريين على جهاز الخليفة ، ولكن هؤلاء كانوا أكثر تضررا ، وكانوا سخطا من العسكريين على جهاز الخليفة ، ولكن هؤلاء كانوا أكثر تضررا ، وكانوا يملكون الأدوات الفاعلة للتصدي والحسم •

الحرب الاهلية

بعد مصرع عثمان، وفي أجواء الذهول التي سادت عاصمة الخلافة، كان لا بد من الخروج بحل سريع للمحنة ، يعيد الأوضاع الى مسارها العادي • غير أن العسكريين الذين أقدموا تحت ضغط الأحداث المتواترة الى قتل الخليفة ، لم يكن بيدهم الحل ، وان كان باستطاعتهم فرضه بالقوة ، بعد أن اصبحت السلطة المؤقتة في أيديهم ، طوال خمسة أيام بعد الحادثة الدموية [1] • ولعلها احدى خطايا الثوار المميتة ، أن قيادتهم لم تضع في حسابها حلا للمشكلة ولم تهيىء سلفا الأجواء المناسبة للبديل• فاذا بتصفية عثمان تأتي وكأنها معاقبة على سلوكه ، حاصرة المسؤولية

---

(١) الاسدي : الفتنة الاولى ووقعة الجمل ص ٩١ .

بكاملها فيه ، دون أن تطال أصحابها الحقيقين الذين طوعوا هذا العهد لاغراضهم ومصالحهم •

وهكذا فان المبادرة الدموية لم تحقق هدف الثوار والساخطين على سياسة الخليفة المقتول ، بل عكس ذلك تعدّدت نتائجها الواقع الذي اثير حوله النقد ، وجرّت الدولة بكاملها الى المفترق الخطير • ولم يكن أحد في موقع الحسم حينذاك ، فالغموض هو سيد الموقف ، والسياسيون تجاذبوا بين الصمت والمناورة ، مبعثرة اوراقهم متخالطة ، بينما « حكومة الثوار » المؤقتة ، عاجزة بدورها عن الخروج بحلول جذرية • وهكذا فان الحركة التي استهدفت تحرير الخلافة من الطغيان العائلي والاحتكار الفئوي ، تحولت من دون أن تدري الى اسقاط آخر الاشكال « الديموقراطية » للنظام الخلافي ، الذي حافظ حتى اغتيال عمر على النزعة الجماعية المتكافئة ، واستبداله بالملكية المطلقة أو النظام « الأتوقراطي » ، الذي تبلور نهائيا بعد انتقال الحكم الى الأمويين [(١)] •

وفي الوقت الذي أخذ معظم السياسيين يتوارون فيه عن الانظار في عاصمة الخلافة ، تنكبا من التطورات التي افلتت من قبضتهم ، كان الفراغ في السلطة ينذر بأسوأ النتائج . وتشتد الحاجة الى منقذ يتمتع بتأييد الأغلبية من الاتجاهات السياسية ، لا سيما الممثلة لجماعة الثوار المعنية مباشرة بالوضع القائم • ولما كان المطلب الرئيسي لهذه الأخيرة ، هو التغيير واسقاط النظام العائلي والفئوي ، فان الانظار شخصت حينذاك نحو علي الذي لم يغادر (المدينة) ، ولم ينفك شاغلا دوره البارز منذ تفاقم الاحداث في أواخر العهد السابق • فقد كان علي وهو أحد القلائل

---

(١) ابراهيم بيضون : التوابون ص ٣٨ •

من سياسيي الصف الأول ، خارج نطاق الاتهام والشك بسلوكه ، في الوقت الذي انهارت فيه شخصيات عديدة امام شهوة الحكم والثراء . بيد أن عليا الذي خانته الظروف ، فحالت دون وصوله الى الحكم ثلاث مرات متوالية ، منذ أن توفي الرسول ، لم يكن بدوره شديد الحماس لهذا الأمر حينذاك [1] ، بعد أن فقدت الخلافة الكثير من بريقها وبعد أن ابتعدت الاجواء الملائمة لاقامة نظام اسلامي عادل ومتكافيء . فشتان بين فرصة قلقة كهذه وبين الفرص الأخرى السابقة ، حيث كان المجتمع متجانسا ، تحكمه النزعة التعاونية وتمحوره القضية الواحدة المشتركة .

ولكن عليا الذي كان يمارس بصورة غير رسمية بعض شؤون الخلافة قبيل مقتل عثمان [2] ، لم يكن يملك القرار النهائي شأن المرات السابقة ، مع الفارق في المعطيات هنا وهناك . ولأنه كان يمثّل تيارا عريضا ذا منحى اجتماعي ، كان الأكثر تضررا في النظام السابق ، وهو نفسه الذي عبّر عن همومه ابو ذر الغفاري في انتفاضته الجريئة ضد الاستغلال والتخمة . فهو من هذا الموقع كان ملتزما بقضايا الفئات التي يسكنها الخوف على مستقبلها ومكتسباتها . ولأنه أيضا ، وعبر تراث نضالي كبير في الاسلام ، تزوده منذ نشأته ايمانا وتعايشا والتزاما ، لم يجد خيارا في اللحظات الصعبة سوى الرضوخ لدعوة الثوار والقبول بالخلافة ، وأي خيار غير ذلك ، لا يمكن وصفه الا تهربا من المسؤولية التاريخية وخيانة للعقيدة وللتيار الملتزم بتمثيله .

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٩٤ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ١٧٧ .

وتولى علي الخلافة [١] دون اجماع ، كسابقة لـم تعرفها الدولـة الراشدية • فالسياسيون الذين شغلوا دور المحرض في اواخر عثمان أو دور المتفرج المراقب ، كان لهم موقف سلبي من خلافة علي ، وفي طليعتهم الزبيـر وطلحـة • وكان الثوار قد انتزعوا البيعة منهمـا بالقوة ، دون أن يغيّرا ما بنفسيهما من تحفظ واعتراض • بينما اختفى الكثيرون مـن شخصيات (المدينة) [٢] ، يحدوهم الموقف نفسه ، او لأن الأوضاع كانت من الخطورة بحيث آثروا الابتعاد وعدم التورط •

وفي مسجد (المدينة)، المكان الذي كان شاهدا على أخطر التطورات في ذلـك الوقـت ، القى عـلي خطبته الأولى على الحشـد ، وجاء فيهـا : ••• أتقوا الله في عباده وبلاده ، انكم مسؤولون حتى عـن البقاع والبهائم • اطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه ، واذا رأيتـم الشر فدعوه ، واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون في الأرض » [٣] • ومـن الواضح أنها دعوة في الجوهر الى التهدئة والى تقويم المسار الذي تعثر، والمباديء التي انهارت أو كادت • بيد أنه رغم كفاءة الخليفة الجديد ، وخبرته الطويلة ، ومقدرته على اتخاذ المبادرات الاصلاحية المطلوبـة ، فان الأجواء السياسية كانت ملبدة ومضطربة ، وبالتالي غير مؤهلة لتسهيل مهماته وتنفيذ أي برنامج مطروح •

والحقيقة فأن النظـام الجديد كان مفتقدا الـى الدعـم السياسي

(١) بويع علي في الخامس من ذي الحجة سنة ٣٥٦ . الاسـدي : الفتنة الاولى ووقعة الجمـل ص ٩٥ . تاريـخ خليفـة بن خيـاط ج ١ ص ١٩٩ •

(٢) من هؤلاء : سعد بن أبي وقاص ، عبد الله بن عامر ، اسامـة بن زيد ، زيد بن ثابت ، حسان بن ثابت ، النعمان بن بشير وغيرهم . الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٣) الاسدي : الفتنة الاولى ووقعة الجمل ص ٩٥ . ابن الاثيـر : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٩٦ •

الضرور ي، بعد أن استعداه كبار الزعماء في (المدينة) ، الذين تحركـوا حينذاك من خلال اعتبارين : الأول ، هو افتقادهـم دور الشريك فـي السلطة ، وما يترتب على ذلك من تهديد لمصالحهم الحيوية • والثانـي هو الخوف على امتيازات ، لم يعد من السهولة التخلي عنها والرجوع الى مقررات الخليفة الأسبق (عمر) الصارمة والمتشددة • واذا مـا استثنينا الفئات الشعبية [1] ، وهي بطبيعتها تفتقر الى التعبئة والتنظيم في معظم الحالات ، حيث يكمن ضعفها وعجزها عن اتخاذ الدور المطلوب ، فـان القوة الوحيدة التي وقفت الى جانب علي ، ولكن بشكل غيـر متوازن أيضا ، هي جماعة الثوار التي اطاحت بعثمان وجاءت بـه الى الحكم • وكان مالك بن الحارث (الأشتر النخعي) [2] ، القائد الكوفي ، أحـد أبرز الثوار الذين تحمسوا للخليفة الجديد ، ومهدوا له الظروف لتولي الحكم وحاولوا تذليل الصعاب من أمامه •

كانت الخطوة الأولى في برنامج الخليفة ، العمل على الغاء مظاهر التجاوزات واسبابها ، التي انتهت بالعهد السابق الى مثل هذه النهاية • وكان تنفيذها مقرونا بتغييرات جذرية في اجهزة الحكم على اختلافهـا، وكذلك في سياسة الدولة الادارية والاقتصادية ، وفـق مبـدأ متوازن وجماعي • غير أن التصدي لرواسب النظام السابق، ممارسات واشخاصا، كان يعني المجابهة مع قوى نافذة ، بلغت شأوا مـن القوة علـى حساب الفراغ المركزي الذي أصاب النظام في أوقات المحنة ، وكذلك الأصطدام مع عدد من كبار الصحابة ، الذين سجلوا موقفهم السلبي بالخروج مـن العاصمة كما أشرنا •

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص ١٥٦ .

(٢) الاسدي : الفتنة الاولى ووقعة الجمل ص ٩٣ ـ ٩٣ .

ولقد كان القرار التغييري الأكثر الحاحا حينذاك ، هو اعادة النظر في الجهاز الاداري ، المسؤول مباشرة ، باعتباره الاداة التنفيذية للخلافة. وكان مطلوبا أن يسبق هذا القرار خطوات تمهيدية لتنفيذه دون ضجيج أو اعتراض • وهذا ما أشار على الأخذ به ، كل من عبد الله بن عباس (أحد المقربين من علي) والمغيرة بن شعبة (وهو سياسي محترف، ومحنك من الطائف) • فقد كان من رأي هذا الأخير على الأخص ، التمهل في عزل جماعة عثمان ، وبالتحديد معاوية بن أبي سفيان والي الشام القوي [1] • ونحن لا نستطيع الأفتراض بأن ذلك لم يدر في خلد علي ، الذي كان أعرف الناس بمشاكل عهده• ولكن النقمة التي اجتاحت الأقاليم ضد ولاة عثمان ، كانت لا تزال تتفاعل بشراسة ، وتصبح مطلبا ضاغطا فوق الحكم الجديد• ومن ناحية أخرى فان الأخذ بالمبدأ الواحد ، كان يعني الشمول وعدم التجزئة ، وما يجري على الكل لا بد أن يصيب الجزء في مطلق الأحوال • فضلا عن ذلك فان موقف الثوار في (المدينة) ، كان واضحا في هذا الشأن وميالا الى حسم الأمور بالسرعة القصوى ، بما يتلاءم والمعطيات المستجدة •

ومن خلال الموقف المتصلب، صدر الأمر بعزل الولاة وبقية الاداريين والمسؤولين في العهد السابق ، واستبدالهم بفئة جديدة [2] غير متورطة في السياسة، وليست لأسمائها شهرة كبيرة خارج (المدينة)• ولم تقم عقبات تذكر في وجه الولاة الجدد ، باستثناء ما كان منتظرا في الشام • فهناك الخصم الذكي، الذي ما برح يعمل بنزعة لا مركزية ويجتهد الا تفوته الفرصة النادرة ، لتحقيق طموحه الكبير في السيطرة على الحكم ، وفق منطق

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٩٨ •
(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٩٩ •

الاستمرارية في البيت الأموي • بيد أن الشام على خطورتها لم تكن الشاغل الوحيد للخليفة • ففي مكة ، التقى الرافضون للنظام الجديد ، متخذين من الأسلوب الذي تمت فيه التغييرات الأخيرة ، ذريعة للاحتجاج والمعارضة • ولم يلبث أول تكتل مناهض لعلي أن ظهر في المدينة المقدسه وعلى رأسه طلحة والزبير وعائشة (زوجة النبي) ، التي سارعت الى تحديد موقفها من الخليفة ، على ضوء اعتبارات قد لا يكون لها صلة بالأسباب التي حركت شريكيها في التحالف • فعائشة لم تكن يوما من مؤيدي عثمان الذي اثار سخطها قبيل مصرعه [١] ؛ ولكنها كانت ضد علي بكل ما تعنيه هذه الكلمة . ولم تتورع من اتخاذ كافة الوسائل للقضاء على حكمه •

وعلى الرغم من استقطاب التحالف الثلاثي لعدد غير قليل من المؤيدين ؛ الا أن موقعهم في مكة كان مضطربا واحتاج الى دعم أقوى، لم يتوفر لهم في الحجاز • فقرروا اتخاذ موقع لهم في البصرة ، حيث فرص النجاح في رأيهم ، كانت اكثر وضوحا • وهذه الأخيرة تذبذبت في موقفها حينذاك ، فلم تتوصل ، عكس الكوفة ، الى تحديد قرارها من الخليفة الجديد • وقيل أن حاكمها في عهد عثمان (عبد الله بن عامر) [٢]، كان يشجع على اختيارها مركز استقطاب لهذا التحالف • واذا كانت انتفاضة عائشة مع المنتفضين على خلافة علي ، قد أثارت الدهشة والاعتراض ، الا أن مشاركتها بدون ريب دفعت في تسريع الأزمة والسيطرة على البصرة [٣] •

ولكن أولى حركات المعارضة المسلحة التي رفعت شعارا لا ينسجم

---

(١) طه حسين : علي وبنوه ص ٢٩ .
(٢) الاسدي : الفتنة الاولى ووقعة الجمل ص ١١٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ٩٧ .

مع الموقف المعروف لزعمائها، وهو محاكمة المسؤولين عن مقتل عثمان [1]، كانت بحاجة الى تسويغ اكثر جدية لموقفها الجديد • لذلك فشلت في أن تكون احدى المحاور المتجاذبة لأطراف السلطة ، واقتصر تأييدها على فئة محدودة من البصرة ، كان تعاطفا مع الحركة عشائريا أكثر منه سياسيا • وفي الوقت نفسه ، لم يعدم الخليفة تأييدا له في هذه المدينة ، بينما فئة ثالثة ارتضت لنفسها الابتعاد عن هذا الصراع • وهكذا فان موازين القوى بين جيش الخلافة وبين تمرد التحالف الثلاثي في البصرة، لم تكن متعادلة ، بحيث استطاعت القوات المركزية أحباط هذه الحركة بدون صعوبة ، وذلك في ما يعرف بموقعة الجمل (٣٦ هـ / ٦٥٦ م) • وكان علي قد بذل جهده لتفادي الحرب والوصول الى تفاهم مع المتمردين ، دون أن يجد الى ذلك سبيلا •

ولقد أسفرت موقعة الجمل عن مصرع زعيمي الحركة الزبير وطلحة، وأسر عائشة التي اعتزلت الحياة السياسية بعد عودتها الى (المدينة) [2] • وهي أول حرب تدور بين طرفين من نفس المعتقد ، وهو الاسلام ، مما دفع علي الى خوضها بروح عالية من المسؤولية ، دون أن تتحكم فيه خلفية ما شخصية كانت أم سياسية [3] • ومن ناحية أخرى ، فان هذه المعركة كانت مقدمة الصراع الدموي الطويل بين علي ومعاوية ، وكانت في نفس الوقت

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص ١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٧٨، ١٧٩ ، ١٩٢ .

(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٨٣ . الاسدي : الفتنة الاولى ووقعة الجمل ص ١٨٣ .

(٣) كان علي أول من تصدى لهذه المشكلة بتشريعه المعروف : « لا يجهز على جريح ولا يتبع مول ولا يطعن في وجه مدبر . ومن القى سلاحه فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن » تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٨٢ الدينوري : الاخبار الطوال ص ١٤٤ ـــ ١٤٥ .

بداية المجابهة السافرة ، بين التيار الاجتماعي والحلفاء المرحليين من زعماء القبائل وغيرهم ، وبين التيار التقليدي الارستقراطي والمتعاطفين معه من كبار الاغنياء وذوي النفوذ، وبقية (المكيافيليين) المتصلين عضويا بمصالحهم الخاصة والمتوارثة . وأخيرا فقد أسفرت معركة الجمل عن تحجيم (المدينه) وانهاء دورها السياسي البارز ، بعد انتقال علي في أعقاب انتصاره على تمرد البصرة ، الى الكوفة في العراق ، واتخاذها مركزا لخلافته القصيرة ، مؤثرا الابتعاد عن شحناء الحجاز وتطاحن التيارات السياسية فيها . وهكذا برز محور جديد للاتجاه المؤيد لعلي على حساب البصرة ، التي عاشت في ظل الكوفة زمنا طويلا .

صفين والتحكيم :

من الصعب المقارنة بين ولاية الشام وغيرها من ولايات الخلافة حينذاك . اذ أنها ارتبطت منذ عشرات السنين بعلاقة خاصة مع البيت الأموي ، بدءا بأمية بن عبد شمس [1] (جد الأمويين) ومرورا برحلة الصيف الموسمية الشهيرة ، التي كان لهذا البيت دور الزعامة التجارية فيها . وفي اطار الاسلام قدر لهذه العلاقة أن تتخذ حجما غير عادي ، عندما أتيح للامويين توظيف هذه العلاقة في خدمة الصراع العربي — البيزنطي في بلاد الشام . فقد عهد الخليفة أبو بكر الى يزيد بن أبي سفيان بقيادة أحد الجيوش الرئيسية الثلاثة التي كانت طليعة القوات العربية الاسلامية ، المتحركة الى هذه المنطقة .. وكانت دمشق محور المهمة التي عهد الى يزيد بتنفيذها في ذلك الحين . وبعد سقوط الشام ، كان هذا الأخير أول حاكم اداري لها ، حتى اذا توفى في سنة ١٨ هـ ،

---

(١) اضطر اميه الى مغادرة مكة بعد أن فشل في منافسة عمه هاشم على النفوذ . المقريزي : النزاع والتخاصم بين امية وبني هاشم ص ٨٠ .

احتفظ الأمويون بهذا المنصب ، بانتقاله بطريقة شبه وراثية الى أخيه معاوية . وحينذاك تبلورت هذه العلاقة ، وبدأت الشام تأخذ تدريجيا هويتها الأموية بهدوء وذكاء ، وهي صفات حاكمها الجديد . وحتى لا يكون معاوية كغيره من الولاة مجرد موظف يأتمر بأوامر الخلافة ، ويعزل متى شاءت له العزل، لجأ الى تدعيم مركزه السياسي ، بانشاء قوة عسكرية ضاربة ، برية وبحرية . وكان لهذه الأخيرة التي اقيمت تحت شعار الدفاع عن شواطىء الدولة وثغورها ، الدور الايجابي الكبير في صد محاولات الأمبراطورية البيزنطية لاستعادة نفوذها في الشام ، ومن ثم تدمير اسطولها في وقت لاحق في (ذات الصواري) [1] .

لقد أعطى هذا النمو المتصاعد في القوة العسكرية لمعاوية في الشام حجما غير اعتيادي ، ما لبث أن وظفه في سياسته الداخلية ، مترصدا الفرص المواتية لتحقيق نزعة السلطة المتوارثة والمتأصلة فيه. وجاء تنصيب عثمان على الخلافة ، وهو أحد أركان البيت الأموي ، ليفتح أبواب الطموح في وجه زعيم الشام، ومعها حرية التحرك والغطاء الواقي الفسيح. وبعبارة أخرى فقد توفرت لدى معاوية الأرضية المناسبة ، مضافا اليها الموقع العسكري المتطور ، ومن ثم لعبة التحالف القبلي المتوازنة التي اتقنها ، ومصاهرته لبني كلب أقوى القبائل اليمينية في الشام . وهي جميعها شروط مثالية للزعامة السياسية وصناعة النفوذ .

في مثل هذه الظروف ، حيث كانت تخالج معاوية اللحظة التاريخية باستلام الحكم بعد عثمان ، كان علي ينتقل مع متاعبه الى الكوفة عاصمته

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٩١ .
Jean - Paul Roux : L'Islam au proche orient p. 133

الجديدة ، لينصرف الى معالجة المشكلة الشامية • ولم تلبث حملة معاوية، المطالبة بمحاكمة المتهمين بقتل الخليفة السابق ، أن اتخذت اطارا من التعبئة في أوساط عرب الشام ، الذين استدرجهم معاوية بذكاء اساليبه ونعومة سياسته [1] ، الى القول بمقولته والتكتل معه حول قضية مفتعلة• ولكن الزعيم الأموي ، الذي احترف شتى الوسائل في اجتذاب الأعوان والأنصار ، كانت لديه المقدرة على اغراق الناس في جدل عقيم وساذج، في الوقت الذي يبطن وراءه القضية الرئيسية باتقان وبراعة •

ومن خلال هذا الواقع ، فان المجابهة الحتمية بين الخليفة الجديد والوالي المتمرد ، لم تكن مهمة عادية على غرار حركة البصرة • ففي الشام ، استطاع معاوية القبض باحكام على زمام الأمور ، سواء بتطويع الزعماء القبليين والسياسيين [2] أو بأعداد جيشه المتماسك والانضباطي • بينما الجبهة العراقية لا زالت فاقدة الكثير من هذه الشروط ، مع غياب التلاحم العضوي بين الخليفة وأفكاره في الحكم وبين عدد غير قليل من معاونيه ، الذين لم يتحمسوا كثيرا لقوانينه الصارمة والمتشددة ؛ وفي الجانب العسكري ، كان جيش علي في واقعه ، هو جيش الخلافة الذي انتقل اليه برواسبه وأمراضه وتناقضاته • وهو رغم تفوقه العددي ، فأنه جسّد عمليا المستوى الذي آل اليه هذا الجيش ، حيث خبت فيه النزعة القتالية ، منذ انغماسه في شؤون السياسة بعد اغتيال عمر •

ولأن الخليفة من موقع المسؤول كان حريصا على توسل الطرق

(١) احمد فريد الرفاعي : عصر المأمون ج ١ ص ١٧ •
(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٣٨ •

الدبلوماسية في انهاء التمرد الشامي . فقد أرسل موفدا الى الشام [١] ؛ في محاولة لاقناع معاوية بالتخلي عن موقفه السلبي ، والأعتراف بخلافة علي . وجاء اختيار جرير بن عبد الله البجلي ، وهو من موظفي العهد السابق [٢] لهذه المهمة ، يؤكد جدية المحاولة وتغليب الاتجاه السلمي لدى الخليفة ، والعمل على تفادي الحرب الأهلية . ولكن مهمة جرير اصطدمت برفض معاوية،واصراره على موقفه التقليدي من علي.وهو اتهامه بتمييع قضية عثمان وايواء المسؤولين عن قتله [٣] . وجاء ذلك مؤشرا الى اقتراب شبح الحرب ، خاصة وأن الاجراءات التي شهدتها الجبهة الشامية ، وكان آخرها استدعاء عمرو بن العاص المعتكف حينذاك في فلسطين ، وهو المعروف بموقفه المتحفظ من خلافة علي، الأمر الذي ساهم في توقيت الانفجار [٤] . ذلك أن استقدام أحد قواد اليرموك ، وأحد الأنداد الأكفياء لمعاوية في السياسة ، واتخاذه دور الشريك المساهم الى جانب هذا الاخير ؛ كان يخفي وراءه الكثير من المساومات ، بدءا بهذه الحادثة الى التحكيم [٥] .

وهكذا تغلبت حتمية الحرب بين موقفين مختلفين وبين اتجاهين متناقضين ؛ في المنهج والفكرة والأسلوب . وما لبث معاوية أن أعلن التعبئة العامة في ولايته ، وخرج بقواته المنظمة نحو العراق ، مقرنا تمرده بالفعل . وفي المقابل كان علي قد اتخذ معسكرا لقواته في (النخيلة)[٦].

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٣٩ .
(٢) كان عاملا على همذان . المصدر نفسه .
(٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .
(٤) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٥٧ .
(٥) اصرار عمرو بن العاص على أن تكون مصر من نصيبه كشرط لتحالفه مع معاوية . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٨٠ .
(٦) تقع الى الشمال من الكوفة .

أثر المعلومات التي بلغته عن تحرك معاوية بقواته ، وغادر بدوره المعسكر بأتجاه الشام • وكانت صفين ، المدينة الفراتية القديمة ساحة الصراع بين الفريقين • وتحدثنا المصادر التاريخية عن معارك طاحنة ومكثفة ، رافقتها حملات نفسية ، لتدعيم المعنويات واجتذاب الانصار من هذا المعسكر أو ذاك • والمصادر نفسها تشير الى رجحان الموقف علـى الجبهة العراقية ، التي كادت أن تحسم الحرب لمصلحتها، لولا التطورات المثيرة التي اسفرت عن الدعوة الى المفاوضات ، حيث مهد لها برفع المصاحف ، في الوقـت الذي كانت فيه قوات الأشتر تخترق صفوف الشاميين وتدفع بهم الـى الوراء [1] •

وهكذا طرح شعار التحكيم ، أي الاحتكام الى القرآن ، مع الأخذ بالاعتبار ما لهذه الدعوة من تأثير على المقاتلين • وكان عمرو بن العاص هو صاحب فكرة التحكيم ومبدعها ، ومن ثم منفذها فيما بعد • وهـي مناورة على جانب كبير من الذكاء والبراعة ، في وقت لـم يكـن تجميد الوضع العسكري في مصلحة العراقيين ، بـل كان فرصة نادرة لأنقـاذ القوات الشامية من الهزيمة ، واعادة تنظيمها وتعزيزها • ومن أخطر مـا واجهته الجبهة العراقية فـي أعقاب هـذه الدعوة ، هـو تمييع الموقف العسكري وانكفاء النزعة القتالية تدريجيا ، بعد أن خرقت الاصوات الى التحكيم الانسجام السطحي بين قوات الخليفة [2] •

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٤٨ . المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

(٢) يروي ابن الاثير : أن عليا حذر أصحابه من هذه الخديعة واكد لهم أن معاوية وعمرا واصحابهما « ليسوا باصحاب دين ولا قرآن ، انا اعرف بهم منكم . قد صحبتهم اطفالا ثم رجالا فكانوا شر اطفال وشر رجال . ويحكم والله ما رفعوها الا خديعة ووهنا ومكيدة » الكامل في التاريخ : ج ٣ ص ١٦٠ .

ولقد عارض علي وأركانه فكرة التحكيم ؛ حيث كانت بنظرهم مجرد مناورة بارعة ، لا تخدم في النهاية سوى الجبهة الشامية ، بما في ذلـك اعطاء معاوية فرصته التاريخية للظهور في موقف الند للخليفة ، وما يترتب عليه من تغييرات في الموازين السياسية والمعنوية لكل من المتنافسين • غير أن ذلك لم يكن ملزما لجميع قيادات الجبهة العراقية ، فسرعان ما ارتفعت الأصوات التراجعية تحث على القبول بالتحكيم • ويبدو أن هذه الدعوة راقت بشكل مبدأي للقيادات القبلية . وهي تقليديا غير مؤهلة للصمود طويلا في حرب نظامية، تستدعي الانضباط والرضوخ للقوانين العسكرية• ولم يكـن موقف القوى الأخرى أو معظمها أفـل تعاطفا مـع الاتجـاه التحكيمي ، بحيث وصل الى درجة استطاع معها التغلب على الاتجـاه الحربي في جيش علي• ولم يعد مستغربا أن يقرن هؤلاء موقفهم بالاصرار والتهديد لحمل القيادة علـى الاستجابة [1] • وما لبث احدهـم وهـو الأشعث بن قيس الكندي ، أول مبعوث الى معاوية لاستطلاع غرضـه من التحكيم ، أن عاد وهو أشد اقتناعا ، ليقوم بدوره في خلخلة الجبهة العراقية وتهبيط معنوياتها على اكمل وجه •

وهكذا أصبح علي وأركانه أقليه امام التيار الاستسلامي ، الـذي فرض رأيه في النهاية • وكان لا بد مـن الاستجابة ومناقشة الأوضاع المستجدة بشيء من الحذر • غير أن القوة التي حولت التوجه العام في الجبهة العراقية من الحرب الى الجمود ؛ كانت لديها المقدرة على التدخل في الوقت المناسب من أجل تمرير مصالحها الحيوية ، وهي لم تعد تلقائيا

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩١ •

في الموقع المتصلب الذي اختاره علي لنفسه • واتضح عمليا الاختـلال لدى الفريقين في انتخاب الممثل لكل منهما في اجتماع التحكيم ، حيـث تم الاتفاق على عقده في (أذرح) ، وفق معاهدة ضمت شروط التحكيم ومبادئه [١] • فبينما أوفـد معاوية كبير مساعديه وبطل المناورة عمرو بن العاص لتمثيله في المؤتمر ، كان أبو موسى الاشعري الذي أدين في موقف تخاذلي سابق ضد علي في الكوفة [٢] ، هو الذي فرض ليكون ممثله في المؤتمر • ومن البديهي أن الخليفة الذي أصر على ايفاد عبدالله بن عباس أحد أقرب معاونيه ، كان مضطرا للتراجع خطوة أخرى الى الوراء تحت ضغط الاشعث ، وذلـك لأن الاشعري ، حسب زعمـه أكثر مرونة على التفاوض وهو في منتصف المسافة بين علي ومعاوية [٣] •

وما زال الأشعث يمارس دوره المشبوه في التأثير على المترددين من جماعة علي ، مروّجا للمعاهدة المذكورة ، التي جاءت كوثيقة للمناقشة في اجتماع (أذرح) • وكانت قد أثارت انتقادا شديدا في أوساط الرافضين للتحكيم من حيث المبدأ ، خاصة ما جاء في حيثيات الوثيقة التي ساوت بين موقعي المتنافسين علي ومعاوية • أي أنها جردت عليا من لقبه الخلافي

---

(١) نصت المعاهدة على ان يحيي الحكمان ما احيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن ، ولا يتبعان الهوى ولا يداهنان في شيء من ذلك، فان فعـلا فلا حكم لهما . مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٢ . الطبـري : تـاريخ الامـم والملوك ج ٢ ص ٣٠ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٦١ .

(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٨٩ . المسعودي : مـروج الذهب ج ٢ ص ٣٩١ .

(٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٦ ص ٢٠٨.

ووضعته في موقع الند لخصمه المتمرد [١] . ولم ينج الاشعث من ادانة أنصار الحرب في الجبهة العراقية ، واتهامه بالتواطؤ والتنسيق مع الجبهة المعادية . فبعد تهديد الاشتر له بالقتل [٢] ، انتفض في وجهه (عروة بن أدية) أحد زعماء بني تميم وكاد أن يفتك به ، لولا أن هوت ضربة السيف على مؤخرة فرسه [٣] ، مما أدى الى تكتل قبيلة كنده اليمنية حول زعيمها الاشعث . ولنا أن نتصور تأثير ذلك على وحدة الجبهة

---

(١) روى اليعقوبي ان معاوية وعليا « كتبا كتابين بالقضية ، كتابا من علي بخط كاتبه عبد الله بن أبي رافع ، وكتابا من معاوية بخط كاتبه عمير بن عباد الكناني ، واختصموا في تقديم علي أو تسمية علي بأمير المؤمنين . فقال أبو الاعور السلمي : لا نقدم عليا . وقال أصحاب علي : ولا نغير اسمه ولا نكتب الا بأمرة المؤمنين . فتنازعوا على ذلك منازعة شديدة حتى تضاربوا بالايدي . فقال الاشعث : امحوا هذا الاسم ! فقال الاشتر : والله يا اعور لهممت أن املأ سيفي منك ، فلقد قتلت قوما ما هم اشر منك . واني اعلم انك ما تحاول الا الفتنة وما تدور الا على الدنيا وايثارها على الاخرة . فلما اختلفوا قال علي : الله اكبر ! قد كتب رسول الله يوم الحديبية لسهيل بن عمرو : هذا ما صالح رسول الله . فقال سهيل : لو علمنا انك رسول الله ما قاتلناك . فمحا رسول الله اسمه بيده وامرني فكتبت : من محمد بن عبد الله ، وقال ان اسمي واسم أبي لا يذهبان بنبوتي ... وان اسمي واسم أبي لا يذهبان بأمرتي . وأمرهم فكتبوا من علي بن ابى طالب . وكتب كتاب القضية على الفريقين يرضون بذلك بما أوجبه كتاب الله واشترط على الحكمين في الكتابين ان يحكما بما في كتاب الله من فاتحته الى خاتمته لا يتجاوزان ذلك ولا يحيدان عنه الى هوى ولا ادهان . واخذ عليهما اغلظ العهود والمواثيق . فان هما جاوزا بالحكم كتاب الله من فاتحته الى خاتمته فلا حكم لهما » . تاريخ اليعقوبي ج ٢ ، ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٩٣ . الطبري : تاريخ الامم والملوك ، ج ٦ ، ص ٣٠ـ٣١

العراقية ، التي افتقدت عمليا اثنتين من أكبر القبائل المشاركة في الحرب• فكلتاهما سارت في خط متناقض عن الاخر ، ولكن على حساب هذه الجبهة • فبينما تعاطفت كنده مع التحكيم الذي يصب في مصلحة الاتجاه الشامي الأموي ، تمادت الثانية (تميم) في خطها الرفضي لهذا المبدأ وعبرت عنه بالقول الشهير (لا حكم الا الله) [1] • وكان ذلك الموقف نواة ما عرف لاحقا بحركة الخوارج التي اتخذت هذه العبارة شعارها الرئيسي •

وكانت هذه الحادثة سببا في تجميد المفاوضات ، وذلك في أعقاب الفوضى التي سيطرت على المعسكر ، من ساخط الى رافض •• الى موصوم بالخيانة • حتى أن بعض الذين دافعوا عن التحكيم عادوا الى نفض أيديهم منه واتهام قائدهم بالتخاذل[2] •فقرر علي حينذاك الانسحاب الى الكوفة ، حيث كان بحاجة الى اعادة تقويم الموقف ومعالجة الخلل المريع الذي أصاب قواته • ويبدو أن أكثر همومه الحاحا في ذلك الحين ، كانت في اتساع دائرة الرافضين الذين استهوتهم مقولة عروة بن أدية ، وأخذوا ينفضون تباعا عن معسكر علي • وما لبثت (حروراء) ، احدى قرى الكوفة ، أن تحولت الى مقر لهؤلاء الذين بلغوا اثني عشر ألفا ، حسب قول المصادر ، وذلك بقيادة تميمي اخر هو شبث بن ربعي [3] •

ولقد استطاع علي أن يلجم هذه الفئة بعض الوقت ، حيث ناقشهم

---

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٩٣ . الطبري ، ج ٦ ، ص ٣١ .

(٢) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ٥

(٣) « الامر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والامر بالمعروف والنهي عن المنكر » . من اقوالهم في (حروراء) . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٣ ، ص ١٦٥-١٦٦

في الأسباب التي حملته على قبول التحكيم ، وهو أشد رفضا له منهم . واستطاع كذلك أن يحملهم على الرجوع الى الكوفة وانهاء اعتصامهم في (حروراء) . ولكن تسويغ الخليفة لم يكن مقنعا في نظرهم ؛ فما لبثوا أن عادوا الى احتجاجهم ، بعد ادراكهم جدية الالتزام لدى علي بوثيقة التحكيم ، وانتهوا الى الانفصال مجددا ، وذلك عشية اجتماع المتفاوضين في (أذرح) . وفي تلك الاثناء كان الخوارج (الاسم الذي عرف به الرافضون للتحكيم) ، ينتقلون في معارضتهم من الاحتجاج الى المجابهة السافرة . ولكن عليا كان شديد الحرص على تطويق خروج هذه الفئة الكبيرة وعدم استعدائها ، خاصة ابان ذلك الموقف الصعب الذي تطلب تجنيد كافة الطاقات في وجه الخصم العنيد معاوية . وكان قد اكتشف حينذاك عبث المفاوضات [1] وعقم الحلول الوسطية . فالحملة النفسية المتصاعدة التي شنها الزعيم الأموي في أوساط المعسكر العراقي، والطرق التي سبقت اختيار الممثلين وانتشار الصحيفة ، كانت كلها مؤشرات تبعث على الاعتقاد ، بأن ما يجري في (أذرح) لا يتعدى المناورة أو (الابتزاز السياسي) لحمل الخليفة على المزيد من التنازلات .

وهكذا فان جبهة أخرى استجدّت ضد علي ، بانفصال الخوارج وانسحابهم الى (النهروان) بقيادة عبدالله بن وهب الراسبي [2] . ولقد تحول هؤلاء الى قوة سياسية معارضة ، احتلت فيما بعد حجما غير عادي في تاريخ الحركات الثورية التي استهدفت النظام الأموي بشكل خاص . وفي تلك الاثناء كانت مفاوضات التحكيم تجري بطريقة مسرحية

---

(١) بدأت المفاوضات في رمضان سنة ٣٨ هـ. وأذرح هي في مكان متوسط بين العراق والشام حسب ما جاء في معجم البلدان ج ١ ص ١٦١

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٧٠

مكشوفة ، حيث ضاع النقاش في قضية عثمان دون الخروج بحل للقضية الكبرى . سوى الاتفاق على ادانة كل من علي ومعاوية ، بخلعهما وترك « الأمر شورى بين المسلمين » [1] . وكان واضحا أن الرابح الكبير هو معاوية ، بعد أن نجح ممثله باستدراج الاشعري الى التنازل عن حق يتمتع به علي دون خصمه وهو الخلافة .

وانفض المؤتمر على غير وفاق كما كان متوقعا ، وأخذت تباشير الحرب تلوح مجددا بعد جمود غير قصير . بيد أن النتائج على فشلها ، جاءت تدعم مركز معاوية الذي طرح نفسه بطريقة غير مباشرة ، وباعتراف من المؤتمر كند" متكافيء . أما بالنسبة لعلي فقد وجد في الأمر خرقا للوثيقة التي تم الاتفاق عليها ، ولحكم القرآن الذي التزم به المتفاوضان [2] .

وبعد فشل مؤتمر (أذرح) ، لم يدخر علي جهده في اعادة تنظيم جيشه والاستعداد للقتال . غير أن اتساع نفوذ الخوارج في منطقة النهروان ، حيث ظهر في اطار عصابات مسلحة ، تقطع الطرق وتعتدي على الناس [3] ، الأمر الذي دفع عليا الى اقتلاع خطرهم قبل التفرغ لحسم مشاكله مع معاوية . وفي النهروان استطاع علي أن يستعيد بعض الخوارج الى معسكره ، بينما أوقع الهزيمة بالاخرين وقتل زعيمهم الراسبي وذلك سنة ٣٨هـ/٦٥٨ م. ولكن هزيمتهم هذه لم تؤد الى القضاء عليهم ، فما لبثوا أن استردوا مبادرة التحرك بعد وقت قليل ،

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٦ ص ٣٩

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٧٢ .

(٣) كان من بين ضحايا الخوارج ، عبد الله بن خباب ، أحد الصحابة المقربين من علي . المصدر نفسه ج ٣ ص ١٧٣

مصعدين نضالهم ضد الأمويين شركاء علي في عداء الخوارج •

وعلى الرغم من رفض الخوارج لموقف معاوية ، فقد ساعدوه بطريقة غير مباشرة على تعزيز مواقعه السياسية والعسكرية • ذلك أن حرب الخوارج في العراق ، أتاحت لمعاوية الفرصة من أجل توسيع نفوذه خارج الشام ، حيث سقطت في يده مصر واليمن وبعض الحجاز فضلا عن الجزيرة ؛ حتى أن العراق أصبح في متناول الهجمات الشامية [١] • وكان ذلك التحول في الاستراتيجية الأموية من الدفاع الى الهجوم ، يقابله انكفاء في المستوى العسكري للجبهة العراقية، التي عجزت حينذاك عن تعويض النقص في العدد وفي الاندفاع اللذين ظهرا في صفين • والحقيقة أن هذا الجيش الذي أفرز الخوارج ، فأصبحوا أكثر عداء له من الأمويين ، والذي جمع في صفوفه عددا غير قليل من الانتهازيين والمتخاذلين ، فكانت لهم الكلمة النافذة •• ان جيشا له هذه السمات ، كان غير قادر على الصمود في حرب طويلة وقاسية ، كتلك التي ذرت قرنها بين علي ومعاوية• فقد أفسدته السياسة وفتكت به القبلية وانتشرت فيه الروح الانهزامية، بعد أن كان هذا الجيش الى وقت غير بعيد يضم الطليعة الاسلامية التي صنعت أعظم الانتصارات •

ان انهيار هذه المؤسسة العسكرية مرتبط بانهيار النظام السياسي في العهد السابق • فانحراف كبار الموظفين حينذاك ، حرك في نفوس المقاتلين الرغبة في استثمار جهودهم التي استأثر بها المدنيون ، فرفعوا شعار الاصلاح والتغيير ؛ وانتهوا الى التورط في قتل الخليفة • فقد انغمست هذه المؤسسة بدون قصد في حبائل السياسة وفي صراعات

---

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٩٥ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٨٠-١٩٠

الطامحين الى السلطة وتكونت لديها بعد ثورتها الدموية سابقة خطرة ، بحيث أن القيادات التي ذاقت مؤقتا طعم السلطة . أخذت تتوسل القوة والضغط لتمرير القرارات المناسبة [١] . أي أنها تجاوزت حدود الدور الذي رسم لها في عهد عمر ، بأن تسير في فلك السياسة وتتبعها بصورة مطلقة .

وازاء هذه الاعتبارات ، اعتكف علي في عاصمته وطوى مشاريع القتال بعض الوقت ، بانتظار ظروف مختلفة وفرص جديدة . وكان شاغله الأكبر الذي استنفذ كل وقته وتفكيره ، هو اعادة بناء الجيش المتفسخ وفق مقاييس موحدة ، ولاء وتجانسا وانضباطا ، تلك الصفات الغائبة عن الجيش الذي حارب في صفين [٢] . وفي خلال السنتين الأخيرتين من حياته ؛ دأب علي على تنفيذ خطته بهدوء وصبر ، دون أن يتوقف الصراع بين الشام والعراق ، وذلك عبر الهجمات الأموية التي نجح في صدها وتجميد خطرها . وتحدثنا بعض الروايات التاريخية أن عليا توصل الى حشد عدد كبير من المقاتلين ، ناف على الأربعين ألفا حسب تقدير ابن قتيبة [٣] .

غير أن الجيش الذي انهمك علي في بنائه لم يستكمل اعداده، ومشاريع الحرب الجدية انطوت الى الأبد . فقد سقط الخليفة فجأة في مسجد الكوفة ، وكان المتهم باغتياله رجلا مغمورا يدعى عبد الرحمن بن

---

(١) راجع الموقف من علي عندما اعترض على التحكيم . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٦٠ . المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩١

(٢) راجع رسالة علي بعد عودته الى الكوفة . ابن الاثير ج ٣ ص ١٧٧ـ١٧٨

(٣) الامامة والسياسة ج١ ص ١٣٤

ملجم المرادي [1] . فكان ثالث الخلفاء الراشدين الذين لاقوا نفس المصير .. اثنان منهم (عمر وعلي) قتلا في ظروف غامضة ، والاخر سقط في انتفاضة مسلحة . وفي كتب التاريخ بضع روايات حول الأسباب التي أدت الى اغتيال علي ، ولكن أكثرها وضوحا تلك الرواية المحبوكة [2] التي ربطت الحادثة بمؤامرة دبرها الخوارج ، وكان أداتها المنفذه احد عناصرهم المتطرفة. ولكن الغريب في الأمر أن الروايةنفسها تبرز الحادثة وكأنها مجرد قرار فردي من دون خلفية سياسية ، ربما كان لها ما يسوغها بالنسبة للخوارج كحركة ثورية معادية للخليفة .

والحقيقة فان أي متتبع لهذا الشريط من الاحداث ، من غير العسير عليه أن يلمح مرة أخرى شبح المؤامرة التي أوشكت على استكمال فصلها النهائي ، بسقوط علي ومعه بقايا النظام الراشدي المهزوم . ولقد جاء انتصار معاوية ، أحد أقوى ممثلي التيار التقليدي في الاسلام ، يكرس بصورة أكثر وضوحا سيادة الذهنية القديمة ، القائمة على تحالف القبائل والأرستقراطية القرشية . وهي الصيغة التي أخذت في الظهور منذ نجاح هذا التيار في استرداد نفوذه المفقود . ذلك أن كبار التجار في مكة

(١) قتل علي في رمضان سنة ٤٠هـ.

(٢) تقول الرواية ان ثلاثة من الخوارج اجتمعوا بعد معركة النهروان واتفقوا على الانتقام لقتلاهم وذلك بالقضاء على الثلاثة المسؤولين : وهم علي بن أبي طالب ومعاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص . « فقال ابن ملجم انا أكفيكم عليا وقال الاخر انا اكفيكم معاوية وقال الاخر انا اكفيكم عمرا » .. ومضى كل منهم الى تنفيذ ما اتفقوا عليه ، فلم ينجح في مهمته سوى ابن ملجم . بينما الثاني (الحجاج بن عبدالله الصيرمي) فلم يصب من معاوية مقتلا ، بينما الثالث (عمرو بن بكر التميمي السعدي) فلم يلتق عمرا لعدم خروجه الى الصلاة تلك الليلة . ابن طباطبا : الفخري في الاداب السلطانية ص ١٠١ . ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٤٧ .

الوثنية ، الذين اعتنقوا الاسلام في أعقاب فتح هذه الاخيرة، ما لبثوا أن عادوا مجددا وبجرأة أكثر بعد حكم مقنع أثناء خلافة عثمان : كـأن اسلامهم عاد اليهم بالنفع العظيم ، على حد تعبير مؤرخ معاصر [1] .

وفي الوقت نفسه، حلت بانتيار الاجتماعي ضربة أخرى قاصمة بمقتل ممثله علي ، وتبخرت آماله في الحكم ، وكان قد بدأ يتلمس أبعاد الدور الكبير المعطى له في الدولة ، منذ أن وضع عمر شكلها المتطور . ثم جاء علي بعد انهيار الجزء الاكبر من دولة هذا الاخير ، ومعه الآمال بعودة هذا التيار الى ممارسة دوره الطبيعي في مختلف مجالات المجتمع، حيث يشكل العنصر الانتاجي فيه .

ولعل التقويم المناسب لخلافة علي ، ربما لا يتجاوز اطار الحرب الأهلية التي انفجرت منذ أيامها الأولى ، فشلّت طاقاتها وفعالياتها . واذا استثنينا بعض انعكاسات التجربة القصيرة على مجتمع الكوفة بشكل خاص ، وما عادت به من ايجابيات، أول ما أصابت الفئات الشعبية بمختلف انتماءاتها القبلية والعنصرية. وعدا ذلك لا يمكننا معالجة أحداث السنوات الخمس التي أمضاها علي في الحكم ، خارج دائرة الصراع الدموي والسياسي الذي انفجر بين محوري الشام والعراق، حتى قتل الخليفة وهو لا يزال يعد للمعركة التي لم تستكمل فصولها بعد .

لقد جاء علي الى الحكم في وقت تآمرت عليه الأطراف المختلفة ، بما فيها الفئات المحسوبة عليه والمقاتلة في جيشه . كما جاء في ظروف

---

(١) بليايف : العرب والاسلام والخلافة العربية ص ١٩٥

لا تشجع على الحكم ولا تساعد مطلقا على التغيير المنشود . كما كان مطلوبا منه في المقام الأول • كذلك فان الانتشار المذهل للعرب ابان خلافة عثمان بحثا عن الثروة واستغلال الأرض ، قد أفسد ذلك التراث من السلوك الاجتماعي الذي جاء مع الاسلام ، بحيث أن انتكاسات مريرة ستعاني منها الأنظمة اللاحقة ، ذات النهج « المكيافيلي » والحكم الفردي المطلق •

بين معاوية والحسن :

بعد اغتيال علي مرت الدولة الراشدية أو بقاياها بمرحلة انتقالية قصيرة ، تولى الخلافة في أثنائها الحسن بن علي • وكان المبادر الى بيعته قيس بن سعد بن عبادة ، أحد أخلص أعوان الخليفة السابق وعامله على مصر [1] • وهو من أنصار الاتجاه الحربي ، ولهذا دلالة على ان الصراع العراقي ــ الشامي . الذي ورثه الحسن مع الخلافة سيعطي الأولوية كما في العهد السابق • بيد أن حيثيات البيعة أثارت من الجدل ما جعل بعض المؤرخين يعتقدون أن الحسن كان لديه عزوف عن الحرب وميل الى السلم ، خاصة اشتراطه على أصحابه حسب ما أورده ابن الاثير : « انكم مطيعون ، تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت [2] • لقد أوجد ذلك شعورا بالارتياب في نوايا الحسن ، الأمر الذي دفع البعض من أنصاره الى التوجه نحو الحسين والقول له ، كما يشير ابن قتيبة « ابسط يديك

(١) الاسدي : الفتنة الاولى ووقعة الجمل ص ١٠٠ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٠٤ •

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٠٤ •

نبايعك على ما بايعنا عليه أباك وعلى حرب الحالين الضالين » [1] . ولكن الحسين يرفض العرض بوجود أخيه الأكبر رغم موقفه المعروف في هـذه المسألة [2] .

وسنحاول مناقشة هذا التصور مع سياق الاحداث التـي عاصرها الحسن أبان تلك الفترة الانتقالية . والحقيقة أن القول بزهده فـي مقارعة معاوية وهو يعلم أن ذلك قدره منذ أن قبل بالخلافة ، لأمر يحيط به الشك . فما الذي حمله على ركوب هذا المركب الخشن لو لم يكـن لديه التصميم المسبق ازاء الخيار الصعب ؟ ومن الواضح أن غياب أخبار الحسن مفصلة في كتب التاريخ ، ساهم فـي طمس الكثير من جـوانب شخصيته الايجابية ، بحيث جاء التركيز على حياته الخاصة ، غيـر الجدية على حد قول هذه المصادر [3] . على أننا لا نملك فـي الوقت نفسـه المعطيات الكافية التي تبرز موقف الحسن الحازم من الحرب ، باستثنـاء ما جاء في (مقاتل الطالبيين) من وصف لجيشه ، يوحي بأنه على مستوى عال من الكثافة والتنظيم [4] . وما عدا ذلك فالعلاقة بينه وبين معاويـة تكاد تكون محصورة في مجموعة من المراسلات،حاول بواسطتها كل منهما تبيان حقه وكفاءته في الخلافة [5] .

والواقع أن الحكم على شخصية الحسن من خلال بضعة أسابيع ،

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٥٠ .

(٢) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٦ ص ٩٢ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٠٥ .

(٣) الدينوري : الاخبار الطوال ص ٢٢ . ابن الاثير : الكامل فـي التاريخ ج ٣ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

(٤) الاصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٤٠ .

(٥) المصدر نفسه ص ٣٥ ـ ٣٨ .

وهي المدة التي قضاها في الحكم بما رافقها من مشاكل متوارثة ، يبقى ناقصا وبحاجة الى معطيات لا تزال غير متوفرة • فقد دوهم بعد قليل من بيعته بوصول معاوية على رأس جيش الى (مسكن) [1] ، دون أن يكون لديه من الوقت أو الاستعداد للحرب ، سوى ما كان قد أعده علي قبل موته • فخرج بهذا الجيش الى (المدائن) [2] واتخذها معسكرا له • ولعل ضرورات الحرب حملته على اختيار هذا المكان البعيد ، ليأخذ وقته من الاستعداد والتعبئة ، اذ أننا لا نملك تعليلا لسيره في غير الاتجاه الذي سلكه معاوية • وكان قيس بن سعد قائد المقدمة ، وهو باعتباره في طليعة المتحمسين للحرب . قد تعرض لحملة نفسية عنيفة من الجانب الأموي • فما كاد يبلغ المعسكر حتى انطلقت في أثره شائعة مقتله [3] ، الأمر الذي ترك تأثيرا عكسيا على معنويات المقاتلين في جيش الحسن • وتوالى الحصار النفسي ، وكان أشده خطورة، ما أدخله معاوية حينذاك في روعهم ، بأن الحسن لم يغادر الكوفة الا مناورة وتمهيدا للصلح [4] •

ان الأجواء التي سادت العراق في تلك الفترة القلقة ، لم تكن مشجعة على تصعيد القتال ، بعد خمسة أعوام ونيف من التعبئة العسكرية والنفسية • فالظروف التي قهرت علياً لا زالت هي نفسها قائمة لم تتغير ، ولعلها أصبحت أشد سوءا في عهد الحسن ، مع الفارق بين الأثنين في

---

(١) على مقربة من الانبار . الاصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٤١ . ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ١٢٨ .

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٥٠٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٠٥ .

(٤) الوفد الذي ارسله معاوية الى الحسن (المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عامر) واشاعته بعد خروجه من فسطاط الحسن انه استجاب للصلح ابن خلدون : ج ٢ ص ١٨٦ . اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢١٥ .

العلاقة مع العناصر القيادية في الجيش واستيعابها • لقد انهارت الجبهة العراقية بعد اغتيال علي ، وقد ظل حتى آخر أيامه جامعا لتناقضاتها قادرا على ضبطها • هذا بخلاف الواقع الذي عاشه الحسن مع هذه الجبهة ، من تواطؤ عبيد الله بن عباس ، أحد كبار قواده ، وانسحابه بفرقته الى معسكر معاوية (١) ، الى انتهاب خيمته في المدائن والاعتداء عليه واصابته بجراح بليغة (٢) •• الى آخر هذه المؤشرات التي حجمت موقعه المعنوي فضلا عن العسكري • ولقد شكل ذلك عنصرا ضاغطا على الموقف العام في الجبهة العراقية ، ودفع بالحسن الى اختيار الحلول السلمية بعد أن فشلت في مهدها مشاريع الحرب (٣) •

والحقيقة أن الحسن الذي عاش عن كثب تجربة صفين وما أفرزته من مؤامرات وادوار مزدوجة ، لم يكن في موقع من يمتلك الخيار دون اجراء حسابات دقيقة للموقف • فلم تكن المغامرة من طبيعته ، لذلك تحاشى المضي في حرب خاسرة • ولكن الحذر الشديد كان هو الطابع الملازم لقراراته السياسية بصورة شبه دائمة • فهو لا يشق بالجزء الأكبر من أعوانه ، الذين أداتهم حروب صفين ومفاوضات التحكيم ، بعد اكتشاف ما في نفوسهم من تغليب للمصالح الخاصة على غيرها من الالتزامات المبدأية •

لقد آثر الحسن الاتفاق مع معاوية لأدراكه أن موازين القوى لم تكن متكافئة بين القوتين العسكريتين الشامية والعراقية • فاستبعد من رأسه فكرة المخاطرة ببقايا الملتزمين بالخط السياسي الاصلاحي ، الذين

(١) الاصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٤٢ .
(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢١٥ .
(٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٦ ص ٩٣ .

صمدوا في وجه الخوف والأغراء . وكانت المحافظة على الفئة النخبوية في اطار ما سيعرف بالحزب الشيعي ــ أحد الأفرازات السياسية للتيار الأجتماعي المعروف ــ من أبرز هموم الحسن في ذلك الوقت . فقد جاءت وثيقة الصلح [1] مع معاوية تضم بين شروطها اعلان العفو العام والأمان لجماعته [2] . ولعل مواقف الحسن بعد اعتزاله الحياة السياسية واقامته في (المدينة) ، تصب في هذا الاتجاه، حيث قاوم دائما نزعات التطرف بين شيعة الكوفة والزامهم بالهدوء والأنضباط ، لأن الظروف برأيه لم تتغير، وفرص النجاح لا تزال بعيدة [3] .

---

(١) جاء في وثيقة الصلح : ان يسلم الى معاوية ولاية امر المسلمين، على ان يعمل فيها بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين ، وانه ليس لمعاوية ان يعهد لاحد من بعده ، وان يكون الامر شورى بين المسلمين بعد معاوية وتأمين الناس على انفسهم واموالهم وذراريهم . الدينوري : الاخبار الطوال ص ٢٣١ .

(٢) الطبري: تاريخ الامم والملوك ج ٦ ص ٩٤ .

(٣) من اقوال الحسن لوفود الكوفة بعد تنازله عن الخلافة : « ما اردت بمصالحتي معاوية الا ان ادفع عنكم القتل عندما رايت من تباطؤ اصحابي عن الحرب » او « فصالحت بقيا علي شيعتنا خاصة من القتل ورايت دفع هذه الحرب الى يوم ما » الدينوري : الاخبار الطوال ص ٢٢٠ ــ ٢٢١ . راجع كتابنا (التوابون) ص ٦٧ .

القسم الثاني

الدولة الاموية

- من الخلافة الى الملكية
- ولاية العهد
- الثورة على النظام الملكي
- مرج راهط ـ العودة الى ايام العرب القديمة
- التوابون وعقدة الشعور بالذنب
- الانقلاب الشيعي في الكوفة
- الدولة الجديدة
- الخوارج
- ثورات الارستقراطيين في العراق
- اليقظة الاخيرة
- ثورة البربر الكبرى
- نظرة خاصة

من الخلافة الى الملكية

استعادت الدولة وحدتها السياسية بعد تنازل الحسن (٤١هـ/٦٦١م)، ولكنها فقدت الكثير من ملامحها السابقة • ذلك أن عهدا جديدا ومختلفا ولد مع معاوية في دمشق ، التـي أصبحت العاصمة المركزيـة للدولـة الناشئة • أما الكوفة التـي عاصرت نهاية الخلافـة الراشدة ، بعـد أن اختارها علي مركزا له بعد حرب الجمل ، فقد تراجعت الى الوراء ، ولكن من دون أن تفقد بريقها السياسي والاستقطابي في معارضة النظام الأموي • بينما (المدينة) ، العاصمة الأولى ، غابت وراء جدار النسيان ، وانطـوت على نفسها بعيدا عن الأحداث • فتحولت مع الزمن الى «منفى» للقيادات السياسية ، وجلهم من ابناء الصحابة ، حيث اشترى معاوية سكوتهم بالمال الوفير وضمن لهم مستوى لائقا ومترفا في حياتهم الاجتماعية •

لقد استطاع معاوية أن يقيم صرح دولته الكبيرة ، معتمدا فـي المقام الأول على مواهبه في السياسة والحكم ، حيث كان على درجة من الذكاء والمرونة ، بالاضافة الى صناعة العلاقات الاجتماعية التي اتقنها ، وقدرته على استقطاب الأنصار والحلفاء ، واضعاف الخصوم والايقاع بينهم • وأخيرا لم يكن يتورع ، حتى في الوقت الذي كان فيه الدين يسكن في وجدان الناس ويهيمن على تصرفاتهم ، عن استخدام مختلف الوسائل حتى غير المشروعة ، وصولا الى تحقيق أهدافه السياسية • وهـذه الصفات المتعددة التي اجتمعت في شخصية معاوية ، فجعلت منه رجل دولة غيـر

عادي ، اسهمت بدون مجال للشك في ولادة نهج جديد في الحكم ، لم يكن مألوفا في العهود السابقة . فمعاوية وفقا لهذه المعطيات يعتبر رائـد المدرسة (المكيافيلية) في السياسة ، القائمة على تسويغ الوسيلة من أجل الغاية ، تلك التي عرفت باسم صاحبها المفكر الايطالي (مكيافيلي) (١) ، الذي ذاعت شهرته في أوروبة منذ عصر النهضة .

ومن المؤكد أن دولة معاوية نحت في مسارها التنظيمي شكلا انقلابياً، تطورت معه من الخلافة الى الملكية (٢) أو من (الثيوقراطية) الدينية الى (الاوتوقراطية) الفردية . وتعدت هذه التغييرات مضمون الحكم الى مظاهره ، التي أصبحت بدورها زمنية، مقتبسة من النظام البيزنطي بوجه خاص . ولعل هذا التحول في تقاليد الحكم مرتبط بالعامل الجغرافي ، حيث عاش معاوية مع بداية حركة الفتوح على تخوم الدولة البيزنطية ، بعيدا عن بساطة شبه الجزيرة وعفوية الحياة الاجتماعية فيها . لقد رفض النهج السلفي باعطاء المسجد دوره الاستقطابي التقليدي في حياة رجل الدولة ، وتمسك بالمظاهر الدنيوية المعقدة . فأقام حاجزا بينه وبين عامة الناس ، مؤثرا الاقامة في (الخضراء) ، قصره الشهير الذي تميز بكل عادات الملوك من العرش الى الحرس الى الحجّاب ، الى المحراب الذي كان أشبه بمقصورة خاصة في المسجد ، تعزل الخليفة عن بقية المصلين.. الى آخر هذه المظاهر التي انفرد بها معاوية دون اسلافه من الخلفاء .

---

(١) جمع مكيافيلي آراءه السياسية في كتابه (الامير) ، وقد تاثر فيه معظم سياسيي القرن التاسع عشر في أوروبة ، وفي طليعتهم نابليون الاول (فرنسا) ومترنيخ (النمسا) وبسمارك (المانيا) وغيرهم .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٩٩ .

ومن ناحية أخرى ، فان معاوية استولى على الحكم في ظل أجواء غير طبيعية [1] ، أي أن السلطة لم تأت اليه انتخابية أو اجماعية ، بل جاءته عن طريق القوة ، وذلك في حرب أهلية دامية • ومن الواضح أن أي نظام يشاد بالسيف ، لا بد أن يحميه السلاح نفسه أو كان عرضة للانهيار • وهذه الحقيقة كانت نقطة الضعف الرئيسية في دولة معاوية ، رغم استيعابه الشديد لها بالتأكيد على دور القوة المسلحة ، كأداة ضرورية لحماية هذه الدولة • غير أن تكوين هذه المؤسسة (الجيش) تم في اطار النظام القبلي التقليدي ، الذي استعاد عافيته تدريجيا منذ حرب الجمل• وهي أول معركة بين المسلمين كان الالتزام فيها ظاهرا بالموقف القبلي ازاء هذا الفريق أو ذاك ، ثم تبلور في حروب صفين ؛ حيث كانت القبائل تقاتل كوحدة عسكرية وليس كأفراد ملتزمين بموقف مبدأي مستقل • وكانت الخطورة في ذلك أن الجيش الأموي تحول مع الوقت الى طبقة عسكرية ، تمتعت بامتيازات خاصة ومتفوقة ، وتحركت وفق مصالحها الاقتصادية، قبل أن تكون أداة طيعة في قبضة الدولة، حتى أن العمليات الحربية التي تم تنفيذها في العصر الأموي، كانت انعكاسا لهذه المؤسسة• فلم تعد حركة الفتح قضية مبدئية ، كما كان الحال بالنسبة لمقاتلي العصر الأول من الاسلام ، بعد أن افتقدت الكثير من مضامينها الانسانية ، حيث لجأ الخلفاء والولاة الى تسييس الفتوح واخضاعها لاعتبارات مرحلية، كامتصاص النقمة أو ارواء رغبات الجند المتعطشين للمال وللسيطرة ، ومن ثم ابعادهم عن التدخل في شؤون الحكم ، فضلا عن النزعة الأمبراطورية لدى الخلفاء الأمويين وسعيهم الى اقامة دولة عظمى ، محورها العنصر العربي الذي اقتصرت عليه القوة العسكرية •

---

(1) A. SANHOURY : Le Califat. Tome 4 p. 211 .

بيد أن هذا الجيش برغم تناقضاته القبلية ، كان الأداة الفاعلة التي اعتمد عليها معاوية وكبار الخلفاء الأمويين في ضرب الحركات الثورية المعادية . فالطابع العسكري اذن ، كان من أكثر سمات هذه الدولة بروزا، فقد زامنها في جميع المراحل ، من الولادة التي تمت بالقوة كما أشرنا ، الى النهج القمعي في التعامل مع المعارضة وخصوم النظام ، وأخيرا الى السقوط، الذي تم بالقوة أيضا وبوسائل اكثر تطرفا من الوسائل الأموية.

وبعد هذا التعريف بدور الجيش في دولة الأمويين ، باعتباره عصب الحياة السياسية والعسكرية فيها ، لا بد من الأحاطة بالجوانب الأخرى لهذه الدولة ، وهي من حيث الملامح العامة تتناول الأمور التالية:

١ ـ التغييرات السياسية في بنية النظام ، وهي تتمحور حول دور الجيش والتحول الى الملكية المطلقة .

٢ ـ السياسة الداخلية ، وتتناول الادارة ـ التوازن القبلي ـ ولاية العهد ـ تطويع المعارضة .

٣ ـ السياسة التوسعية، وتتعلق بالنظام الحربي والدفاعي واستئناف الفتوح في الجبهة الأفريقية .

هذه هي الأركان الثلاثة التي قامت عليها دولة معاوية ، وقد ألمحنا سابقا الى التعديلات في نظام الحكم، الذي تطور نحو الملكية المطلقة وسادت فيه المظاهر الدنيوية ، المقتبسة عن التقاليد البيزنطية . كذلك ألمحنا الى دور الجيش في اقامة هذه الدولة واستمراريتها ، بحيث كان الجهاز الدائم الذي استمد منه الخلفاء الأمويون قوتهم وشرعيتهم في السلطة . أما السياسة الداخلية فقد جاءت في الواقع متلازمة مع الذهنية الأموية في الحكم ، وهي معتمدة التوزيع الفئوي الذي جعل من الأسرة الحاكمة ،

ارستقراطية متفوقة في امتيازاتها وفي موقعها الاجتماعي والسياسي • أما خارج النطاق العائلي . فقد اتبع معاوية قاعدة التوازن في علاقاته مع أنصار النظام ، بحيث كانت القوى القبلية تعمل كافة لخدمة الدولة ، دون أن تقف عائقا في ذلك تناقضاتها المحلية والتاريخية • فهو على الرغم من ارتباطه بتحالفات ومصاهرات مع اليمنيين لا سيما مع اكبر قبائلهم (كلب)، فان القيسيين لم يشعروا في عهده بالظلم أو الحرمان • اذ أن سياسته المتوازنة لم تثر حفيظتهم ازاء خصومهم التقليديين، فعلى عكس ذلك كان موقفهم ايجابيا بعد أن شعروا بأهمية دورهم في هذه الدولة • حتى أن أحد زعمائهم (الضحاك بن قيس الفهري) كان حاكما لولاية دمشق [1]، وهو منصب من الخطورة بمكان في ذلك الوقت • ولقد شارك هذا الأخير في معظم أحداث تلك الفترة ومنها ولاية العهد ، حيث أسهم بدور كبير في تهيئة الأجواء المساعدة لتحويل الخلافة الى ملك وراثي •

الأدارة :

شهدت الأدارة أو ما عرف بالدواوين تطويرا متلازما مع التغيير الذي طرأ على نظام الحكم • ذلك أن معاوية تابع ما بدأ به الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب في نطاق الادارة ، ولكن من دون أن يستكمل الشكل الأخير والنهائي لها ، حيث ظلت ثغرات عدة تنتظر من يتصدى لها بصورة متكاملة • بيد أن الخليفة الأموي استطاع القيام بخطوة جدية أخرى في تنفيذ فكرة الدولة التي استقرت بصورة شبه نهائية في عهد عبد الملك بن مروان • أما جهود معاوية في هذا الاتجاه فقد انطلقت من

---

(١) ابن الاثير : اسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٣ ص ٣٧ .

مؤسستين : الأولى ، (ديوان الخاتم) [١] ، وهو أشبه ما يكون بمكتب شؤون الخليفة ، وتكاد تنحصر مسؤولياته في رفع التقارير اليه وارسال التعليمات والأوامر الى الولاة أو الى من يعنيهم الأمر • وكانت هذه جميعها تصدر عن (الديوان) ممهورة بخاتم الخليفة • ويعتقد المؤرخون أن حادثة تزوير كانت وراء ظهور هذا الديوان ، مما استدعى انشاء جهاز لمراقبة الرسائل والتعليمات الرسمية [٢] • والمؤسسة الثانية التي كانت لها أهمية خاصة في تنشيط الادارة في جميع انحاء الدولة ، هي (ديوان البريد) • وعلى الرغم من أن الخليفة عمر كان أول من استعمل هذاالنوع من الخدمات ، للوقوف على أخبار الولايات والقواعد العسكرية بصورة سريعة ، فان البريد بمفهومه المتطور والمنتظم يعود الى عهد معاوية •

وهذه الكلمة (البريد) ــ كما جاء في دائرة المعارف الاسلامية ــ عربية الاصل ، وان كان البعض يرجعها الى الفارسية • وهي تعني المسافة بين محطة وأخرى ، وقد تراوحت بين فرسخين وأربعة فراسخ (الفرسخ يساوي ثلاثة أميال) [٣] • ولقد بذل معاوية نفقات عالية في تطوير هذا الديوان وتنشيطه ؛ بحيث زوده بعدد من الموظفين ومن الخيول ، وكذلك المحطات المجهزة بما يحتاج اليه ناقل الخبر • ولا شك أن نظام البريد قام بدوره الايجابي في خدمة السلطة التي كانت تقف بواسطته على آخر تطورات الأحداث والشؤون في الدولة ، القريبة منها والبعيدة • ولكن لا يجب أن يفوتنا أن البريد ، لم يكن في متناول الشعب أو

---

(١) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية ص ١٠٧ .

(٢) يروي ابن طباطبا ان معاوية احال رجلا على زياد بن ابيه في العراق ليمنحه مائة الف درهم ، فمضى ذلك الرجل وقرأ الكتاب وكانت التواقيع غير مختومة ، فجعل المائة مائتين . الفخري ص ١٠٧ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ج ٣ ص ٦٠٩ . الفخري ص ١٠٦ .

الخدمات العامة ، بل كان محصورا في المعاملات الرسمية والتقارير الصادرة عن الدولة فقط •

الولاة :

يسود الاعتقاد لدى المؤرخين الذين بحثوا في شخصية معاوية السياسية ، أنه كان على درجة عالية من الذكاء وبعد النظر ، بحيث أنه كان يدرك بالسليقة متطلبات هذا الأقليم أو ذاك ، من خلال المؤثرات الداخلية والخارجية المتداخلة في سلوكه العام • فعمل ما استطاع على استيعاب الولايات المختلفة ، بالطريقة نفسها التي استوعب فيها تناقضات القبائل اليمنية والقيسية • ولعل هذه الذهنية أول ما انطبقت على العراق ، الذي اتخذ منذ البدء موقفا خاصا في علاقاته مع الحكم الأموي • فالمعروف أن هذا الأقليم استسلم في أعقاب هزيمة سياسية ، افقدته الكثير من طاقاته ماديا وبشريا ، كما انتزعت منه دوره المركزي والاقتصادي ، ليصبح بعد ذلك هدف السياسة القمعية بصورة مباشرة •

ولقد كان أول حكام الكوفة ــ التي استقطبت منذ ذلك الوقت التيار السياسي المتعاطف مع الخليفة الأسبق علي ــ المغيرة بن شعبة وهو ثقفي الانتماء، حيث زودت قبيلته الدولة الأموية بأكفأ موظفيها وأخلصهم ، من المغيرة الى زياد الى الحجاج ، وأخيرا يوسف بن عمر الثقفي • غير أن الأول كان يمتاز عن هؤلاء بالمرونة والدهاء ، حتى أن بعض المؤرخين ينظر اليه كواحد من ثلاثة ، اشتهروا بالحنكة بين العرب ، وهم بالاضافة اليه معاوية وعمرو بن العاص • وكان لتعيين شخصية كالمغيرة على الكوفة له دلالته على الاتجاه الذي سار فيه معاوية حينذاك ، وهو مهادنة المعارضة الكوفية المتشنجة من النظام الأموي • ولقد ساهم المغيرة بشخصيته المرنة في تهدئة الموقف السياسي في ولايته ، حيث لم يتورع عن توسل مختلف

الطرق بما فيها الرشوة [١] ، وذلك من أجل انجاح مهمته في تدجين المعارضة وتطويق نزعتها الثورية • ولقد ظل المغيرة حتى وفاته (٥٠ هـ / ٦٧٠ م) ملتزما بتنفيذ السياسة التي ارادها معاوية في الكوفة بالقليل من الجهد والمتاعب ، كما ظل أحد أعمدة النظام الأموي ، ممن يلتجيء اليهم مؤسسه في المواقف الصعبة • وسنرى أن المغيرة قد استخدم في وقت لاحق في التمهيد لأخطر القرارات التي اتخذها معاوية ، بتحويل الخلافة الى ملك وراثي في أسرته الأموية •

واذا كانت الكوفة قد نعمت بهدوء قسري ومصطنع في عهد المغيرة، وذلك بأقل قدر من الضغط والملاحقة ، فانها عانت أشد ألوان الحكم الارهابي في عهد خليفته زياد بن أبيه ، الذي انتقلت اليه هذه الولاية بالاضافة الى البصرة وبقية المشرق ، فكان أول حاكم يتمتع بهذا القدر من النفوذ السياسي • وزياد الذي ارتبط اسمه في أذهان الناس بالشدة والقمع ، لم يصبح من أركان الادارة الأموية ، الا بعد جهود عسيرة ومساومات شاقة من جانب معاوية ومساعده المغيرة بن شعبة • فقد كان زياد قبيل ذلك حاكما على مقاطعة فارس أثناء خلافة علي ، حيث اختاره هذا الأخير بعد أن توسم فيه الكفاءة النادرة ، وتابع هذه المهمة الى ما بعد تنازل الحسن ، مستنكفا بعض الحين عن التعاون مع الخليفة الأموي [٢] •

وكان رسول الحوار بين معاوية وزياد ، المغيرة بن شعبة كما ذكرنا،

---

(١) ابن الاثير : اسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٤ ص ٤٠٧ •
H. Lammens : Etudes sur le Siecle des Omayyades p. 38

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢١٤ • ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية ص ١١٠ •

الذي نجح أخيرا في حمل الأخير على تعديل موقفه . في أعقاب المساومه على خراج فارس ــ احد عناصر الخلاف ــ وتعيينه حاكما على البصــرد ومعها ولايات المشرق [١] . ولا ريب أن الثمن كان باهظا ، غير أن فوائده انعكست ايجابيا على الطرفين . فمعاوية كان بأمس الحاجة الى شخصية قوية وقديرة كزياد ، لتطويع العراق الذي يمثل منطقة القلق والسخونة في النظام الأموي . بينما وجد زياد في المنصب الكبير ، ما أثار شهيته الى السلطة . غير أن الملفت للنظر في تاريخ هذا الرجل ذلك التحول من رافض وبشكل مبدأئي للحكم الأموي ، الــى متطرف في الدفاع عنـه وملاحقة خصومه ومعارضيه حتى التصفية [٢] .

لقد كان من العسير جدا تحقيق الهدوء في العراق دون التعاون مع المغيرة وزياد ، خاصة هذا الأخير الذي نجح الى حد نسبي في اقــامة نوع من التوازن في سياسته الادارية والاقتصادية ، بحيث لم يدع لأحد مجال التدخل في شؤون الولاية حتى معاوية نفسه . ولقد ظل حتى سنة ٥٣ هـ/٦٧٢م تاريخ وفاته ، وهو يمارس سلطة شبه مستقلة في القسم الشرقي من الخلافة الأموية ، دون ارتفاع صوت ما للاحتجاج أو المعارضة (باستثناء موقف حجر بن عدي الزعيم الكوفي الذي جرّ معاوية الــى اعدامه) . ولعل الارتباك الذي عاشته الادارة المركزية بعد زياد ، يوضح مدى الفراغ الذي أسفر بعد موته وافتقاد الدولة الشديدة له . ففــي خلال السنوات الخمس اللاحقة ، توالى على حكم الكوفة وحدها ثلاثة

---

(١) ابن الاثير ج ٣ ص ٢٢٦ ؛ الفخري ص ١١١ .
(٢) راجع أحداث مقتل الزعيم الكوفي حجر بن عدي الكندي. الطبري ج ٦ ص ١٤٠ – ١٥٧ .
H. Lammens : Etude sur le Siecle des Omayyades p.79

من الولاة المعروفين ، دون أن يحالف أحدهم النجاح في فرض الاستقرار المنشود [1] .

ولم تكن الأوضاع السياسية خارج دائرة العراق ، تثير أية هموم جدية لدى معاوية ، حيث كان الولاة يتبادلون الحكم فيها دون ضجة أو اعتراض . فمصر مثلا ، كانت على الأرجح جزءا من التسوية بين الخليفة وكبير مساعديه في صفين عمرو بن العاص . بيد أن معاوية حاول التخلص من التزامه السابق مع هذا الأخير ، فحدد ولايته بسبعة أعوام فقط . ولكن ابن العاص لم يمكث غير سنتين في منصبه الذي احتله فترة ابنه عبد الله ، قبل انتقاله الى أخي معاوية عتبة بن أبي سفيان [2] . واذا انتقلنا الى الحجاز ، نجد أن هذا الأقليم كان يستثير معاوية من اعتبار واحد ، هو استقطابه عددا من الشخصيات الاسلامية البارزة من أمثال الحسن وأخيه الحسين وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر وعبدالله بن العباس ومحمد بن الحنفية وآخرين غيرهم . لذلك وضع السلطة في هذا الأقليم تحت مراقبته المباشرة ، حيث قام بتنفيذها ولاة من البيت الأموي ، كما حرص على تشجيع مختلف النشاطات غير السياسية في الحجاز ، من شعر وموسيقى وغناء وعلوم دينية ، الأمر الذي جعل من المدينتين المقدستين ، أهم مراكز الترف الاجتماعي في ذلك الوقت .

---

(١) علي حسني الخربوطلي : تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ص ١٠٢ .

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية ص ١٠٣ .

ولاية العهد

بعد أن استقامت الأمور في الدولة الأموية وأخذت نصيبها من الاستقرار ، واجهت معاوية مشكلة معقدة وهي مصير الدولة بعد غيابه. واذا كان النظام (الأوتوقراطي) الذي تبناه ، لا بد من أن يفرز في النهاية تقليدا وراثيا في الحكم، الا أن قرارا من هذا النوع لم يكن بالأمر اليسير • فهو قد عاصر جميع مراحل الصراع السياسي المقنّع والمكشوف حول الخلافة ، منذ وفاة الرسول وحتى عهده ، الذي أقام صرحه بالقوة وبالوسائل المتعارضة مع الأعراف السائدة في ذلك الوقت [١] •

ولكن معاوية رغم طموحه الى ترسيخ الطابع الملكي لدولته الأموية، عبر اقامة نظام ثابت ومتوارث ، فان أكثر ما خشيه هو انهيار جهود اكثر من أربعين عاما [٢] من حياته السياسية ، خلال شهور أو سنوات قليلة • فهي اذن مشكلة فراغ لا بد أن يتمخض عن غياب شخصية غير عادية ، جمعت في يدها كل أطراف السلطة ، كما ارتبطت تاريخيا بجميع مراحل انشاء هذه الدولة ، وانطبعت بصماتها على مظاهر الحياة السياسية فيها. ولقد سوغ بعض المؤرخين ، وفي طليعتهم ابن خلدون هذه المبادرة ، بأن مؤسس الدولة الأموي اراد وضع حد لتفاعلات مشكلة الحكم في

(١) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية وسقوطها ص ١٣٤ .
(٢) تسلم معاوية الحكم كعامل على الشام بعد وفاة اخيه يزيد عام ١٨ هـ .

المستقبل حيث يقول : « انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية ، اذ بنو أمية يومئذ لا يرتضون سواهم ، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم » (١) .

والحقيقة انه كان للمشكلة وجهان في نظر معاوية . الأول ، هو اقناع الناس بقبول مبدأ الوراثة ، لا سيما كبار المعارضين في الحجاز . والثاني ، أن يزيدا لم يكن على الأرجح ، وحسب مؤشرات المصادر المختلفة ، الرجل المطلوب لأملاء الفراغ . ومن أجل سد هذه الثغرة ، وقبل المجاهرة بهذا الأمر لجأ معاوية الى تهيئة يزيد للحكم من خلال اسناد بعض الادوار المهمة اليه ، واضفاء شيء من الهالة حول شخصيته . فأرسله الى مكة لينوب عنه في موسم الحج (٢) ، بما لذلك من تأثير على الرأي العام لا سيما الحجازي ، فضلا عن تبديد الشكوك بجديته وتغيير الصورة المضطربة التي انطبعت حول سلوكه في أذهان الناس (٣). كما هيأ له الظروف لقيادة أضخم العمليات العسكرية في عهده ، وهي الحملة التي استهدفت القسطنطينية وانتهت الى حصارها . غير أنها لم تكن تملك الأسلحة المتطورة لاختراق مدينة بحرية منيعة ، فارتدت فاشلة ومعها نقطة اضافية من الفشل الى سجل يزيد في أن يكون البديل المطلوب.

غير أن معاوية ، وقد شعر بوطأة السنين المديدة على كتفيه ، لم يشأ انتظارا اكثر لحسم هذه المشكلة . فهو يمتلك القدرة على تنفيذ ما يريد

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ١٧٥ .

(٢) خالد محمد خالد : ابناء الرسول في كربلاء ص ٩٠ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٠٩ . المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٦٧ .

وتوظيف ثقله السياسي في اقناع أشد المتصلبين • وكانت الصورة العامة السائدة كما استوعبها معاوية جيدا تخضع لمعطيات متفاوتة ، وتحديدا لتيارين متناقضين : الأول، هو التيار الرفضي الذي يضم الفئات المتذمرة من الحكم الأموي التي قبلت مرغمة به ، وكانت تنتظر غياب معاوية لاعلان موقفها السلبي [1] ، ولا بد أن يصدمها القرار الوراثي • أما ذريعتها غير السياسية ، فهي أن قرارا كهذا يعتبر دخيلا على العرف العام المألوف ، وخروجا على العادات العربية الاسلامية • والتيار الثاني ، كانت تمثله القوى المؤيدة للنظام الأموي والمتحالفة معه ، وهي المستفيدة عمليا من مبدأ الاستمرارية المطروح ، لا سيما في الشام والاردن ومصر وبعض العراق • لقد تجاوب ممثلو هذا التيار مع معاوية ، وشجعوه على تنفيذ قراره ، مسوغين ذلك بعدم وجود ما يتعارض وهذا المبدأ في الاسلام •

ولم يكن بعد غياب عمرو بن العاص ، اليد اليمنى لمعاوية ، غير مستشاره الداهية المغيرة بن شعبة حاكم الكوفة ، وذلك لترويض الأجواء له قبيل الاعلان عن قراره • وقام المغيرة بدوره الايجابي ، خاصة وانه كان مهددا بالعزل ، حسب ما رواه ابن الأثير [2]• ولكنه على الأرجح لم يستكمل مهمته حينذاك ، خاصة وأن رجل العراق القوي زياد ، كان مستنكفا عن مجاراة هذا المشروع بحماس المغيرة ، واعتبره سابقا لأوانه• وكانت حجة حاكم البصرة ، أن تيارا معارضا على جانب من القوة ، لا بد أن يلجأ الى العصيان والثورة المسلحة تعبيرا عن رفضه لهذه الدعوة • فآثر معاوية الالتزام بنصيحة زياد وطوى مشروعه وقتا ، حتى اذا توفي هذا الأخير عاد الى احيائه وانتهى الى التصميم على تنفيذه ، معتمدا

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسية ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٥٢ .

على حلفائه من قبائل الشام وفي طليعتهم الضحاك بن قيس الفهري الزعيم القيسي ، وحسان بن بحدل الكلبي زعيم اليمنية وخال يزيد المرشح لولاية العهد .

وفي سنة ٥٩ هـ (١) أعلن معاوية رسميا البيعة ليزيد ، وتم استدعاء كبار الشخصيات وزعماء القبائل الى قصر الخضراء في دمشق حيث جرت احتفالات التنصيب . وما لبثت الوفود أن تهافتت على العاصمة الأموية، مباركة الحدث عن طوع أو عن اكراه . وكان وحده الحجاز غائبا عن المشاركة، بعد فشل مروان بن الحكم في أن يحمل شخصياته باسم معاوية على التأييد . فمعظم هؤلاء كان يجد في نفسه كفاءة تتجاوز ما عند يزيد للخلافة ، وكان ذهاب معاوية بالنسبة اليهم مقرونا بارتفاع الكابوس الذي خيم على حياتهم السياسية ، وانعاش الآمال المفقودة ، وعودة الاعتبار والقدرة على التحرك . وهكذا فان البيعة لم تستكمل في (الخضراء) ، بعد اصرار اربعة من زعماء الحجاز على رفضها وهم : عبد الله بن الزبير والحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر (٢) . وخشي معاوية من تطور الأمر الى عصيان ، فقام وهو السياسي المرن بالتوجه الى (المدينة) في محاولة للتفاهم مع المعارضين الأربعة . غير أن هؤلاء انتقلوا الى مكة ، المكان المفضل حينذاك للابتعاد عن ملاحقة السلطة . فجدّ معاوية السير في طلبهم الى المدينة المقدسة ، وقد بلغ به الغضب أشده . وفي المسجد حيث اجتمع بهم دافع ابن الزبير باسم

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢٧ . الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٦ ص ١٦٨ وما بعدها . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٥٢ وما بعدها . ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٦٠ .

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٥٤ .

رفاقه [٣] عن الموقف الذي دفعهم لرفض البيعة وهي ــ حسب قوله ــ خروج على الأعراف وخرق لسنن الأوائل من خلفاء المسلمين . بيــد أن معاوية وهو القادر حينذاك على اتخاذ القرار الحاسم ، لم يجد بدا مــن اللجوء الى التهديد بالعقاب [١] . واستطاع بالحنكة حينا وبالشدة حينا آخر ، مداهمة زعماء المعارضة في الحجاز وحملهم على الاعتراف بولاية العهــد .

ولكن بيعة كهذه انتزعت بالقوة والضغط ، لم تكن أكثر من اجراء سطحي ومؤقت . وكان معاوية أول العارفين بهذه الحقيقة ، مؤكدا على ذلك بوصيته الشهيرة المنسوبة اليه ، حيث مات ومعه هموم هذا الموقف الحجازي . وكانت أشد هواجسه مبعثها اثنين من الزعماء الأربعة ، هما : عبد الله بن الزبير والحسين بن علي ، حيث قيل أنهما رفضا البيعة حتى في حضوره [٢] . فكلاهما شخصية قيادية بارزة وله رصيد كبير مــن التقدير والأعجاب ، فضلا عن الطموح الظاهر الذي داعب كلاً منهما في منافسة يزيد . ولقد حدث ما توقعه الخليفة الأموي بعد موته ، وكــان هبوب الأزمة سباقا من الحجاز .

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٥٥ .
(٢) المصدر نفسه : ج ٣ ص ٢٥٥ .
(٣) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢٤١ .

السياسة التوسعية في عهد معاوية

لقد حولت معركة (ذات الصواري) العلاقات العسكرية بين العرب والبيزنطيين نحو منعطف جديد في الحوض الشرقي للبحر المتوسط • اذ أنها اعتبرت المدخل الذي اطل منه الأمويون على العالم الوسيط ، كقوة بحرية منافسة في المنطقة ، كما أنها أضاعت آخر الفرص من الدولة البيزنطية في استعادة مواقعها في الشام ومصر ، حيث كان اعتمادها الرئيسي على التفوق البحري • ومن المعلوم أن هذه الأخيرة رغم الهزائم القاسية التي نكبت بها على أيدي العرب ، واجبارها على الانسحاب وراء حدودها في آسيا الصغرى ، فان ذلك لم يدفعها الى التخلي نهائيا عن هذه المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية • وكانت ترى في انكفائها مجرد كبوة ستعمل على النهوض منها في الوقت المناسب على غرار ما حدث في علاقاتها بالأمبراطورية الفارسية عشية الامتداد العربي وراء شبه الجزيرة • ولعل أبرز عوامل الأنكفاء العسكري لهذه الدولة حينذاك ، هو الأنهيار الداخلي في النظام ، كنتيجة حتمية للهزائم الكبرى المتلاحقة • فكان لذلك أثره الايجابي المحسوس على حركة الفتح العربي، حيث امتدت جنوبا الى مصر ، دون أن تكون المقاومة على مستوى ما يمثله هذا الاقليم من حجم في الاستراتيجية البيزنطية •

ان ذلك الفراغ العسكري البيزنطي ، لم يتجاهله حاكم الشام يومذاك ورائد البحرية العربية ، حيث دأب على الاهتمام بسد هذه الثغرة

في القوة العسكرية المرابطة في الشام . ومن المؤكد أن مبادرة معاوية هذه جاءت في أعقاب دراسة واعية وشاملة لطبيعة المنطقة وجغرافيتها . فالسرعة التي تم بها حشد مئات الخبراء من العاملين في القواعد البيزنطية السابقة في مصر والشام [1] ، وما أسفر عن انجاز النواة الأولى للبحرية العربية بالسرعة نفسها . كل ذلك يضاف الى ما تمتع به معاوية كرجل دولة ، من بعد النظر والادراك العفوي لدقائق الأمور . وكانت بداية الخطوات تستهدف السيطرة على الجزر القريبة من الساحل السوري ، لا سيما قبرص وأرواد . ويبدو أن الجزيرة الثانية كانت أخطر ما تهدد الشام حينذاك ، بما لديها من خصائص عسكرية وجغرافية .. ولعل ذلك كان السبب في تأخير غزوها الى ما بعد الهجوم على قبرص . وكانت العملية التي استهدفت هذه الأخيرة باكورة النشاط الجدي لاسطول معاوية ، حيث قادها بنفسه وذلك في سنة ٢٨هـ/٦٤٩ م [1]. ولقد كشفت هذه العملية مخاوف حاكم الشام من القوة البحرية المعادية ، اذ أن أبرز شروط الصلح مع أهل الجزيرة بعد سقوطها نصت على التزامهم بعدم تقديم المساعدات للبيزنطيين ، وتزويد العرب بأخبار تحركاتهم العسكرية [2] .

وكانت أرواد الهدف التالي لاسطول معاوية ، وذلك بعد عام واحد من عملية قبرص . ولكن هذه الجزيرة دافعت عن نفسها بضراوة ، قبل القضاء عليها ، وافراغها من سكانها كعقاب لهم . وبسقوط أرواد المحاذية

---

(١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ص ٩٠ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٥٩ — ١٦٠ . لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩٠ — ٩١ .

(٣)لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩١ . ابراهيم العدوي : الامويون والبيزنطيون ص ٩١ .

للساحل السوري ، اصبح بامكان معاوية الاطمئنان الى سلامة شواطئه ، بعد أن اصبحت في مأمن من الهجمات المفاجئة . ومنذ ذلك الوقت أخذت السفن العربية تنطلق في حوض البحر المتوسط [(١)] ، وتشن هجماتها المتواصلة على عدد من الجزر الواقعة تحت سيطرة البيزنطيين . فقامت بغزو صقلية ورودس ، ومن ثم قبرص التي عادت الى العصيان ونقضت معاهدتها مع العرب [(٢)] . غير أن هذه العمليات ــ باستثناء قبرص التي تم اخضاعها بصورة كاملة [(٣)] ــ كانت مجرد غزوات خاطفة ، اقتصرت نتائجها على الغنائم واختراق مناطق النفوذ التقليدية للبيزنطيين .

وفي الجانب العربي ، كان من نتائج هذه العمليات البحرية ، انها فرضت، وبشكل مفاجيء، قوة بحرية جديدة في المنطقة، استطاعت مقارعة الدولة البيزنطية ، القوة التقليدية في المتوسط. كما أنها كانت مقدمة الصراع البحري المتوازن بين القوتين ، الذي انتهى الى تفوق العرب المسلمين حتى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي . أما نتائجها المباشرة فجاءت صدمة للامبراطور البيزنطي (قنسطانز الثاني) الذي كان يحاول حينذاك رد الاعتبار لسمعة دولته العسكرية .. فقام بحملته الضخمة مستهدفا الاسكندرية ، تلك الحملة التي فاجأها العرب في المياه الأقليمية لآسيا الصغرى، وأوقعوا بها الهزيمة في موقعة ذات الصواري الشهيرة[(٤)]

وانعكست ايجابيات هذه المعركة كذلك على الأوضاع الداخلية في

---

(١) Vasiliev : Byzance et les Arabes p. 62 .

(٢) انور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ص ٩٢ ــ ٩٤ .

(٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص ٥١ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٩١ . الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص ٦٨ ــ ٧٠ .

الشام . فقد منحت الهدنة . المفروضة على البيزنطيين الفرصة لمعاوية في التفرغ لمعركته السياسية والعسكرية ضد خصمه علـي • وحتـى بعـد الانقلاب الذي اطاح بالأمبراطور البيزنطي ، لم يتردد معاوية حينذاك من تجديد معاهدة الصلح مع خليفته قنسطنطين الرابع . مقابل ضريبة عاليـة يؤديها اليه [1] • على أن معاوية ما لبـث أن استعاد زمـام المبادرة في صراعه البحري مع البيزنطيين . بعد انتهاء الحرب الأهلية وتصفية ذيولها بتنازل الحسن (٤١ هـ/٦٦١ م)• ولقد وضع في أولويات مشاريعه اقامة نظام ثابت لحماية الشواطيء السورية من هجمات البيزنطيين وحلفائهـم (المردة) [2] ، التي استغلت حينذاك ضعف الدفاع الحدودي وغيـاب الجيش في مهمات داخلية •

وكانت أبرز خطوط هذا النظام الحربي تتمثل في اقامة مراكز دفاعية في مناطق الحدود أو (التخوم) كما غلب عليها في ذلك الوقت • وقـد خلت هذه المراكز في العصر الأموي من أي أثر للتواجد العربي المسلح ، مما سهل تحرك القوات البيزنطية دون مراقبة وجعل السواحل السورية تحت رحمة هجماتها المفاجئة • ولكي يتحاشى معاوية هذه الثغرة عمد الى اقامة حاميات عسكرية دائمة في المعاقل والممرات الصـعبة على تخـوم الدولة البيزنطية ، وهي ما عرفت باسم الثغـور ، ومعناها الاستراتيجي

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢١٧ •

(٢) كان المردة يعيشون في المناطق الجبلية فـي آسيا الصغـرى ــ وكانوا يلتقون مع البيزنطيين في العقيدة والمصالح الاستراتيجية . وقـد استخدمهم هؤلاء بين الحين والآخر في عمليات هجومية ضد العرب فـي الشام ، وكانت اخطر عملياتم تلـك التي وصلت حتـى فلسطين (٤٧هـ/ ٦٦٦ م) ، التي اسفرت عن دفع الجزيـة للامبراطور البيزنطـي مقابـل انسحابهم . البلاذري : فتوح البلدان ١٦٠ . لويس : القـوى البحريـة والتجارية ص ٩٥ •

المواقع العسكرية المتقدمة والمتلاصقة مع حدود العدو، أو ما يمكن تسميته بخط الدفاع الأول من وجهة النظر الحربية المعاصرة ، لأن خطا ثانيا كان يعقب هذه المنطقة المتقدمة الى الوراء ، عرف باسم (العواصم) [1] •

وارتبط بهذا النظام الدفاعي نظام آخر كانت له خصائص استطلاعية وهجومية ، وهو ما عرف بالشواتي والصوائف [2] ، ويقصد بـه تلـك الحملات الدورية المنتظمة التي كانت تتوجه الـى الأراضي البيزنطية في اسيا الصغرى • وقد بوشر العمل بهذا النظام بعد استقرار الوضع الداخلي وانتقال الخلافة رسميا الى البيت الأموي • وكان يشرف على هذه الحملات قادة اختصاصـيون بهذا النـوع من الحرب الخاطفـة والسريعة ، ممن اجتمعت لديهم معرفة طبيعة الارض الجبلية وبراعـة الأساليب الجديدة في القتال • وكان في طليعتهم عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ومالك بن عبدالله الخثعمي المعروف بملك الصوائف [3] • ولقد أسفرت عن وقوع عدد من المواقع الاستراتيجية في أيدي العرب خاصة حصن (ملطية) أحد أشهر الثغور العربية في آسيا الصغرى [4] • ولم يكن نظام الصوائف (الأسم الغالب عليه) محصورا في هذا النطـاق من الحملات ، بل كان يعمل بجناحين : أحدهما بري استهدف السيطرة على الحصون والمعاقل الجبلية المهمة • وثانيهما بحري استهدف الجـزر الواقعة في فلك السيادة البيزنطية ، فضلا عن الشواطيء الجنوبية لآسيا

---

(١) يعتقد بعض المؤرخين أن هذا النظام تأخر حتى العصر العباسي. البلاذري : فتوح البلدان ص ١٦٣ •

(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢١٧

(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٢٢ . ابراهيم العدوي : الامويون والبيزنطيون ص ١١٤

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٨٥

الصغرى • ومن المعلوم أن نظام الصوائف بجناحيه كان يعمل بانسجام وفق استراتيجية محددة ، ترمي في النتيجة الى احتلال القسطنطينية • وكان بسر بن أرطأة [1] ، أحد القادة المتألقين في الحملات البحرية [2] التي بدأت في سنة ٤٤ هـ/٦٦٤م ؛ أي في الوقت نفسه الذي استهل فيه عبد الرحمن بن خالد حملاته الهجومية البرية في آسيا الصغرى •

وتتوج هذا النشاط المكثف بالعملية الكبرى التي أعدت لفتح العاصمة البيزنطية ؛ وكانت من أبرز أهداف الخليفة الأموي العسكرية في ذلك الوقت • وكان معاوية تواقا الى تحقيق انتصارات خارجية تدعم مواقعه في الداخل ، ويستثمرها بصورة خاصة في مخططه الرامي الى تغيير نظام الحكم • وهذا ما يفسر وضع خليفته المقترح يزيد على رأس حملة القسطنطينية وهو لا يزال دون العشرين [3] ، وحشد عدد من الشخصيات الاسلامية الى جانبه كالصحابي أبي أيوب الأنصاري وابن الزبير وابن عمر وابن عباس ، وذلك لاضفاء ملامح جهادية على هذه الحملة •

توجهت الحملة الكبرى الى آسيا الصغرى في العام الخمسين

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٢٢ •

(٢) من اشهر الحملات بالاضافة الى حملة بسر بن ارطأة ، صائفة عبدالله بن قيس الفزاري ومالك بن هبيرة السكوني وعقبة بن عامر الجهني ويزيد بن شجرة الرهاوي (٤٨–٤٩ هـ) الطبري ج ٦ ص ١٣٠ . ابن الاثير ج ٣ ص ٢٣٠–٢٣١ •

Lammens : Etude sur le Regne du Calife Mo'awia 1r p. 443 (٣)

للهجرة [1] ؛ وسط حملة دعائية واسعة • ونجحت في اختراق جميع الحواجز من (أجناد) و (مناطق) عسكرية حتى القسطنطينية [2] • ولكن هذه الأخيرة رغم الحصار الأموي الشديد ، أثبتت أنها قادرة على حماية نفسها والصمود أمام الهجمات البرية والبحرية المكثفة • وكان العرب من جانبهم يبذلون جل طاقاتهم لانجاح الحصار ولكن بدون طائل، مما دفع معاوية الى الاعتراف بفشله واصدار أوامره لقيادة الحملة بالانسحاب ، بعدما تأكد استحالة نجاح المهمة واختراق أسوار المدينة المحصنة ؛ خاصة بعد الخسائر الجسيمة التي تكبدها العرب وافتقادهم عددا كبيرا من بينهم الصحابي أبو أيوب الأنصاري ، الذي قتل تحت أسوار القسطنطينية [3] •

ومن المؤكد أن فشل هذه الحملة كان صدمة عنيفة لطموح معاوية العسكري في السيطرة على عاصمة البيزنطيين ، بحيث أن معطيات جديدة دخلت في حساب العلاقات الأموية ــ البيزنطية لم تكن في السابق • وكان على دولة الأمويين أن تطوي حينا مشاريعها التوسعية في هذا الاتجاه وتنصرف الى جبهات أخرى ، أقل مغامرة وأكثر اجتذابا للجند • ولعل أبرز الحقائق التي بلورت هذا الاقتناع والتي ساهمت في دعم نظرية التفوق العسكري لدى القسطنطينية تتناول ما يلي :

---

(١) ذكر الطبري أن الحملة تمت في سنة ٤٩ هـ . تاريخ الامم والملوك ج ٦ ص ١٣٠ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٣١ . ابراهيم العدوي : الامويون والبيزنطيون ص ١٦٤ .

(٢) نظام (الجند) Thema هو النظام الدفاعي المستخدم حينذاك في الدولة البيزنطية . نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ١٧٤ــ١٧٩ .

(٣) لقد اكتشف ضريح الانصاري اثر سقوط القسطنطينية على يد العثمانيين سنة ١٤٥٣ م. ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٣١ . العدوي : الامويون والبيزنطيون ص ١٦٥ .

١ ــ الموقع الجغرافي الفريد ، وقد وصفه المؤرخ (نورمان بينز) بأنه « استقر على شبه الجزيرة البارز بين أوروبة والذي يكـاد يلاقي الشاطيء الآسيوي ؛ وفي وسط الطريق بين الحدودو الشمالية والشرقية في بقعة يحميها مد بحر مرمرة العنيف من الهجمات البحرية » (١) .

٢ ــ الأسوار الداخلية والخارجية الضخمة والمزودة بعدد كبير من أبراج المراقبة (٢) .

٣ ــ السلسلة الحديدية الضخمة ، الحاجزة بين القرن الذهبي (ميناء القسطنطينية) وبين الشاطيء الآسيوي . وكانت هذه السلسلة تستخدم عند الضرورة لمنع تقدم السفن المعادية .

٤ ــ السلاح البيزنطي المتفوق ، المعروف بالنار الاغريقية . وكان هذا السلاح المتطور غير معروف لدى العرب في ذلـك الوقت ، حيث ساهم في تعجيل انسحابهم بعد الخسائر الجسيمة التي وقعت بأسطولهم على الأخص (٣) .

هذه هي أبرز العوامل التي ساعدت على تفشيل المحاولة الهجومية

---

(١) نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٧ــ٨ .

(٢) بلغت سماكة السور الداخلي ١٤ قدما وكان عليه ٩٤ برجا . أما السور الخارجي فكان يتراوح بين قدمين وستة اقدام مع نفس العدد من الابراج . العدوي : الامويون والبيزنطيون ص ٥٥ .

(٣) كان هذا السلاح عبارة عن انابيب طويلة من النحاس توضع في مقدمة السفن وتقذف مادة سريعة الالتهاب لا تطفئها المياه . وينسب اختراعه الى مهندس يوناني يعرف باسم كالينيكوس . عبادي ــ سالم : البحريـة الاسلامية ص ٣٣ . العدوي الامويون والبيزنطيون . ص ١٧٧ .

الأولى التي قام بها الأمويون للقضاء على الامبراطورية البيزنطية . أما نتائجها المباشرة والبعيدة ، فانها أسهمت في ذلك الجمود النسبي على الجبهة الشمالية . اذ ان معاوية وجد نفسه بحاجة الى هدنة طويلة مع البيزنطيين ، فكانت تلك المعاهدة بينه وبين الامبراطور قسطنطين الرابع ، المتطرف في معاداته للعرب ومدتها ثلاثون سنة ، وذلك قبل سنة واحدة من وفاته [١] . وهو لم يشأ حينذاك أن يدع لابنه ارثا من المشاكل الخارجية ، في وقت كانت هواجس الانفجار الداخلي المرتقب لا تنفك تثير القلق الشديد على مصير الدولة المجهول [٢] .

الجبهة الأفريقية :

لقد أصاب هذه الجبهة من الجمود ما أصاب بقية الجبهات الحدودية اثناء الصراع الشامي ـ العراقي . وكانت مصر حتى سنة ٣٨ هـ محور تنافس بين الفريقين ، الى أن وقعت في يد معاوية في أعقاب مقتل آخر ولاتها الممثلين لعلي ، محمد بن أبي بكر [٣] . واستطاع عمرو بن العاص الذي آلت اليه هذه الولاية المهمة ، وضع خطط فورية لاستئناف حركة التوسع نحو الغرب والجنوب . فقام عقبة بن نافع قائد الحامية العربية في برقة ، بعمليات خفيفة استهدفت تأديب عدد من قبائل البربر المتذبذبة الولاء ، رغم وقوعها في فلك السيادة العربية ، واستولت كذلك على بعض المواقع المهمة في شمالي السودان . الا أن حاكم مصر اكتفى بهذا القدر من النشاط التوسعي غير المنظم ، لافتقاده على الأرجح

---

(١) تمت المعاهدة في سنة ٥٩ هـ/٦٧٩م.

(٢) راجع وصية معاوية لابنه يزيد قبيل موته . الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٦ ص ١٧٩–١٨٠ .

(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٧٩–١٨٥ .

القوة العسكرية الكافية ، حيث كان معظمها لا يزال مرابطا في الشام ، منهمكا في شجون الخلافة . يضاف الى ذلك أن فاتح مصر قبل نحو ربع قرن ، كان قد أصبح تحت عبء الأعوام الثقيلة ، ولم يعد ذلك القائد الذي تستهويه المغامرة وركوب المخاطر . ولهذا اقتصرت مشاريعه الحربية خلال عهده القصير [١] على هذه الغزوات الدورية التي أسندت الى عقبة ، حيث اكتسب بفضلها خبرة ومراسا ، واختصاصا كذلك في الحرب الأفريقية . وسيكون هذا القائد في السنوات العشرين اللاحقة من ألمع فرسان هذه الجبهة وأبرز قادتها الكبار [٢] .

وقبل تناول الأحداث العسكرية التي بدأت تأخذ اطارها المنظم منذ تعيين عقبة بن نافع قائدا لهذه الجبهة ، لا بد من الاحاطة بالجوانب السياسية والاجتماعية المختلفة في محاولة لكشف ملامح الدور الذي اتخذه البربر (السكان الأصليون) من التطورات الجديدة التي رافقت انتشار العرب في بلادهم . ذلك أن التواجد العسكري العربي ، لم يكن حينذاك أبعد من الولاية المصرية . وما عداها فلم يكن أكثر من تواجد سطحي ، متمثل بحاميات صغيرة ، أو بغزوات دورية محدودة الأهداف . وكانت الجبهة الأفريقية (أو المغرب كما سميت في وقت متأخر) [٣] خاضعة ، لا سيما في الجهات الساحلية للمتغيرات السياسية المتلاحقة . فقد ارتبطت قبل الميلاد بالحروب البونية (بين قرطاجة وروما) ، التي أسفرت عن انتصار الأخيرة وسيطرتها على أفريقية وبقية البلاد المطلة على البحر المتوسط . ولكن الرومان اكتفوا من هذه المنطقة بالسواحل

---

(١) توفي عمرو بن العاص في سنة ٤٣ هـ/٦٦٤ م .

(٢) ابراهيم بيضون : الدولة العربية في اسبانية ص ٣٠ .

(٣) ان هذا الاسم مجرد اصطلاح جغرافي اطلق على الاراضي الواقعة الى الغرب من مصر حتى المحيط الاطلسي . المرجع نفسه ص ١١ .

فقط ، واستخدموها لغايات عسكرية في الغالب ، وتحاشوا الامتـداد جنوبا حيث البربر يعيشون منذ زمن بعيد في ظل نمطين من الحيـاة الاجتماعية : الأول متحضر ، مثله ما عرف باسم (البرانس) وهؤلاء كانوا بفعل اتصالهم بالشعوب المستعمرة ، أميـل الى الاستقرار في الأراضي الخصبة المجاورة للمدن وممارسة الزراعة والأعمال الحرفيـة المختلفة . والآخر بدوي مثله (البتر) ، وهم سكان البوادي المتنقلين في الداخل . والمحافظين على تقاليدهم القديمة المتوارثة ، كالرعي والغزو وكل ما يتعلق بحياة البداوة المعروفة [١] .

وكان الشمال الأفريقي في الغالب متأثرا بالتطورات السياسيةالعالمية في ذلك الوقت . فبعد تمزق امبراطورية الرومان وانهيار أجزائها الغربية تحت هجمات الجرمان ، قدر لهذه المنطقة أن تلقى نصيبها من هذه الموجة العاتية . حيث سيطر عليها الوندال Vendal الهاربين من ضغط مجموعة أخرى تعرف باسم القوط الغربيين في اسبانية ، وذلك في النصف الأول من القرن الخامس الميـلادي . وظل الونـدال يتمتعون بالسـيادة على الشريط الساحلي الممتد ما بين طنجة وقرطاجة الى أن جاء الامبراطور البيزنطي جستنيان ، صاحـب فكـرة احيـاء الامبراطورية الرومانيـة القديمة [٢] . فانتزع قائده بلزاريوس هذه المنطقة من الوندال ، واستمر

(١) يميل بعض المؤرخين الى تفسير هاتين الكلمتين (البرانس والبتر) تفسيرا لغويا له علاقة بالزي القومي لدى سكان المغرب وهو البرنس الذي لا يزال سائدا حتى اليوم . فقد اعتاد البربر البرانس حسب زعمهم — على ارتداء البرنس الذي يغطي الجسم من الرأس حتى القدمين . بينما اعتاد بربر البتر على الظهور به مبتورا بدون غطاء للرأس . عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الاندلس ص ٢١ .

(٢) نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٣٠—٣٣٣ .

النفوذ البيزنطي يتراوح بـين السيطرة الفعلية والانحســار حتى مجيء العرب •

وفي الوقت الذي أخذ فيه العرب ينحون اتجاها أكثر جدية في سياستهم الأفريقية ، كانت الدولة الأموية قد طـوت صفحة الحـرب الأهلية ، وأصبحت لديها القدرة على حشد الجزء الأكبر من قواتها في خدمة الحركة التوسعية العامة • غير أن هذه المهمة كانت شائكة وعسيرة، حيث كان على العرب أن يصطدموا بحاجزين من المقاومة : الأول تمثل بالبيزنطيين الأعداء التقليديين ، الذين اعتمدوا على التفوق البحـري والقواعد المنيعة • أما الثاني فقد تمثل بقبائل البربر في الداخل • ولكن المجابهة المباشرة كانت مع القوة البيزنطية ، اذ أن علاقة العرب بالبربر كانت لا تزال حتى ذلك الحين غامضة ومشوشة • بالاضافة الى ذلك فان مؤشرا لا بد من أخذه في الاعتبار ، هـو أن بيزنطيي أفريقية كـانوا أقل حماسة من بيزنطيي القسطنطينية الذين استبسلوا في الدفاع عنها • وكانت الضربات العنيفة التي تلقتها الامبراطورية في الشام ومصر ، قد أسهمت في زعزعة الشخصية المركزية التي تمتعت بها قبل ذلك • فقـد أخذ حكام الولايات لا سيما البعيدة ينحررون تدريجيا من وصـايـة القسطنطينية وينزعون الى الاستقلال •

وكان معاوية بعد وفاة عمرو بن العاص ، قد جعل من برقة وطرابلس ادارة منفصلة عن مصر وعين معاوية بن خديج قائدا لها [1] ، وانحصرت مهمته في القيام بعمليات عسكرية وذلك في المنطقة الواقعة الى الغرب

(١) تسلم معاوية بن خديج قيادة افريقيا في سنة ٤٥هـ/٦٦١م • الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٦ ص ١٤٦ •

من طرابلس [1] • وما لبث أن خرج من الاسكندرية عبر الطريق المحاذي للساحل، وهو الممر التقليدي للجيوش العربية حينذاك • ولم يصادف أمامه أية عقبات أو مفاجآت ، حيث كان ذلك ثمرة الجهود المتواصلة لعقبة بن نافع • وانتهى ابن خديج الى قونية (قمونية) في سهل تونس الى الجنوب من قرطاجنة ، وهو المكان نفسه الذي انتهى اليه عبدالله بن سعد ، قائد الحملة السابقة في العصر الراشدي • وفي هذه الأثناء كان الحاكم البيزنطي نقفور Neciphore ، الذي عرف بأنه محارب قدير قد اتخذ معسكره في مدينة (سوسة) الساحلية • ولكنه بعد ادراك للموازين بين القوتين وجد صعوبة في التصدي للجيش العربي الكبير ، فتراجع مذعورا الى سفنه الراسية على الشاطيء في أعقاب مناوشات طفيفة [2]• وتوقفت عند هذا الحد مهمة ابن خديج الذي اكتفى بانتصاره السريع والغنائم التي وقعت في أيدي الجند • فلم يشأ استثمار ذلك في اجراءات عسكرية وادارية ، تؤمن فاعلية السيادة العربية في هذه المنطقة• أي أنه ارتكب الخطأ نفسه الذي وقع فيه عبدالله بن سعد قبل نحو عشر سنوات تقريبا • غير أن المؤشر الايجابي للحملة كان في اختلال موازين القوى في الجبهة الأفريقية لمصلحة العرب، بعد أن أثبتت هزيمة البيزنطيين الاخيرة تراجع نفوذهم واضمحلاله أمام المد التوسعي الجديد •

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٦١ . ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٦ .
(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عقبة بن نافع وبداية الفتح المنظم في المغرب

عُين عقبة بن نافع قائدا للجبهة الأفريقية خلفا لمعاوية بن خديج في عام ٤٩هـ/٦٦٩م على الأرجح [١] ، أي في الوقت نفسه الذي جرت فيه استعدادات الدولة الخاصة لحملة القسطنطينية ، حيث الظروف باتت ملائمة للتوجه نحو استئناف الحركة التوسعية على نطاق شامل . وهكذا فان الحملات المنظمة التي استهدفت اتمام فتح المغرب ، اقترنت بهذا القائد الذي يعتبر واضع الركائز الأساسية لشخصية هذا الأقليم العربية والاسلامية .

لقد بدأ عقبة نشاطه العسكري بالاستيلاء على عدد من المواقع الاستراتيجية في المغرب الأدنى [٢] ، وهو انعكاس للخطة التي تبناها ، الهادفة الى المحافظة على الأرض وليس الاكتفاء بالغزو السريع كما حدث مع الحملات السابقة . فعمد الى تشكيل حاميات عسكرية في المدن والمواقع التي يتم السيطرة عليها في أفريقية . واذا تساءلنا عن موقف البربر من هذه التطورات ، نجد أنه أقرب الى الغموض ، خاصة وانهم وجدوا في سلوك العرب نمطا جديدا لا يتوافق والتجارب السابقة مع القوى السياسية الأخرى ، حيث كان الطابع العسكري الصرف ملازما

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٦ ص ١٣٤ .

(٢) تونس حاليا . ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢١٤ .

لها ، بخلاف هؤلاء النازعين بالفطرة الى تغليب الحوار من خـــلال الدعوة الى العقيدة التي كان يسبق تأثيرها الحملات العسكرية • وفي (قونية) ، المكان الذي انتهى اليه القائد السابق ، كانت فكرة الاستقرار أو الاحتلال الدائم، قد اختمرت لدى عقبة باعطائها الأولوية في مشاريعه الجديدة • وهكذا ظهرت أولى القواعد الحربية في عمق الولاية الأفريقية على نسق القواعد السابقة التي ظهرت في أيام الخليفة عمر بن الخطاب • فكانت القيروان [١] (الاسم الذي اختاره عقبة لقاعدته الأفريقية) في أحد الأودية المحمية والبعيدة عن قرطاجنة ، كبرى القواعد البيزنطيــة على الساحل الشمالي • وكـــان وراء ظهور القيـــروان هدف عسكري استراتيجي ؛ يرمي الى انشاء مركز دائم لتغطية عمليات الهجوم في قلب المغرب، فضلا عن تأمين الخطوط الدفاعية الضـــرورية للعرب في هـــذه المنطقة • كما كان لها هدف سياسي عقائدي، في أن تكون منطلق الدعوة التبشيرية بين البربر وصهرهم مع العرب في اطار الاسلام [٢] •

ويبدو أن عقبة استغرق هذه السنوات في بناء القيروان دون أي اعتراض من جانب البيزنطيين ، حيث انصـــرفوا حينـــذاك للدفـــاع عن عاصمتهم المهددة بحصار القوات الشامية المركزية • على أن جهود القائد الأموي العسكرية ، لم تتجاوز في تلك الفترة العمليات المحدودة وهي ذات طابع تبشيري على الأرجح • ولكن عقبة ما لبث أن كان هـــدف التغييرات الادارية في دمشق ؛ حيث أصدرت الخلافة قرارا بعزله وتعيين

(١) القيروان كلمة فارسية الاصل ومعناها العربي ، القافلة او محط القوافل • العدوي : الامويون والبيزنطيون ص ٢٣٧ •

(٢) ابراهيم بيضون : الدولة العربية في اسبانية ص ٣١ •

أحد مساعديه (أبو المهاجر دينار الأنصاري) [١] ، بعد محاولته الرائدة في بناء الشخصية الجديدة للمغرب التي قدر لها أن تتأخر بعض الوقت •

لقد كانت سياسة عقبة بن نافع الأفريقية ، محصلة خبرة طويلة بشؤون هذه المنطقة • ولم يكن عزله يعني العودة الى الوراء ، اذ ترك خلفه انجازا مهمًا تجسده القيروان ، القاعدة الكبرى التي أصبحت منذ قيامها مركز العمليات الحربية في أفريقية ، واستقلت عمليا عن ولاية مصر ، حيث كانت الفسطاط تتولى هذا الدور في الماضي •

ولم يكن القائد الجديد أقل حماسة من سلفه ، ولكن بأسلوب مختلف ومنهج أكثر اعتدالا • ذلك أن أبا المهاجر كان في رأي بعض المؤرخين [٢] رائد سياسة الحوار مع البربر ، حيث نجح ليس فقط في الفصل بينهم وبين البيزنطيين ، بل في اقامة نوع من التحالف السياسي مع احدى القبائل البرانسية (أوربة) ، القاطنة في جبال الأوراس• ولهذا فان كتب التاريخ المهتمة بشؤون الفتوحات ، لا تشير الى أعمال عسكرية ذات شأن ، خلال السنوات الخمس التي قضاها أبو المهاجر قائدا لهذه الجبهة • فجل ما تذكره عن غزوة مشتركة الى (تلمسان) في المغرب الأوسط بين أبي المهاجر وزعيم (أوروبة) كسيلة بن لمزم ، حيث يعتقد (ابن عبد الحكم) أن هذا الأخير قد تحول مع قبيلته الى الاسلام [٣] • على أن هذا الأمر تأرجح بين الشك واليقين ، خاصة وأن المصادر الرئيسية لم تشر اليه• فقد بقي ذلك مجرد اعتقاد ، لأن كسيله كان يحمل في صدره

---

(١) تولى ابو المهاجر شؤون الولاية الافريقية سنة ٥٥ هـ/٦٧٤م. ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٦٤-٢٦٧ •

(٢) العدوي : الامويون والبيزنطيون ص ٢٤١ •

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٦٦ •

ـ كما تبين لاحقا ـ عداوة شرسة للوجود العربي الاسلامي في أفريقية • ولعل أبرز أعمال أبي المهاجر العسكرية ، حملته الى قرطاجنة قاعدة البيزنطيين الكبرى (٥٩هـ / ٦٧٩ م) ، الا أنه فشل في الاستيلاء عليها ، فرفع الحصار عن اسوارها في أعقاب مساومة على (جزيرة شريك) القريبة منها •

وما لبثت القيادة في القيروان ، أن خضعت مرة أخرى للمتغيرات السياسية التي حدثت بعيد انتقال الخلافة الى يزيد بن معاوية (٦٠هـ / ٦٨٠م) • وكان الخليفة الجديد على صلة جيدة بعقبة بن نافع ، الذي عاش على الأرجح وقتا من اعتكافه في دمشق مقربا من ولي العهد [1] • واذا كان القائد الشهير لا يزال تواقا الى استئناف سياسته الجهادية ، بالاندفاع نفسه الذي لازمه قبيل عزله ، فان الظروف العامة لم تعد نفسها كما كانت عليه قبل السنوات الخمس التي ابتعد خلالها عن هذه الجبهة• ذلك أن معطيات جديدة ، دخلت طرفا في الصراع القائم بين الأطراف المختلفة في المغرب • فالنظام البيزنطي خرج سالما من محاولات القضاء عليه ، وما لبثت سياسته العدائية في عهد قنسطنطين الرابع أن أخذت منحى شديد التطرف ازاء العرب • وهكذا فان التحرك العسكري على جبهة أفريقية ، أصبح على شيء من الخطورة مع عودة الأهتمام البيزنطي اليها والتركيز على البربر حلفاء الأمس لتأليبهم ضد العرب •

ومع هذا الواقع الجديد الذي رافقته عودة جدية للوجود البيزنطي في أفريقية ، لا بد من اسقاط الأفتراض الشائع عن تدهور العلاقة بين

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٦٦ـ٢٦٧ •

عقبة والبربر ، دون تسويغ مقبول [1] • ولعل أكثر ما يوحي بانقلاب موقف البربر هو ذلك العداء الذي جوبه به القائد الأموي من الزعيم البرانسي ، حسب رواية ابن عبد الحكم [2] • وهذا بدوره يعطي تفسيرا اضافيا في الاتجاه نفسه ، هو أن كسيله كان يجد في عقبه الشخصية الاكثر خطورة وتناقضا مع النظام التقليدي للبربر ، وكذلك تهديدا لمصالحهم الاقتصادية والاستقلالية •

كان عقبه يحمل أثناء عودته كما يبدو تكليفا باطلاق يده في الولاية الأفريقية • وما لبث مخططه الجديد أن تبلور ، بالخروج على النطاق المحلي المألوف الذي كان طابع الأعمال العسكرية في عهد أبي المهاجر • وفي سنة ٦٢هـ/٦٨١ م ، غادر القيروان برفقة القائد السابق ، وهذا ما يدحض عمليا زعم الخلافات بين الرجلين حول العلاقة مع البربر [3] • وكانت أولى المحطات الرئيسية في مسيرة الفتح المبرمج ، مدينة باغايه (بجاية) [4] ، حيث حقق انتصارا باهرا على البيزنطيين ، الذين تراجعوا الى المدينة واعتصموا فيها • ويبدو أن القائد الأموي لم يكن هدفه القواعد العسكرية حينذاك ، وهي غير سهلة المنال في ظل وسائل الحصار المتواضعة لدى العرب ، بل كان يطمح الى امتلاك زمام الأمور في الداخل ، مما يعطيه فرصا أفضل لأقتلاع النفوذ البيزنطي من المناطق

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٥٤ . شكري فيصل : حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول ص ١٦٧ . العدوي : الامويون والبيزنطيون ص ٢٤٢-٢٤٣ •

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٦٨ •

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٥٨-١٥٩ •

(٤) تقع الى الجنوب من قرطاجنة . ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٦٨ •

الساحلية . ومن أجل ذلك أنعطف نحو الجنوب ، متخذا طريقه بمحاذاة السفوح الشمالية لجبال الأطلس . فاجتاح اقليم الزاب في المغرب الأوسط وسيطر على عاصمته (المسيله) ، ومنها الى (تاهرت) بعد معركة عنيفة ضد البربر ، ممثلين بقبائل (لواته ، هوارة ، مكناسة) الذين كانوا يتلقــون الدعم العسكري من البيزنطيين . ولقد مهد سقوط (تاهرت) الطريــق الى المغرب الأقصى ، فانتقل من انتصار الى آخر حتــى بلــغ (ايغيران يطوف) على ساحل المحيط [1] . وعند هذا الحد من التقدم ، عاد عقبة الى القيروان ؛ تاركا وراءه نفوذا للبيزنطيين لا يزال قائما على الساحــل الشمالي وموقفا غامضا للبربر، وفوق ذلك شهرة خاصة رفعته الى مصاف كبار القواد في تاريخ العرب العسكري ، شهرة أكسبت شخصيته نزعــة مثالية في الجهاد وأعطتها بعدا قد يتجاوز الواقع الى شيء من الخيال [2]

تهودة : ثورة البربر الاولى

بعد عودة عقبة بن نافع بحملته المظفرة ، كانت مفاجــأة باتنظاره ، دمرت كل انجازاته العسكرية الأخيرة ، وأعادت النفوذ العربي في أفريقية الى حجمه القديم . فما كاد يصل الى (طبنه) في أقليم الزاب [1] حتــى أدرك أن تحركا مريبا يقوم به البربر من جماعة كسيله والقوات البيزنطية المتحالفة معها . وقد لا يستطيع المؤرخ هنا تفسير القرار الذي اتخــذه القائد الأموي ، بارسال الجزء الأكبر من قواته الى القيروان والاحتفاظ

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٥٤ .

(٢) نسب الى عقبة القول بعد بلوغه المحيط الاطلسي : « يا رب لولا هذا المحيط لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك » . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٥٤ .

(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٥٤ .

بنحو خمسة آلاف من الجند فقط • فهل كان ذلك نتيجة لشعوره بضخامة المؤامرة المبيتة، فأراد النجاة بجيشه الرئيسي والقيام بعملية انتحارية لاختراق الكمين ؟ أم أن الأسراع بايفاد القسم الرئيسي من الجيش قد تم بأمر الخلافة ، تمهيدا لألحاقه بالجيش المركزي في دمشق ، حيث كانت تعصف بها أزمات سياسية خطيرة في الوقت نفسه ، خاصة في العراق والحجاز ؟• وقد يكون هذا الافتراض ممكنا ، لا سيما وان توزيع القوات جرى على مسافة ثمانية أيام [1] من القيروان ، ومن المستبعد أن يتم ذلك بصورة عفوية وبدون أسباب تسوغ هذا الأجراء •

وفي (تهوده) ، حيث يوجد معقل بيزنطي قديم ، اعترض كسيله مع حلفائه سير القائد الأموي فيما يشبه الكمين • وكانت عملية متقنة نجح خلالها المتحالفون في تحطيم الفرقة المتبقية من جيش عقبة، وذلك بعد معركة بطولية قتل فيها هذا الأخير وبقية القواد ومنهم أبو المهاجر ، بينما غرق الآخرون في بحر من الدماء [2] •

ومن البديهي أن أبعاد الحادثة لا تنتهي عند هذا الحد من النتائج ، بالقضاء على عقبة وفرقته، وما أسفر عنه من دخول كسيلة الى القيروان في أعقاب انسحاب قائد حاميتها (زهير بن قيس) الى برقة • اذ أن الدقة التي تم بها اعداد العملية والحشد الهائل من البربر والبيزنطيين، يحملنا على الأفتراض بأن ما جرى في (تهوده) كشف حقيقة موقف البربر من سياسة التوسع ، التي كان عقبة من أبرز المتحمسين لها • فالعلاقة بين الطرفين كانت في مضمونها عدائية منذ عودة القائد الأموي الى مركزه في القيروان • والبربر من جانبهم كانوا على حذر شديد من سياسته

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٥٤ •

(٢) بيضون : الدولة العربية في اسبانية ص ٤٠ •

الأفريقية ، التي وجدوا فيها ما يستهدف الغاء شخصيتهم القومية وتذويبها في اطار المجتمع العربي الاسلامي . ومن هذا المنطلق ، فان مؤامرة (تهوده) كانت انقلابا ضد سياسة التوسع العربية ، وثورة على الممارسات الجديدة التي كان ثمنها المباشر فقدان استقلالهم التقليدي وكيانهم التاريخي المتوارث . ولم يكن صدفة أن يكون فتح المغرب من أصعب الأنجازات العسكرية التي حققها العرب ، بالمقارنة مع العمليات السابقة له أو المتزامنة معه . فالتناقض كان واضحا حتى بعد استكمال المهمة العسيرة ، حيث كان البربر أحد مصادر التوتر والاضطراب السياسي في الدولة الأموية حتى سقوطها .

الثورة على النظام الملكي

لقد عاشت ولاية الحجاز في أعقاب انتقال الخلافة الى دمشق أجواء من التلبد والكبت السياسي ، حيث كان محظورا على زعمائها تجاوز الاهتمامات الاجتماعية والثقافية . وفوق ذلك كان عهد معاوية بالنسبة لهؤلاء مصحوبا بذكريات القمع والملاحقة ، فكان من البديهي أن يجدوا في غيابه فرصة العودة الى الحياة الطبيعة والتعبير عن مخزون عميق من النقد والأحتجاج فضلا عن الطموح ، لم يملكوا الجرأة على التصريح به خلال سنوات طويلة . غير أن زعماء المعارضة في (المدينة)، رغم الحصار السياسي المحكم لم يعدموا بعض نشاطات سرية واجتماعات مموهة ، كانت تتم في اطار من الكتمان والخفاء . الا أن قاسما مشتركا وحد المواقف المرحلية للمعارضة السياسية في هذا الأقليم ، هو ارجاء التحرك العلني الى وقت تتوفر فيه الظروف الايجابية ، أو بمعنى آخر الى ما بعد معاوية ، القابض بكلتا يديه على السلطة ومعه رجاله الأقوياء واستخباراته الراصدة . ولقد عبر عن هذا الواقع ، أحد أخطر زعماء المعارضة حينذاك وهو الحسين، في معرض رده على سليمان بن صرد (من زعماء الكوفة المتطرفين) اذ قال حسب ما رواه ابن قتيبة: «ليكن كل رجل منكم حلسا من أحلاس بيته ما دام معاوية حيا ، فأنها بيعة كنت والله لها كارها ، فأن هلك معاوية نظرنا ونظرتم ورأينا ورأيتم » [1] .

---

(۱) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ۱ ص ۱۵۲ .

وهكذا فان غياب معاوية [١] كان مؤشرا للانفجار المرتقب ، والذي توقعه الأخير في وصيته الشهيرة [٢] • ولم يكن يزيد في مستوى المهمة الكبيرة الملقاة على عاتقه . يؤكد ذلك اسلوبه العقيم وقراراته الارتجالية في مواجهة الأزمات الخطيرة التي عصفت بعهده منذ أيامه الأولى • غير أن يزيدا الذي أظهرته الروايات التاريخية متلبسا الترف والمجون ، ومستغرقا حتى العبث في حياته الخاصة [٣] . لا بد أنه كان ضحية شخصيته الضعيفة المترددة ؛ والعاجزة عن ملء الفراغ الكبير الذي تركه معاوية وراءه في الحكم • فقد تسلم الخلافة ومعها ميراث ثقيل من الأزمات كان راكدا في عهد والده القوي ؛ وفي طليعتها أزمة الحكم نفسه . الذي كان الهدف أولا وأخيرا للمعارضة السياسية • وكانت هذه الأخيرة قد بادرت عبر زعامتها الحجازية الى اعلان موقفها ، برفض

---

(١) توفي معاوية سنة ٦٠ هـ . ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٣ . تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٧٨ .

(٢) جاء في وصية معاوية لابنه يزيد ، حسب روايات المصادر ، في معرض التحذير من المعارضة الحجازية : « ... واني لست أخاف عليك ان ينازعك في هذا الامر الا اربعة نفر من قريش : الحسين بن علي وعبدالله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن ابي بكر . فأما ابن عمر فأنه، رجل قد وقذته العبادة فاذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين فان أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه . فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فان له رحما ماسة وحقا عظيما . وأما ابن ابي بكر فرجل ان رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم ، ليس له أهمية الا في النساء واللهو . وأما الذي يجثم لكم جثوم الاسد ويراوغك مراوغه الثعاب فاذا أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير . فان فعلها بك فقدرت عليه فقطعه اربا » الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٦ ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٠٩ . المسعودي : مروج الذهب ج ٣ . ص ٦٧ . ابن طباطبا : الفخري في الاداب السلطانية ١١٩ . ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٥ .

الاعتراف بخلافة يزيد ، واخذت في الانسحاب واحدا وراء الآخر الى مكة ، تعبيرا عن هدا الموقف وتحاشيا للمواجهة مع ممثلي الخليفة في (المدينة) ، الدين كانت لديهم الأوامر الحازمه بانتزاع البيعة ، طوعا او اكراها [1] • فعاصمة الاسلام الأولى اذن ، كانت المبادرة الأولى ، رغم المراقبة الشديدة ، في اعلان موقفها من الخليفة الجديد ، ذلك الموقف الدي عبر عنه اعتكاف الزعماء الكبار في مكة • اما في العراق ، حيث الأسباب آكثر تشجيعا على السلبية ، فقد نحت الأحداث هناك اتجاها تجاوز الرفض والاحتجاج الى الثورة الشعبية المسلحة •

كانت هناك ثغرتان اذن بدأت تهب منهما المتاعب مع خلافة يزيد بن معاوية • الأولى في الحجاز ، الولاية المنفية في العهد السابق والمنكفئة على هامش الحياة السياسية، الا أنها قادرة معزعمائها الكبار على استنهاض جماهير المعارضة ، حيث كان اثنان منهما على الأقل في موقع الرفض للبيعة وهما : عبد الله بن الزبير والحسين بن علي • والثانية في العراق ، الولاية الأكثر تضررا من الحكم الأموي ، والأكثر احتواء للمعارضة الشعبية المهيأة للثورة لا سيما في الكوفة• على أن بين الثغرتين ثغرة ثالثة، كان معاوية يحسن استغلالها جيدا ، وهي في النتيجة ليست في مصلحة المعارضة•ففي الحجاز قيادة بدون جماهير بينما في العراق جماهير بدون قيادة، ولعل هذا الواقع هو سر الاختلال الذي رافق الحركات الثورية التي استهدفت نظام الأمويين في ذلك الوقت •

وفي الكوفة كانت الفئات المؤيدة للاتجاه العلوي ، قد قطعت مرحلة جدية في عملية البناء التنظيمي بما عرف لاحقا بالحزب الشيعي ، الذي

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٦ ــ ٨ •

استمد قضيته وحتى اسمه من مناصرة العلويين وتأييد حقهم في السلطة[1].
وكان أول اجتماع علني يعقد في الكوفة في منزل سليمان بن صرد، وذلك منذ انتقال الحكم الى الأمويين[2]. وكان السبب المباشر لهذا الاجتماع مرتبطا بخروج الحسين الى مكة، احتجاجا على الزام السلطة الاموية له بالبيعة. ووجد هؤلاء الظروف مهيأة لتحديد موقفهم السياسي وهو رفض الاعتراف بالنظام الوراثي، الذي أصبح أمرا واقعا بعد اعلان خلافة يزيد تنفيذا لمشيئة معاوية . فهنالك معطيات اذن تشجع على قرار الثورة ، تتمثل بانفلات الوضع السياسي في شتى العراق ، ومن ثم اعتكاف الحسين ، الزعيم المؤهل لقيادتها بما لديه من شخصية مميزة ورصيد معنوي كبير ، فضلا عن مواقفه الحازمة المعروفة في مواجهة السلطة الأموية (رأى الحسين في معاهدة الصلح بين الحسن ومعاوية ، ورفض الموافقة على بيعة يزيد بولاية العهد وبالخلافة [3] .

وهكذا انتهى اركان الحزب الشيعي في الكوفة الى قرار بدعوة الحسين الى العراق لقيادة الثورة التي قطعت شوطا من النضج ، هو في النتيجة محصل للنشاطات المكثفة عبر الخلايا السرية ، الاطار المميز للنضال السياسي في عهد معاوية. وما لبثت رسل الكوفة أن توافدت على مكة لابلاغ الحسين بالموقف العام في المدينة . وكان هذا الأخير معتكفا على دراسة القرار الصعب الذي لا بد من اتخاذه . فالبقاء في مكة لم يكن في النهاية غير تدبير مؤقت ، لأن السلطات الأموية لن تدعه في مأمن من ملاحقاتها حتى تنتزع منه الاعتراف بخلافة يزيد ، في وقت كان قد اتخذ قراره الحاسم .

---

(١) د. أحمد صبحي : نظرية الامامة عند الشيعة الاثني عشرية ٢٨ .
(٢) ابن الاثير ١٠/٤ . ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤٧/٨ .
(٣) ابن الاثير ٢٠٥/٣ . الطبري ١٨٩/٦ .

واذا كان الاختيار قد أصبح أمرا لا مجال للبحث فيه ، فان الحسين رغم ذلك لم يتخل عن رصانته التقليدية [١] ، فبدا حريصا على استكمال دراسته للموقف السياسي العام في العراق وليس في الكوفة وحدهـا ، وذلك قبل الموافقة النهائية • وانطلاقا من هذا الشعور قرر ارسال اثنين من معاونيه : الاول هو مسلم بـن عقيل الـى الكوفة والثاني (سليمان) ـ ويظهر أنه مرافق للحسين ـ الى البصرة [٢] • واذ يضيع هذا الأخير في زحمة التطورات المثيرة وينتهي مصلوبا في ساحة دار الامارة [٣] ، تتمحور الأحداث حول موفده الى الكوفة التي قفزت مجددا الى الواجهة، مستقطبة أخطر أزمة سياسية تجابه الخلافة الاموية منذ قيامها •

كان مسلم قد أجرى منذ وصوله الى الكوفة سلسلة من الاجتماعات ، حيث اتخذ منزل المختار بن أبي عبيد الثقفي (من زعماء الحزب الشيعي) مركز اتصالاته المكثفة والتي انتهت بتكوين صورة ايجابية عن الوضـع العام في المدينة، ما لبث أن أرسل بتقرير عنها الى مكة• غير أن استخبارات السلطة كانت تتابع مهمة مسلم رغم سريتها الشديدة وأحاطت الوالي الأموي [٤] بها• ولكن هذا الأخير الذي عرف باعتداله، رفض التجاوب معها بالقبض على موفد الحسين ، مما أدى الى رفع تقرير الى الخلافة في دمشق حول خطورة الوضع في الكوفة • وكانت تلـك أول تجربة لكفـاءة يزيـد السياسية التي ظهرت أنها محدودة الى حـد كبير ، اذ سارع الـى عزل الوالي وتكليف عبيد الله بن زياد ، أحد ولاة القبضة الحديدية وحاكـم

---

(١) الطبري ٦ / ١٨٩ .

(٢) ابن الاثير ٤ / ١١ . خالد محمد خالد : ابناء الرسول في كربلاء ١٠٩ .

(٣) نفسه ٤ / ١١ .

(٤) النعمان بن بشير الانصاري .

البصرة، بشؤون الكوفة وقمع بوادر الثورة فيها • وقد يرى أحدنا أن الخليفة تصرف من موقع المسؤول الخائف على نظامه ، فلجأ الى استعمال العنف تحقيقا لهذا الهدف • ولكن يزيدا كما ظهر في معالجته لهذه المشكلة ، كان يحتاج كثيرا الى شيء من مرونة أبيه وبعد نظره في السياسة • فقد كان باستطاعته تحقيق النتائج المطلوبة بأقل قدر من الخسائر ومن السلبيات ، التي دفع ثمنها باهظا الخليفة ومعه النظام الأموي •

وهكذا ، في الوقت نفسه الذي تحرك فيه الحسين نحو العراق معتمدا على تقرير مسلم بن عقيل ، كانت الكوفة تشهد انقلابا مضادا للثورة بقيادة عبيد الله بن زياد • واذا بالمعطيات تتحول لمصلحة السلطة الأموية في أعقاب عمليات ارهابية ، تركت بصماتها على تكتل الحزب الشيعي الذي فقد تلاحمه الشديد ، خاصة بعد اعدام اثنين من كبار زعمائه . ممثل الحسين في الكوفة مسلم بن عقيل وهاني بن عروة [١] ، أول ضحيتين في الثورة التي اجهضت في المهد • وحينذاك كان الحسين لا يزال يتابع طريقه مع مجموعة صغيرة، هي عائلته وبعض أنصاره ، دون أن يخامره شك بأن الامور لا تأخذ سيرها الطبيعي • ثم جاءت الصدمة التي قلبت الحسابات بكاملها : حيث نقل اليه عبدالله بن مطيع وكان قادما بالمصادفة من العراق : الصورة القاتمة للوضع المستجد في الكوفة [٢] • ولكن الحسين كان لا يزال غير قادر على الاختيار ، فقد اتخذ قراره

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٦ ص ٢١٣ .

(٢) المصدر نفسه : ج ٦ ص ٢٢٤ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢١ .

الحاسم والنهائي ولم يعد ثمة مجال للتراجع • ولهذا فان أخبار الانقلاب المعاكس في الكوفة لم تعترض طريقه أو تحمله على التردد ، بل تابع طريقه نحو قدره الذي اختار بثبات ورباطة جأش • ولعله راهن حينذاك على آخر اوراقه ، وهي محاولة الاقتراب من الكوفة ، والاتصال بقاعدته الشعبية هناك ، أو لعله كان على ثقة بأن الخليفة يزيد لا يجرؤ على مجابهته بالعنف • ومن هنا كان الاختلال في المعادلة التي خرق يزيد قواعدها العامة وانتهك البديهيات من شروطها •

وعلى الجبهة الأموية ، سارت الأمور كما هو مرسوم لها • فقد حزم عبيد الله بن زياد أمره لاستكمال الفصل الثاني والمثير من القضية التي انتهت عمليا دون ان تتم فصولا ، ولكنها كرمز ظلت متوهجة عبر عشرات القرون • ذلك ان الوالي الاموي كان حريصا على منع الحسين من الوصول الى الكوفة بأي ثمن • فارسل فرقة صغيرة بقيادة الحر بن يزيد [1] لمراقبة تحركاته ، ما لبث أن أعقبها بفرقة أخرى كبيرة بقيادة عمر بن سعد بن ابي وقاص ومعها اوامر مشددة بحسم الأمور في كربلاء ، حيث عسكر الحسين مع جماعته • وعبثا حاول ابن سعد التخلص من أعباء المهمة الثقيلة ، ولكن طلبه رفض ، وكان قد سمي لوقت قريب حاكما على الري [2] ، الأمر الذي وضعه في مأزق الاختيار بين الولاية والمهمة• وفي خلال أسبوع من المفاوضات ، كان القائد الأموي قد اتخذ قراره بتنفيذ أوامر السلطة في الكوفة ، والحسين بدوره رفض شروط ابن زياد

---

(١) الاصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٧٣ •

(٢) المصدر نفسه : ص ٧٤ ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٦ •

بالمثول لديه في دار الامارة [1] .

وفي العاشر من محرم (٦١هـ/٦٨٠م) حدث ما كان متوقعا دون مفاجآت تذكر، سوى التحاق الحر بن يزيد بقافلة الحسين بعد أن تهيب جسامة الموقف الخطير : تلك القافلة التي اختارت نهايتها البطولية في كربلاء في العاشر من محرم .

ان آخر فصول الثورة الكوفية التي أعدت ليقودها الحسين ، أبرز شخصيات البيت الهاشمي حينذاك ، تحول الى مأساة دموية اضطربت لها ضمائر المسلمين واهتزت اركان النظام الأموي ومعه الخليفة نفسه ، الذي حاول مسح يديه من المجزرة والصاقها بابن زياد . وسواء كان يزيد هو المسؤول أم عامله ، الاداة المنفذة ، فان النظام هو الذي تحمل عمليا وزر التصرف الارتجالي الذي عولجت به هذه الحادثة . كما أثبت رأس هذا النظام فشله الذريع في قيادة مصير الأمة وشؤونها ، وسقط عند أول امتحان لقدراته المتواضعة في السياسة .

---

(١) يروي ابن الاثير : ان الحسين بعد ان ادرك صعوبة الموقف عرض على ابن سعد واحدا من الاقتراحات التالية : « اما ان ارجع الى المكان الذي اقبلت منه ، واما ان اضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بيني وبينه رأيه واما ان تسيروا بي الى اي ثغر من ثغور المسلمين شئتم فأكون رجلا من اهله لي مالهم وعلي ما عليهم » غير ان شروط الوالي الاموي الاخيرة كما ارسل لابن سعد « فاني لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه ولا لتطاوله ولا لتعقد له عندي شافعا . انظر فان نزل الحسين واصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم الي سلما وان أبوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فانهم مستحقون » . الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٨ .

كانت محاولة الحسين أول انتفاضة مسلحة ضد طغيان الأقلية الحاكمة التي استأثرت بالخلافة وحولتها الى ملك وراثي ، متجاهلة مواقف الاكثرية المجبرة على الصمت والمكرهة على تقبل الواقع . فالحسين وهو الممثل الطبيعي للتيار الاجتماعي الاصلاحي ، كان صوت الجماهير التي افتقدت مواقعها المكتسبة في الاسلام : القائمة على العدل والمساواة وتكافؤ الفرص : تلك الجماهير التي التزمت بأفكاره ، وتابعت نضالها في أجواء القهر والملاحقة . فمن الخطأ الفادح أن تقوّم ثورة الحسين على أنها حركة محلية اتخذت من الكوفة مسرحا لها ، أو مجرد تسجيل لموقف سطحي أو ارتجالي من الخليفة . بل هي ثورة على النظام القائم بكل مساوئه . وتحديدا مبدأ الوراثة المرفوض في السلطة .

لقد شحنت ثورة الحسين الفكر السياسي في الاسلام، بمادة جديدة من التحدي الصعب والانتصار على الذات والتضحية من أجل المبدأ . فكانت حدثا غير عادي في التاريخ العربي الاسلامي ، حيث انفجر الغضب في مختلف ارجاء الدولة الاموية ، حتى الخلافة لم تنج من سلبياتها التي وضعتها على حافة الانهيار . وباستطاعتنا تقويم الموقف السياسي العام بعد كربلاء على الشكل التالي : في الحجاز : عصيان مسلح في (المدينة) واعلان ابن الزبير نفسه خليفة في مكة . وفي العراق ، تطورات مذهلة انعكست سلبيا على الحزب الشيعي ، الذي اشتدت عليه وطأة الملاحقة كما أثقلته عقدة الذنب والتقصير ، الأمر الذي ادى الى افراز حركة التوابين الانتحارية ، وحركة المختار ومعها اول حكومة شيعية في العصر الاموي . اما في الشام فقد انصبت فيها كل سلبيات الانهيار السياسي هذا ، الذي تعاظم بعد وفاة يزيد المفاجئة ، مما أوقع الاسرة الحاكمة في الفراغ والانقسام .

ثورة المدينة :

كانت (المدينة) بزعمائها المعارضين كما أسلفنا ، اول من طرح قضية الحكم الوراثي وذلك بشيء من التحدي حتى في عهد معاوية . وفي مستهل خلافة يزيد كانت السباقة أيضا الى رفض الأمر الواقع واعلان موقفها مرة أخرى ، مع نزوع الى العصيان المسلح . فمنها خرجت ثورة الحسين التي انتهت بمأساة دموية في العراق واوقعت النظام الاموي في المأزق الصعب ؛ ومنها أيضا انبثقت ثورة ابن الزبير التي اتخذت من مكة أرضيتها الاولى ، لتنتشر من هناك بصورة مذهلة . ورغم خلوها من أي طروحات اجتماعية واصلاحية ، الا أن زعيمها استفاد من الفراغ القيادي في المعارضة السياسية ، مستثمرا النقمة المتعاظمة على الخليفة الاموي . و (المدينة) نفسها كان لها موقفها من هذه التطورات المثيرة حيث كانت مسرحا لأول انتفاضة مسلحة، هي في الواقع محصلة لتراث من الغضب المكبوت ضد ممارسات السلطة المحلية . ولقد بدأ تحرك المعارضة في (المدينة) بحملة من الانتقادات الصريحة ضد الخليفة ، وصلت حتى التجريح بشخصيته والطعن بسلوكه . وأعقبتها موجة من السخط استهدفت ممثل السلطة المركزية وحاكم المدينة الاموي عثمان بن محمد بن ابي سفيان ، الذي وصف بأنه قليل التجربة [1] . وجاء مقتل الحسين واصحابه في كربلاء الشرارة التي ألهبت الموقف وفجرت مخزون الغضب في النفوس .

وفي دمشق كانت الخلافة المثقلة بهمومها الداخلية تتابع بقلق تطورات الموقف في الحجاز ، فلجأت الى محاورة رجال الحركة ، حيث

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٥٢ .

جرى لقاء فاشل [١] بين وفد (المدينة) وبين يزيـد ، لـم يضف سوى التشنج على الوضع السياسي فيه • وانتهى الامر الـى قرار بالعصيان ، وذلك في المؤتمر الذي عقد في المسجد واسفر عن تزعم عبد الله بـن حنظلة الانصاري لادارة (المدينة) وقيادته للثورة المعلنة [٢] •

لقد كانت أول مظاهر العصيان ، الهجوم على دار الامارة ومنـزل مروان بن الحكم، حيث اجتمع الامويون لمناقشة تطورات الازمة السياسية ومواجهة حملة التعبئة ضدهم • ولم يجد المتكفون من بني أمية بمـن فيهم الحاكم : سوى الرضوخ لقرار الثورة بالنفي الى الشام • واسفـر ذلك عن خروج (المدينة) من دائرة الحكم الاموي واعلان حكومة مؤقتة فيها، بينما وصل الأمويون الى دمشق وسط أجواء سيطر عليها الحقـد والتشنج [٣] •

وجاء الرد على أحداث (المدينة) بمستوى الحقد الأموي، اذ كانت النزعة الى الانتقام هي المعيار الذي تحكم بتشكيل الجيش المكلف بقمع الثورة ، قيادة وجندا • فقد عهدت الخلافة بقيادته الى عسكري محترف ، ذي ميول متطرفة نحو العنف وهو مسلم بن عقبة المري [٤] ، والى جانبه قائد يمثل الذهنية نفسها في الحرب هو الحصين بن نمير السكوني • وما لبث هذا الجيش ان احكم الحصار حول (المدينة) التي قاومت بضراوة ،

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ : ج ٤ ص ٥٢ ــ ٥٣ ، المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٦٨ــ٦٩ •

(٢) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٧ ص ٤ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ــ ص ٥٢ •

(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٨ •

(٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ : ج ٤ ص ٥٦ •

متوسلة شتى الطرق الدفاعية لصد الهجوم الاموي [1] • غير انها لم تصمد أمام ضغط الحصار الشديد والجيش المتفوق ، فضلا عن القيادة المحترفة • وسرعان ما استبيحت المدينة للجند المنتصرين ، دافعة الثمن غاليا لموقفها السلبي من الحكم الأموي ، وفجعت بأحلامها الاستقلالية التي ضاعت مع سقوط الثورة في موقعة (الحرة) الشهيرة (٦٣هـ/٦٨٣م) [2] •

ولم يستكمل القائد الأموي المنتصر مهمته في القضاء على ثورة (المدينة) ، اذ أن فصلا آخر منها كان بانتظاره في مكة للعودة بالحجاز الى السيادة المركزية • ففي هذه الأخيرة كان عبد الله بن الزبير يتخذ من الكعبة ملجأ للاعتصام بثورته من الملاحقة الأموية ، دون أن يثنيه عن قراره المأساة الجديدة في (المدينة) • بيد أن حسن الحظ الذي رافقه منذ خروجه الى مكة ، لم يتخل عنه هذه المرة أيضا • فمن مقتل الحسين، المنافس الرئيسي ، الى وفاة مسلم بن عقبة في منتصف الطريق تحت وطأة المرض وتقدم السن [3] ، الى وفاة يزيد المفاجئة في وقت لاحق •• كل ذلك كان يخدم مباشرة مصالح ابن الزبير ، ويذلل من أمامه الصعاب• فهل كانت لديه الكفاءة لاستثمار هذه الفرص ، وارتقاء درجات الخلافة التي أضحت شاغرة بعيد ذلك ؟

ولنعد الى الجيش الأموي ، المكلف بقمع الثورة الحجازية ، وقد أصبح قائدا له الحصين بن نمير ، الذي نفذ بدقة المهمة الملقاة على عاتق

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٥٠ .

(٢) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٧ ص ١٢ .

(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٠ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٦١ .

سلفه • وفي مكة بعد حصاره لها ، كانت المقاومة عنيفة ، تعززها مشاركة عدد من الحلفاء من خصوم النظام الأموي ، كالخوارج وبعض الهاربين من (المدينة) ، فضلا عن الزعيم الشيعي المختار الثقفي ، الذي بدأ اسمه في البروز منذ أحداث الكوفة الأخيرة [1] • وكانت مقاومة شديدة ، رغم القرار الاستباحي ، باستعمال الحصين مجانيقه في ضرب الكعبة ، متجاوزا الضجة المترتبة ازاء تصرف جريء كهذا [2]، في ظل مناخ لا زالت العقيدة الدينية تأخذ دورها المؤثر والطليعي • غير أن المفاجأة التي نقلتها الأخبار من دمشق ، أبطلت مفعول القذائف المكثفة وحالت دون سقوط المدينة المقدسة• فالحصين وهو أحد كبار القادة العسكريين في الدولة الأموية، لم يشأ أن تفوته فرصة المشاركة في تلك الظروف المصيرية • ومع غموض الموقف في دمشق ، حيث كان الحصين يعرف الكثير من أسراره ، وجد أن ورقة الثائر الحجازي قد تكون هي الرابحة في حلبة الصراع على الحكم • وتشير المصادر الى اقتراح تقدم به القائد الأموي الى ابن الزبير في اللقاء الذي جمع بينهما في (الأبطح) [3] ، بأن يكون مرشحه للخلافة شرط الانتقال الى دمشق ، محور القوى السياسية الفاعلة . غير أن زعيم الثورة تردد في الأستجابة ، مرتكبا غلطة العمر برأي الكثيرين ، ومنهم الحصين نفسه الذي اتهمه بقصر النظر [4] •

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٦١ . ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٩ •

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٦٢ . ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ١١ •

Gabrieli : Les Arabes p. 91

(٣) الطبري ١٦/٧ — ١٧ • ابن الاثير ٦٤/٤ •

(٤) ابن الاثير ٦٤/٤ ، ابن قتيبة : الامامية والسياسة ١٤/٢ •

H. Lammens : Études sur le siecle des Omayyades p. 193 .

لقد كان ابن الزبير ، المستفيد الأول من موت يزيد وارتباك الأسرة الأموية في معالجة النتائج السلبية التي انعكست عليها قبل كل شيء . فبينما خرج الثائر الحجازي سالما وثورته من هزيمة عسكرية محققة وامتد بنفوذه الى ما وراء شبه الجزيرة ، كانت الخلافة الأموية تنكفيء على عزلتها ويتقلص نفوذها السياسي ، فلا يتعدى المنطقة الشامية . ذلك أن معاوية الثاني الذي انتقلت اليه الخلافة ، كان ظاهرة منفردة بين أقرانه الأمويين ، فقد أحيط بجدار من الغموض وترك وراءه الكثير من التساؤلات . والمصادر التاريخية لم تحمل من أخباره الا القليل ، انصبت معظمها حول شخصيته الضعيفة وسنه الحدث ، فضلا عن موقف له خاص بشأن الخلافة الوراثية التي أنكرها والدعوة الى «نظام الشورى القديم» [1]. ومن المعتقد ان خلافة معاوية الثاني لم تحظ باجماع البيت الأموي ، الذي كان يضم بعض المنافسين الأقوياء ، الطامحين بدورهم الى هذا المنصب منذ العهد السابق ، حيث لازمه التعثر منذ بداياته الأولى . ولكن القوة السياسية التي ضمنت له الفوز بالخلافة تمثلت بقبيلة كلب اقوى قبائل الحزب اليمني في الشام [2] ، التي احتل زعيمها حسان بن مالك الكلبي مركز الصدارة في التأثير على الخلافة الاموية .

وقد لا يكون بعيدا عن الافتراض ان الاتجاه المعارض في البيت الاموي للخليفة الضعيف ، كان وراء اختفائه الغامض بعد فترة قصيرة في الحكم لم تتجاوز الأشهر الثلاثة [3] . وحتى مصادر المؤرخين لم

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ٤/٦٤ . ابن طباطبا : الفخري ١١٨ .

(٢) H. Lammens : Ètudes sur le siecle des Omayyades p. 191 .

(٣) ابن طباطبا : الفخري ١١٨ .

تستبعد موته المفتعل على يد الزمرة نفسها المناهضة له [1] . فغاب معاوية الثاني في النسيان مخلفا وراءه أزمة خطيرة ، كان المتضرر الأكبر من نتائجها البيت السفياني المؤسس لهذه الخلافة ، فغاب بدوره عن الواجهة فاسحا في المجال الى بيت آخر في العائلة الأموية لاستكمال النظام الوراثي ، دون أن يطرأ تعديل ما على نهج الدولة العام أو على سياستها القبلية أو الاقتصادية .

(١) ابن الاثير : ٤/٦٥ . ابن طباطبا : الفخري ١١٨ . ابن قتيبة : الامامة والسياسة ٢/١٢ .

مرج راهط ـ العودة الى ايام العرب القديمة ★

انصرفت الشام بعد غياب معاوية الثاني الى انقاذ خلافتها المهددة بالسقوط . ولعله من المثير أن لا تكون الاسرة الاموية تمتلك قرارها الحاسم في تلك الأحداث . فالكلمة الأولى كانت في أيدي القوى القبلية، المتعاظم نفوذها مع انهيار الحكم المركزي وتشرذم الاسرة الحاكمة . ومن البديهي أن معاوية الأول هو الذي اوجد تلك المعادلة القبلية التي حققت له التوازن خلال عهده الطويل ، الا انه في الوقت نفسه كان يعيد النزعة العصبية القديمة ومعها أجواء الصراعات التقليدية ، التي شاعت في العصر الجاهلي واستنفذت جلّ طاقات العرب . فالحزب اليمني بقبيلته (كلب) النافذة في البلاط الأموي، كان متشددا في الحفاظ على امتيازاته السياسية والاقتصادية ، التي اصبحت جزءا من النظام الحاكم . والحزب القيسي الذي وصل مع زعيمه الضحاك بن قيس الى مرتبة كادت تنافس الحزب الآخر ، كان يطمح الى اتخاذ موقعه القيادي في التطورات المستقبلية . ولقد منحت الاحداث الأخيرة الزعيم القيسي فرصة التألق والبروز ، خاصة بعد اختفاء معاوية الثاني عن المسرح السياسي في دمشق . فهو من خلال منصبه كحاكم اداري لهذه الاخيرة أتيح له أن يملأ بصورة غير رسمية فراغ الخليفة [1] .

★ كانت هذه العبارة مرادفة لحروب القبائل في الجاهلية .

(١) روى ابن الاثير ان معاوية الثاني « اوصى أن يصلي الضحاك بن قيس في الناس حتى يقوم لهم خليفة » . الكامل في التاريخ ٤/٦٥ .

كان هناك حزبان اذن ، في يد كل منهما تقرير مشكلة الخلافة : الحزب اليمني بزعيمه حسان بن مالك بن بحدل الكلبي ، المرتبط عضويا بالبيت الاموي خاصة السفيانيين، غير أن موقع هذا الحزب ضعف بتدهور الحكم المركزي وتراجع نفوذه ، بالاضافة الى أن الاسرة الاموية حليفة الكلبيين ، كانت غير موحدة الموقف من المرشح المقترح لخلافة معاوية الثاني. اذ أن ثلاثة من المرشحين تسابقوا الى الفوز بهذا المنصب معتمدين جميعهم على تأييد هذا الحزب ، وهم :

خالد بن يزيد ، وهو الابن الثاني للخليفة الأسبق ، وكان مدعوما بحقه في الوراثة بعد أخيه. غير أن حداثة سنه كانت من الثغرات الرئيسية التي حالت بينه وبين الخلافة .

مروان بن الحكم ، الشخصية التي تداولتها الالسن في عهد عثمان حيث كان مستشاره الأول ، واعتبر من أجل ذلك مسؤولا عن مخالفات هذا العهد التي اودت بسيده ، وخلفت الانقسام والكراهية في صفوف المسلمين . ولهذا لم يتمتع مروان بالجاذبية والتقدير بصورة عامة حتى في الاوساط الاموية [1] . غير انه تفوق على نده خالد بالشيخوخة والتجربة [2] حيث اعتبر مؤهلا للحكم في ظروف استثنائية قاهرة .

عمرو بن سعيد بن العاص (الاشدق) : وكان ابوه احد كبار الولاة في عهد معاوية فضلا عن عثمان في وقت سابق . ولقد جمع بينه وبين

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ١/١٦٠ — ١٦١ . المقريزي : النزاع والتخاصم ص ٣٨ . بليابيف : العرب والاسلام والخلافة العربية ٢٢٦ .

(٢) ابن طباطبا : الفخري ١١٩ .

هذا الأخير الانتماء الى فرع واحد من الأسرة الاموية . بيد أن موقعه كمرشح كان الاضعف بين الثلاثة ، فهو لم يحظ بالدعم المطلوب من الحزب اليمني والبيت الاموي . وما لبث التنافس أن حصر بين خالد ومروان واستبعد اسم عمرو بن سعيد من التداول .

أما الحزب القيسي فكان من البديهي بعد اختلال المعادلة ، ان يختار الموقع الاخر ، المنافس للامويين وحلفائهم ، الخصوم التقليديين للقبائل القيسية . وكانت ثورة ابن الزبير قد اصابت من التقدم حدا جعل المراهنة على نجاحها أمرا لا يحتاج الى المناقشة . فتحالف مع زعيمها المتعاطف بحكم البعد الجغرافي لثورته ، مع القيسيين . وما لبث ان بعث ابن الزبير الى حليفه الضحاك عهدا بتعيينه ممثلا له في الشام [1] .

وفي المؤتمر اليمني الذي عقد في (الجابية) [2] برئاسة حسان بن مالك (ذي القعدة ٦٤ هـ)، كان مروان الأوفر حظا في مسار الجدل الذي انتهى لمصلحته وسمي خليفة بالاجماع . غير أن الكلبيين الذين كانوا عصب المؤتمر ، خرجوا بترضية معنوية ، حيث سمي مرشحهم خالد وليا للعهد بعد أن حالت حداثته في أن يفوز بالخلافة[3]. نجح اذن التحالف الاموي ـ اليمني في التقاط المبادرة وتوحيد الموقف السياسي من مشكلة الحكم . غير أن التحالف الزبيري ـ القيسي كان قد قطع شوطا في التنسيق القبلي والاستعداد العسكري، بحيث أصبح

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ٢/ ١٤ .

(٢) قرية في نواحي الجولان على مسيرة يوم الى الجنوب الشرقي من دمشق . مروج الذهب ٣/ ٨٥ . لامنس Lammens دائرة المعارف الاسلامية ٦/ ٢٣٣ .

(٣) ابن الاثير ٤/ ٧٣ .

قوة صعبة المنافسة • فقد التام بدوره في (مرج راهط) [1] حيث عقد كبار القاده القيسيين (الضحاك بن قيس الفهري، زفر بن الحارث الكلابي، نائل بن قيس) مؤتمرهم الذي اسفر عن تأييد ابن الزبير [2] •

وهكذا تبلورت المواجهة بين الطرفين . واسفر الصراع عن وجهه فاذا هو قبلي في المضمون سياسي في الظاهر • فالحرب الدموية التي اندلعت في مرج راهط كانت في الحقيقه محاكاة لأيام العرب في الجاهليه ، حيث العصبية تعدت كل الاعتبارات وتجاوزت مختلف المقاييس بما فيها المصلحة العامة للقبيلة • لقد كانت مرج راهط من خلال هذا المفهوم ، حرب القبائل في الشام من أجل النفوذ والسيادة والامتيازات • ولعل نتائج الحرب جاءت وكأنها انقلاب مضاد سجله التحالف الاموي ـ اليمني ، بحيث أخرج الخلافة من مأزقها العسير واعاد الامور تدريجيا الى حجمها التقليدي • فقد سجل هذا التحالف انتصارا باهرا على الحزب القيسي ، وقضى على عدد من قادته ، بينهم الضحاك بن قيس أحد أقوى زعمائه •

ومن المؤكد أن هزيمة القيسيين في مرج راهط (٦٥هـ/٦٨٤م) تلقى في كثير من تبعاتها على ابن الزبير ، حيث جاء دعمه العسكري لحلفائه متأخرا ، وفوت عليه مرة اخرى الفرصة النادرة في اثبات وجوده وراء الحجاز • في هذا الوقت دافع اليمنيون بشراسة عن مواقعهم السياسية في الشام ، وأثبتوا بتلاحمهم ، أنهم القوة الأكثر كفاءة من القيسيين على مواجهة التحديات والقضايا المصيرية • كذلك فان الاسرة الاموية ، ظلت أفضل من يمثل مصالح التيار الارستقراطي ، حيث تكتلت قواه الرئيسية

---

(١) قرية غير بعيدة عن دمشق. سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية ص ١٠٠ .

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ٤/٧٤ .

لدعمها سياسيا وقبليا واقتصاديا . وفي المقابل فشل ابن الزبير في استقطاب هذا التيار اذ كانت تنقصه المبادرة في العطاء وتوزيع الأموال على غرار الامويين • كما فشلت ثورته لخلوها من المضامين الاصلاحيةفي أن تتحول الى حركة شعبية مبرمجة ، تستهدف التغيير لصالح الجماهير العريضة ، التي فقدت كثيرا من مكتسباتها في هذا العهد • وهكذا فان ابن الزبير ، لم ينجح في أن يكون البديل الطبيعي للارستقراطيةالسياسية والقبلية ، وكذلك تخلفت ثورته عن مواكبة التطورات الاجتماعية الملحة، فاكتفت بالتقوقع داخل اطارها الاقليمي والسياسي الضيق •

وكان اول ما سجلته (مرج راهط) من نتائج ، هو استمرارية النظام الأموي الذي استعاد رغم التحديات حجمه التقليدي ، ومعه طاقاته الجديدة ، ليحقق النقلة الخطرة من مرحلة التأسيس المضطربة الى مرحلة استقرار الدولة وانتشارها المذهل • ذلك ان مروان بن الحكم الذي اعتبر مؤسس هذه الدولة : نجح في تحويل الخلافة الى البيت الآخر من الأمويين ، وهو الذي عرف بالمرواني نسبة اليه • فهو لم يكن مبادرا فقط الى خرق معاهدة الجابية التي نصت على أن يكون خليفة لمرحلة انتقالية ، يعاد بعدها الحكم الى السفيانيين ، ولكنه عمد الى ارساء وراثية الخلافة في بيته ، متجاوزا التقليد السائد الى تعيين اثنين من ابنائه لولاية العهد [1] • ويبدو انه اراد بذلك تطويق أية تجربة مماثلة للمحنة التي نزلت بالاسرة الاموية قبيل توليه الحكم •

غير أن النهج العام للسياسة الاموية لم يطرأ عليه تعديل ما ، باستثناء التغييرات الادارية التي اهتم بها عبد الملك ، ثاني خلفاء البيت المرواني •

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ١٧/٢ •

وباستثناء المد التوسعي الذي بلغ مداه في عهد ثالثهم الوليد ؛ فقد ظلت علاقة الدولة بجماهيرها غير الشامية ؛ متشنجة وقائمة على القسع ومن ثم متجاهلة مصالح السواد الأعظم من الناس . سواء في المشرق حيث كان العراق البؤرة الثورية المتدفقة . أو في المغرب الذي كان مسرحا لأعنف الحركات المسلحة . التي تفجرت بفعل المنطق الفوقي والاستئثاري وهو الطابع المميز لسياسة الولاة الامويين بصورة عامة [1] .

ومن ناحية أخرى فان تنائج مرج راهط . لم تكن مجرد هزيمة عسكرية للحزب القيسي ، بل كانت منعطفا غير عادي في حياته السياسية، وظلت في ضميره تستسقي الحقد والكراهية ؛ حتى مع اختلاف المكان والزمان ، ضد الحزب اليمني المنتصر . فهذه المعركة لم تبعد القيسيين عن السلطة فقط . بل أفقدتهم حتى بعض الامتيازات التي تمتعوا بها أثناء زعامة الضحاك ؛ كما أنها ضيقت أمامهم سبل التقارب من السلطة . وفي ما عدا فترات من هذه الأخيرة ، كانت السياسة الداخلية للخلفاء يمينية في الطابع العام . ولا نستطيع أن نقوّم خارج هذه الرؤية بروز عدد من رجالات القيسية الكبيرة من أمثال الحجاج بن يوسف ، الذين احتلوا موقعا غير عادي في السياسة الأموية . فهؤلاء لم يمسوا المعادلة القائمة ؛ اذ أنهم كانوا أشباحا لخلفاء أقوياء ، يتأثرون بانتماءاتهم ويلتزمون بمواقفهم مهما تعارضت وهوياتهم الخاصة .

وهكذا فان الحزب القيسي ، كان اقل انفتاحا بحكم تراث البيئة

---

(١) دوزي : تاريخ مسلمي اسبانية ١٣٩ .

وعزلتها السياسية ، من الحزب اليمني الذي أدرك مبكرا تجربة الدولة ومفهومها الحضاري . ان هذا الحزب بعد هزيمته في مرج راهط جنح الى التطرف في علاقاته السياسية والقبلية ، حيث نظر اليها كمفترق في تاريخه ، حال بينه وبين السلطة أو ابعدها عنه . وفي الحكم لم تختلف رؤيته هذه ، حيث انعكست رواسب الحرمان والحقد على سلوكه بشكل سافر [1] .

---

(١) ابراهيم بيضون : الدولة العربية في اسبانية ٢٠١ .

التوّابون وعقدة الشعور بالذنب

كان العراق . وهو المعني الرئيسي بمأساة كربلاء ، الاقليم الاكثر تشنجا من احداثها كأسباب ونتائج وتفاعلات • فالكوفة وهي مسرح المعارضة السياسية ، كان الحزب الشيعي فيها يجتاز أزمة التقصير والشعور الفادح بالاثم • فقد أجهضت ثورتها بانقلاب مضاد من السلطة الاموية : وانتهى الحسين مع جماعته الى مجزرة دموية ، دون أن يتاح لهم دخول المدينة • ومن ثم كانت الحملة القمعية التي قادها عبيد الله بن زياد واستهدفت زعماء الحزب وقادته ، بحيث أن شبح كربلاء كان حاضرا في كل ملامح الكوفة وتطوراتها • فالموقف اذن كان يفرض نوعا من المحاسبة العفوية للذات ويتطلب مبادرة ما ، تخفف أثقال الخطأ وخيانة الالتزام بالكلمة •

غير أن الاجواء السياسية في الكوفة ــ في وقت كان التشنج أيضا هو المحرك لقرارات السلطة الأموية ، في أعقاب اهتزازها تحت وطأة النتائج التي أسفرت عنها كربلاء ــ لم تكن مشجعة لأية مبادرة ثورية • فعلى المستوى الشعبي حالت اجراءات الملاحقة دون تحقيق التعبئة المطلوبة، حتى أن القيادات في الحزب الشيعي كانت ترى أن التحرك في مثل هذه الظروف ، هو في غير أوانه واقرب الى المغامرة منه الى الثورة .أما على المستوى الرسمي فان الحكم الأموي بقبضته الحديدية في الكوفة ، كان في موقع لا يحول شيء بينه وبين العنف، كطريقة أجدى لفرض هيبته ومنع الانفجار •

وهكذا فانه رغم الالحاح علـى اتخاذ موقف تصحيحي ، لاعادة الاعتبار المعنوي للحزب الشيعي في الكوفة ، فان عقبات حالـت دون تحقيق هذا الهدف ، كما سبق أن أشرنا • ولعل اكثر الاسباب وجاهـة في هذا المجال ، تتعلق بانعدام التجانس والموقف الموحد لهذا الحـزب حيث تنازعته اتجاهات مختلفة: ١ ـ فريق نخبوي متطرف ومعظم عناصره من المخضرمين والمتقدمين في السن ، الذين تحمسوا «لغسل آثامهم» في هذه المرحلة المتأخرة من حياتهم • وهؤلاء هم التوابون حيث نحن فـي صدد الحديث عنهم • ٢ ـ فريق نخبوي أيضا وهو يمثل الجيل المتأخر من الحزب بأكثريته الشابة ، وهو أكثر واقعية في خطه السياسي المبرمـج وتحركه المدروس لاستلام الحكم ، أي أن القضية برأيه تتعدى الانتقام ، محور تحرك التوابين • ٣ ـ فريق انتهازي متذبذب وهو الأقرب الـى التعاون مع السلطة القائمة ، وكان يتخذ مواقفه على ضـوء الاعتبارات المصلحية، مع المحافظة على هويته الحزبية الظاهرة• تلك هي أهم الاتجاهات بمواقفها المتنافرة في الحزب الشيعي بعد القضاء على ثورة الكوفة ، دون ان ننسى بقية القوى السياسية المتحالفة مع السلطة ، وهي لم تعدم دورا في تفشيل خطط المعارضة وعرقلة تحركاتها الثورية ، وذلك مـن منطلق الحـرص على امتيازاتها التقليدية غيـر المتناقضـة في كـل الاحـوال مع الارستقراطية الحاكمة •

بدأت الفكرة كهاجس انتقامي من النفس ومن المسؤولين عن مقتل الحسين في آن • وقد عاشت أولا في ضمير خمسة من الزعماء المسنين ، الذين رافقوا نضال الحزب الشيعي منذ بداياته وهم : سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجبة الفزاري وعبدالله بن سعد بن نفيـل الأزدي

وعبد الله بن وال التميمي ورفاعة بن شداد البجلي [1]. وقد اجتمع هؤلاء منزل كبيرهم سليمان الذي وصف بأنه «صحابي جليل» [2]، ولهذا دلالة على أنه بلغ من العمر حدا متقدما ، حيث ساعد ذلك على تصدره لهذا الاجتماع ومن ثم تزعمه للحركة التي انبثقت عنه في وقت لاحق . وكان موضوع التوبة [3] والغفران هو الذي استأثر بلقاء الخمسة الشديد السرية ، اتقاء لشرطة الحاكم الأموي . فقد نظروا الى أنفسهم كمساهمين في مأساة الحسين وذلك بتقصيرهم عن نصرته وخذلانهم له ، ولا بد من تصحيح الخطأ ومسح الذنوب بعمل ما ، وهو الذي عبر عنه زعيم الحركة بقوله « انه لا يغسل عنهم ذلك الجرم الا قتل من قتله أو القتل فيه » [4] .

ولقد دأب التوابون (وهو الاسم المقتبس من التوبة الذي غلب عليهم) على اجتماعاتهم السرية والدعوة الحذره في أوساط الحزب الشيعي طوال خلافة يزيد . ثم خرجت حركتهم الى العلنية في أعقاب التطورات المثيرة التي عصفت بالدولة الأموية ، من فراغ الحكم في دمشق وانتشار الثورة الزبيرية في العراق ، فتمردت البصرة على حاكمها ابن زياد، ولحقت بها الكوفة لتطرد نائبه الأموي . واذ أعلنت الأولى ولاءها لابن الزبير ، ترددت الثانية في تحديد موقفها النهائي ، خاصة وان ثورة هذا الأخير لم تحظ بالعطف الذي لاقته في البصرة ، فهناك تناقض في الأفكار وفي النهج الثوري بينها وبين الحزب الشيعي . غير أن النفوذ الزبيري كان

---

(١) الطبري : ٤٧/٧ . ابن الاثير : ٧٨/٤ . ابن كثير ٢٤٧/٨ .

(٢) ابن كثير : ٤٧/٨ .

(٣) استمد التوابون شعارهم من الآية الكريمة : (فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم ذالكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم) البقرة ٢ . اليعقوبي : ٢٥٧/٢

(٤) المسعودي : مروج الذهب ٩٣/٣ .

أقوى من أن يقاوم، وما لبث الحاكم الذي اختارته الكوفة أن اعترف بالواقع وأعلن الولاء وهو أهون الشرين ، وحينذاك تبدل المناخ السياسي وتحسنت فرص النضال الثوري أمام التوابين • فانصرفوا الى تعبئة الأنصار في الكوفة وخارجها وجمع الأسلحة ، ومن ثم تحديد موعد التحرك [1] • وكانت (النخيلة) المعسكر الذي وقع عليه الاختيار، كمركز لاستقطاب المتطوعين في هذه الحركة •

غير أن اختلاف الظروف السياسية لم يفد الحركة التوابية الا بمقدار نسبي ضئيل • اذ أن أكثر من عائق تعثرت به وحال بينها وبين الاستجابة الشعبية العريضة • فهي كثورة كانت خالية المضمون من أي طرح سياسي أو اجتماعي ، واقتصر برنامجها على الانتقام الذاتي ، بالاستشهاد في سبيل الحسين أو الثأر من قاتليه • فالمثالية المطلقة التي كانت طابع الحركة ، أبعدتها بصورة خاصة عن القيادات الشابة في الحزب الشيعي ، وهي لا يستهويها عادة هذا النوع من الحركات السياسية، التي يقتصر مضمونها على التضحية والغفران• فقد وجد هذا الاتجاه التغييري ضالته أو بعضها في شخصية ذكية برزت على مسرح الأحداث ، محاولة قطف ثمرات التعبئة النفسية والموقف المشحون ضد الأمويين، مستغلة الفراغ القيادي في الكوفة، كان يشاها المختار بن أبي عبيد الثقفي [3] الذي التصق مع مطلع حياته بالحزب الشيعي وتحمس له • ولم تكن قناعات المختار الهادف الى تحقيق دور خاص له تحت مظلة الحزب ، متجانسة مع الأفكار التوابية ، الا في الثأر للحسين • وما عدا ذلك فقد شن حملة دعائية ضد التوابين واصفاً حركتهم بالسذاجة ، متهما زعيمهم بقصر النظر وعدم الكفاءة لقيادة الثورة

---

(١) ١٥ ربيع الثاني ٦٥ هـ/١٩ تشرين الثاني ٦٨٤ م•
(٢) قرية تقع الى الشمال الغربي من الكوفة .
(٣) ابراهيم بيضون : التوابون ص ١٠٦ ، ١٧٠–١٧١ .

الشعبية [1] . واذا فشل المختار في أن يكون البديل القيادي لسليمان ، فانه نجح الى حد ما في حملة التشكيك التي ساهمت بدورها في تحجيم الحركة وتقليص الاستجابة الشعبية حولها . وما لبث أن تحول من ناقد متشكك الى مؤيد مشجع ، لاعتقاده أن غياب التوابين عن المسرح السياسي سيمنحه الفرصة الأفضل لتحقيق طموحه .

أما الموقف الزبيري من الحركة ، فكان أقرب الى التأييد غير المباشر . فقد جمعت الطرفين خصومة الأمويين ، وأي تحرك يستنزف قوى العدو المشترك ، هو بالضرورة في خدمة المصالح الزبيرية . بيد أن عبدالله بن مطيع حاكم المدينة حينذاك ، كان مخلصا في تنبيه التوابين الى خطر المغامرة ، ودعوتهم الى البقاء في الكوفة [2] لصد الهجوم الأموي ، حيث كان عبيد الله بن زياد قد خرج من دمشق على رأس جيش كبير ، مستهدفا العراق تنفيذا لأوامر الخليفة الجديد مروان بن الحكم .

وفي الموعد الذي حدده التوابون لخروجهم الى معسكر النخيلة كان عددهم دون الأربعة الاف . وهو الرقم النهائي الذي استقر على التزامه ، رغم الشعارات الحماسية [3] والاستعراضات المسلحة [4] في أسواق الكوفة وأحيائها . وكانت المحطة الأولى في مسيرتهم الانتقامية

---

(١) ابن الاثير ٧٢/٤ .

(٢) الفتوح لابن الاعثم الكوفي في مخطوطة اسطنبول ص ٢٦٠ .

(٣) « من اراد التوبة فليلتحق بسليمان ، من اراد الجنة فليلتحق بسليمان في النخيلة . من اراد البكور الى ربه والتوبة من ذنبه والوفاء بعهده » . الفتوح لابن الاعثم الكوفي مخطوطة اسطنبول ٢٦٠ . الطبري ٧٦/٧ .

(٤) ابن الاثير ٨١/٤ .

في كربلاء حيث كان تجمعهم حول قبر الحسين عبر تلك الصورة المأساوية ، جزءا من التحرك الذي حان تنفيذه • فهو بمثابة عهد تكرسوا له بملء ارادتهم وعزمهم ، وموقف رهيب تعايشوا فيه مع أجواء التضحية والاستشهاد • وبعد ليلة من البكاء ، كان الغضب قد أخذ منهم حتى العمق ، فقرروا السير الى دمشق ، لأنهم وجدوا أنه الطريق الأجدى لتحقيق الانتقام ، حيث كبار المتهمين ومعهم النظام ، المسؤول الرئيسي ، بينما سقط الاتجاه الذي يدعو الى تعقب الأفراد ، المشاركين في قتل الحسين ، لأن هؤلاء في رأيهم كانوا فقط الأداة التي نفذت أوامر السلطة المركزية •

وفي قرقيسيا [1] مدينة الزعيم القيسي زفر بن الحارث الكلابي كانت محطة التوابين التالية ، فكان لهذا الأخير موقف ايجابي منهم • غير أنهم اكتفوا بالتزود بما يحتاجون اليه من المدينة ، رافضين نصيحة الزعيم القيسي بالعدول عن قرارهم الانتحاري أو الاعتصام معه لمجابهة القائد الأموي ، وذلك شأن الحاكم الزبيري في الكوفة [2] • ثم مضوا الى مصيرهم فالتقوا بالجيش الأموي في (عين الوردة) [3] وخاضوا معركة بطولية رائعة ، أسفرت عن تدمير التوابين ومقتل زعمائهم باستثناء رفاعة بن شداد الذي تراجع بالبقية القليلة منهم الى الكوفة [4] •

---

(١) البصيرة حاليا في سوريا وهي تقع على مصب نهر الخابور وكان قد استقر فيها زفر بن الحارث الكلابي اثر هزيمته في مرج راهط . راجع التوابين (هامش) ص ١٤٠ .

(٢) الطبري ٧/٧٢ــ٧٤ . الفتوح لابن الاعثم الكوفي (مخطوطة) .

(٣) الى الشمال الغربي من صفين .

(٤) الطبري : ٧/٧٥ .

ومن البديهي أن حركة التوابين كانت حاملة معها بذرة الفشل ، لعجزها عن اقامة توازن عسكري ضد أعدائها الأمويين الذين استهدفتهم حيث لا زالوا يملكون التفوق • الا انها كحركة تكفيرية في الصميم لا تخلو من خلفيات سياسية غير مباشرة ، نجحت في تحقيق البديل الممكن لطرحها وهو الانتقام الذاتي • أما دورها في اطار حركة النضال الشيعي في الكوفة ، فلم يخل من تأثيرات ايجابية ، اذ تركت وراءها مناخا مثاليا للتحرك ، وتعبئة جماهيرية عريضة سيسهل استثمارها لأية حركة مستجدة • فقد سجلت بدون ريب نقطة تحول خطيرة في مسار المعارضة الشيعية ، بحيث أصبحت الكوفة مركز الاستقطاب الدائم ومحور النضال السياسي والمسلح ، المناهض للامويين ، نحو ما يزيد على النصف قرن من الزمن •

الانقلاب الشيعي في الكوفة

لقد نجح المختار الثقفي ، أحد كبار مناضلي الحزب الشيعي في استثمار المناخ الثوري في الكوفة الذي تبلور مع تحرك التوابين . فقام بانقلابه السريع وسيطر على دار الامارة باسم العلويين ، محققا أحلام حزبه في السلطة لأول مرة منذ أن تنازل الحسن قبل ربع قرن من الزمن. والمختار منذ طفولته وهو متحمس لهذا الاتجاه ، فقد نشأ في بيت متعاطف مع العلويين مشبع بالاخلاص له ، حيث كان صاحبه سعد بن مسعود الثقفي — عم المختار — عاملا لعلي على المدائن [1] . ومن هذه الأخيرة تنطلق مسيرة الشاب الطموح في الحياة السياسية، وأبرز ملامحه خاصتان متلازمتان : الاتجاه الشيعي ونزعة السلطة ، غير أنهما متلاحمتان بالضرورة ، فغالبا ما كانت الأولى مرتهنة نسبيا للثانية . وكان المؤشر الأول لهذه الحقيقة في المدائن أيضا مع بواكير نشاطه السياسي ، حين فكر بصفقة كبيرة ، وهي القبض على الحسن وتسليمه الى معاوية [2] . ومن هنا الى مؤشر آخر ، نجد استهواء السلطة يفوق أي هوى في شخصية المختار . فلم يتردد في الالتحاق بثورة ابن الزبير في مكة من خلال الرؤية ذاتها ، دون أن يجمع بين الرجلين أي قاسم مشترك عدا الطموح السياسي .

---

(١) ابن الاثير : ٣/٢٠٥ .
(٢) المصدر نفسه : ٣/٢٠٥ .

بيد أن شهوة السلطة لم تلغ الانتماء السياسي للمختار، المتعاطف مع المعارضة الشيعية حيث اعتبر احد زعمائها البارزين • وهو منذ تحرك الحسين واسمه يتردد في دائرة التحرك الثوري العام ، التي اتخذت مسرحها في الكوفة بشكل خاص، فكان اول زعيم يلتقيه مسلم بن عقيل: موفد الحسين للاطلاع على الموقف السياسي في المدينة . وقام بدور هام في التعبئة الشعبية في الكوفة عشية خروج الحسين . بلغ حد التصادم المسلح مع ابن زياد • ثم انتهى به الامر سجينا في معتقل هذا الأخير مع بقية الزعماء [١] • وبعد الافراج عنه عاش وقتا في الطائف ــ مدينة الثقفيين ــ اذ يبدو أن اطلاقه كان مشروطا بالابتعاد عن العراق [٢] • وفي الحجاز خاض المختار تجربة فاشلة في التحالف مع ابن الزبير ، مما حمله على الاقتناع بأن الكوفة هي الأرضية المناسبة لبناء آماله السلطوية • فعاد اليها بعد موت يزيد ومعه شعار الثأر للحسين ، في محاولة لاستقطاب جماهير الحزب الشيعي ، الذي افتقد الشخصية القيادية المحركة بافتقاد زعيمه في كربلاء • ولكن المختار يجد في الكوفة من سبقه الى طرح هذا الشعار وهم التوابون، الذين نجحوا كتنظيم سري متين منذ مقتل الحسين ، في استقطاب النخبة الشيعية ، وتعبئتها ضد السلطة الاموية وممثليها في العراق • ولم يكن ثمة مجال للتنسيق رغم وحدة الشعار بين الطرفين • فالحركة التوابية تطرفت في مثاليتها السياسية بينما المختار تجاوز بطموحه الهدف التكفيري الى استلام الحكم • ومن الواضح أن الظروف كانت مهيأة أمام هذا الرجل لاتخاذ دوره المنشود ، فالحكم المركزي فقد بريقه مع محنة الخلافة الاموية ، من الفراغ الى التشرذم ومن ثم الى التحدي الكبير في ثورة الحجاز • أما السلطة المحلية

---

(١) ابن الاثير : ١١/٤ . الطبري ٢١٥/٦ .

(٢) أطلق سراحه بناء على وساطة صهره عبدالله بن عمر .

في الكوفة فكان ارتباطها بهذه الاخيرة واهيا ومحدودا . واقتصر على الموقف الرسمي فقط لتسويغ الخروج من الاطار الاموي • وفي نفس الوقت لم يأبه المختار لفشله في استقطاب التوابين ، لان القوة الحقيقية للحزب الشيعي في الكوفة كانت لا تزال خارج النطاق الاستقطابي ، وتبحث بدورها وسائل التحرك الجدي • هذه القوة نفسها هي التي راهن على قيادتها المختار ، منذ أن تطلع الى الكوفة كأرضية مثالية لتحقيق طموحه السياسي • ولقد حاور حينذاك أحد أبرز القيادات في الحزب الشيعي وهو ابراهيم بن الأشتر [1]، وكان أشد أعداء الأمويين تطرفا ، ولكن مع رؤية واقعية خاصة ، تتناقض حكما مع أفكار التوابين • غير أن الزعيم الكوفي القوي الذي غاب اسمه عن تحركات هؤلاء ، فانه لم يتحمس كذلك للتعاون مع المختار ، حيث ارتاب منذ البدء في اخلاصه للقضية العلوية • ولعله وجد فيه مجرد انتهازي يتسلق الموجه وراء مصالحه الشخصية ، ذلك أن التحرك الثوري حسب رأيه كان بحاجة الى تقويم آكثر عمقا للامور • ولا بد أنه كان على جانب من الموضوعية في استنكافه عن الاستجابة لحركتي التوابين والمختار ، اذ وجد في الأولى تحركا انفعاليا في غير أوانه ، بينما وجد في الثانية نوعا من الاستثمار الشخصي لتراث الحزب النضالي ، وفي كلتاهما استنزاف للطاقات الشيعية لن يخدم سوى مصالح الامويين فضلا عن ابن الزبير •

وفي الوقت الذي خرج فيه التوابون الى قدرهم في عين الوردة ، كان المختار الثقفي مرة اخرى وراء قضبان السجن • فقد كان ابن الزبير ، الحليف السابق ، اكثر الناس ارتيابا بهذا الرجل ، حيث خبره عن كثب ، كما أن جماعته من الكوفيين حذروه من نشاطه المكثف ودعوته الدائبة

---

(١) ابن الاثير ٤/١٠٥ •

الى تكتيل الحزب الشيعي تحت زعامته [١] . ولكن الفرصة تعيد نفسها، ويغادر المختار سجنه بعد تدخل صهره لدى ابن الزبير بالشروط نفسها أيضا . وهي الابتعاد عن العراق [٢] . غير أن القرار بقي بدون تنفيذ . فهو لم يشا افتقاد فرصته الأخيرة، بعد القضاء على التوابين، وما انعكس من تشجنج على آجواء الكوفة . ولم يعدم تسويغا لاخلاله بالعهد الذي التزم بتنفيذه : « ما احمقهم حين يرون أني أفي لهم بأيمانهم هذه ، اما حلفي لهم بالله فانه ينبغي لي اذا حلفت على يمين فرأيت ما هو خير منها أن أدع ما حلفت عليه وآتي الذي هو خير وأكفر يميني ، وخروجي عليهم خير من كفي عنهم » [٣] .

وقبل ان يتحول المختار الى هدف لملاحقة الشرطة ورصد اخباره، بادر فورا الى التحرك حيث ان الوقت لم يعد حليفه الدائم . وكانت خطة ذكية ان يفاجيء الناس حينذاك باعلان برنامجه السياسي بالنيابة عن محمد بن علي (ابن الحنفية) الذي أصبح بعد أخويه الحسن والحسين ، الزعيم الأقوى في البيت العلوي ، حيث زعم المختار بانه يحمل وثيقة بالدعوة له في الكوفة [٤] . على انه رغم المداهمة الناجحة والتأثير السريع الذي لقيته في أوساط الحزب الشيعي ، فقد ظهر من ارتاب في هذا الزعم ومدى صحة العلاقة بين المختار والزعيم العلوي . وكان في طليعة المرتابين به ، ابراهيم بن الاشتر ، الذي انتدب وفدا للاتصال بابن الحنفية ، حيث كان يعيش تحت المراقبة في الحجاز ، شأن معظم الزعماء الذين لم يطمئن لهم ابن الزبير [٥] . ولكن محمد بن

---

(١) الطبري : ٦٥/٧ .
(٢) نفسه : ٩٤/٧ .
(٣) نفسه : ٩٤/٧ . ابراهيم بيضون : التوابون : ١٦٩–١٧٠ .
(٤) اليعقوبي : ٢٥٨/٢ . الطبري ٦٤/٧ .
(٥) ابن الاثير : ١٠٥/٤ – ١٠٦ .

الحنفية الذي عاش المعاناة في ظل عهدين ، لم يختلف بينهما الاسلوب ، لم يجد ما يمنعه من تأييد المختار او التعاطف معه، ولكن بشيء من الحذر . ولعله في موقفه غير الحازم كان يخشى توتير العلاقة مع ابن الزبير ، وما يترتب على ذلك من نتائج سلبية قد تنعكس عليه وعلى الحزب معا، أو أنه وجد في المختار شخصية تتجاوز بطموحها دور الداعية الانضباطي والمخلص بكثير .

وهكذا جاءت التعليمات واضحة حسب رواية ابن الاثير [١] ، مسوهة في بعض الروايات الاخرى [٢] ، ولكنها في النتيجة حسمت الموقف لمصلحة المختار الذي اصبح فجأة سيد الموقف في الكوفة ، بعد القرار الحزبي بتأييده والاعتراف بزعامته . ولم يعد من الصعوبة بمكان، وقد اجتمعت الطاقات الشيعية تحت قيادة واحدة ، في السيطرة على الوضع في الكوفة . ولقد تم ذلك عبر انقلاب ابيض او كاد ، في الوقت الذي كان فيه قائد الشرطة في المدينة يتعقب مع رجاله آثار المختار ، فاصطدم بالقائد العسكري للحركة (ابن الاشتر) مما أدى الى مقتله على يد هذا الأخير [٣] . وكانت هذه الحادثة مؤشر الانتقال بالانقلاب الى طور التنفيذ وتقديمه يومين عن الموعد المحدد له (١٢ ربيع الاول ٦٦ هـ) . وبسرعة مذهلة تم الاستيلاء على الحكم بعد هزيمة الجيش الذي ارسله الحاكم الزبيري ، بينما غادر هذا قصره متخفيا ومتواريا عن الانظار [٤] .

(١) ابن الاثير : ١٠٦/٤ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية : ٢٦٥/٨ .
(٣) الطبري : ١٠٠/٧ . ابن الاثير ١٠٧/٤ .
(٤) نفسه : ١٠٣/٧ . ابن كثير : البداية والنهاية : ٢٦٧/٨ .

لقد نجح الانقلاب الشيعي في الكوفة بقيادة المختار الثقفي ومعه الطموح الى استلام الحكم ، لأول مرة منذ تنازل الحسن عن الخلافة ، وذلك بالقليل من التضحيات • ولو شئنا تقويم هذا النجاح الذي استأثر به المختار دون غيره في تلك الفترة ، لوجدنا مجموعة من العوامل تكاملت مع بعضها وهيأت المناخ المناسب لهذا الانقلاب السياسي •

١ ـ الارضية الملائمة حيث العواطف ثائرة والنفوس مشحونة ، في وقت كانت النخبة المتطرفة من الحزب الشيعي تلقى مصيرها الذي اختارت، عبر عملية انتحارية كان لها صداها المأساوي في المجتمع الكوفي • ومن ناحية آخرى لم يكن الحزب الزبيري قد اخذ مواقعه السياسية المدعمة بالحضور العسكري المكثف ، بل كان لا يزال معتمدا وجهة النظر الهادفة الى تطاحن الحزبين الأموي والشيعي ، وما يترتب على ذلك من استنزاف لهما يكون هو المستفيد الأول من نتائجه •

٢ ـ الشخصية القيادية البارزة التي تمتع بها المختار ، في وقت غابت عن الكوفة الزعامة السياسية القادرة على توحيد التيارات المختلفة في الحزب الشيعي ، ومن ثم التأثير في الأحداث المتلاحقة • ولا نهمل أيضا المرونة والدهاء ، ابرز صفات السياسي الناجح ، وكذلك اتقان المناورة والاحتفاظ دائما بأوراق غير مكشوفة لاستخدامها في الوقت المناسب •

٣ ـ الطرح الاصلاحي الجديد في فكر المختار ، كان المدخل الاستقطابي لجماهير الحزب الشابة التي تستجيب عادة لطروحات التغيير

وكذلك للفئات المسحوقة غير العربية التي وجدت فيه المتنفس لتحقيق اهدافها في المساواة (١) .

٤ ـ فشل الحكم الزبيري في الكوفة ، في أن يكون البديل المقبول . فهو لم يضف الى سلفه أي تطوير في الممارسة أو في النهج العام، وكاد أن يكون استمرارا طبيعيا لهحتى في علاقاته المحلية والاعتماد على الارستقراطية القبلية ، واستخدام بعض من شارك في كربلاء (٢) ، أي المجموعة نفسها التي تعاون معها النظام الاموي في السابق .

هذه هي ابرز العوامل التي اسهمت في نجاح الانقلاب الشيعي والسيطرة على الحكم في الكوفة . ولكن متاعب المختار الجدية كانت بعد الانقلاب ، حيث فشل في تحويله الى ثورة مستكملة فيها الأطر الشعبية والتنظيمية ، ولعلها الثغرة الرئيسية التي لم يقدر على معالجتها وسد فراغها. ذلك ان التلاحم الشيعي وراء المختار كان مرحليا ومصطنعا، لا سيما وأن المجابهة على اختلافها ، كانت مقلقة وغامضة . فالاحتفاظ بالسلطة وسط تلك الدائرة المتوترة ، كان مصحوبا باخطار محلية وخارجية محدقة . ففي الداخل كانت الارستقراطية القبلية المتذبذبة ، تشق الانسجام الكوفي وتملك القدرة المعنوية والمادية على اثارة المشاكل ضد المختار ، واتخاذ نفسها معبرا للطرف المنتصر الى الكوفة . وفي الخارج كان الجيش الاموي الكبير بقيادة عبيد الله بن زياد قد

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٧٠/٨ .

(٢) من هؤلاء : شمر بن ذي الجوشن وقد كان بارزا في شرطةالحكم الزبيري في الكوفة . ابن الاثير : ١١٠/٤ .

واصل طريقه نحو العراق بعد القضاء على التوابين في (عين الوردة)[1]، ولا بد ان تكون الكوفة هدفه المباشر لاعتبارات سياسية وجغرافية كذلك • وبين متاعب الجبهة الداخلية والتهديد الأموي ، كان خطر ثالث لا يقل شراسة يتربص المختار وهو الحزب الزبيري ، الدي لا يزال القوة الرئيسية في العراق •

وكان لا بد من التفرغ وتكتيل الجهود أولا لصد الهجوم الاموي، فتوجهت فرقة من الكوفة لتأخير تقدم الجيش بانتظار استكمال العمليات الأمنية فيها ، قبل اتخاذ القائد العام (ابن الأشتر) طريقه الى تنفيذ المهمة الكبرى • وما كاد هذا الأخير يغادر الكوفة بالجزء الأكبر من القوة العسكرية ، حتى كانت الارستقراطية القبلية (الاشراف) تنفذ انقلابها المعاكس ضد حكومة المختار ، وهي مبادرة متوقعة ، حيث العلاقات معها بلغت حدا من الانهيار • فعلى الرغم من نجاح هذه الفئة في التأقلم مع النظام الحاكم ، بما يفيد مصالح الطرفين ، فان موقفها من انقلاب المختار كان عدائيا ومتشنجا ، وهو مبني بالضرورة على تعاطف هذا الأخير مع الاتجاه الاصلاحي المتناقض مع امتيازاتها التقليدية [2] • وهكذا لجأ (الاشراف) الى توقيت ضربتهم معتمدين على قوتهم الذاتية وعلى الدعم الزبيري ، دون ان يكون لدى المختار من القوة حتى الدفاعية لانقاذ نفسه • ولكن المناورة بقيت سلاحه المتفوق ، فاستدرج زعماء الانقلاب الى مفاوضات عقيمة، في الوقت الذي استدعى قائده ابن الاشتر للعودة الى الكوفة بالسرعة القصوى •

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٦٨/٨ .
(٢) الطبري : ١٠٩/٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم يأخذ قمع التمرد الأرستقراطي غير وقت قصير من المختار، حيث نجح قائده ومعه بقايا التوابين بقيادة رفاعه بن شداد في اخماده والقضاء عليه [1]. ثم عاد ابراهيم الى مهمته الاساسية ، فاشتبك مع الجيش الاموي في معركة طاحنة عند نهر الخازر ، اسفرت عن تدمير هذا الاخير ومقتل قائده عبيد الله بن زياد [2] . وحينذاك بلغ المختار قمة مجده السياسي ، في أعقاب اول هزيمة للامويين ومقتل أحد أبرز المسؤولين عن مأساة كربلاء، الامر الذي كان له صداه العميق والمؤثر في قواعد الحزب الشيعي وقياداته . غير أن الوصول الى القمة لا يعني الاحتفاظ بها ، ونشوة الانتصار الباهر لا تمسح المتاعب الكبرى . ومن المثير جدا أن تكون معركة الخازر مقرونة بغياب القائد الكبير ابن الاشتر عن مسرح الكوفة وبداية افتراقه عن المختار ، حيث بقي في الموصل متجاهلا الاخطار المحدقة بصاحبه . ويبدو أن هذا القائد كان يحتل ثقلا حينذاك في الحزب الشيعي ، فاذا به نقطة الضعف في انقلاب المختار . والحقيقة ان ثمة تناقضا بين الرجلين أخذ يتجلى منذ ظهور المختار في الكوفة ، داعيا الى الثورة باسم محمد بن الحنفية . ولقد بلغ الشك حينذاك بصحة هذا الزعم ، أن بعث ابن الأشتر موفدا الى الحجاز للتثبت منه على نحو ما أسلفنا . ذلك ان ابراهيم الذي ورث الالتزام المطلق بالتيار الشيعي من أبيه الأشتر ، أحد أبرز المقربين من علي ، لم يجد في المختار الزعامة المخلصة والقادرة على اقامة نواة الدولة المستقبلية ، وفقا للطرح السياسي والاجتماعي الذي اكتسبه بالفطرة وبالانتماء .

ومن المفترض كذلك أن يكون لدى ابن الأشتر تقويما موضوعيا

---

(١) الطبري : ٧/١٢٠ .
(٢) نفسه : ٧/١٤٤ .

عن المجابهة غير المتكافئة بين المختار وخصومه الأقوياء ، فأدرك استحالة المجازفة مع حليفه الضعيف ، والمراهنة على حكم شيعي فـي الكوفـة وسط هذا المحيط العدائي • وكانت المبادرة لا تزال في العراق على الاقل في قبضة ابن الزبير ، فتحالف ابراهيم مع اخيه مصعب من منطلق العداء للامويين •

وهكذا لم يكن المختار بعد قد أفاق من سكرة الفرح التي غمرته والحزب الشيعي ، بهزيمة الجيش الأموي ومطاردة المتهمين بقتل الحسين ، حتى وجد حكمه متهاويا بالسرعة نفسها التي صعد بها الى القمة • فقـد فوجيء بقوات مصعب بن الزبير حاكم البصرة، تشق طريقها الى الكوفة في ظروف غير مؤاتية عسكريا[١]• واتخذت الارستقراطية القبلية ــ حيث التجأ معظم زعمائها الـى البصرة بعـد انقلابهـا الفاشـل ــ دورهـا التحريضي والنفسي لمصلحة الجيش الزبيري المتفوق • وما لبث المختار أن تلقى أخبار الكارثة التي حلت بقواته في (حروراء) وتراجعها الى الكوفة• فخرج من قصر الامارة بعد اشتداد وطأة الحصار ومعه قـلة من رجاله، كانوا دون العشرين فخاضوا مقاومة بطولية انتهت بقتلهم جميعا [٣] •

لقد كان انقلاب المختار في الكوفة ، المحاولة الوحيدة الناجحة التي قامت بها المعارضة الشيعية لاستلام الحكم • وهي بدون ريب ثمرة نضال طويل من المعاناة في عهد معاوية ، وتضحيات جسيمة تنوجت بسقـوط الحسين مع جماعته في كربلاء ومن لحقهم من التوابين في عين الوردة • ومن البديهي ان الفراغ القيادي في الحزب الشيعي الـذي كان لا يزال

---

(١) سنة ٦٧ للهجرة . الطبري ١٤٦/٧ . تاريخ خليفة بـن خياط ٣٣٤/١ .

(٢) الطبري : ١٥٥/٧ ــ ١٥٦ .

يستجمع صفوفها لمزقة والملاحقة ، قد أعطى للمختار فرصته النادرة في اتخاذ المبادرة وقيادة هذا الحزب ، فسجل بذلك سابقة غير أنها لم تتكرر . ولعلها ثغرة أخرى مهمة في حسابات المختار الذي تبين أنها خاطئة ، وهي ان قاعدة الحزب الشيعي وقيادته كانتا لا تزالان وحتى اشعار آخر فـي موقع الرفض لأية زعامة غير علوية . ولقد رافقت هذه الحقيقة التحـرك السياسي والثوري لهذا الحزب حتى ما بعد سقوط النظام الأموي ،حيث الزعامة معقودة للعلويين . وهذه النظرية هي جزء من المفهوم العام للحكم عند الشيعة كما تبلور في وقت لاحق . فالأمام في المعارضة يقابل الخليفة في السلطة ، وهو الزعيم الذي يجمع بين دوره الديني وبين مهامه القيادية في السياسة .

الدولة الجديدة

عودة المركزية السياسية

اذا كان مروان بن الحكم قد انقذ الخلافة الاموية من السقوط ، فان عبد الملك ابنه (٦٥هـ/٦٨٥م) [١]، نهض بها من التشرذم الى الوحدة، واكتسبت في عهده ملامحها الخاصة كدولة ومؤسسة . ولقد كان الطريق الى السلطة حينذاك طويلا وشاقا ومزروعا بالألغام ، فالبيت الاموي لا زال منطويا على بعض خلافاته وتحاك فيه المؤامرات والدسائس[٢]، والخلافة ما انفكت بدورها خلافتين : احداهما أموية في دمشق والثانية زبيرية في مكة ، والجبهة الشمالية تخترقها الهجمات البيزنطية وتدفع معها الحدود الى الوراء [٣] . وفي خضم هذه الاحداث الخطيرة جاء عبد الملك رجل الدولة الجدي والمسؤول ، ومعه الارادة القوية لترميم النظام الأموي المتصدع وبناء دولة جديدة ومتطورة .

ومن الواضح ان هذا الخليفة كان متأثرا الى حد ما بسلفه معاوية خاصة في معادلاته القبلية التي اتقنها جيدا ، باقامة توازن بين الحزبين

(١) تاريخ خليفة بن خياط ٣٢٩/١ .

(٢) قتل مروان خنقا أو بالسم ، وتصفية عبد الملك لعمرو بن سعيد بن العاص المطالب بالخلافة . ابن قتيبة ١٥/٢–١٦–٢٤–٢٥ . الطبري : ٨٤/٧ و ١٨٧/٧ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب : ٩٨/٣ .

القيسي واليمني ، مع تعاطف نسبي نحو هذا الاخير • غير أن عبد الملك ربما كان أقل تأثرا بالنهج المكيافيلي منه، ودونه استخداما للغة الحوار ، وان كان من البديهي ان الاختلاف بينهما في الطابع والتكوين ، يعود في الغالب الى تأثير المرحلة السياسية ذات الوجهين المختلفين [1]• فطبيعة المرحلة التي عاصرت عبد الملك انعكست على شخصيته الحازمة وغير المترددة ، وهي سمات كادت أن تشمل الجهاز السياسي والاداري وحتى العسكري الذي تعاون معه ، فكانت الجدية الصارمة اكثر الملامح بروزا لذلك العهد •

كانت الجبهة الداخلية الهاجس الرئيسي لدى الخليفة ، حيث اولاها المقام الاول من اهتمامه وذلك عبر برنامج مرحلي منظم • ومن البديهي أن خلافة الحجاز كانت لا تزال العقبة الكأداء التي تحول دون استعادة المركزية السياسية لدولة الأمويين ، فكان التخطيط لضربها في مقدمة القرارات التي اتخذها عبد الملك• وبدا هذا الأخير واثقا من حسم الأمور بالشكل الايجابي، من خلال جهازه العسكري القوي الذي احتفظ بتفوقه وشدة تماسكه حتى ذلك الحين •

بيد أن الخليفة عندما اتخذ قراره بالقضاء على ثورة ابن الزبير ، لم يلجأ الى مهاجمتها مباشرة حيث معقلها الرئيسي في مكة • فقد وجد أن خطر الثورة الحقيقي هو في العراق ، حيث استسلم هذا الاقليم بكامله للسيادة الزبيرية ممثلة برجلها القوي مصعب ، وكان هـذا الأخير على عكس اخيه شخصية جذابة ، تتوافر فيها كل صفات الزعامة السياسية. ولذلك فان اخماد الثورة في العراق والقضاء على مصعب ، يؤدي حكما

---

(١) ضياء الدين الريس : عبد الملك بن مروان : ٢٩٢ .

الى اسقاط النظام الزبيري بكامله ، لأن عوامل الصمود في الحجاز تكون قد فقدت الكثير من فاعليتها وجدواها بخسارة الجناح الرئيسي للثورة. ومن ناحيةأخرى فان بقاء أحد جيوب الانقلاب القيسي الفاشل المتعاطف مع ابن الزبير ، في منطقة تكاد تكون حدودية بين العراق والشام ، وذلك باعتصام زفر بن الحارث في قرقيسيا ، كان مبعث قلق للخليفة من اتساع نفوذه ، حيث اصبح الزعيم القيسي الأقوى بعد مقتل الضحاك في مرج راهط .

وما لبث عبدالملك أن قاد بنفسه حملة العراق (٧١هـ/٦٩١م) ، بعد أن اجهضت حملته الأولى قبل بضع سنوات تحت وطأة العصيان الذي قام به نائبه في الخلافة عمرو بن سعيد [١]. ومن الواضح أن الجبهة الداخلية كانت قد تجاوزت مفترق الخطر ، بتصفية خلافات الأسرة الأموية وتضييق نطاقها . يضاف الى ذلك أن جبهة الحدود الشمالية ، كانت بدورها هادئة بفضل جهود مكثفة قام بها الخليفة ، ولكنه كان هدوءا مشروطا بدفع ضريبة مالية للامبراطور البيزنطي، وربما بتعديل سطحي على الحدود الشمالية لصالح هذا الأخير [٢] . لقد حسم هذا الخليفة اذن مختلف المشاكل ضمن الاطار الايجابي ، اذ أصبح نظامه من القوة بحيث باتت المراهنة على اسقاطه أمرا في غاية الصعوبة . ولعل كثافة الجيش الذي سار به الى العراق كانت تجسيدا لهذه الحقيقة ، فلم يستعد هذا الجيش حجمه العسكري القديم فقط ، بل اصبح أكثر تطويرا في تفوقه العددي وفي أساليبه القتالية . ولقد بلغ من ضخامته أن الحملة كانت تبدو

---

(١) ابن الاثير : ١٥٧/٤ . المسعودي : مروج الذهب : ١٠٢/٣ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ٩٨/٣ . بليايف : العرب والاسلام والخلافة العربية ٢٢٧ . دكسن : الخلافة الاموية ٢٠٠ .

متثاقلة بطيئة ، الأمر الذي استدعى تعيين قائد حازم على المؤخرة [١] • فكان أن وقع الاختيار على الحجاج بن يوسف الثقفي ، ليقوم بأولى مهماته الناجحة التي كانت بداية تألقه السياسي ، بحيث أصبح اليد القوية في نظام عبد الملك •

وفي قرقيسيا معقل زفر بن الحارث ، تجنب الطرفان الحرب بعد نجاح المفاوضات التي اسفرت عن معاهدة ، لم تحمل في مضمونها اكثر من تجسيد مرحلي للعداء بين الخليفة والزعيم القيسي • فقد التزم هذا الأخير بموقفه المبدئي من ابن الزبير بانتظار جلاء النتائج ، التي سينتهي اليها الصراع الأموي ـ الزبيري ، وذلك من موقع الحياد المطلق ، كما نصت شروط المعاهدة • ولقد اقتنع عبد الملك بهذا الحد الأدنى من العلاقة ، متجنبا استنزاف قواته في حرب جانبية ، ومسيطرا بحكمته على عصبية جنوده اليمنية، الذين تحركت فيهم غرائز القتال ضد أشد خصومهم في قرقيسيا• وفي المقابل أثبت الزعيم القيسي الخارج من حرب قبلية طاحنة، بعد نظره في التحاور مع الخليفة وحمله على المهادنة ، مع التزامه بالموقف الذي لم يشأ التحول عنه حتى في الساعات الحرجة •

وفي الطريق الى الكوفة ، كانت لدى الخليفة على الارجح الرغبة في متابعة الحوار الذي بدأه في قرقيسيا، وذلك في محاولة أخرى لحسم الامور بالوسائل غير الدموية • فأجرى اتصالات مع القيادات الكوفية المتحالفة مع ابن الزبير، لحملها على تغيير موقفها في الوقت المناسب• وكان بين هؤلاء ابن الأشتر الذي فضح هذه المحاولة وهدد قواده ، المتذبذبين في الولاء وحقر فيهم التحول السريع من موقع الى آخر [٢] • ولكن عبد

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٥/٢٥٥ـ٢٥٦ .
(٢) ابن الاثير : ٤/١٥٨ـ١٥٩ .

الملك رغم أنه لم يتوصل الى وقف المجابهة العسكرية ، فانه نجح الى حد كبير في تحجيمها ، بحيث أن الاكثرية من العراقيين المتحالفين مع مصعب حددت موقفها ، أما بالانضمام الى الجيش الأموي واما بالتحييد مجنبة نفسها عواقب هذا الصراع الذي تبلور لصالح الخليفة • وكان ابن الأشتر على رأس الذين التزموا بتحالفهم المصيري مع مصعب والاصرار على مقاومة الأمويين (١) •

كان القضاء على مصعب وحلفائه ، البداية الكبرى لنهاية الانقسام السياسي الذي عانته الدولة الاموية منذ سنوات عشر ، حيث سارت عملية استرجاع الخلافة الموحدة آخر اشواطها الصعبة • فلم يلبث الخليفة الظافر ان دخل قصر الامارة في الكوفة واعلن في خطابه تكريس نهجه في الحكم، الذي صرح عنه في دمشق بعد تصفية قريبة عمرو بن سعيد . وهو التأكيد على ضرب المنشقين على المركزية حتى المنتمين منهم الى اسرته الأموية •

وبعد سقوط الحكم الزبيري في العراق ، تقوقعت الثورة الحجازية بانتظار سقوطها المرتقب • فقد خسرت مقومات الاستمرار ماديا وعسكريا، كما فقدت آخر الفرص في منافسة النظام الأموي الذي استرد عافيته مع الخليفة القوي عبد الملك• ولم تعد المهمةفي الحجاز من الأهمية، بحيث يقوم هذا الأخير بتنفيذها مباشرة • فأرسل الحجاج، القائد الذي لمع في حملة العراق ، الى الطائف (٧٢هـ /٦٩١ م) لتكون نقطة تجميع المقاتلين قبل الهجوم على مكة (٢) • وقد يكون هدف الخليفة من اقامة هذا

---

(١) جرت معركة غير متكافئة عند دير الجاثليق في مسكن • ابن الاثير ١٥٨/٤ — ١٦٠ . المسعودي : مروج الذهب : ١٠٧/٣ .

(٢) ابن الاثير ١٩٠/٤ .

ابن قتيبة : ٢٧/٢ .

المعسكر ، هو استدراج ابن الزبير الى حرب استنزافية خارج المدينة المقدسة ، خاصة وانه حسب احدى الروايات التاريخية ، كان أشد المنتقدين للخليفة الأسبق يزيد ، حين قصف قائده الحصين الكعبة[1]. على أن المقاييس غالبا ما تتبدل بين داخل الحكم وخارجه ، فما كان مستنكرا قبل عدة سنوات لا يعدم تسويغا لدى الخليفة وقائده الحجاج. ذلك أن الحرب الاستنزافية التي شاء هذا بواسطتها تحطيم قوة ابن الزبير ، ما لبث أن دفع ثمنها الجيش الأموي بعد ستة أشهر من الحصار . وهكذا تتكرر الحادثة التي يتناقلها المؤرخون بشيء من الاحتجاج يستهدف خاصة الحجاج [2] . اذ أن ضغط الحصار الاقتصادي والاستنزافي الطويل ، وقذائف المجانيق التي تهافتت على المدينة المقدسة من جبل أبي قبيس ، كل ذلك أدى الى سقوط ابن الزبير الذي لم تخنه الشجاعة حتى في اللحظة الاخيرة من حياته ، واضعا النهاية الدموية لأخطر ثورة عرفتها دولة الامويين (٧٣هـ /٦٩٢م) .

لقد كانت أبرز عوامل الاستمرارية في ثورة ابن الزبير ، هي الاستغلال لعواطف المعارضة الواسعة ضد الخلافة الأموية . ولكن هذه الحركة بقيت البديل الأقل سوءا دون أن يطرأ تعديل ما على مواقفها ، التي بدت في كثير من الأحيان مشابهة لمواقف النظام الذي ثارت عليه . فالطموح السياسي والنزعة الى الحكم ، كانت المحرك الرئيسي لثورة عبدالله بن الزبير الذي وجد في نفسه تفوقا على يزيد ، كما وجد غيابا في الزعامة السياسية المعارضة ، الأمر الذي شجعه على التحرك واعلان خلافته من هذا المنطلق المحدود . فقد حظي بتأييد الحجاز ، الاقليم المنفي

---

(١) ابن طباطبا : الفخري ص ١٠٢ .

J. Périer : Vie d'AL – Hadjdjadj Ibn Yousof p. 39 .

(٢) ابن الاثير : ١٩٠/٤ – ١٩١ .

سياسيا والمهزوم عسكريا في (الحرة). وذلك من موقع رد الاعتبار لهذا الاقليم والعوده الى مركزه القديم المتألق. ولم يدن العراق بثوره المعارضه الثوريه ضد النظام الاموي، أقل تجاوبا من الحجاز في تأييد ابن الزبير رغم التفاوت بين البصرة المتحمسة والكوفة المتحفظة • وفي كل الاحوال كان العراق نقطه الثقل والدعامة الاقتصادية والعسكرية، لو أمكن الافادة منهما بالشكل المطلوب • ولكن زعيم الثورة تجاهل هذه المعطيات ، وجاءت علاقته مع المعارضة السياسية في العراق تفضح مجددا قصر نظره في رصد المناسبات المهمة • فهو يرفض الذهاب الى دمشق بعد وفاة يزيد ويفقد الفرصة الكبرى في السيطرة على الحكم المركزي ، كما يستنكف عن تعويضها عندما حانت له في العراق ، لاتخاذه محور نشاطه الاستقطابي في معركته المصيرية ضد الامويين • لقد آثر الاعتكاف في الحجاز وهو يفتقد الى كثير من الطاقات الاقتصادية والبشرية المتوفرة في العراق والشام ، كما فاته أن التحول الذي اصابته الخلافة ، بعد حركة الانتشار الواسعة في المشرق وافريقية ، قد انتزع تلقائيا الدور المركزي الذي تمتع به الحجاز في الخلافة الراشدية ، فاذا هو غير قادر على استيعاب المتغيرات وفاقد للمبادرة السريعة • ولعل اكثر الصفحات اثارة في تاريخ الثورة الزبيرية ، هي الفشل الذريع الذي منيت به على الصعيد الجماهيري • فلم تصل رغم سيطرتها حينا على معظم اجزاء الدولة الاموية ، الى تحقيق حد من المستوى التعبوي المنظم ، بحيث تتحول الى حزب سياسي ، على غرار احزاب المعارضة كالشيعة والخوارج •

واخيرا ، فان حركة ابن الزبير بعجزها عن اقامة تلاحم مع الفئات الشعبية وتعثرها في استقطاب المعارضة ، اثبتت انتماءها العضوي الى الارستقراطية التقليدية ، التي كانت في نفس الوقت المسيطرة على النظام الأموي حيث بقي الممثل الرئيسي لمصالح هذه الفئة ، فتكتلت بكل قواها حوله •

القبضـــة الحديديـــة

بعـد تصفيـة جـذور الحـركـة الـزبيـريـة ، استعـادت المركزية السياسية آخر فصولها الحاسمة والمثيرة • والحقيقة أن الحركات المعارضة استنفذت قواها في صراعاتهـا الخاصة، وفوتت فرصة التكتل والتحالف ضد النظام الاموي . فالتوابون ، الفئة المتطرفة في الحـزب الشيعي، ساقوا أنفسهم الى حرب انتحارية لم تخلف وراءها سوى التشنج والانفعال ، والمختار الثقفي الذي رفع شعارات الثأر ضد الأمويين ما لبث أن اسقطه الحكم الزبيري ، الأمر الذي زاد من حفيظة المعارضة الشيعية، فوجد نفسه في النهاية امام التحدي الكبير • وهكذا فان تطاحن القوى السياسية في العراق ، كان له مردود ايجابي على الخلافة الأموية المنتصرة، في الوقت الذي خرجت فيه هذه القوى ، محطمة على الصعيد الزبيري ، محجمة على الصعيد الشيعي • اما القوة الثالثة التي بقيـت خارج نطاق التطاحن الدموي المباشر فهي الخوارج ، الحزب الوحيد المعارض الذي سيقود المجابهة ضد الامويين في تلك الفترة •

والخوارج ، كما عرفنا ، هم الفئة الانفصالية التي افرزتها حـروب صفين وما انتهت اليه من التحكيم • فقد حددوا موقفهم الرفضي مـن المتنافسين علي ومعاوية ، وتصرفوا كحزب ثوري له طروحات خاصة في العقيدة والحرب والخلافة • وهي مفاهيم عاشت سلفا واختمرت فـي رؤوس هذه الفئة ، وليس مجرد موقف احتجاجي على رضوخ قـائدهم للتحكيم • ومنذ الضربة التي انزلها علي بهؤلاء الخوارج في النهروان ، وهم يصعّدون عملياتهم العسكرية انطلاقا من الأهواز ، المنطقة التـي

اتخذوها مقرهم شبه الدائم . ومع انتقال الخلافة الى البيت الأموي ، لم يكن الخوارج أقل عداء للدولة الجديدة، فكان لديهم أسلوبهم الخاص في الهجوم وهو اقرب الى حرب العصابات ، بما يعكسه من مداهمة ومن ترويع . وكانت البصرة المسرح المفضل لعملياتهم العسكرية ، وذلك لاسباب جغرافية بحكم اقترابها من الاهواز . ولعل اقدم حركاتهم في هذه المدينة تلك التي قادها اثنان منهم : سهم بن غالب الهجيمي والخطبم الباهلي ، ولكنها كانت حركة محدودة ، حيث نجح عبدالله بن عامر[1] في القضاء عليها . ويبدو أن عملياتهم توقفت أو كادت في عهد زياد بن أبيه، الذي كان له موقفه المتطرف من الحركات السياسية والثورية. ورغم اشارة بعض الروايات الى مذابح تعرض لها هؤلاء الخوارج على يد زياد، الا أن ذلك لا يعدو أن يكون أقرب الى المبالغة [2] . فحتى ذلك الحين كانت تحركاتهم محصورة في نطاق ضيق ؛ لا تتجاوز قطع الطرق والقيام بعمليات قتل جريئة تستهدف حتى الأطفال ، بما لا يتنافى مع طروحاتهم التي أخذت تتبلور تدريجيا نحو التطرف [3] .

ومن المؤكد أن تحول الخوارج من نطاق حرب العصابات الضيقة الى نطاق الثورة المسلحة ، بدأ في عهد زعيمهم القوي مرداس بن أدية التميمي [4] . ويبدو أنه كان في سجن البصرة قبل اختلافه مع حاكمها الجديد عبيد الله بن زياد اثر مقتل أخيه [5] ؛ واعتصامه في الأهواز ،

---

(١) والي البصرة . الطبري : ٦/٩٨ .

(٢) الاخبار الطوال : ٢٦٥ ؛ فلهوزون : الخوارج والشيعة ٦٢ .

(٣) تعلل بعض فرق الخوارج قتلها للاطفال « بأن هؤلاء اذا كبروا كانوا مثل آبائهم » . الخربوطلي : تاريخ العراق ص ١٩٣ .

(٤) يغلب عليه (ابو بلال بن ادية) ابن الاثير ٣/٢٥٨ — ٢٥٩ .

(٥) عروة بن أدية الذي أعدم في البصرة سنة ٥٨ هـ. الطبري ٦/١٧٤

وكان مرداس قد قضى على فرقة من ألفي رجل أرسلها الوالي في أثره[1]. ويبدو ان فرقة أخرى لاقت نفس المصير أو أن الرواية مكررة ، أو أن التباسا حدث في اسم القائد المهزوم [2] . ومن المعتقد أن تلك الفترة التي اشتد بها ضغط الخوارج على البصرة ، كانت معاصرة لثورة الكوفة ومقتل الحسين . فكان انتقال الوالي القوي ابن زياد الى هذه الاخيرة لتصفية أحداثها ، فرصة ملائمة أمام هؤلاء لممارسة نشاطهم بحرية أكثر وبأقل قدر من الملاحقة. على أن معظم الروايات تتفق على أن تحرك الخوارج في العهد السفياني، بلغ ذروته في هذه الفترة حيث كان ابن زياد حاكما على البصرة ؛ وهو المتخصص في قمع الحركات الثورية، بما يتفق ومزاجه في السلطة وانضباطيته المطلقة في المحافظة على النظام . فهو رغم مشاكله الكوفية لا ينفك عن مطاردة الخوارج في الأهواز ، حيث تتوجت بالقضاء على مرداس وأصحابه في مجزرة جماعية (٦١هـ/٦٨١م) [3]. والحقيقة أن غموضا وربما تناقضا يحيط بالعلاقات الأموية ــ الخوارجية في ذلك الوقت ، ولعل ذلك عائد الى أن الخوارج كتنظيم سياسي وثوري ، لم يكونوا قد بلغوا حدا من النضج والاستقرار ، في وقت كانت قبضة السلطة المركزية شديدة القوة في البصرة على الخصوص. ولا بد أن الصراع الداخلي الذي تبلور في انقسام الخوارج الى عدة فرق [4] ،

(١) الطبري : ٦/١٧٥ .

(٢) اسلم بن زرعة . الطبري ٦/٢٧١ .

(٣) الطبري : ٦/٢٧١ . ابن الاثير ٣/٤٨ ــ ٤٩ . الخوارج والشيعة ٦٦ ــ ٦٧ .

(٤) يحددها البغدادي بعشرين فرقة : المحكمة الاولى ، الازارقة ، النجدات (النجدية) ، الصفرية ، العجاردة ، الشعيبية ، المعلومية ، المجهولية ، الصلتية ، الاخمسية ، الشبيبة ، الشنيهاني ، المصيرية ، الرشيدية ، المكرمية ، الخمرية ، الشمراخية ، الابراهيمية ، المواقفة ، الاباضية . الفرق بين الفرق ص ٤٥ .

مختلفة المنهج والرؤية العقائدية ، كان في جوهـــره افراز لهذا البنـــاء التنظيمي، الدي ظهر تلك الفترة وحدد معالم العلاقات بينهم وبين السلطة. فالانقسام قد لا يكون ظاهرة تمزق وانحلال في موقع الخوارج ، بقدر ما هو اختمار لأفكار وطروحات لم تكن قد نضجت بعد . ولهذا فـــان التحرك الثوري للخوارج لم يبلغ مداه من الخطر الا في العهد المرواني ، حيث ساعدهم فراغ الحكم في الدولة الاموية علـــى استكمال الأطـــر المحددة لتنظيمهم كحزب سياسي معارض .

وكان أول موقف سياسي منظم يتخذه الخوارج، هو التحالف مـــع عبدالله بن الزبير . فشارك نافع بن الأزرق أحد أبرز زعمائهم ومؤسس فرقة الأزارقة المتطرفة المنسوبة اليه ، في الدفاع عن مكة مع جماعتـــه ضد القائد الاموي الحصين بن نمير السكوني . غير أن هذا التحالف كان مرحليا فقط ، لأن خلافا ربما عقائديا ، ادى الى انفصال الخوارج عن ابن الزبير ، حيثعاد بعضهم الى الأهواز بقيادة ابن الأزرق والآخـــر الى اليمامة مع نجده بن عامر الحنفي زعيم الفرقة النجدية [1] . وحينذاك كانت البصرة قد شهدت تغييرات داخلية في أعقاب وفاة الخليفة يزيد ، فقامت بانقلابها الذي أطاح بالوالي القوي عبيدالله بن زياد . وكان لهذه الأحداث وجهان متناقضان في نفس الوقت ، اذ انعكس غياب الســـلطة المركزية ايجابيا على الخوارجالذين دعموا مركزهم في البصرة، باستقطاب عدد من العناصر الشابة التي اجتذبتها أفكارهم [2] .

ويبدو ان الخوارج من الازارقة ساهموا بوسائلهم الارهابية فـــي

(١) الطبري ٥٦/٧ . سرور : الحياة السياسية في الدولة العربيـــة الاسلامية ١١٧ .

(٢) الدينوري : الاخبار الطوال ٢٧٩ . ليدن : ١٨٨٨ . الطبـــري : ١٨/٧ – ٢٨ .

انقلاب البصرة ، غير أنهم اكتفوا من نتائجه باخراج جماعتهم من السجون ومغادرة المدينة مع اتباعهم الى الاهواز . ذلك ان الجو السياسي العام في البصرة ، وهو الجانب الآخر ، لم يكن مشجعا على استلام الحكم في المدينة ، حيث الاغلبية تناصبهم العداء والرفض . بيد أن البصرة كانت لا تزال هدف الخوارج، بدليل الارتباك الذي سيطر عليها وجعلها نهبا للذعر فحاولت انشاء قوة ذاتية [1] لصد الخطر الخوارجي ولكنها فشلت ، مما دفعها الى طلب المساعدة من عبدالله بن الزبير مقابل الاعتراف به [2] . وكانت أولى ثمرات هذا التحالف مع خليفة الحجاز ، هزيمة الأزارقة ومقتل قائدهم في معركة طاحنة جرت في احدى قرى الأهواز [3].

وورث عبيدالله بن الماحوز زعامة الازارقة ، في الوقت الذي عهد فيه ابن الزبير الى المهلب بن ابي صفرة بولاية البصرة ومقاومة الخوارج. وتشير المصادر الى أن هذا التدبير كان استجابة لرغبة زعماء البصرة ، الذين وجدوا في المهلب الكفاءة القيادية العالية . ولقد تفرغ هذا الاخير لتلك المهمة ، فطارد ابن الماحوز حتى قضى عليه وأبعد جماعته من الأهواز [4] (٦٦هـ/٦٨٦م) . فشلت هذه الهزيمة طاقات الخوارج وحملتهم على تجميد نشاطهم ، والاعتكاف على اعادة تنظيم أنفسهم واختيار خليفة لابن الماحوز . غير أن الخوارج ما لبثوا أن استعادوا مبادرة التحرك بقيادة قطري بن الفجاءة ، وهو من قبيلة تميم أيضا على غرار أسلافه التميميين، وكان معاصرا لمصعب بن الزبير الذي أصبح حاكما على العراق في ذلك الحين . على أن هموم السياسية الداخلية ، اعاقت على ما يبدو

(١) الطبري ٧/٢٢٥ . ابن الاثير ٤/١٩٦ .
(٢) نفسه : ٧/٣٣ . الدينوري : الاخبار الطوال ٢٩٧ .
(٣) دولاب ـ الطبري ٧/٨٥ .
(٤) الطبري ٧/ ٨٦و٨٨و٨٩

عمليات التصدي الخوارج وخففت من تأثيرها الى حد كبير ؛ حتى أن المهلب استدعي من الموصل حيث عين قائدا على هذه المنطقة لاعتبارات استراتيجية ؛ وللافادة من كفاءته العسكرية في الحرب ضد الأمويين [1]. ولكن المهلب لم يتوصل في مهمته الى اكثر من صد الخوارج عن البصرة والدخول معهم في مفاوضات طويلة، امتدت الى ما بعد القضاء على الحكم الزبيري في العراق .

وكان عبد الملك بعد انتصاره على مصعب ؛ مستوعبا أهمية الخطر الوحيد الذي ما زال يهدد استقرار العراق المتمثل بثورة الخوارج . وكان استثناء المهلب قائد جبهة الاهواز من العقاب الاموي — الذي أصاب بشكل أو بآخر مختلف الشخصيات المتعاونة مع النظام الزبيري — له علاقة بالمدى الذي وصل اليه خطر الخوارج في ذلك الوقت . وسنجد أن التغييرات الادارية التي أجراها عبد الملك في ولاية العراق جاءت بدورها تؤكد هذه الحقيقة . فلم يلبث بعد وفاة أخيه بشر بن مروان — اول حاكم مرواني على الكوفة — أن بادر الى توحيد العراق في ولاية واحدة ، على أن يكون قائده المخلص والقوي الحجاج بن يوسف حاكما عليها (٧٥هـ /٦٩٤ م) .

وكانت ثورة الخوارج وتدهور الموقف الأموي في الأهواز ، المؤشر الذي اعطى للحجاج شخصيته القاسية والصدامية لدى العراقيين . فقد استطاع بخطابه الشهير ولهجة التهديد العنيفة التي غلبت عليه ؛ تعبئة المقاتلين وحملهم على الالتحاق بالمهلب [2] . ولكن الوضع على جبهة

---

(١) ابن الاثير : ١٣٨/٤ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ١٢٧/٣ — ١٢٩ . ابن الاثير ١٨٥/٤.
Périer : vie d'Al - Aadjadj Ibn Yousof p. 65 - 70 .

الاهواز بدا متعثرا رغم كثافة المقاتلين ، واضطر قائدها الى استهلاك اكثر من ثلاثة أعوام متواصلة في ملاحقة الازارقة دون نتائج حاسمة. ولعل التنافر الذي ساد علاقات الكوفيين والبصريين في جيش المهلب ، كان له تأثيره على بطء العمليات العسكرية وتثاقلها . كذلك فان الحساسية بين القائد العام وبين قائد الكوفيين عبد الرحمن بن مخنف ، واستنكاف هذا الأخير عن الالتزام بالأوامر العليا ، قضى على انسجام الجيش وجر الى هزيمة دفع ثمنها الكوفيون وقائدهم [١]. بيد أن الازارقة لم يكونوا اقل تفككا وانقساما في الرأي من الامويين ، وهي ظاهرة ما انفكت تلازم الخوارج في معظم مراحل تاريخهم السياسي . فالتناقض في المواقف حول مسائل معقدة لم تنضج في فكر الكثيرين منهم ، كان بدون ثمة شك وراء هذا التمزق والصراع حتى ضمن المجموعة الواحدة . ذلك أن فئة من الازارقة انشقت بقيادة عبد ربه الكبير واتخذت من كرمان قاعدة لها، بينما ابتعد قطري بجماعته الى الشمال واستقر في طبرستان [٢] . وكان ذلك مؤشرا لحسم الحرب على جبهة الأهواز ، فلم يجد المهلب صعوبة في مطاردة ابن عبد ربه الى كرمان والقضاء عليه ، حيث كانت آخر مهماته في حرب الازارقة قبل العودة الى البصرة . اما قطري فقد انتهى بدوره على يد قائد كوفي [٣] ارسله الحجاج الى طبرستان ، واضعا بذلك حدا لأخطر ثورات الخوارج في العراق .

ولكن ثورة الخوارج لم تتوقف بالقضاء على الازارقة ، فقد

---

(١) ابن الاثير : ١٨٩/٤ .

(٢) الطبري : ٢٧٤/٧ – ٢٧٥ .

(٣) جعفر بن عبد الرحمن بن مخنف ، ابن القائد الذي قتل في حملة المهلب . الطبري ٢٧٤/٧–٢٧٥ .

استمرت متفجرة يحمل لواءها الصفرية [1] ، وهي فرقة أقل تطرفا في مواقفها العقائدية والسلوكية . فالمحاورة التي جرت عشية تحركها ، بين اثنين من زعمائها (صالح بن مسرح وشبيب بن يزيد) تؤكد هذا الانتماء الى خط معتدل نسبيا بالمقارنة مع الأزارقة [2]. وثورة الصفرية لم تكن لها صلة ما بثورة الأهواز ، حيث انفجرت في وقت متأخر وفي بقعة جغرافية مختلفة . اذ أن الكوفة هي التي كانت هدف الخوارج الصفريين انطلاقا من قواعدهم في الموصل والجزيرة (٧٦هـ ٦٩٥م) ، وكان أول من تصدى لهم : حاكم المنطقة الاموي محمد بن مروان . غير أنه فشل في اخماد ثورتهم واضطرت احدى فرقه الى التراجع مهزومة ، مما أبقى المعركة بعض الحين سجالا بين الطرفين . ولكن تعزيزا لا يلبث أن يطرأ على الموقف العسكري للحاكم المرواني ، ويهاجم الخوارج الصفرية باثنين من الفرق الكبيرة ، فلم يجد صالح بن مسرح زعيمهم ، سوى مغادرة الجزيرة ، والعزوف عن هذه المعركة ، بعد شعوره باختلال الموازين العسكرية لصالح الأمويين [3] . فتحول صالح باتجاه الكوفة ليصبح مع جماعته هدفا سهلا للحجاج ، الذي ارسل اليهم فرقة اوقعت بهم الهزيمة وقضت على قائدهم [4] .

ولكن هذه المحنة لم تؤثر على الصفريين الذين اختاروا شبيب بن يزيد قائدا لهم بعد صالح بن مسرح ، فكان أن أصاب نجاحا لم يحققه سلفه ، وذلك بسيطرته على المدائن وقيامه بعمليات انتقامية احدثت

---

(١) جماعة زياد بن الاصفر مؤسس هذه الفرقة . البغدادي : الفرق بين الفرق ٧٠ .

(٢) الطبري ٢١٩/٧ — ٢٢٠ . البغدادي : الفرق بين الفرق ٧٠ .

(٣) ابن الاثير ١٩٢/٤ .

(٤) الطبري ٢٢١/٧ — ٢٢٢ .

ترويعا في المنطقة ودفعت الناس الى الاحتماء بالكوفة (١) . ولقد داهمت هذه العملية المثيرة الحجاج ، في وقت كانت معظم قواته لا تزال في حملة المهلب تطارد الازارقة . فحاول الاعتماد على قواته الذاتية بما استطاع سبيلا الى ذلك ، ولكنه فشل عدة مرات وانكفأت هذه مهزومة متراجعة (٢) . وبلغت المفاجأة حدا بدخول الصفريين الى الكوفة وارتقاء قائدهم قصر الامارة معلنا الحكم باسمه ، بينما الحجاج غادرها في وقت سابق الى البصرة بعد المحاولات الجريئة التي استهدفتها (٣) . وكان لا بد من تدخل الخلافة بقواتها الشامية لانقاذ الموقف ، رغم أن القائد الصفري لم يكن لديه سوى مجموعة متواضعة من المقاتلين، الا انه استطاع ان يحقق بها هذه الانتصارات المذهلة . ومن الواضح أن سرعة المداهمة والهجمات الصاعقة كانت ابرز ملامح ثورة الصفريين في المنطقة العراقية، يضاف اليها أساليب الترويع والقتل الجماعي ، على غرار ما جرى في مسجد الكوفة (٤) ، وغير ذلك مما ساهم في نجاح هذه العمليات العسكرية الجريئة .

غير ان الثورة الصفرية التي وصلت الى هذا الحد من النجاح ، لم تكن مؤهلة عبر طاقاتها المتواضعة هذه الى المضي أبعد من ذلك في مجابهتها المسلحة في العراق ، فجل ما كانت ترمي اليه في تلك الفترة هو تحقيق انتصارات مرحلية تستنزف بها قوات النظام الاموي . وهكذا فلم يكد يطرأ تعديل على موقع الحجاج العسكري بوصول الفرق الشامية (٥)، حتى غادر شبيب مع جماعته الكوفة بعد فشل قواته في صد

---

(١) الطبري ٢٢٥/٧ . ابن الاثير ١٩٦/٤ .
(٢) ابن الاثير ١٩٢/٤ — ١٩٧ .
(٣) نفسه ١٩٧/٤—١٩٨—١٩٩ . دكسن : الخلافة الاموية ٢٩٣ .
(٤) ابن الاثير ١٩٧/٤ .
كانت بقيادة سفيان بن الابرد الكلبي . مروج الذهب ١٣٩/٣ .

الهجوم الاموي ؛ لأول مرة منذ اعلان ثورته على الحجاج . ومن هنـالك اتجه الى الأهواز ، طامحا الى اتخاذها بؤرة ثورية على غرار الأزراقة . ولكن جنود القائد الأموي قضوا عليه في معركة عند نهر دجيل، حيث قتل غرقا على الأرجح (٧٧هـ/٦٩٨م) [١] .

لقد كان القضاء على ثورة الصفرية منعطفا هاما في تاريخ الخوارج السياسي ، وهي بدون شك ذروة التحرك الثـوري الـذي امتـد في الاهواز والجزيرة ، وبلغ مداه في اجتياح الكوفـة ، عاصمة الولايـة الشرقية من النظام الأموي. ولعل الصفريين كانوا أشد اثارة ، بوسائلهم المبتكرة من الازارقة وبقية الفرق الخوارجية العديدة . بيد أن الجـانب المميز في حركتهم هو بدون ريب، القيادة الفذة التي كانت وراء هذا النوع غير المألوف، من الحرب الخفيفة . فقد جابه شبيب بن يزيد بالقليل مـن اتباعه المخلصين أقوى الركائز الأموية المتمثلة بالحجاج ، وبثّ جـوا من الارهاب ارتجفت له قلوب الناس لا سيما المقاتلين ، الـذين دفعوا الثمن الأكبر بالهزائم العديدة التي منوا بها . والحقيقة التي لا ينبغـي تجاهلها هو أن القائد الصفري لـم يكـن وحيدا في عملياته العديـدة الناجحة ، وذلك بفضل التحالفات المحلية التي امنت لحركته مناخا ايجابيا بتوفير سبل التموين ومدها بالمعلومات العسكرية الدقيقة . ولا بد أن يكون في مقدمة الحلفاء : الفئات المناهضة للحاكم الأموي التي أدانـت سياسته الاقتصادية واستهوتها شخصية القائد الصفري وأفكاره المتطورة

---

(١) ابن الاثير ٢٠٩/٤ – ٢١٠ . المسعودي : مروج الذهب ١٣٩/٣ – ١٤٠ ، اليعقوبي : ٢٧٥/٢ .

التي اقترنت بالتنفيذ ، لصالح هذه الفئات حيث كانت في معظمها غير عربية [١] .

واذا كانت ثورة الخوارج الصفرية قد بلغت هذا المدى من الخطر تحت قيادة شبيب بن يزيد ، فان تأثيرها ما لبث أن تلاشى في المشرق واقتصر نشاط هذه الفرقة السياسي على ممارسات طفيفة في منطقة الأهواز لم تكن ذات بال . والحقيقة أن المرحلة التالية من تاريخ الخوارج الثوري كانت مرحلة انكفاء وتراجع بشكل عام ، دامت نحو ربع قرن من الزمن [٢] ، وحتى بعد ذلك لم تتوصل حركة الخوارج الى استعادة حجمها ، الذي احتلته كحزب سياسي في أيام عبد الملك بن مروان . لقد انطفأ وهج الثورة الخوارجية في المشرق وخاصة في العراق، بعد الملاحقة العنيفة التي استهدفتهم على يد الولاة الامويين . غير أن فئة من الخوارج[٣] لن تعدم فرصا أفضل للتحرك وللتبشير بأفكارها السياسية والاجتماعية ، فاتجهت بثقلها الى المغرب حيث، الأرض الواسعة والجماهير العريضة المتشنجة من تعسف الولاة القيسيين ، خاصة في السنوات الأخيرة من الدولة الاموية .

ومن المؤكد ان الخوارج وهم أخطر أحزاب المعارضة واكثرها جرأة في تحدي النظام الاموي ، قد ساهموا بدور كبير في اضعاف هذا

---

(١) فلهوزن : الخوارج والشيعة ١٢٦ ـ ١٢٧ . دكسن : الخلافة الاموية ٢٩٨ .

(٢) من اشهر حركات الخوارج التي قامت بعد عبد الملك . ثورة الصفرية بقيادة شوذب (بسطام) في عهد عمر بن عبد العزيز . وكانت قد جرت مناظرة بين الخليفة وبين هذا الثائر ، قبل القضاء على حركته على يد مسلمة بن عبد الملك . الطبري ١٣١/٨-١٣٢-١٤٢-١٤٣ .

(٣) الصفرية والاباضية .

النظام واستنزاف طاقاته • فمن التصدي المباشر في المشرق من خلال حرب العصابات المبتكرة ، الى دورهم التبشيري والتحريضي في المغرب ، وما أسفر عن ذلك من ثورة البربر الكبرى ، كان الخوارج دائما الحزب السياسي المتطرف ضد الامويين والمناهض لهم بكل ما تعنيه هذه الكلمة • كما تركت افكارهم الجريئة بصماتها الواضحة على المسار النضالي والثوري ، الذي استهدف هذا النظام وأطاح به • وقد لا يكون بعيدا عن التصور بأن ثورة الخوارج في الأهواز ، كانت مقدمة في الشكل والمضمون للثورة العباسية في خراسان [1] ، وذلك من حيث استقطاب هذه الأخيرة للتيار المعادي للامويين ، والمتستر في العمق من ثورات الخوارج العديدة •

ومن البديهي ان خوارج المشرق لم ينجحوا في اطار الطموح الى السلطة والمطالبة بالتغيير ، الى أكثر من تعبئة النفوس ضد الامويين ، لا سيما العناصر غير العربية التي عانت من القهر ومن الحرمان ، وهي في معظمها جماهير الثورة التي استقطبها العباسيون واستثمروها لصالحهم• وما عدا ذلك فان حركة الخوارج كنهج وممارسة ، كانت محدودة التأثير فاشلة النتائج • ولعل نقطة الضعف الكبرى في تاريخ هذه الحركة ، ذلك التناقض الواضح بين الفكرة المتطورة وبين الأسلوب الارهابي العقيم• ففي الوقت الذي طرحت فيه مطلبها الشهير ، وهو محاربة الاستئثار القرشي بالخلافة وجعلها اكثر تعميما مع توفر شروط معينة تؤهل حاملها للحكم ، جنحت هذه الحركة الى العنف، والممارسة غير الديمقراطية في علاقاتها ضد خصومها والمختلفين معها في الرأي • وهذا ما صبغ حركة الخوارج بالتطرف والغموض ، حيث لازمها ذلك وطبعها بسمات غير واقعية منذ بداياتها الاولى •

---

(١) الخربوطلي : العراق في ظل الحكم الاموي : ٢٠٦ •

ثورات الارستقراطيين في العراق

لقد تشعب التيار الثوري في العراق خلال العصر الاموي ، وذلك من حيث الانتماء العقائدي والسياسي الى اتجاهات ثلاثة : الأول هو الاتجاه الشيعي الذي حدد موقفه العلني من الخلافة الأموية منذ ثورة الكوفة المجهضة ، التي انتهت الى مقتل الحسين في كربلاء ، فكانت هذه الحادثة المؤشر البارز في تحول الحزب الشيعي من العمل السري الى المعارضة المسلحة • ولقد تبلور هذا الاتجاه في حركة التوابين التي كادت أن تقترب بنتائجها كحركة انتحارية ، من المأساة التي ثارت من أجلها، فضلا عن كونها المقدمة غير المباشرة للانقلاب الشيعي، الذي تولى السلطة في الكوفة بزعامة المختار بن أبي عبيد الثقفي • وكان هذا الاتجاه في الحقيقة ، الممثل الطليعي للمعارضة السياسية في العراق ، بما لديه من قدرة استقطابية ، ليس فقط من خلال قياداته التي تمتعت بنوع من المكانة الخاصة والمؤثرة على الصعيد الشعبي ، ولكن من خلال الطروحات العملية ، لا سيما في الأطار الاجتماعي ، التي اصبحت المطالب الملحة للفئات المناهضة للحكم الأموي • غير أن الحزب الشيعي كان يعاني من نقص في البناء التنظيمي، وهو محصل من حيث المبدأ لغياب الزعامات التاريخية القادرة على توحيد مواقفه ، التي كانت في الغالب مضطربة وغير منسجمة• ولعل هذه الثغرة كانت أشد ما أصاب التحرك الثوري لهذا الحزب ، حيث اصطدمت بالفشل جميع محاولاته الهادفة الى استلام الحكم ، كما كانت المثالية السياسية ، المصدر نفسه لهذا الفشل في السابق •

أما الاتجاه الثاني في المعارضة المسلحة ، فكان يمثله الخوارج بفصائلهم المختلفة ، لا سيما الأزارقة والصفرية • غير أن هؤلاء انفردوا

برؤية خاصة في النضال الثوري ، فكرة وممارسة ، فكانوا أول من لجأ الى استخدام ما يعرف بحرب العصابات في التاريخ الحديث ، وهو اسلوب وفر لحركتهم بعض الاستمرارية رغم الأفتقار الى القاعدة الجماهيرية الواسعة . ولكن ذلك كان نقطة الضعف والقوة معا ، لأن حركة الخوارج ظلت في أذهان الناس مطبوعة بالتطرف والعنف . وهم حتى في انتصاراتهم العسكرية على الأمويين ، لم يتعدوا هذا المفهوم، فظلوا مجرد عصابات مختفية في الجبال ، على عكس الحركات الأخرى المتعايشة بحدود ما مع النظام .

ويبقى الاتجاه الثالث في المعارضة الثورية في العراق ، الذي كانت تحركه دوافع مختلفة ، ربما شخصية في المقام الأول . غير أن هذا الاتجاه لم يعدم أية وسيلة للتحالف مع بقية القوى السياسية ، بما فيها الحزب الشيعي ، فضلا عن القوى الأخرى التي لم يكن موقفها من النظام قد تبلور بعد ، وهذه تمثل من حيث الكثافة البشرية الأغلبية الساحقة ، وهي المعروفة بالموالي حسب التعبير الأموي المتداول ، الذي يقصد به العناصر غير العربية في ذلك الحين . واذا كانت التركيبة العضوية للخوارج في جوهرها عربية الانتماء ، حيث تصدّر بنو تميم في الغالب قيادات هذه الحركة ، واذا كان الحزب الشيعي كذلك قد نجح عبر طروحاته الأصلاحية في تحريك موقف الموالي ، فأن هذا الاتجاه قد راهن كما يبدو على هذه القوة البشرية الضخمة واستثمار عواطفها المتشنجة من السلطة المحلية ، وصولا الى تحقيق اهدافه الخاصة . ولكن القول بأن التحرك الثوري لهذا الاتجاه ، كان مطبوعا في الشكل والمضمون بطابع الموالي ، فهو نوع من المجازفة والتسرع في الحكم . ذلك أن بعض المؤرخين ، وخاصة المستشرقين منهم ، يجعل العلاقة عضوية بين هذا التحرك وبين الواقع الاجتماعي للموالي ، بحيث يتحول الى تحرك خاص بهم . وبرأي هؤلاء

أن ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، اعظم الثورات العراقية ، هي امتداد لحركة المختار من المنطلق ذاته ، بأن كلاهما محاولة من الموالي لتحسين أوضاعهم الحياتية على نحو يتكافأ مع العرب •

والحقيقة أن كلا من الحركتين كانت لها ابعادها التي قد تتناقض في احداها عن الأخرى • فحركة المختار بظروفها ومنطلقاتها كانت شيعية الطابع مع نزعة سلطوية لدى قائدها الطموح ، وهي من خلال هذا الموقع كان لا بد أن تتحالف بصورة عضوية مع الموالي ، حيث وجدوا فيها فرصتهم الأولى في المساواة ، وما عدا ذلك لم يكن لهم أي دور ملموس في توجيه الحركة أو التأثير في مسارها • أما ثورة عبد الرحمن ، فقد اختلفت عن الأولى في ظروفها الجغرافية ؛ اذ أنها انطلقت من منطقة فارسية ، فكانت اكثر التصاقا بجماهير الموالي ؛ الأمر الذي أكسبها ذلك التقويم • غير أن هذه الثورة التي تزعمها أحد أكثر المتحمسين لأرستقراطيتهم العربية العريقة وهو عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث الكندي ، والتي كانت في أساس تركيبها من مقاتلي البصرة والكوفة ، كانت عربية الطابع ، تحركها دوافع سياسية وشخصية واجتماعية كذلك ، فضلا عن أنها في تركيبها العضوي كحملة عسكرية نظامية في بدايتها ؛ اقتصرت المشاركة فيها على مقاتلين من المدينتين العراقيتين بطريقة متكافئة (١) • وكان العرب حتى ذلك الحين ؛ الفئة الوحيدة المقاتلة ؛ ومن البديهي أن تكون مشاركة الموالي في هذه الثورة ، وهي في الأساس حملة عسكرية ، مشاركة ثانوية خاصة على المستوى القيادي •

ان هذه المقدمة عن الحركات السياسية الارستقراطية المعاصرة

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٢٠ .

للحجاج بن يوسف حاكم العراق حينذاك ، لا تهدف الى أكثر من توضيح ذلك المفهوم السائد، باعطاء الموالي دورا لم يكونوا قد توصلوا اليه بعد، فحتى ذلك الحين كان هؤلاء في بدايات تحولهم الجذري الى الحياة العربية الاسلامية، كما أن التحامهم في اطار المجتمع الأموي، كانت لا تزال تحول دون اكتماله ، السياسة الاقتصادية العامة للدولة [1] . ومن هنا فان أي تحرك مستقل للموالي ، أو أي تأثير عملي لهم في مسار المعارضة الثورية للنظام الأموي يعتبر نوعا من التجديف والمبالغة .

غير أن الموالي كقوة جماهيرية كانوا دائما في حسابات الحركات الثورية في تلك الفترة، وذلك انطلاقا من العلاقة المتدهورة بينهم وبين السلطة الأموية، التي تتوجت بقوانين الحجاج الصارمة وممارساته القمعية ضدهم . ومن المعروف ان حركة المختار كانت بداية الطريق امام الموالي للمساهمة بدورهم التاريخي في التيار الثوري في العراق . فقد وجد هذا الأخير بعد نجاح انقلابه في الكوفة أنهم القوة الصامتة والفاعلة ، فاتجه الى الاعتماد عليهم لتوفير تغطية جماهيرية واسعة لحركته ، حيث فشل أو كاد في سد هذه الثغرة في قاعدته الشيعية . وكان الموالي على الأرجح يمثلون عنصر التفوق في حركة المختار على حساب الحكم الزبيري المتعاطف مع القوى الارستقراطية . وكانت هذه الأخيرة من أشد خصوم المختار ضراوة بسبب تحالفه مع الموالي ، الذي استهدف عمليا مصالحهم وامتيازاتهم .

وفي عهد الحجاج أقوى ، الشخصيات الأموية في العراق بعد زياد بن أبيه ، كان الموالي الفئة الاكثر سحقا على الصعيدين الاقتصادي

(١) فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ص٤١ .

والاجتماعي • ذلك أن الحاكم الذي تصفه روايات المؤرخين بأنه صلف جبار مع نزعة دموية ظاهرة ، كان أيضا بحكم انتمائه القيسي شديد التعصب للعرب كارها حتى الحقد للموالي [1] • ولقد خضعت علاقته بهم لمعطيات ومقاييس معينة ، كان قد وضعها الحاكم الأموي سلفا لاطار سياسته العراقية ، أو كما أوجزها فان فلوتن Van vloten بأنها « عودة بلاد العراق — مهد المعارضة التي قام بها الموالي — الى معقل للجيوش العربية كما كانت من قبل، واضطرار الموالي الذين كانوا يتطلعون الى مساواتهم مساواة تامة باخوانهم في الدين من العرب للعودة الى أرضهم ودفعهم الجزية كما كانوا يدفعونها من قبل » [2] • ذلك أن الفترة الزمنية المعاصرة لحكم الحجاج ، تجسدت فيها معالم تحوّل محسوس في أفكار الموالي . بخروجهم من دائرة التبعية المطلقة كشعب مغلوب ، الى دائرة أوسع، حيث اختمرت لديهم عوامل الانصهار والذوبان في المجتمع العربي الاسلامي• وسواء كانت الدوافع لهذا التحول عقائدية صرفة، أم اقتصادية التخلص من أعباء الجزية والخراج ، فان الموالي كانوا من أكثر الشعوب غير العربية التحاما بهذا المجتمع وتقبلا لقوانينه • فهل يتحمل الحجاج وزر هذا التصدي لتلك النقلة الخطيرة ، التي لم يوفر لها الأجواء الملائمة فقط ، بل تحداها أو وقف في طريقها ؟ ومهما كان الجواب على هذا التساؤل فان الحجاج ومن ورائه النظام الأموي ساهم عن معرفة مبيتة أو عن ادراك خاطيء ، في تجسيد عملية التلاحم العضوي المهيئة لتلك النقلة التاريخية • ويبدو أن المسألة كانت غير خاضعة للاختيار في الحسابات الأموية . أو كما قال (باكوبوفسكي) المؤرخ الروسي : « انها

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ . ص ١٣٤ — ١٣٥ .
(٢) فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ص ٤١ .

مسألة موت أو حياة ، اما الحجاج وقبضته الحديدية ، أو العراق الثائر الذي يقضي على الأمويين وحكمهم » [1] .

وكانت أول مجابهة مسلحة بين الموالي والنظام الأموي في بدايات ولاية الحجاج في العراق ، وذلك عبر مشاركتهم في انتفاضة عبدالله بن جارود العبدي في البصرة . ولقد جمع بين الطرفين ــ الموالي وابن جارود ــ قاسم مشترك هو النقمة على سياسة الحجاج الاقتصادية ، اذ كان الحجاج حينذاك يتابع حملته التعبوية ضد الخوارج في البصرة على غرار ما فعل في الكوفة . ويبدو أن حرصه على اختصار النفقات المعروفة بالعطاء هو الذي دفعه الى انقاصها ، على نحو أغضب زعماء البصرة ، مما أدى الى جدل بينه وبين عبدالله بن جارود الذي شعر بأنه قد أهين مع اصحابه . وما لبث أن أخذ هؤلاء يجتمعون سرا للقيام بانقلاب ضد الحاكم الأموي ، كما حدث سابقا مع عبيدالله بن زياد في أعقاب وفاة الخليفة يزيد بن معاوية [2] . وصادف حينذاك أن جماعات من الموالي قد لجأت حديثا الى البصرة هاربة من السياسة القمعية للحجاج، فانضمت الى ابن جارود في انتفاضته ، التي استكملت خيوطها بالهجوم على معسكر الحجاج ونهبه [3] . ولكن حاكم العراق قضى عليها بسهولة وجعل من قسوة العقاب لأصحابها، أمثولة للذين يتمردون على قراراته .

وكانت هذه الحادثة أول مجابهة دموية بين الحجاج وبين العراقيين بمن فيهم الموالي ، حيث اقترن بالفعل والتنفيذ ما التزم به في خطبته الشهيرة بالكوفة [4] . غير أن الانتفاضة على ما تميزت به من ارتجال

---

(١) ي.أ. بليايف : العرب والاسلام والخلافة العربية ص ٢٣٢.
(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٨٥ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١٢٧ــ١٢٨ .

ونطاق محلي : كانت مؤشرا لسلسلة من الثورات وحركات التمرد، بعضها كانت له دوافع انتفاضة البصرة ؛ والاخر انطلق من معطيات أعمق وحظي بالتفاف جماهيري أكثر اتساعا . وقد تكون المقارنة جائزة بين عهدين متشابهين في مختلف ظروفهما السياسية والاقتصادية ، أو بالأحرى بين اثنين من كبار الولاة الأمويين في العراق وهما زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف . فالأول جاء الى السلطة في أجواء أكثر تشنجا من تلك التي رافقت الاخر ، فكان رائد النهج التقليدي للسياسة الأموية في العراق القائم على العنف ؛ حيث كان من أبرز المتأثرين به الحجاج نفسه ، غير أنه ظل أكثر مرونة واتقانا في معادلاته ، وكذلك أكثر براعة في المحافظة على التوازنات السياسية والقبلية والاقليمية . ومن ناحية أخرى فان زيادا كان يحمل وراءه رصيدا من الكفاءة ومن التجربة أكسبه شهرة خاصة منذ العهد الراشدي ، قبل أن يستجيب لاصرار معاوية الذي وجد فيه رجل المرحلة القوي ، والقادر على تطويع المعارضة السياسية في العراق . اما الحجاج ممثل المروانيين والثقفي الانتماء أيضا ، فكان على عكس ذلك يستمد قوته من الخليفة الذي اكتشف فيه طاقات تناسب تلك الظروف ، وارتفع بفضله الى المستوى الذي بلغه في النهاية كحاكم للعراق . ومعنى ذلك أن الحجاج كان يستمد قوته من الخليفة ، وهذا بدوره يكن يتردد اذا اقتضى الأمر بالتخلي عنه ، كما حدث أثناء المفاوضات مع ابن الأشعث وأصحابه . فالتقويم المناسب اذن في اطار المقارنة بين الرجلين . هو أن الأول حقق أهداف السلطة الأموية، بفرض النظام وكبح المعارضة دون أن يثير أجواء الاستقرار التي اقترنت بعهده، أما الثاني فقد استعدى جميع الفئات بما فيها الأرستقراطية ؛ التي ثارت

عليه بزعامة ابن جارود [1] . فتحول بأسلوبه الصدامي الى أداة اثــارة وتشجيع على الثورة والعصيان •

هذا المد الثوري الذي اكتسح العراق مع أجواء مشجعة جديدة . تابع انتشاره متحديا القبضة الحديدية الضاغطة فوق مختلف الاتجاهات • فمن انتفاضة الأرستقراطية المتحالفة مع الموالي في البصرة ، الى انتفاضة الزنج في منطقة الفرات الأوفر حظا ونجاحا من الأولى [2] ، كان التـــيار الثوري لا يزال ينمو ويتصاعد • ولقد انتشرت عدوى الثورة والعصيان حتى في الادارة الأموية نفسها ، عندما أعلن حاكم المدائن المطرف بـــن المغيرة ثورته على الحجاج تعبيرا عن موقفه الرافض لسياسته العراقية • ولعل عنصر الاثارة في هذه الحركة أن يكون على رأسها أحد كبار العاملين في الادارة الأموية في العراق ، والعائد في انتماءاته الى بيت عريق في الموالاة ، حيث كان أبوه المغيرة بن شعبة ، من أبرز الشخصيات السياسية التي اعتمد عليها معاوية • لقد ثــار المطرف على الحجاج ، ليس مـــن موقـــع الحرمـــان أو الاضطهاد ، ولكن من موقع السلطة بعد أن رفض السير بتبعية مطلقة وراء مواقف رئيسه المتطرفة •

وكان الطرح الذي حاور به الخوارج الصفرية بزعامة شبيب بـــن يزيد ، يعبّر عن مدى التناقض في المبدأ والرؤية بينه وبين السلطة • فهو لم ينطلق من خلفية عدائية خاصة ضد الحجاج ، بل تحرك بدوافع مجذّرة

---

(١) راجع الحوار الذي جرى بين الحجاج وابن جارود حول العطاء. ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٨٥ .

(٢) قامت بهذه الحركة مجموعة من العبيد ومـــن تحالف معهـــم من المسحوقين ، وذلك بزعامة رجل غامض يعرف باسم (رباح) . وأخبارها غير واضحة في روايات المؤرخين ، وان كانت دوافعها على الارجح اجتماعيـــة واقتصادية . دكسن : **الخلافة الاموية** ص ٢٣٨ ـــ ٢٤٠ .

تتناول الموقف العام من السياسة الأموية ، الممثلة بخليفتها عبدالملك والجهاز الحاكم في العراق [1] •

ويبدو أن الثورة الصفرية والهجوم على المدائن مركز المطرف ، كانا من الدوافع المباشرةلا علان تمرد الأخير بدوره على السلطة الأموية • فقد شجعته تلك التطورات على اتخاذ المبادرة باقامة حوار ، ومن ثم نوع من التنسيق مع الخوارج الصفرية • وكان يعتقد أن ثمة قاسما مشتركا ربما جمع بينهما، وهو رفض الاستئثار والتسلط والانحراف[2]• غير أن مشكلة الخلافة كانت نقطة الاختلاف المبدئية ، حيث أفسدت محاولات التفاهم على موقف موحد بين الطرفين • فبينما رأى المطرف أن العودة الى النهج الذي ساد في مطلع الخلافة الراشدية ، هي المخرج الوحيد لهذه المشكلة ، تمسك شبيب وجماعته بطرح الخوارج المعروف بشأن الخلافة ، لأن هذا الرأي يعني استمرارها قرشية تستأثر بها فئة خاصة من المسلمين ، وهو منطق مرفوض لدى الخوارج • فلم يجد المطرف بدا من العمل منفردا ، بعد أن كشفت أجهزة الحجاج حقيقة مواقعه من السلطة الأموية ، معتمدا على حفنة من أصحابه المتأثرين بأفكاره الاصلاحية ؛ وكان من بينهم أخوه حمزة بن المغيرة حاكم

(١) ورد في الحوار الذي جرى بين المطرف وشبيب الخارجي أثناء حصار الاخير للمدائن بعد أن سئل عن الغاية التي يبتغيها من حركته، اذ قال المطرف : « ما دعوتم الا الى الحق وما نقمتم الا جورا ظاهرا . انا لكم متابع فبايعوني على ما أدعوكم اليه ليجتمع أمري وأمركم ... أدعوكم الى أن نقاتل هؤلاء الظلمة على أحداثهم وندعوهم الى كتاب الله وسنة نبيه وأن يكون هذا الامر شورى بين المسلمين ، يؤمرون من يرتضون على مثل هذه الحال التي تركها عمر بن الخطاب » . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢١١ .

(٢) المصدر نفسه .

همذان . الذي آسده بما احتاج اليه من الأسلحة والأموال • غير آنــه سرعان ما تخلى عنه خشية غضب الحجاج ، بعد أن وقف على صعوبة مهمته والعقبات التي تعترض نجاحها [1] •

وهكذا لم يجد الحاكم الأموي في العراق أية صعوبة في اخمــاد حركة المطرف وتصفية ذيولها بالسرعة القصوى • فهي لم تملك مــن مقومات التنظيم والاعداد العسكري ، ما يحقق لها التحــول الضروري من حركة محلية أو عصيان مسلح ، الى ثورة شاملة ذات أبعاد سياسية واجتماعية متبلورة • ورغم الذهنية المتقدمة لقائــدها المطرف ونزعتــه الجدية الى الاصلاح ، الا أنها كانت حركة محدودة النتائج الى حد كبير• ولكن الجانب المثير فيها ، كونها أول تحرك للمعارضة في اطار الحكــم الأموي ، تجاوزت الدوافع الشخصية والأنانية ؛ الى محاولة التعــرض لقضايا رصينة ومصيرية في ذلك الوقت • فكانت صرخة جريئة من داخل النظام الذي تجاهل وبصورة شبه دائمة مصالح الأكثرية في هذا الاقليم، حيث قامت حركة المطرف وبقية المسلسل الطويل من الحركات الثورية ، لقد أصبح العراق حينذاك وكأنه البركان الموقوت الذي لا ينفك يقذف بالثورة وراء الأخرى ، متحديا قبضة الامويين الشديــدة فــي شخصية الحجاج ، وشتى أساليب الملاحقة والعقاب الفردي والجماعي التي اشتهر بها هذا الأخير •

قائد أرستقراطي لثورة شعبية

لقد كانت حركة المطرف بن المغيرة ربما في جانب منها أو أكثــر ، مقدمة لأخطر ثورات العراق حينذاك وهي الثورة التي تزعمها عبدالرحمن

---

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ٢١١-٢١٢ •

بن محمد بن الأشعث ؛ وذلك عبر نحو ثلاثة أعوام من المجابهة الدموية المستمرة (٨١هـ — ٨٤هـ) • وهذا الأخير يتفق مع سلفه بأن كلاهما من بيت عريق الانتماء للنظام الأموي ، وكلاهما شغل مناصب ومهمات ذات شأن في ادارة الحجاج • وعدا ذلك فالاختلاف بل التناقض واضح جدا في مسار كل منهما وفي رؤيته للامور • فبينما تمرد الأول طوعا ، تحركه الثورة على الظلم والانحراف على حد قوله [1] ، كان الاخر مكرها بفعل ظروف مختلفة على اتخاذ هذا الموقع ، دون أن ينسى ما انطبع عليه من تربية انتهازية وذهنيـــة أرستقراطية • فعبـــد الرحمن هو سليل القبيلة الشهيرة كندة ، حيث كان زعيمها الأشعث بن قيس قد ارتد في مطـالع خلافة آبي بكر ، ثم تراجع عن ذلك بعد هزيمته على يد عكرمة بن أبي جهل • وفي (المدينة) أصبح الأشعث تدريجيا أحد البارزين من رجالات السياسة فيها ، غير أنه اكتسب شهرته بنوع خـــاص من خـــلال دوره المشبوه في حروب صفين • فقد كان من كبار المؤيدين لعلي على غرار أكثر القبائل اليمنية المتعاطفة مع الخليفة ، الا أنه ساهم جديا بتنفيذ فكرة التحكيم التي طرحها الجانب الأموي • ومع انتقال الخلافة الى معاوية كان الأشعث وأبناؤه من أركان النظام الجديد في العراق ، لا سيما محمد بن الأشـــعث ، أحـــد أبـــرز رجـــالات الطبقـــة التي اعتـــد عليهـــا الأمويون المعروفة بالأشراف ، كما كان اليد اليمنى لعبيدالله بن زياد في اجهاض ثورة الكوفة المفترض أن يقودها الحسين بن علي • وعبد الرحمن نفسه قائد الثورة ، لم يكن غير صورة مكررة لسابقيه ولعله كان أكثر مفاخرة بنسبه العريق وتشبثا بسلوكه الارستقراطي [2] •

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢١١ •

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٣٤ •

ومن البديهي أن رجلا له هذه الصفات ، من النادر أن يختار موقعا لنفسه غير الموالاة والتبعية للسلطة . فهو الموقع الطبيعي لاشباع ميوله الشخصية غير المتعارضة مع مصالح النظام ، لأنها جزء منها وتتكامل معها بصورة عضوية . ومن هذا المنطلق قد يتبادر الى الذهن بأن خطأ أصاب المعادلة القائمة ، مما سيؤدي ربما الى تفسخ الركائز البنيوية لهذا النظام. ولكن الواقع كان مخالفا لهذا التصور ، حيث لا زالت لدى السلطة الأموية حينذاك مركزيتها القوية وأدواتها المتفوقة لتصفية الحركات الثورية ، سواء كان مصدرها الأحزاب المعارضة أم المنشقون على النظام بدوافعهم المختلفة .

وهذه الثورة في اطارها التنظيمي ، لم تكن في البدء سوى الحملة العسكرية الضخمة التي أرسلها الحجاج ، لتأديب أحد ملوك الترك في المنطقة المحاذية لولاية سجستان الشرقية ، ومعنى ذلك أن قائد الحملة هو نفسه قد تحول الى قائد للثورة . وقد لا يكون ذلك مثيرا للاستغراب ، لأن أحداثا مشابهة في التاريخ غالبا ما استغلت لتحقيق عمليات من هذا النوع ، تتنازعها الرغبة في التغيير عبر دوافع متعددة . ولكن المثير في الأمر أن تتحول هذه الحملة الى ثورة شعبية ، وان يكون عبدالرحمن ، بغير ارادة منه ، قائدها المرغم على المطالبة بتغيير نظام هو الأقرب اليه والأحرص على استمراره .

وكان الحجاج بعد القضاء على خطر الخوارج في العراق، يعمل على تحجيم المعارضة السياسية وتطويق ما يمكن أن يساعد على نمو التيار الثوري ، تفاديا لأي فشل في مهمته الصعبة . ولعل حملاته العسكرية الى ما وراء سجستان هي محصلة هذه السياسة ، التي يجد فيها الباحث ارتباطا بالوضع الداخلي في العراق يتعدى بكثير أسبابها الخارجية .

والحجاج نفسه لا ينفي هذا التصور ، عبر المحاولة الهادفة الى تشتيت المعارضة وبعثرة عناصرها في مهمات مفتعلة . وأي سبب آخر قد لا يجد محلا له في سياق التعبئة العسكرية العريضة ، التي بادر الحجاج اليها مباشرة بعد تصفية ثورة الخوارج . ومن ناحية ثانية ، استنادا على الروايات المتعددة ، ان (رتبيل) ملك الترك المستهدف كان على وفاق مع النظام الأموي والتزام بالشروط ، التي نصت عليها معاهدة سابقة بين الطرفين [1] .

ولقد سبق أن قام عبيدالله بن أبي بكرة ، الحاكم السابق لسجستان ، بحملة الى كابل (بلاد رتبيل) [2] حيث أصيب جيشه العراقي بنكبة جسيمة ، بعد أن استدرجه الملك التركي الى شعاب ومضائق تلك البلاد ذات الطبيعة الجبلية القاسية [3] . وعكست تتائج هذه الحملة الفاشلة موجة من الأستياء في العراق على الصعيدين الرسمي والشعبي. فالحجاج من جانبه صدم بالمعاهدة المهينة التي حمل قائده على الموافقة عليها ، انقاذا لجيشه المحاصر . والعراقيون من جانب آخر استفزتهم الخسائر البشرية المرتفعة ، حيث كان المقاتلون في معظمهم من البصرة والكوفة [3] .

ولكن الحجاج ، وكانت لديه مجموعة جاهزة من الجند ، ما لبث أن قذف بها الى سجستان تحت قيادة حاكمها الجديد عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث. وهنا تتناقض الروايات حول الدافع الذي جعل من هذا الاخير

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٢٠ .
(٢) (٧٩هـ/٦٩٨ م) .
(٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٧ ص ٢٨٢ .
(٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢١٨ .

بطل المهمة العسيرة • ولا يستطيع الباحث على ضوئها ترجيح فرضية على أخرى الا بشيء من الصعوبة • فهل كان اختيار عبدالرحمن نوعا من التكريم لرجل ـ عدا المكانة التي احتلتها أسرته في النظام الأموي ـ كان بينه وبين الحجاج علاقات مصاهرة ومودة ؟ (١) أم أن اختياره كان جزءا من الحملة العامة التي شغل بها الحجاج في ذلك الوقت ، الهادفة الى التخلص من العناصر المعارضة وأبعاد ذوي الطموح السياسي عن العراق ، في مهمات أقرب الى النفي ، تفاديا لخطرهم ؟ ولعل الافتراض الثاني هو الأقرب الى الواقع ، وذلك اعتمادا على عدة مؤشرات ، منها العلاقة الشخصية التي يرجح بأنها غير ودية بين الرجلين ، ثم السرعة غير المتوقعة التي تم فيها اعداد الجيش وارساله مع القائد الجديد ، وكذلك التشنج الذي تحكم بتصرفات الحجاج ازاء اقتراح قائده في وقت لاحق ، بتجميد الوضع في (كابل) لضرورات عسكرية ، اذ رفض الحاكم الأموي مناقشة أي قرار لا يقترن بالحرب ومتابعة التقدم ، كما نصت عليه المهمة (٢) •

وما لبث عبد الرحمن أن سار الى مهامه كحاكم لسجستان ، على أن يتابع ما بدأه سلفه في كابل (٨٠هـ/٦٩٩م) • فنفذ طائعا أوامر الحجاج، وهاجم بجيشه الكبير معاقل رتبيل رغم التودد الذي أظهره هذا الأخير، ربما بدافع الخوف أو محافظة على سلامة الحدود والجوار • بيد أن ملك الترك ، كان على الأرجح يتحاشى الصدام مع العرب مؤثرا الحلول

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٣٤ .

(٢) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٨ ص ٨ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٢٠ .

السلمية [1] • ولكن عبد الرحمن لم يكن لديه خيار ازاء المهمة الثقيلة التي حمل أعباءها بغير حماس • وبقدر ما كانت البداية مشجعة وناجحة، كانت ملامح الخطر تزداد اقترابا ووضوحا • وأدرك القائد الأموي أنه أمام عملية استدراج أخرى ، يقوم بتنفيذها رتبيل للقضاء على جيشه الكبير • ولقد بنى اعتقاده على تجربة سلفه من ناحية ، وعلى التراجع المشبوه الذي قام به الملك التركي في عمق بلاده الجبلية من ناحية أخرى• وكان عبد الرحمن قائد الحملة مصيبا في مخاوفه من استراتيجية عدوه التي باتت معروفة، ولكنه وجد نفسه في مأزق الاختيار بين الاستمرار في التقدم وراء فلول الترك ، أو التوقف والاكتفاء بانتصاراته الجزئية المحدودة • وكان لكل من الخيارين محاذيره وخطورته •• فالأول يعني المغامرة بالجيش وهو على درجة عالية من الكثافة ، بعد تعزيزه بقوات اضافية بحيث يتعذر عليه التحرك بالسرعة المطلوبة ، فيكون هدفا سهلا للفتك به في تلك الممرات الضيقة• أما الثاني ، وهو لا يخلو من الحذر أيضا ، معناه طرح العلاقة بين قائد الحملة وبين الحجاج على بساط المناقشة ، بما يتمخض عن ذلك من نتائج ليست عمليا في صالح عبد الرحمن •

وقبل الاستطراد في مناقشة الموقف العسكري في بلاد الترك ، ينبغي التوقف قليلا عند الوضع الداخلي لهذه الجبهة ، وأعني هنا بصورة خاصة ، تركيبة الجيش الذي يقوده عبد الرحمن • فهو حسب الروايات التاريخية ، قد ضم أربعين ألفا من العراقيين جرى اختيارهم مناصفة من البصرة والكوفة [2] • أي أن زعامات المعارضة والقبائل

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٨ ص ٤ •

(٢) المصدر نفسه •

و «القراء» وبقية القوى المؤثرة في العراق كانت مشاركة في هذه الحملة، وهي معنية بدورها في تقرير الموقف الذي سينتهي اليه القائد العام .. وتنيجة لذلك فان هذا الأخير ، كان غير قادر على اتخاذ قراره بمعزل عن القيادات الأخرى .

واتتهى عبدالرحمن الى قرار وسطي وافق عليه الجميع ، وهو الاكتفاء بما حققته الحملة من مكاسب عسكرية واقتصادية والتراجع الى (بست) [1] . وكتب الى الحجاج باقتراحاته، التي اعتقد أنها قد ترضيه، وهي تجميد الحرب لفترة زمنية محددة لا تتجاوز العام ، كي يتاح للجند معرفة هذه البلاد والتأقلم مع طبيعتها الجبلية ، ومن ثم التوصل الى امتلاك أساليب القتال الخفيفة ، المتكافئة مع تلك التي برع فيها المقاتلون الترك . ولكن الحجاج ، وكان يدرك بشعوره الحذر ما قد يسفر عنه من نتائج، تجمع جيش كبير في قاعدة عسكرية من دون قتال، خاصة اذا كانت عناصره من المعارضة ومكرهة على الاشتراك في هذه الحرب . فكان رده كما توقعه الجميع هو الرفض وتجديد الأوامر بالزحف وراء قوات الترك في كابل ، ومعه تهديد بالعزل لقائد الحملة اذا خالف ذلك [2] .

وكان الموقف في (بست) على جانب كبير من التشنج ، ولم يكن الجند وقياداتهم ينتظرون سوى المحرك للانفجار والثورة . فقد بلغ الحقد على سياسة الحجاج وممارساته الفوقية حدا بعيدا .. اذ أن

---

(١) احدى مدن سجستان ، وكانت قاعدة عسكرية لشن الحملات ضد الامراء المستقلين في الشرق R. Hartmann . دائرة المعارف الاسلامية ج ٣ ص ٦٢٥-٦٢٦ .

(٢) « امض لما أمرتك به من الوغول في ارضهم والا فان اسحق بن محمد اخاك امير الناس » الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٨ ص ٨ .

اصراره على متابعة الحرب ، لم يــر فيه هؤلاء سوى مؤامرة جديــدة ضدهم للحؤول دون عودتهم الى العراق • ولا يستطيع الباحث أن يجد هنا تسويغا موضوعيا، لتشبث الحجاج بقراره العسكري غير هذا التصرور• ذلك أن العنف الذي انطبع عليه حاكم العراق منذ أول مهمة تولاها في حياته السياسية ، كان يفسد عليه الكثير من الحلول ويجره الى مآزق ، كادت أن تقضي عليه بعض الأحيان • لقد اعتقد أن أقصر الطرق الــى تطويع المعارضة هو اشغال الناس في هذا النوع من الحملات ، والهائها عن مقارعة النظام والمطالبة بشــروط أفضـــل لأوضاعهـــا الاقتصاديــة والاجتماعية • كانت تلــك نقطة الضعف في شخصية الحجــاج ، وهي المبالغة في اللجوء الى القمع وفي تجاهل الحقوق المشروعة لفئات عديدة كان يستخف بقوتها •

لقد كان جواب الحجاج ، المؤشر الذي قلــب المقاييس ، وعكس الاتجاهات في الحملة العسكرية في (بست) • وكانت المبادرة الأولى المضادة ، الدعوة الى مؤتمر عام لمناقشة موقف الحجاج•فألقى عبدالرحمن خطابا مؤثرا ، لا يخلو من عبارات تحريضية انعكس عليها ذلك التجريح بشخصيته من جانب الحجاج [١]• ولقد حركت كلماته عواطف الجنــد نحو الاتجاه ، الذي أصبح الخيار الوحيد للقائد والمقاتلين في الوقــت نفسه • ويظهر القائد ما لديه من ذكاء باعطاء القرار للمؤتمر، حسب مــا روى الطبري: «انما أنا رجل منكم أمضي اذا مضيتم وآبي اذا أبيتم»[٢]• فيأتي الرد السريع والفوري : « لا بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع » [٣] • هذه الاستجابة العفوية كانت تخفي وراءهــا كوامن

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٨ ص ٨ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٢٣-٢٢٤ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .

الغضب المخزونة لدى المقاتلين ، الذين اتخذوا منذ الآن موقعهم الطبيعي كثوار وليس كجند نظاميين تحت أمرة الحجاج .

وهكذا تحول الجيش الذي أعده الحاكم الأموي من صفوة المقاتلين في الكوفة والبصرة ليمضي في مهمة غامضة ، الى ثورة تستهدفه مباشرة وترفع السلاح في وجهه . وعبر الطريق الى العراق ، كانت عوامل اضافية مشجعة تدعم هذه الخطوة وتوسع دائرتها ، وذلك من خلال التعاطف المحسوس الذي لقيته من المدن والقرى المختلفة . وكان هذا دافعا الى بلورة قضايا لا زالت حتى ذلك الوقت خارج اطار المناقشة ، وهي تحديد الموقف من النظام الأموي .. وهو موقف من الصعوبة تجزئته ، لأن الحجاج عمليا هو احدى دعائم هذا النظام ومنه يستمد القوة . فجاءت صيغة البيان الأخير للثورة في هذا الشأن « بخلع أئمة الضلال وجهاد المحلين » (١) .

ولقد دأب قائد الثورة اثناء ذلك ما استطاع على اجتذاب الأنصار لضمان مجابهته مع الحجاج ، لا سيما الاتصال بحاكم خراسان ، القائد الشهير المهلب بن أبي صفرة . غير أن هذا الأخير لم يشأ ان يزج نفسه في هذه المغامرة ، وهو البعيد بطبيعته عن الحركات الانفصالية والثورية ، حيث قاومها طويلا في حملاته السابقة ضد الخوارج . فالمهلب كان ميالا كعسكري محترف الى الانضباط والموالاة ويرى موقعه الى جانب السلطة وليس ضدها (٢) .. ذلك ما انطبع عليه سواء تحت مظلة الحكم الأموي أم الزبيري أم أي حكم آخر . ومن هذه الرؤية الخاصة ، اكتفى

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٨ ص ٨ .
(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٠ .

المهلب باسداء النصيحة لعبدالرحمن بالتراجع عن عزمه ، وتحذيره من مخاطر مسيرته الى العراق ، في الوقت الذي أرسل الى سيده في الكوفة تقريرا شاملا عن تحركات الثورة ، ومعه تعليمات خاصة اكتسبها من خبرته الطويلة في الحرب [1] .

وفي تلك الأثناء كان الحجاج يترصد أخبار الثورة ، دون أن يفقد ثقته الكبيرة بنفسه ومقدرته الكبيرة على احباطها . فغادر الكوفة الى البصرة ، ومنها الى (تستر) [2] ، المكان الذي اتخذه معسكرا لقواته . وهناك تلقى الحجاج أولى هزائمه منذ بروزه على مسرح الأحداث في خلافة عبد الملك ، اضطر بعدها للانسحاب الى الزاوية (بالقرب من البصرة) . لقد كانت هذه النتائج تعني الكثير في حسابات الثوار ، الذين وجدوا في انتصارهم على الرجل الحديدي الذي زرع الخوف في قلوبهم زمنا ، الباب الواسع الى النجاح وتحقيق النصر . وكانت أولى ثمرات هذه المعركة ، دخول عبد الرحمن الى البصرة التي أعلنت موقفها المتعاطف مع الثورة . وحينذاك بلغت هذه الأخيرة ذروة مراحل التصعيد في مسيرتها الظافرة ، اذ أن الانتصار أعقبته انتكاسة غير متوقعة ، أدت الى استرداد الحجاج للبصرة الذي تصدى بشجاعة خارقة للثوار، متجاوزا مختلف المتاعب العسكرية والتموينية [3] . لقد تفادى استمرار التدهور في مواقعه بسبب عاملين أساسيين : الاول ، هو تطويق أزمة التموين

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٨ ص ١٠

(٢) تقع في اقليم خوزستان الى الشرق من نهر دجيل J. H. Kramers دائرة المعارف الاسلامية ج ٥ ص ٢٤١ .

(٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٨ ص ١١ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٢٥ .

والتخفيف من آثارها السلبية على قواته [1] • والثاني ؛ هو الدور الفعال الذي قامت به الفرقة الشامية بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي [2] ، القائد الأموي الذي استدعى اثر استفحال ثورة الخوارج الصفرية ؛ وكان له التأثير الكبير في القضاء عليها وتصفية قائدها شبيب بن يزيد •

ولكن خسارة البصرة في موقعة (الزاوية) ، لم تكن على درجة من الخطورة ، بحيث أن تأثيرها على مسار الثورة كان سطحيا ، لم ينل من اندفاعها أو من خططها التي استمرت في التنفيذ دونما عائق • وكانت الكوفة في الواقع ، المدينة الأكثر جدارة لاتخاذ موقعها المطلوب • فهي كمركز استقطابي للمعارضة ومناهضة الحكم الأموي ، احتلت دورها التاريخي في هذا المجال دون منافس ، وهو دور اكتسبته عبر تراث طويل من النضال السياسي والصراع الدموي ضد الأمويين • وما لبثت الكوفة أن تكتلت بكل فئاتها وراء عبد الرحمن ومنحته تأييدها المطلق • فقائد الثورة هو كوفي المولد والمنشأ وبالتالي فان قوته السياسية انما هي في الكوفة ، حيث تسود القبائل اليمنية ومنها القبيلة الشهيرة (همدان) التي كانت سباقه الى الاعتراف به [3] • بالاضافة الى ذلك فان الحزب الشيعي وهو أقوى الاتجاهات السياسية في الكوفة ، كان من السهولة المراهنة على مواقفه الايجابية في مثل هذه الظروف ، فهو يحمل استمرارية الثورة في وجدانه ، ويعيش التعبئة كالانفجار الموقوت • ومن خلال هذه المعطيات ، تجاوبت الكوفة بكل طاقاتها لتكون مركز الثورة

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٨ ص ١١ •

(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٢ •

(٣) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٤ • ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٢٦ •

على النظام الأموي ، القاسم المشترك الذي وحد بين فئاتها وبين قائدها عبدالرحمن •

وفي ذلك الوقت كان الخليفة في دمشق على اتصال وثيق بالأحداث المقلقة التي وفدت عليه من العراق ، فأبدى مخاوفه من تدهور الأوضاع الى درجة تفتقد فيها الخلافة زمام الأمور مرة أخرى ، خاصة بعد فشل الحجاج في استعادة الكوفة (١) • وبادر عبد الملك الى دعوة مستشاريه وأعوانه لدراسة الموقف في العراق والانتهاء الى حلول موضوعية ، تساهم في تخفيف حدة التحامل على السياسة الأموية، حيث كان الحجاج بأسلوبه القمعي أحد مظاهرها المتطرفة • ولقد أسفر الاجتماع عن اقتراحات عملية تجسد في الحقيقة المستوى الجدي الذي نوقشت فيه الأحداث العراقية ، فكان أشبه بعملية انتقاد ذاتي لسياسة النظام الأموي واعتراف بالسلبيات والأخطاء • ذلك أن وفدا من محمد بن مروان (أخ الخليفة) وعبدالله (ابنه) توجه الى دير الجماجم (معسكر الثوار) ، ومعه المقترحات التالية : عزل الحجاج عن العراق اذا كان ذلك مطلب العراقيين واستبداله بمحمد بن مروان• المساواة في العطاء بين أهل الشام وأهل العراق ، أي بتعديل نصيب العراقيين في العطاء وزيادته الى مستوى الشاميين• تعيين عبدالرحمن قائد الثورة على أية ولاية يختارها باستثناء العراق ، فتكون له طيلة حياته (٢) •

ومن الواضح أن الخليفة كان ايجابيا في حلوله التي بعث بها الى الثوار ، حتى أنه تخلى عن واليه المقرب الحجاج ، الذي وقع عليه عبء

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٢٧ •
(٢) المصدر نفسه •

المسؤولية في اجتماع دمشق • ولم تكن هي ظاهرة تغيير في سياسة الخليفة القوي ؛ بقدر ما كانت محاولة لتطويق الانفجار الكبير الـذي اجتاح العراق والحد من خطره • غير أن مقترحات عبد الملك لـم تلق التجاوب لدى الطرفين المتنافسين •• فالحجاج استقبلها بفتور وبشعور من المرارة والاستياء ، لتخلي الخلافة عنه في وقت لم يفلت زمام الأمر نهائيا من يده، بينما رفضها الثوار لاعتقادهم أن ميزان المعركة لا يزال في اتجاه مصلحتهم• وكان على رأس المتشددين (القراء) أو العلماء في المصطلح الحديث للكلمة ، وهم الفئة الطليعية في الثورة، وذلك من خلال المستوى الثقافي المرتفع الذي وصلوا اليه • وتتيجة لهذا الموقع فقد أصبح (القراء) نقطة الثقل في توجيه مسار الثورة ؛ وفي اتخاذ القرارات الحاسمة• وكان الوحيد الذي انحنى لعروض الخليفة وتعاطف معها ، هو قائد الـثورة نفسه • وهنا أخذت الصورة المتناقضة تنقشع عند أول تجربة بين الثورة كمبادىء وأهداف وجماهير معبأة ، وبين قائدها الأرستقراطي بما نزع اليه من امتيازات متوارثة • لقد كان لقاء عبد الرحمن مع ثواره، مجرد صدفة الزمته بها ظروف مرحلية خاصة ، ولهذا فان أي رادع لا يحـول دون تخليه عن التزاماته ، مهما عظمت اذا ما تغيرت هذه الظروف • وفي كل الأحوال فان طموحه كان الى جانب السلطة وليس الثورة عليها كمـا أشرنا •• ولم تكن دوافعه الأساسية الى الثورة ، سوى الشعور بالاهانة، والأهم من ذلك هو افتقاد المنصب والخوف على نفسه من عقاب الحجاج، وها هي الفرصة تعيد نفسها ، فتأتيه الولاية دونما شروط •

ولكن عبد الرحمن الذي التزم بميثاق الثورة وبايعته جماهيرهـا وقياداتها ، لم يكن صاحب القرار النهائي • فالموقف حدده الثوار بما لا يقبل المناقشة ، وهو الرفض المطلق لاقتراحات الخليفة ، والاستمرار في القتال ، وكانت لا تزال ظروفه تبعث على التفاؤل • وفي هذا الوقت كان

الحجاج الذي توقف في (دير قرة) ، مبتهجا بفشل المفاوضات وعـودة الخليفة الى تبني سياسته العراقية • وهكذا انتصرت ارادة الحـرب والمجابهة العسكرية ، وهي ارادة الثورة ، بجماهيرها وقياداتها وقرائها ، التي وحّد بينها ، وعبر مختلف مصالحها ، الموقف العدائي من الحجاج ، الأداة القمعية الأكثر تطرفا في تاريخ العلاقات بينها وبين النظام الأموي•

ولقد كادت القوى أن تكون متكافئة رغـم التعزيزات الأمويـة المتواصلة ، حيث طال أمد القتال دون تسجيل رجحان ملحوظ لأي مـن الطرفين [١] • الا أن الثوار قد أظهروا بعض التفوق في بداية الاشتباكات، ولكنه كان محدودا وفرديا انحصر تأثيره في التهيئة النفسية للحـرب • وتتوجت هذه العمليات الخفيفة بمعركة ضارية في (دير الجماجم) [٢] ، معسكر الثـوار ، انتهت بانتصار الحجاج وقواته النظامية المتلاحمة ، وهزيمة عبد الرحمن وفراره مع فلول ثورته الى المشرق • وكانت قـد جرت عملية مطاردة للقائد المهزوم ، لم يجد معها بدا من اللجوء الى بلاط (رتبيل) تنفيذا لاتفاق سابق بينهما [٣] •

كانت (دير الجماجم) ، معركة النهاية ضد أعظم ثورة شعبية في تاريخ العراق الأموي • ورغم أنها لم تكن الأخيرة في تصفية جذورها ، التي لا تزال قابلة للنمو في أطراف سجستان، الا أنها كانت معركة المصير التي أنقذ الحجاج بها نفسه من الاحتجاب ونظامه من السـقوط • ففي أعقاب الانتصار الكبير ، انصرفت جهود الحاكم الأموي في اتجاهين :

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١٣٢ •

(٢) وقعت في جمادي الثاني سنة ٨٢هـ/تموز سنة ٧٠١ م•

(٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٨ ص ٢٨ •

الأول ، عسكري وهو مطاردة بقايا الثورة في سجستان والقبض على قائدها بأي ثمن • والآخر ، داخلي حيث شهدت الكوفة محاكمات مثيرة أودت بالكثيرين من الثوار الذين وقعوا في قبضة السلطة بعد (دير الجماجم) ، بحيث تحول قصر الامارة الى مسرح دموي استهدف بشكل خاص ، الأسماء البارزة في المعارضة العراقية التي أراد الحجاج استئصالها والقضاء على أي أمل لها في التحرك •

وبالفعل ، فان القوى المناهضة للامويين في العراق تلقت ضربة عنيفة ، لم تعد معها قادرة على استعادة الحد الادنى من مواقعها السياسية في ظل تلك الظروف ، حيث قبضة الحجاج اشتدت في ملاحقة أعداء النظام ، حتى الذين في موضع الاشتباه • كذلك لم يعد هذا الأخير أمينا على وجوده وسط هذه البحيرة من الكراهية ، فلجأ مباشرة بعد الانتهاء من تصفية جيوب الثورة ، الى استبدال العاصمة التقليدية للولاية ، واتخاذ مركز آخر له في واسط [1] (الاسم الذي اختاره لعاصمته الوسطية الجديدة في العراق) ، تجسدت فيه ملامح الشخصية الأموية سياسيا وعسكريا • ولكن (واسط) على ما يبدو لم تنجح في منافسة الكوفة ، فبقيت مجرد قاعدة للجند الشاميين ، حيث أصبح لوجودهم ضرورة ملحة من أجل حماية النفوذ الأموي في العراق ، منذ أن تهدد عمليا أثناء هجوم الخوارج الصفرية على الكوفة •

ولكن ثمة شعورا بعدم الارتياح ، كان لا يزال يخالج حاكم العراق ببقاء عبدالرحمن خارج دائرة العقاب التي طالت رفاقه في الثورة • وكان الحجاج على استعداد لبذل المزيد من الثمن للحصول على رأس خصمه

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٣٦ •

الهارب ، واستحضاره بين يديه ، ليلقى جزاءه المحتوم • كما أن بقاءه في بلاط (رتبيل) حيث يجد العطف والترحاب ، من شأنه أن يستثير مخاوف الحجاج من متاعب مستقبلية ، قد يؤدي اليها هذا التعاطف ، وذلك في منطقة تعج بالعناصر المضطهدة والحاقدة على الحاكم الأموي بصورة خاصة • وهنا يضطر الحجاج الى اعفاء عدوه التقليدي (رتبيل) من ضريبة سبع سنوات [١] ، مقابل تسليمه قائد الثورة المنفي في بلاطه• ولم يجد ملك الترك بدا من الرضوخ لأمر ، لم يعد من الحكمة المضي في تحمل أوزاره • ومن المثير حقا أن يبلغ التناقض هذا الحد في العلاقة بين الحجاج ورتبيل، بحيث قضى على أية معادلة مفترضة يمكن استنتاجها في هذا الشأن • فبينما كان الحاكم الأموي متشددا حتى الاصرار في اعلان الحرب على ملك الترك ، متلمسا ذريعة الامتناع عن دفع الجزية [٢] وهو آمر غير مؤكد ، مما أدى الى دفع جيشين في مهمة غامضة وخطرة ، يتناسى الحجاج هنا عداوته لرتبيل ، ويتجاهل جدية المعركة التي افتعلها ضده ، وما أعقب ذلك من تعبئة عسكرية في العراق تحت شعار القضاء عليه • فلم يعد يرى من هذه الصورة ، غير ارضاء رتبيل لحمله على تسليم قائد الثورة الملتجيء لديه •

وكان لا بد من الافتراق بين عبد الرحمن ورتبيل ، بعد أن افتدى هذا الأخير مصالحه في الاعفاء من الضرائب وفي تجنب الحرب • فقام بتسليم صاحبه الى قوات الحجاج ، ومعه اخر فصول الثورة الكبرى ، التي لم يزل وجود قائدها في المنفى يبعث القلق لدى الحاكم الأموي •

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٨ ص ٤٠ .

(٢) يروي ابن الاثير أن رتبيل « كان يؤدي الخرج وربما امتنع عنه » الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢١٨ •

غير أن عبد الرحمن ، كان لا يزال يمتلك لحظة الاختيار الأخيرة ، فلم يشأ لعملية المساومة التي كان بطلها أن تأخذ المجرى الذي يشتهيه الحجاج ، ولكنه فضل اختصار الفصل النهائي من حياته ، وذلك بالقاء نفسه من مكان مرتفع في غفلة عن الحرس .. على نحو ما ترجحه أكثر الروايات التاريخية (٨٥ هـ/٧٠٤ م) [1] .

لقد فشلت محاولة أخرى من محاولات المعارضة العراقية ، التي ناضلت طويلا من أجل التغيير والاطاحة بنظام الأمويين . وخرج الحجاج، الهدف المباشر في هذا التحرك الثوري ، سالما من أخطر مواجهة مسلحة في تاريخه السياسي . غير أنه خرج متوكئا على النظام لا يملك القدرة على الاستمرار ، دون تغطية عسكرية دائمة من الجيش المركزي في الشام. وهذا سيفقد الكثير من القضايا الحيوية توازنها في دولة الأمويين ، خاصة على المدى المستقبلي القريب والبعيد .

والحقيقة أن ثورة العراق الكبرى التي قادها عبد الرحمن بن محمد بن اشعث ، كان وراءها عدة خلفيات موزعة الملامح ، بحيث أن عوامل ثلاثة تظافرت بشكل أساسي على انفجارها :

١ ــ ان الموالي ، الفئة المضطهدة في المجتمع العراقي وجدت متنفسها الطبيعي في الثورة ، للتعبير عن واقعها الاجتماعي المسحوق ، بعد أن تهيأت لذلك عبر مشاركات بدائية في انقلاب المختار وانتفاضة ابن جارود .

---

(١) يعرف المكان الذي انتحر فيه عبدالرحمن بن الاشعث باسم (الرخّج) ، وقد دفن هناك بينما حمل راسه الى الحجاج، حيث يقول أحد الشعراء : هيهات موضع جثة من راسها راس بمصر وجثة بالرخّج .
الطبري ج ٨ ص ٤١ . ابن الاثير ج ٤ ص ٢٤٢ . ابن قتيبة ج ٢ ص ٤٣ .

٢ ـ الحساسية التي خلفتها السياسة الأموية في العراق على كافة التيارات المعارضة فيه ، بحيث أن خلافة دمشق لم تعد تمثل ذهنية الاسلام كعقيدة لها محتواها الاجتماعي والسياسي ، بل تحولت الى نظام للاقلية تعتمد القمع كأفضل الأساليب لحماية نفسها من السقوط . وهذا الموقف أخذ يتجاوز الحزب الشيعي،ليصبح موقف الأغلبية الساحقة من المجتمع العراقي وملحقاته الشرقية .

٣ ـ ان تجييش العراقيين في حملات غامضة ولا تخلو من الخطورة في بلاد كابلستان البعيدة ، في وقت كانت الحاميات الشامية في العراق محصورة مهماتها في حماية الوالي ونظامه ، كان من الأسباب المباشرة التي فجرت الوضع في حملة عبد الرحمن ، ومن ثم تحولها الى ثورة مسلحة . وهذا ما يفسر استعجال الثوار في طرح موقفهم من النظام الأموي وليس من الحجاج فقط .

لقد تظافرت هذه الأسباب بشكل مباشر والتقت مع طموحات قائد متحدر من بيت ارستقراطي ، على مجابهة أقوى ركائز النظام الأموي . فكانت ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، ثورة العراق بكل ما تعنيه هذه العبارة ، من حيث المشاركة الواسعة والاستجابة العظيمة ، على نحو لم تشهده المحاولات الثورية السابقة . ولا بد كي نعي بصورة أكثر وضوحا خلفيات هذه الثورة الحقيقية ، من التوغل قليلا في ماضي المجتمع العراقي قبل الاسلام. ذلك أن هذه المنطقة الغنية بتراثها والمتفوقة حضاريا ، اتخذت منذ وقت مبكر دورها الاستقطابي للافكار الجديدة والحركات الثورية والاصلاحية . فقديما عاشت في العراق عناصر عربية تأثرت رغم تبعيتها السياسية للفرس ، بالثقافتين الاغريقية والبيزنطية ، فضلا عن العقيدة المسيحية . وأقامت قبلها والى جوارها ، عناصر أخرى سواء من الفرس ، وهم أغلبية السكان في المنطقة ، أو من الجاليات

الأخرى من يهود ونصارى من أصحاب المذهب النسطوري ، وهؤلاء كان لهم دور كبير في مجرى التعايش الحضاري، الذي اختمر في تلك الأرض منذ مئات السنين .

وساهم هذا التشابك بين مختلف الأفكار ، من شرقية متأثرة بعقائد ومذاهب الفرس (مجوسية ومانوية ومزدكية) ، الى غربية تستمد بريقها من الحضارات الاغريقية والرومانية والبيزنطية ـ المسيحية ، وما رافقها من عادات وتقاليد وآداب وفنون .. كل ذلك أدى الى نوع من التمازج الثقافي ، أوجد في النهاية مناخا مميزا ، من حيث الحد الأدنى من الحرية الفردية ، أو من حيث الغليان الفكري الذي أصبح مع الوقت أبرز سمات المنطقة . ومع انطلاق حركة التغيير في شبه الجزيرة العربية ، كان العراق أول الأقاليم المجاورة اتصالا بالاسلام ، حيث امتدت اليه بواكير الفتح المنظم . وما لبث أن تصدر الأحداث في الدولة الجديدة ، بقيام انتفاضة الكوفة ، أول احتجاج علني استهدف الخليفة الراشدي الثالث عثمان . ومنذ ذلك الحين لم يفقد هذا الأقليم المبادرة ، سواء كان مركز الحكم مع انتقال العاصمة الى الكوفة ، أم كان محور المعارضة بعد تحول الخلافة الى الأسرة الأموية في دمشق . ولا يمكن أن تتجاهل هنا الدور الذي قام به حزبا الشيعة والخوارج في بلورة مفاهيم المعارضة السياسية في العراق ، التي انتقلت بثقلها لاحقا الى الموالي . واذا كان الخوارج قد فشلوا لأسباب باتت معروفة في التغلغل بين الفرس ، فان الشيعة نجحوا الى حد كبير في اجتذابهم ، حيث لاقت طروحاتهم الاجتماعية التعاطف العفوي والاستجابة العريضة في أوساطهم .

وهكذا فان العراق بشخصيته الخاصة قبل الاسلام وبعده ، كان دائما وراء ما يمكن أن نسميه بالحنين الى الشعور الوطني ، أحد أبرز

الظواهر الخاصة لدى العراقيين ، والذي تصدى له الأمويون بعنف • ولقد رافق هذا الشعور مختلف الانتفاضات والحركات السياسية ، دون أي تقدير لخلفية الدوافع التي كانت وراء تلك الانفجارات الثورية المتواصلة في العصر الأموي • ولعل العباسيين كانوا أكثر استيعابا لهذه الحقيقة ، فجعلوا من العراق مقر ثورتهم الأول قبل انتقالها الى خراسان، ثم اتخذوه مركز دولتهم الجديدة بعد القضاء على الأمويين •

وباختصار فان ثورة العراق التي تزعمها عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، لم تكن غير تحالف مرحلي بين شخصية أرستقراطية ذات مصالح محددة ومرتبطة عضويا بالفئة الاجتماعية التي تحدر منها ، وبين جماهير الثورة التي وحد بينها ذلك الشعور الوطني ، وتلاحمت في اطار مشاكلها التقليدية والمتوارثة • كذلك فان طموح قائد الثورة التقى بدون تنسيق ، مع قضية مصيرية عاشت في ضمير العراقيين ، مما أدى الى فشل احداها ، وبقاء الأخرى في انتظار ثورات لاحقة (١) •

وتبقى بضعة استنتاجات لا بد من الاحاطة بها في نطاق التعليق على هذه الثورة ، وهي تسير في الاتجاهات التالية :

١ ـ لقد استقطبت الثورة كما عرفنا طاقات هائلة من القواعد والقيادات الشعبية ، فضلا عن عدد غير قليل من العلماء (القراء) ، وهؤلاء كفئة متفقهة ، احتلوا موقعا مؤثرا في المجتمع العراقي في ذلك الوقت • ولذلك فان انتصار الحجاج في (دير الجماجم) ، أوجد فرصة فريدة للامويين لسحق الحركات الثورية الخطيرة على مدى نصف قرن من

---

(١) I. Beydoun : Elements d'Analyse de l'Irrédentisme Iraqien sous les Omayyades p. 174 - 176 .

الزمن • أي أن احدى النتائج الأولية لهزيمة الثوار ، هي تدمير العنصر القيادي في المعارضة العراقية ، المؤهل للقيام بحركات مستقبلية في العراق •

٢ ـ من النتائج الفورية التي أفرزتها هذه الثورة على صعيد النظام الأموي في العراق ، تمثلت بانشاء الحجاج مدينة (واسط) كمقر لادارته بعد استنكافه عن البقاء في الكوفة • وكان الدافع الى انشائها ، عسكريا في المقام الأول •• فقد شاءها الحجاج قاعدة خاصة بالقوات الشامية في العراق ، الجاهزة للتدخل في الوقت المناسب • ذلك أن الحاكم الأموي بعد هذه الأحداث المتتابعة ، فقد قدرة السيطرة على العراق بدون تغطية عسكرية من الشام ، وهو المؤشر السلبي الذي حدّ كثيرا من كبرياء الحجاج وحجّم تأثيره لدى الخلافة •

٣ ـ التحول الجذري في أفكار ومواقف الموالي ، بحيث أن هذه الثورة زادتهم التصاقا بمشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية • ومن ناحية أخرى فان الشعور العدائي ضد الأمويين ، تصاعد مع ازدياد عمليات الاضطهاد التي مارسها الحجاج ضدهم بعد فشل الثورة • كما كان لهذه السياسة القمعية ، مردودا سلبيا لم يخل من الخطورة ، حيث دفعت بالعراق الى بداية تفريغه من سكانه الموالي ، وذلك بهجرة أعداد كبيرة منهم الى المناطق الشرقية البعيدة ، فأصبح تجمعهم في تلك الجهات أحد مصادر الخطر ضد الدولة الأموية •

٤ ـ انعكاس سياسة الحجاج الداخلية عامة وثورة عبد الرحمن خاصة على الاقتصاد العراقي • ومن المعروف أن العمران ، انما هو محصل حتمي للاستقرار السياسي •• وكان ذلك أبعد ما يكون عن

العراق بوجه عام ، في السنوات العشرين التي سيطر بهـا الحجاج على مقدرات هذا الاقليم • لقد انحسرت مشاركة الموالي في الانتاج الزراعي والصناعات اليدوية ، حيث كانت لهم الأسبقية في هذا المجال • وبلـغ الانهيار الأقتصادي حدا ، جعل حكم العراق بعد الحجاج على شيء من الصعوبة • فهذا الأخير شغل نفسه بتطويع المعارضة ومجابهة الحركات الثورية ، متجاهلا الأسباب التي كانت في الواقع مادة هذا الاضطراب السياسي •

٥ ــ انالهوة الكبيرة التيأخذت تتبلور أثر القضاء علىهذهالثورة، بين الموالي وبين النظام الأموي ، زادت فيترويج الأفكار الاصلاحية التي تبناها ودعا اليها زمنا الحزب الشيعي • ومع الوقت أصبحت من طروحات الموالي ، خاصة بعد فشل الأمويين في تثبيت الاستقرار الاقتصـادي والسياسي في العراق ، حيث تطور ذلـك الى قيـام المـوالي بدورهم التاريخي في الثورة العباسية •

الادارة المروانية

لقد بلغ نظام الملكية الوراثية والحكم المطلق الذي أسسه معاوية ، أبعد مراحله التنظيمية في عهد الخليفة عبد الملك ، أقوى شخصيات الحقبة المروانية من العصر الأموي • فهذا العهد مثّل في الحقيقة نقلة غير عادية في تاريخ دولة انطلقت من دائرة كادت لا تتجاوز بكثير آفاق أي مجتمع قبلي متواضع ، الى اطار المؤسسات الادارية (الدواوين) ، التي جاء تطويرها متلازما مع الجهود الدائبة لتدعيم الحكم المركزي في دمشق • بيد أن سياسة الاصلاح الاداري لم تؤثر على النظام السياسي، ولم تلامس نزعة الحكم الفردي لدى الخليفة ، ولكنها استخدمت لتقوية هذا النظام الذي بقي مستأثرا بالسلطة المطلقة ، دون بقية الأجهزة والمستشارين •

ومن البديهي ، أن عبد الملك لم يكن رائد هذه السياسة في الدولة العربية الاسلامية ، ولكنه تابع خطوات جدية في هذا الاتجاه كان قد بدأها عمر بن الخطاب في العصر الراشدي ومن ثم معاوية بن أبي سفيان في مطلع الخلافة الأموية • أما شهرة عبد الملك الادارية فكان مبعثها أن اصلاحاته سارت في اتجاهين متكاملين • الأول : تطوير الجهاز الاداري وتنشيط دوره المركزي والاقليمي • والثاني : تحرير الادارة والنقد من السيطرة الأجنبية وهو ما يعرف بحركة التعريب • ولعل الدوافع المباشرة لهذا الانجاز الكبير ، اقترنت بظروف العهد، حيث عاصر عبد الملك العديد من الاضطرابات السياسية والحركات الثورية التي

شلت طاقات الدولة وبعثرتها في معارك جانبية. ولقد اكتشف هذا الخليفة أن وحدة الدولة لا بد أن تبقى عرضة للحركات الانفصالية، ما بقي النظام المركزي غير قادر على استيعاب مشاكل مختلف الاقاليم ومعالجتها في الوقت المناسب .

وفي ذلك العهد ، كانت الادارة المركزية موزعة الى خمسة دواوين رئيسية : **ديوان الجند** ، وهو الذي يدين بظهوره الى الخليفة عمر بن الخطاب ، حيث كان منوطا به ترتيب الأمور المتعلقة بشؤون المقاتلين ورواتبهم ، ولذلك سمي أحيانا بديوان العطاء . ولقد أصاب هذا الديوان بعض التعديل استهدف خاصة المقاييس التي سبق أن حددها عمر في عطاءات الجند ، بحيث خضعت فيما بعد بشكل متذبذب لرغبات هذا الخليفة أو ذاك . **ديوان الخراج** وهو من أهم الادارات في العصر الأموي ، ومهمته الاشراف على مالية الدولة ومراقبة عائداتها وتسجيلها، وكانت نواته قد ظهرت في خلافة عمر أيضا [١] . **ديوان الرسائل** ، وهو في الحقيقة أحد مظاهر التطوير التي أصابت الادارة العربية في العصر الأموي ، وهو على الأرجح من انجازات معاوية [٣] ، وكان من مهامه الاشراف على قرارات الخلافة ومراسلاتها وتحقيق الاتصال والتنسيق مع الدواوين الأخرى ، أي أن هذا الديوان كان واسطة العقد بين الخليفة والادارة . **ديوان الخاتم** ، وهو الجهاز الذي أنشأه معاوية لتنفيذ أوامره في مختلف الولايات ، بحيث تأخذ طابعا رسميا لا مجال لتحريفها أو تعديلها ، اذ أن هذا الديوان كان منوطا به تسجيل كل قرار وتوقيعه

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب ١٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٤ .

بخاتم الخليفة وحفظ نسخة منه قبل ارساله [1] • أما الأخير فهو **ديوان البريد** الذي أنشيء في مطلع الخلافة الأموية ، في اطار يقتصر على المهمات الرسمية • ويعود الفضل بدون ريب الى معاوية في تنشيط هذا الديوان وتحسين وسائله ، بما ينسجم ورغبته في الوقوف على آخر التطورات في الدولة [1] •

هذه هي الصورة العامة للادارة الأموية كما رسم خطوطها معاوية• ومن البديهي أن الاضطرابات السياسية التي عصفت بدولة الأمويين في أعقاب وفاة يزيد الأول ، انعكست آثارها السلبية بدون ريب على الجهاز الاداري فأصيب بالجمود والشلل • ولذلك فان مهمة عبد الملك الأولى، انحصرت عمليا في احيائه واعادة تنظيمه وتطوير أساليبه • بيد أن المهمة الكبرى التي تصدى لتنفيذها، تلك التي أسفرت عن تعريب الادارة ومعها النقد • ذلك أن الدولة العربية الاسلامية منذ عصرها الأول ، لم تلجأ الى تغطية الفراغ الاداري الذي اصطدمت به ، كدولة حديثة العهد ، باعداد فئة من الموظفين وتدريبهم لتلافي هذه المشكلة ، فاهتمت فقط بتشجيع النزعة القتالية لدى العرب ، بحيث نجحت في تكوين جهاز عسكري قوي ومتطور • أما الجهاز الاداري فاضطرت الى تأمين أعماله بواسطة موظفين غير عرب ، سبق أن مارسوا هذا النوع من العمل قبيل الفتح ، سواء في مناطق النفوذ الفارسي في الجانب الشرقي من الدولة ، أم في مناطق النفوذ البيزنطي في الجانب الغربي والجنوبي منها • واذا استثنينا ديوان الجند ، وهو عربي في طابعه ومعاملاته ، وذلك لخلوه من التعقيد خاصة في مراحله الأولى ؛ فان بقية الدواوين كانت تدار باشراف عدد من

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب ٢٤ . حسيني : الادارة العربية ١٦٩ . ابن طباطبا : الفخري ١٠٧ .

(٢) ابن طباطبا : الفخري ١٠٦–١٠٧ .

الموظفين غير العرب • وكانت اللغة التي لا تزال أداة الكتابة وتحرير المعاملات وتسجيل البيانات ، هي لغة الموظفين أنفسهم الذين كانوا يجهلون بدورهم اللغة العربية •

وكان واقعا شاذا بما تعنيه هذه الكلمة ، أن تكون دولة بمثل هذه القوة وذلك الانتشار ، مرتهنة لطبقة محترفة من الموظفين ، لم تكن قد التحمت بعد ولاء وعقيدة مع النظام الجديد ، على نحو يوحي بالاطمئنان الكامل اليها • وهو واقع ينطبق أيضا على عملة هذه الدولة ، التي لا زالت حينذاك تتوكأ في معاملاتها النقدية على العملات الأجنبية . فلم يشأ عبد الملك أن يتمثل بأسلافه في تجاهل هذه الثغرة [١] التي أعاقت استكمال بناء الشخصية العربية واستقلاليتها في الحكم • وكان من الطبيعي أن تبدأ هذه الحركة انطلاقتها من العاصمة ، حيث استبدلت لغة الادارة السائدة ، وهي اليونانية (لغة الدولة البيزنطية) بالعربية وذلك في سنة ٧٨هـ/٦٩٨م [٢] • وكانت الخطوة التالية في العراق حيث تم تعريب ادارته الفارسية باشراف الحجاج بن يوسف ، بعيد القضاء على ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث [٣] • واستمر تنفيذ هذه العملية، فكانت آخر مراحلها في مصر على يد حاكمها ابن الخليفة عبدالله بن عبد الملك • ويبدو أن ذلك تم في أواخر هذا العهد ، مما أدى الى تشابك حول اسم الخليفة الذي أمر بتعريب هذا الديوان ، لأن بعض المؤرخين نسب هذا الانجاز الى الخليفة الوليد [٤] •

---

(١) Robert Mantran : L'Expansion Musulmane p. 137 .

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب ٤٠ .

(٣) ابن طباطبا : الفخري ١٢٢ . ضياء الدين الريس : عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية ٢٨٥–٢٨٦ . عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ١٦٣/٢ .

(٤) المقريزي : الخطط ١٥٨/١ –

وهكذا أصبحت اللغة العربية ، لغة الادارة الرسمية ، ونشأت تدريجيا طبقة من الموظفين والكتاب ، تولت أعباء ما حمله أسلافهم غير العرب خلال العهود الماضية • وامتدت عملية التعريب لتصيب النقد المتداول في الدولة وهو الفارسي في العراق والأقاليم الشرقية، والبيزنطي في الشام والأقاليم الغربية والجنوبية ، أي نقد الدولتين السابقتين للحكم العربي • وكانت الدوافع التي حملت عبد الملك الى تعريب النقد هي نفسها التي دفعته الى تعريب الادارة ، فلم يعد مقبولا استعمال عملة أجنبية لا تعبر عن شخصية الدولة ولا تحمل شعاراتها الخاصة بها • ومن ناحية أخرى فان العملة التي استمدت قيمتها من وزنها الصافي ، ذهبا أم فضة ، كانت في الواقع عرضة للتذبذب في مستواها كوسيلة للتبادل الاقتصادي • واذا اعتقد المؤرخون التقليديون بأن خلاف عبد الملك مع الامبراطور البيزنطي أو ما يعرف بقضية القراطيس المصرية حسب رواية البلاذري[1] ، هو الدافع المباشر لاصدار نقد مستقل وخاص بالدولة الأموية، فان ذلك أن صح وقوعه فلا يعدو أن يكون أحد العوامل المساعدة لهذه العملية • فالنقد هو أبرز مظاهر السيادة القومية للدولة ، وهو مرتبط بكيانها وشخصيتها الحضارية الى حد كبير • ولهذا جاء القرار بانشاء دار الضرب (أو السكة) [2] لاصدار عملة مستقلة ، (٧٦هـ/٦٩٥م) ، متوازيا مع تعريب الادارة ومكملا له ، بحيث تحررت الدولة من التبعية الادارية والاقتصادية غير المباشرة •

---

(١) تهديد الامبراطور بنقش عبارات مسيئة للاسلام على العملة البيزنطية ، البلاذري : فتوح البلدان ٢٤٠ . ابن الاثير ج ٤ ص ٢٠٢ . ص ٢٠٢ .

(٢) ابن الاثير ٤/٢٠٢ . الاب انستاس الكرملي : النقود العربية وعلم النميات ص ٩٢-٩٣ .

لقد نجح عبد الملك في محاولته الجدية هذه ، وعبر جهود مكثفة ، في اقامــة دولة جــديدة في ملامحها ؛ متطــورة في مؤسساتها الادارية والاقتصادية . وهي محاولة جاءت في الواقع استجابة لظــروف ملحة ، كانت وليدة التناقض المبدئي بين الطاقات العربية المحدودة في هذا المجال، وبين ضخامة الــدولة واختــلاف شعوبها وتفــاقم مشاكلهــا السياسية والاجتماعية. لقد كان ضروريا معالجة هذا الاختلال، باعطاء الدولةدورها الطبيعي في المسيرة الحياتية المتواصلة في ذلك الحين . غير أن اصلاحات عبدالملك رغم أهميتها الكبرى في اعطاء دولة الأمويين سماتها الحضارية الأولى ، فان أشد عيوبها ، ابقاء النظام السياسي في معزل عن هــذه الحركة ، وبالتالي في منأى عن التيارات الاسلاميــة المختلفة ، وذلــك لعجزه عن تقديم الحد الأدنى من البدائل أو الطروحات المتلائمة والمطالب التقليدية للمعارضة السياسية ، التي أخذت تتعرف الى حقوقها المشروعة مع ازدياد التحول في المجتمع ، من البساطة الى التعقيد أو من البداوة الى التحضر [1].

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٩٣ . القاهرة ١٣٢٢ .

استئناف حركة التوسع في المغرب

كانت السياسة الخارجية التوسعية في آخر هموم عبد الملك، وذلك لانصرافه كما أسلفنا الى معالجة المشاكل الداخلية ردحا طويلا من خلافته. فاذا استثنينا الجبهة الأفريقية التي استأثرت بنصيبها من الاهتمام لاعتبارات مختلفة ، فان الجمود كان هو الطابع العام لسياسة الفتح في ذلك الوقت. فالجبهة الشمالية التي كان مفترضا أن يعمد الامبراطور البيزنطي الى تفجيرها ، مستغلا الاضطرابات السياسية الخطيرة التي عصفت حينذاك بدولة الأمويين ، غابت عنها العلاقات العدائية بعض الوقت لتسود مكانها معاهدة للصلح (٧٠هـ/٦٨٩م) [١] . وكان الجراجمة لا يتورعون بدورهم عن اثارة المتاعب الحدودية بتحريض من البيزنطيين ، فاضطر الخليفة الى شراء سكوتهم تفاديا للحرب في هذه المنطقة [٢]. غير أن ميزان العلاقات أخذ في الرجحان لصالح الأمويين ، خاصة بعد استعادة العراق من الحكم الزبيري وملء الفراغ العسكري في (ثغر الجزيرة) [٣]. وفي آسيا الصغرى سيطر التوتر على جبهة الحدود بعد اعتلاء جستنيان الثاني العرش ونقض المعاهدة من جانب الخليفة. ولكن السلام عاد مجددا في أعقاب مساومة، تعهدت الدولة البيزنطية خلالها بابعاد الجراجمة الى

---

(١) يروي ابن الاثير ان عبد الملك عقد معاهدة صلح مع البيزنطيين في أعقاب تهديدهم للشام على أن يدفع لهم ألف دينار اسبوعيا . ابن الاثير ٤/١٥٠ .

(٢) ابن الاثير : ٤/١٤٩ .

(٣) ابن الاثير : ٤/١٩٦ .

آسيا الصغرى مقابل احياء المعاهدة التقليدية بين الطرفين [١]. لقد كـان هنالك اتفاق مبدئي على تكريس هذا الواقع في العلاقات بين الدولتـين البيزنطية والأموية، بعد اكتفاء الأولى بسلام مشروط لجبهة الحدود، كانت هي المستفيدة منه بشكل عام، واضطرار الثانية الى شراء هذا السلام بثمن باهظ أحيانا ؛ وذلك حرصا على وحدتها السياسية المتعثرة . ولكن الدولة الأموية تثبت قدرتها مرة أخرى على التصدي للخطر البيزنطي ، فتستعيد الحملات التقليدية (الصوائف) نشاطها بعيد القضاء على حركة ابـن الزبير في العراق والحجاز [٢] . على أن أشدها خطورة كما تـروي المصادر البيزنطية : هزيمة الامبراطور في آسيا الصغرى [٣] ، بحيث أن أي تأثير سياسي على مواقع الخليفة لم يعد في الحسبان .

بيد أن المجابهة الأموية – البيزنطية كان لها مسرح اخر غير آسيا الصغرى . حيث خاض العرب حرب التصفية ضد قواعد البيزنطيين على الساحل الشمالي لأفريقية ، وهـي التي استمد منها البـربر الدعـم والتحريض في تصديهم للقادة الأمويين . ولقد حاول البيزنطيون لوقت ما توظيف البربر في عرقلة تقدم العرب في هذه المنطقة ، على غرار الدور الذي قام به الجراجمة في آسيا الصغرى والمناطق الجبلية الأخرى . ذلك أن الدولة البيزنطية كانت تفتقر الى تغطية عسكرية مكثفـة لجبهاتهـا الطويلة مع العرب ، مما ألجأها الى استخدام حلفائها لتحقيق هذا الهدف

---

(١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحـر المتوسط ٩٩ .

(٢) الطبري ٢٠٦/٧ – ٢١٠ . ابن الاثير ١٨٧/٤ .

(٣) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحـر المتوسط ٩٩ .

في الوقت الذي حشدت فيه جل طاقاتها داخل أسوار القسطنطينية للدفاع عنهـا •

وهكذا فان جبهة المغرب، كانت المحور الجدي للسياسة التوسعية في عهد هذا الخليفة • فهي رغم النكسات الخطيرة التي اعترضت تقدم الامويين على أرضها ، فان الارادة الثابتة ظلت العنصر المحرك لمحاولات العرب في تحدي المصاعب وتذليلها • والحقيقة ان المغرب أخذ منذ ثـورة (كسيلة) في التحول الى مشكلة دائمة، لم يسبق أن شهدت مثلها عمليات الفتح السابقة • من هنا كان التخوف الأموي من تصاعد التحالف بين البيزنطيين والبربر ، وما يجر الى تهديد الحدود الغربية لدولتهم • ولعـل أحد مؤشرات هذا القلق ، أن يقوم زهير بن قيس قائـد حامية برقـة مزودا بقوات من عبد الملك وذلك في أشد الظروف حراجـة (٦٩هـ/ ٦٨٨) م ، للانتقام من ثورة (كسيلة) زعيم البربر الذي لا زال مسيطرا على القيروان • وعلى الرغم من نجاح زهير في مهمته والقضاء على كسيلة في معركة (ممس) [١] ، فان حملته كانت محدودة الأهداف على الأرجح واقتصرت على نتائجها الانتقامية • وما لبث زهير أن عاد أدراجه الى برقة ربما بدعوة من الخليفة ، أو لأنه آثر الابتعاد عن القيروان مدفوعا بشعور الحذر من البربر، الذين أثبتوا أنهم قوة عسكرية ذات شأن• ولكن الخطر كان مصدره البيزنطيون هذه المرة ، حين فاجأوا زهير بحادث لم يكن في حسابه ، وقضوا عليه في طريق العودة ، فانكفأت السيادة العربية الى الوراء بانتظار محاولات أخرى [٢] •

---

(١) احدى الوديان الواقعة على مسافة يوم من القيروان . ابـن عبد الحكم : ٢٦٩ . العدوي الامويون والبيزنطيون ٢٤٦ ــ ٢٤٧ .

(٢) بيضون: الدولة العربية في اسبانية ٤٥ .

حسان بن النعمان وملامح الاستقرار النهائي

لم يكن مقتل زهير بن قيس وهزيمة جيشه في كمين البيزنطيين، مجرد حادث سطحي في تاريخ العلاقات بين الدولتين المتنافستين على هذه المنطقة . فقد انعكست نتائجه لدى كل منها بحدود مختلفة عن الأخرى. فالخلافة المروانية التي تجاوزت محنتها الصعبة في الداخل ، لم تكن تبغي من وراء حملة زهير سوى اعادة الاعتبار لمواقعها السياسية في المغرب واثبات قدرتها على القيام بعمليات عسكرية في الخارج ، تستهدف على الأخص أعداءها التقليديين . فجاءت هذه الحادثة صدمة جديدة لمشاريعها التوسعية في المغرب ، وتأكيدا على جدية الموقف البيزنطي في التصدي لها وعرقلة مسارها . وفي المقابل فان الانتصار أتاح للبيزنطيين حرية أوفر للتحرك والاستفادة من الظروف المستجدة ، بحيث أن جهودهم الدائبة لتحسين مواقعهم العسكرية انصبت عبر اتجاهين متوازيين : تعزيز قواعدهم البحرية [1] وتدعيم وسائلها الدفاعية أولا ، واستمرار التحالف مع البربر وتحريضهم على العرب ثانيا . ومن خلال هذه المعطيات ، فان الدولة الأموية ، كانت معنية الى حد كبير بخطورة التطورات في المغرب وتحول الموقف العسكري فيه لصالح البيزنطيين . ولقد كان النظام المرواني متشددا ، في محاولة تصحيح ذلك الخلل في موازين القوى وتقويمها بما يتلاءم وسياسته التوسعية في هذه المنطقة .

وجاء اختيار قائد جديد هو حسان بن النعمان الغساني على رأس

(١) العدوي : الامويون والبيزنطيون ٢٥٠ .

حملة ضخمة الى المغرب [1] ، مؤشرا الى أن الخلافة قد انتهت من متاعبها الداخلية أو كادت ٠ وهو أول قائد من خارج المدرسة العسكرية التقليدية التي زودت هذه الجبهة بقوادها الكبار ، ولكنه كان على درجة من المهارة، اكتسبها من تجارب سابقة حتى حظي بتقدير الخليفة وثقته[2]٠ وكانت المرونة من أبرز الصفات المتلاحمة مع شخصيته القيادية ، حيث اشتدت الحاجة الى هذا الطراز من الرجال، توفرت لديهم من الشجاعة ما يماثلها من الحكمة والخبرة السياسية ٠ وكانت مهمة حسان على جانب من الخطورة ، اذ كان عليه أن يبدأ من القليل في أرض يسيطر عليها الشعور بالعداء والرفض وحتى بالحقد [3] ضد العرب ، الذين دفعوا بدورهم ثمنا باهظا لمحاولاتهم الفاشلة في التقدم عبر هذه الجبهة ٠ فلا زالت العلاقة على غموضها مع البربر ، ومضامين العقيدة الانسانية التي يحملها الفاتحون لا زالت مجهولة لديهم والهوة معهم على اتساعها ٠ لقد كان الواقع بحاجة الى تقويم جديد ودراسة أكثر شمولا ، لخلفية الموقف العدائي الذي اتخذه البربر في علاقاتهم مع العرب ٠

غادر حسان الفسطاط في سنة ٧٤هـ/٦٩٤م على الأرجح ، عبر الطريق المعروف الى طرابلس فالقيروان [4] ٠ ولم يصطدم بأية مقاومة ذات شأن حتى قرطاجنة، أهم القواعد البيزنطية وأبرز أهداف القائد الأموي، فسقطت في يده بعد معركة طاحنة اضطرت البيزنطيين الى اخلائها بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة ٠ فأخذ بعضهم طريقه الى صقلية والاخر الى

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٦٩ ٠

(٢) راجع التفويض الذي منحه عبد الملك لقائده حسان. ابن عذاري: البيان المغرب ١/٣٤ ٠

(٣) بيضون : الدولة العربية في اسبانية ٤٦ ٠

(٤) ابن عبد الحكيم : فتوح مصر والمغرب ٢٦٩ ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اسبانية ، وهي تحت السيادة القوطية حينذاك • ولم يكن القائد الأموي بحاجة من الناحية الاستراتيجية الى هذه القاعدة ، التي قد تكون هدف البحرية البيزنطية في المستقبل ، الأمر الذي دفعه الى تدميرها [١] بحيث تحولت الى أطلال ، لا تحفظ من ماضيها العريق غير الذكريات • وكان لهذا النصر الباهر الذي حققه حسان بن النعمان أهميته الكبرى في تدعيم الموقف العربي العسكري في المغرب ، وذلك بعد ازالة أقوى القواعد البيزنطية التي غذّت باستمرار عمليات المقاومة ضد العرب والتصدي لهم • ولقد حاول العرب استثمار انتصارهم في قرطاجنة عبر سلسلة من العمليات السريعة استهدفت بعض المدن الساحلية ، فسيطروا على المنطقة بكاملها ما عدا جيوب قليلة [٢] • ولعل القائد الأموي شعر حينذاك بتحرك ما على جبهة البربر ، فآثر العودة الى القيروان قبل استكمال السيطرة على مراكز النفوذ البيزنطي في الشمال •

---

(١) ابن الاثير : ٤/١٨٠ .
(٢) المصدر نفسه .

ثورة البربر الثانية

بعد مقتل كسيلة ، زعيم ثورة البربر الأولى لم يتوقف تيار المقاومة للوجود العربي في المغرب . فانفجرت ثورة الأوراس وهي « بترية » الملامح بخلاف سابقتها التي تصدرها « البرانس » ، وكانت بقيادة امرأة غامضة معروفة في المصادر العربية باسم الكاهنة [1] . وهي تتحـدر من قبيلة (جرواه) الكبيرة التي دانت على ما يبدو بالعقيدة اليهودية [2] ، بحيث أن هذه الأخيرة ، كانت أكثر انتشارا في قبائل البتر ، بينما كانت المسيحية منتشرة في قبائل البرانس ، خاصة (اوربه) التي ينتمي اليهـا (كسيله) . وكان من الطبيعي أن يكون المغرب هدفـا لتأثيرات عقائدية مختلفة ، جاءت محصلة لمتغيرات سياسية شتى كانت تمر على ارضه بين الحين والآخر. غير أن كلا من العقيدتين اليهودية والمسيحية ، لم ينجح في تحقيق انقلاب في افكار البربر والتأثير جذرياً على شخصيتهم الدينيـة والثقافية، بحيث بقيت الوثنية التي استمدت قيمها وعباداتها من الظاهرات الطبيعية ، هي الأكثر استقطاباً بين قبائل البربر [3] .

لقد نجحت الكاهنة في تحقيق التفاف واسع حول ثورتها من البربر ومن بقايا الجيوب البيزنطية في المغرب، وهـذا يفسر احتلالها لمدينـة (باغايه) [4] الساحلية ــ الى الغرب من بونة ــ آخر المعاقل المهمة التي

---

(١) ابن الاثير : ١٨٠/٤–١٨١ .
(٢) ابن خلدون : ١٠٨/٦
(٣) بيضون : الدولة العربية في اسبانية ٤٨ .
(٤) ابن الاثير : ١٨٠/٤ .

احتفظ بها البيزنطيون ، ولم يستطع حسان الذي سارع الى اعتراضها ، الوقوف في وجه الحشود الضخمة التي تكتلت وراءها ، فتراجع مهزوما الى برقه في ثالث عملية انسحاب للقوات العربية منذ معركة تهودة، ولكن الهزيمة كانت أخف وقعا على النظام الاموي من سابقاتها ، خاصة وان الظروف الداخلية كانت مشجعة على تكثيف الجهود العسكرية في هذه المنطقة . فاعتبرت موقعة نيني[1] مجرد نكسة محدودة النتائج ، بدليل أن القائد المهزوم لم يفقد ثقة الخليفة به ، فانتدبه مرة أخرى على رأس المهمة الصعبة بعد سنوات قليلة من محاولته الاولى . ويبدو أن الوقت كان أجدى حلفاء القائد الأموي ؛ حيث جرت أثناء غيابه تطورات داخلية في المغرب ، أدت الى اضعاف مواقع البربر والبيزنطيين معا . فالكاهنة كانت على غرار جماعتها تتبنى استراتيجية التدمير [2] كسلاح خاص ضد استقرار العرب ، خاصة بعد الجهود التي بذلت في انشاء القيروان وتعميرها ، بحيث كانت الانطلاقة العملية الأولى في هذا المضمار . ولقد أدى ذلك الى تضارب في المواقف بين البربر وحلفائهم البيزنطيين ، الذين استمدوا قوتهم في المغرب من قواعدهم البحرية المنتشرة على الساحل الشمالي ، فكان الافتراق بين الحليفين [3] . ومن ناحية أخرى فان ممارسات الكاهنة ونفوذ جماعتها الجبليين أو الاوراسيين على حد تعبير مؤرخ معاصر [4] قد أوجد نوعا من الحساسية ان لم نقل التنافر في أوساط كبار الملاكين ، وهم الطبقة التي افرزتها مجموعة الدول المتعاقبة على حكم هذه المنطقة عبر قرون عديدة خالية .

---

(١) النهر الذي جرت المعركة على مقربة منه . ابن الاثير : ١٨٠/٤ ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٧٠ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) عبدالله العروي : تاريخ المغرب ، محاولة في التركيب ٨٤ .

(٤) العدوي : الامويون والبيزنطيون : ٢٥٤ــ٢٥٥ .

وهكـذا فان عـودة حسان الـى جبهة المغرب (٨١هـ /٧٠٠ م) اقترنت بمعطيات مستجدة ، كان من الواضح أنها غيرت موازين القوى بين الاطراف المتشابكة، والتي حال تصارعها دون اتمام عملية التعريب فوق هذه الارض، بالسهولة التي رافقتها في مناطق اخرى انضوت سريعا في اطار الدولة العربية الاسلامية • وكانت عملية حسان اكثر مـن مجرد حملـة عسكرية ذات هدف انتقامي . اذ أنهـا وضعت لبنة التحول السياسـي والحضاري الأولى في المغرب، ذلك التحول الذي طال انتظاره أكثر من نصف قرن من الزمن • فقد ثبت للبربر عقم المحاولات اليائسة التي قاموا بها دفاعا عن كيانهم وشخصيتهم المتوارثة ، لا سيما بعد افتقادهم الحليف القوي الذي حرك فيهم غرائز المقاومة ضـد العرب • ولعلهم افتقـدوا ايضا الاختيار ، حيث بدأت لأول مرة مشاركة تيار مـن البربر للفاتحين في حرب الاوراس ، التي انتهت بالقضاء على ثورة الكاهنة دونما كثير من الجهد [1] • ولقد اسفر انتصار القائد الأموي عن بضع نتائج على جانب من الاهمية، بحيث نستطيع القول أن فتح المغرب دخل آخر مراحله الصعبة الطويلة • ففي المنطقة الساحلية غاب النفوذ البيزنطي بعد تصفية مراكزه وفي طليعتها قرطاجنة ، التي استعيدت بعد احتلال البيزنطيين لها أثنـاء هزيمة العرب السابقة• وفي الاتجاه نفسه الهادف الى تطهير السواحل من السيادة غير العربية، اتخذ حسان قرارا بانشاء قاعدة حربية لا تكون بديلة لقرطاجنة فقط ، ولكن متفوقة عليها في موقعها الجغرافي • فظهرت تونس اول مركز بحري للعرب في المغرب ، وذلك على مسافة قريبة الى الجنوب الشرقي من القاعدة البيزنطية السابقة • ومن نتائجها على صعيد البربر ، انهيار مقاومتهم العنيفة التي حالت دون تقدم العرب في هـذه المنطقة ،

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٧١ . ابن الاثير ١٨١/٤ .

بحيث ان هذه المقاومة تقلصت الى حد كبير وانحصرت عبر جيوب محدودة في المغرب الاقصى . ولعل هذا التحول في موقف البربر لم يستمد من التفوق العسكري العربي ، ولكن على الأرجح من تغيّر في خلفيته القيادية، حيث كان حسان بن النعمان أكثر القادة الأمويين استيعابا لظروف البربر والعوامل المؤثرة التي احاقت بها . فقد توجه هذا القائد الى عقول البربر ، قبل ان يستفز مشاعرهم العدائية بالحرب ، من هنا نستطيع تفسير التركيز على مجابهة البيزنطيين والعودة الى القيروان في بداية مهمته ، دون التعرض لمواقع البربر .

لقد اعطت هذه السياسة ثمارها الايجابية ، فاخرجت البربر من عزلتهم التاريخية ، وازالت جدران الخوف والتشكيك بينهم وبين العرب. وكانت ابرز مؤشرات هذه السياسة ، المحافظة على الشخصية القبلية واحترام النزعة الاستقلالية لدى البربر ، تلك التي تبلورت على الخصوص في عهد خليفة حسان وأشهر قواد المغرب موسى بن نصير [١] .

لقد تفرغ حسان بن النعمان بعد تصفية ثورة البربر الثانية وازالة معالم النفوذ البيزنطي ، الى عاصمة العرب في افريقية (القيروان) ، وكانت لا تزال تتخذ طابعها الخاص كقاعدة عسكرية منذ تأسيسها في أيام عقبة بن نافع . ففي خلال السنوات القليلة اللاحقة ظهرت القيروان بشخصيتها الجديدة، لتكون نواة الجذب العمراني والتحول الحضاري في المغرب . ولكن ثمة تغييرات ادارية اسفرت عن تنحية هذا القائد وابداله بآخر، هو موسى بن نصير (٨٥هـ /٧٠٤م) . ولا يبدو أن الدافع لهذا القرار تغيّر ما في سياسة الدولة التوسعية في هذه المنطقة ، بقدر ما كانت له

---

(١) بيضون : الدولة العربية في اسبانية ٥٢ .

خلفيات شخصية ، تدخلت فيها على الارجح صداقة القائد الجديد مع ولي العهد وحاكم مصر عبد العزيز بن مروان • وموسى بن نصير الذي ينتمي الى قبيلة عريقة في الحرب حتى قبيل الاسلام ، هي بكر بن وائل ، كان مفطورا على الحرب ، متقنا لاساليبها البحرية والبرية ، فضلا عن شخصية ذكية وتجربة في السياسة طويلة ، مما أدى الى اختياره كمستشار خاص لولي العهد ، قبل أن يسعى الى تعيينه هـذا الأخير حاكما علـى ولاية افريقية (١) •

والحقيقة ان البداية الزمنية لمهمة القائد الجديد في المغرب ، رافقها بعض التشويش والاضطراب في تحديد كتابات المؤرخين لها • بحيث لا يمتلك الباحث غير الترجيح بأن يكون تعيينه قد جرى في الفترة الأخيرة من حياة عبد العزيز بن مروان، الذي صادف موته في السنة نفسها ، وان كان تنفيذ المهمة قد تم في وقت متأخر من عهد عبد الملك او في مطلع عهد الوليد • ولكن الاضطراب في هذا السبيل ، الذي كانت سببه في الغالب التغييرات المتلاحقة لا سيما في دمشق والفسطاط ، لم يؤد بالضرورة الى تبديل ما في الاجراءات التي انتهت الى تثبيت موسى بن نصير بصلاحيات خاصة في حكم الولاية الافريقية (٢) • ولقد رافق الحاكم الجديد اولاده الاربعة ، وهم مفطورون بدورهم على تربية عسكرية ، شأن ابيهم الذي تأثروا به الى حد كبير ، فكانت حقبة زمنية متأثرة بدورها بسلوك هذه العائلة السياسي والاجتماعي •

---

(١) الاسم المتداول لها في ذلك الوقت . العدوي : موسى بن نصير ١٣ ١٤ . حسين مؤنس : فجر الاندلس ٤٦ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٧٤ .

ولعل الافكار الخاصة التي انفرد بها موسى بن نصير، دون الآخرين من القواد الذين سبقوه ، تمحورت حول نقطة الضعف الرئيسية في موقع العرب العسكري ، وهي افتقادهم الى السلاح البحري المتكافىء مع قوتهم البرية ، مما ادى الى استمرار التفوق البيزنطي في هذا الجزء من البحر المتوسط • واذا كان سلفه قد تنبّه الى هذه الثغرة ، فان موسى كان مبادرا الى تنفيذ فكرته ، بانشاء قوة بحرية بالسرعة الممكنة • وما لبثت تونس القاعدة العربية الجديدة أن أصبحت مركزا لصناعة السفن، حيث كانت واسطتها الى الاتصال بالبحر قناة طويلة ، مما جعل أسطولها في مناعة من الهجوم [1] واكسبها موقعا مثاليا في التصدي للبحرية البيزنطية • ومن هذه القاعدة انطلقت سلسلة من العمليات ، استهدفت بعض جزر وشواطىء القسم الغربي من البحر المتوسط [2] ، وهي رغم اقتصارها على مهمات محدودة ، فان نتائجها على المدى القريب لم تكن خالية من المفاجآت •

ولم تكن مهمة موسى خارج النطاق البحري على شيء من الصعوبة، فقد اهتم أولا بتدعيم مركز القيروان العسكري ، لتأخذ دورها في تغطية التقدم العربي في المغرب من ناحية، وامتلاك وسائل المقاومة للدفاع عن نفسها عند الحاجة من ناحية أخرى • ولقد انتشرت القوات العربية في أكثر من اتجاه ، دون أن تفقد وحدة التحرك والتنسيق فيما بينها • وكانت أولى نتائج هذه الخطة، السيطرة على المغرب الأوسط ومطاردة المتمردين من البربر حتى اقليم السوس الاقصى في عمق المغرب • ولعل

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ٦٥/٢ . ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ١٠٢ .

(٢) المصدر نفسه ٦٦/٢ .

ما يميز هذه الحملة ، هو ارتفاع نسبة المقاتلين من البربر الى جانب العرب بقيادة مروان بن موسى • وفي الوقت نفسه كان القائد العام يتجه الى السوس الأدنى المجاور لمدينة (طنجة) ، أهم المدن الساحلية الواقعة على المدخل الغربي للمضيق الشهير ، الفاصل بين البرين الاسباني والأفريقي • وكانت هذه المدينة خاضعة من الناحية الادارية لشخصية غامضة ، اتخذت من (سبتة) مركزا لها ، وهي تمثل على الأرجح بقايا النفوذ البيزنطي المتراجع ، ولكن في اطار من الاستقلالية • ويتجلى التقارب بين العرب والبربر، في اختيار موسى أحد كبار معاونيه من هؤلاء وهو طارق بن زياد ، الذي عينه حاكما على طنجة خلفا لابنه مروان ، تقديرا لجهوده التي بذلها في الحملات التأديبية ، المستهدفة فلول البربر في المغرب الأقصى (١) •

المغامرة الكبرى

كان فتح اسبانية متصلا في كثير من جوانبه بالسياسة التوسعية في المغرب • بيد ان غموضا ما ، يحيط بالمدى الذي بلغه ارتباط احدهما بالاخر من وجهة النظر الاستراتيجية • فهناك بضعة احتمالات تواجه الباحث في تعرضه للعوامل التي أدت الى تنفيذ فكرة الفتح في هذه البلاد، اذا كان ذلك قد تم بناء لخطة مسبقة أعدت في بلاط الخليفة الوليد، المعروف باهتماماته التوسعية وتشجيع هذا النوع من المبادرات العسكرية ؟ أم أنها مجرد فكرة خاصة بالحاكم الأموي في المغرب، الذي تتحدث المصادر عن طموحه الى المزيد من النفوذ والسلطان (٢) ؟ أم أن

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٧٥ . ابن قتيبة : الامامة والسياسة ٢/٦٦-٦٧ •

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ٤/٧٠-٧١ •

بواعث اقتصادية تقدمت على كل الأسباب ، فجذبت انتباه المقاتلين الى هذه الأرض ، التي باتوا على أميال منها وسمعوا الكثير عـن ثرائهـا وكنوزها ؟ أم تكون في النهاية ، تلـك الأسطورة التـي تتحدث عـن (فلورندا) Florinda وشرفها الملوث في بـلاط الملـك الاسباني ، ومحاولة أبيها يوليان الانتقام بواسطة العرب [١] ، أسياد المنطقة الجدد؟ تساؤلات قد لا يتوافق بعضها والبحث العلمي ؛ ولكنهـا في النتيجـة صالحه لدى فريق من المؤرخين للاخذ بها واعتمادها [٢] .

والحقيقة أن أي تقويم للاسباب التي دفعت العـرب الى عبـور المضيق والسيطرة على اسبانية ؛ لا يمكن أن يتم في معزل عن معرفـة الظروف السياسية والاجتماعية التي عاشتها هذه الأخيرة قبيل الفتـح . فهذه البلاد كانت حتى أواخر القرن الرابع الميلادي ، الولاية الغربية في دولة الرومان ، التي أخذت تفتقد محتواها الامبراطوري في أعقـاب تزايد الضغط الجرماني على ممتلكاتها لا سيما الواقعة الى الغرب. وكان على روما أن تدفع الثمن باهظا ؛ فتساوم على اسبانية بالتنازل عنها للقوط الغربيين (احدى الجماعات الجرمانية) ؛ قبل أن تضطر الى الاستسلام نهائيا في أواخر القرن الخامس الميلادي .

---

(١) تقول الرواية التاريخية أن يوليان حاكم سبتة Ceuta ارسل ابنته الى بلاط الملك القوطي في طليطلة على عادة الاسـر النبيلة للتـأدب بآداب البلاط بين وصيفات القصر ، فرآها روذريق ، وكانت تتمتع بحظ وافر من الجمال فاعتدى عليها . اخبار مجموعة ٢٠ .

(٢) Goston Wiet : Grandeur de l'Islam p. 50-15 .

وكان الونـدال Vendal [1] (وهم قبائـل جرمانية أيضا) قد سبقوا القوط الغربيين الى اسبانية ، الذين بذلوا جهودا مستميتة فـي دفعهم الى المغرب ، وذلك بزعامة ملكهم أدولفو Ataulfo (٤٢٩م) [2]. غير أن أسياد هذه البلاد الجدد لم يكونـوا فـي تقاليدهم ومعتقداتهم الجرمانية الطابع ، اقل تناقضا من الوندال ، مع طبيعة المجتمع اللاتينـي الجذور ، حضاريا وعقائديا . ورغم تخلي القوط عن مذهبهم الأريوسي واندماجهم في المذهب الاثناسيوسي (الكاثوليكي لاحقا) في الـربع الأخير من القرن السادس ، فان التمازج الحضاري ظل مفقودا بين الحكام القوط والسكان الأصليين . ومن الواضح أن هذا الاختلال بين شعب أكثر تحضرا من النظام الذي يخضع اليه ، قد أوجد نوعا من التنـافر بين الطرفين المتناقضين . ذلك أن الطبقة الحاكمة من القوط فشلت في خلـق مجتمع متجانس موحد المصـالح والانتمـاء الوطني ، فاقتصر التعامل [3] معهـا على الأرستقراطية الـدينية (كبار رجـال الـدين) والاقطاعية النافذة (النبلاء وكبار الملاكين) [3] . وكان احتكار الملكيات الكبيرة في الأرض والاستئثار بالمناصب الرفيعة، هما الجامع المشترك بين هاتين الفئتين ،و بينهماوبين النظام الذي أيدتاه طالما حافظ هذا الأخير على مصالحهما الحيوية. في هذا الوقت كانت الغالبية من السكان خـارج هذه الطبقة ، متضررة بنسب تتفاوت بين فئة وأخرى ، بيد أنهـا عانت جميعها من الضرائب المتزايدة التي أعفي منها الاقطاعيون والكنيسة. وفي وسط هذه اللوحة السكانية المضطربة ، التي تضم كذلـك مجموعـة

---

(١) يعتقد ان التسـمية العربية (الاندلس) Vandalucia مقتبسـة من اسم هذه القبائل . بيضون : الدولة العربية في اسبانيا ٦٠ .

(٢) سعيد عبدالفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى ٦٩/١ـ٧٠

(٣) عبد الحميد العبادي : المجمل في تاريخ الاندلس ٣٢ـ٣٣ .

المتضررين والمعدمين ، من التجار وصغار المزارعين والعبيد واقنان الارض، فضلا عن اليهود الذين تعاملوا بالربا والصيرفة ، الحرف التقليدية التي اشتهروا بها ، فكانت ترهقهم الضرائب الثقيلة بدورهم وتشستد عليهم قبضة الاضطهاد الديني بين الحين والاخر [1] .

بيد أن التركيبة العضوية بين النظام القوطي وبين الأرستقراطية الدينية والاقطاعية ، تعرضت لأشد أزماتها في مطلع القرن السابع الميلادي . وكان مصدرها البلاط نفسه حيث قام الملك ويتيزا Witiza بمحاولة اصلاحية، استهدفت التقليل من طغيان الحكم والتخفيف من عوامل التذمر وأسباب النقمة، مما أدى الى انفجار العلاقة بينه وبين الأرستقراطية الدينية . ولقد وصف الملك الجديد بالتسامح والانفتاح ، وهما صفتان انفرد بهما عن أسلافه المتطرفين [2]. غير أن سياسته الاصلاحية استعدت عليه الكنيسة بشكل خاص ، فدبرت ضده انقلابا بمساعدة قائد كبير في الجيش وهو روذريق Rodrigo الذي أطاح به وجلس مكانه على العرش . ولم يكن ذلك غير بداية للأزمة السياسية التي فجرت التناقضات في المجتمع الاسباني حينذاك ، لأن ابني الملك المخلوع رفضا الاعتراف بالأمر الواقع ، وتصدرا حركة المعارضة ضد روذريق [3]، متوسلين مختلف الطرق للقضاء على هذا الأخير . فحظيا بتأييد التجار وصغار الملاكين في الداخل ، وتطلعا الى القوة النامية على الضفة الأخرى من المضيق حيث أقاما علاقات ودية مع العرب ، ربما مباشرة أو بواسطة يوليان حاكم (سبتة) .

---

(١) بيضون : الدولة العربية في اسبانية ٦٣

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب : ٢/٤ .

(٣) اخبار مجموعة : ٨ .

وهكذا فان الصورة الداخلية المضطربة للحكم القوطي ، يكمن فيها مفتاح المعرفة للدوافع التي حملت العرب الى التفكير بالعبور الى اسبانية • ففي مقدمة الطروحات الموضوعية ، هناك العامل المشجع ، المرتبط بانهيار الوضع الداخلي في هذه البلاد • ثم يليه العامل العسكري، حيث كان العرب على خلاف القوط ، يختتمون باتتصاراتهم الأخيرة في المغرب أطول عمليات الفتوح في تاريخهم ، التي كان من نتائجها تطويع البربر وادماجهم في القوة المقاتلة ، وتحجيم النفوذ البيزنطي وكذلك انطلاقة العرب البحرية في غربي المتوسط • ولا يمكننا أيضا تجاهل العامل الجغرافي ، الذي جمع بين المغرب واسبانية عبر واقع بيئي واضح، بحيث بدت هذه الأخيرة أكثر انفتاحا على الأولى منهما على أوروبا ، الفاصلة بينهما جبال مرتفعة هي البرينيه Pyrenaei ، فضلا عن العامل التاريخي الذي وحّد لقرون خالية ومتواصلة ظروف كل من الاقليمين حضاريا وبشريا وسياسيا •

وأخيرا لا بد من التنويه بالعامل السياسي ، الذي ربما كان أكثر العوامل اتصالا بعملية الفتح العربي لاسبانية • فقد كان التوجه نحو هذه المنطقة احدى حتميات المرحلة التي توالدت مباشرة بعد فتح المغرب • فالتقت هذه الحقيقة مع شخصية القائد الأموي الطموحة والمغامرة ، ثم استوعبت ذلك كله نزعة توسعية لدى الخليفة الوليد الذي لم يتردد في اشعال الجبهات العسكرية في وقت متقارب •

ومع المراحل الأولى لعملية الفتح والاستعداد لها ، تظهر شخصية حاكم سبتة كحلقة اتصال بين العرب وبين التيار المناويء للملك القوطي في اسبانية • وفي معرض البحث عن انتماء لهذه الشخصية الغامضة ،

يسود الاعتقاد بأنه على الأرجح يمثل بقايا النفوذ البيزنطي [1] على الساحل الافريقي الشمالي • ذلك أن القسطنطينية كانت قد فقدت تأثيرها الفعلي في هذا الجزء من البحر المتوسط منذ زمن بعيد ، الأمر الذي جعل من يوليان حاكما مستقلا على الشريط الساحلي الممتد ما بين طنجة وسبتة • ومن المفترض أن هذا الأخير ، وكان على صلة جيدة بجماعة الملك المخلوع ، قد أراد تقديم خدمة جليلة للعرب بعد أن أصبحوا أسياد المنطقة ؛ من منطلق الحرص على ارضائهم واقامة علاقات ودية معهم ، وذلك مقابل الاحتفاظ بالسيطرة على مدينته (سبتة) • ولعل هذا ما يفسر عدم سقوط هذا الأخيره وتوقف المد العربي عند طنجة •

وكان أول اتصال ليوليان بالعرب حول اسبانية ، قد جرى مع حاكم طنجة طارق بن زياد الذي رفض الموافقة قبل استشارة موسى في القيروان [2] • وقيل أن لقاء جرى على متن سفينة [3] بين يوليان وبين الحاكم الأموي الذي كانت تستهويه العمليات الجريئة ، استطلع خلاله هذا الأخير على كل التفاصيل اللازمة وأبعاد الدور الذي يمكن أن يقوم به يوليان في خدمة الأهداف العربية • وسواء كان ذلك حقيقة أم مجرد اختلاق حمله الينا المؤرخون، فان عملية ضخمة كهذه ، من الصعوبة أن تؤخذ على أنها وليدة ظروف آنية وطارئة • ذلك أن التنافس العسكري — أو سباق التسلح في المفهوم المعاصر — بين القوتين العربية والبيزنطية، ومحاولة العرب تحقيق التفوق البحري ، لا يمكن أن نفصله عن هذه العملية • فلا بد أن يكون لها صلة بتصعيد القوة العسكرية العربية ،

---

(١) حسين مؤنس : فجر الاندلس ٥٣—٥٤ .
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٧٧ .
(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ٢/٦ .

التي كان من أبرز أهدافها حينذاك ، الجزر القريبة من الساحل الشرقي لاسبانية ، في الوقت نفسه الذي نوقشت فيه فكرة الفتح •

وادي لكة ، البداية المثيرة

بعد اختمار الظروف التي هيأت للعرب ، نجاحا جديدا في سياستهم التوسعية ، كان بضع مئات من الجند يأخذون طريقهم عبر المضيق الى جزيرة بالوماس Palomus ، في مهمة استطلاعية بقيادة طريف بن مالك المعافري [1] ؛ حيث لا زال اسمه حتى الان مطبوعا على ذلك المكان (جزيرة طريف Tarif) • ولعله اجتمع مع يوليان وممثلين للمعارضة القوطية، قبل القيام ببعض العمليات العسكرية الخفيفة في اطار المهمة التي كلف بها ، حيث كانت عملية ناجحة لأن تحرك الحملة الرئيسية ارتبط من حيث المبدأ بالتقرير الذي عاد به طريف الى القيروان •

وكان القائد الذي اختاره موسى بن نصير لهذه الحملة ، هو طارق بن زياد الذي سبق أن ولاه على اقليم طنجة ، بحيث بدا مقربا اليه منذ بروز اسمه في أحدث تلك الفترة • ولقد رافق هذا الاختيار لقائد من البربر ، كسابقة في تاريخ الفتوح العربية ، المفهوم الذي تمسك به الحاكم الأموي ، وهو استقطاب البربر واحتوائهم ضمن أهداف موحدة مع العرب • وكان من ثمرات هذه السياسة الذكية ، أنها قللت كثيرا من استعداء البربر ، حيث أخذوا يتحسسون دورهم في المجتمع الجديد، وفي نفس الوقت أظهرت حرص موسى على تحويل طاقاتهم القتالية

---

(١) خرجت الحملة في رمضان ٩١ هـ/تموز ٧١٠ م • اخبار مجموعة ٦ •

لخدمة أهدافه العسكرية وراء المضيق ، وهـذا ما يفسر غلبـة العنصـر البربري على هذه الحملة . غير أنه لم يشأ اعطاءها سمة غير عربية ، وذلك بايجاد مجلس قيادي معظم عناصره من العرب ، فضلا عن دور خطير كان يشغله مغيث الرومي ، الذي كان واسطة الاتصال بين قيادة الحملة وبين الخليفة الأموي الوليد [1] .

أقلع طارق بحملته من ميناء (سبتة) [2] على متن سفن عربيـة من قاعدة تونس، وربما قدم بعضها يوليان حاكم المدينة. ويبدو أن مساعدات هذا الأخير أكثر ما تجلت في تقديم المعلومات وتسهيل عملية الانزال الى البر الاسباني ، وذلك عبر اتفاقات سريعة مع المعارضة القوطية حيث كان لدورها أهميته البارزة في تذليل العقبات المفترضة . فليس صدفة أن تتم حملة طارق ، في وقت كان الملك القوطي منصرفا الى قمع احدى الحركات الانفصالية في الشمال، بينما عاصمته تعج بالمتآمرين . ولعل العرب كانوا على اتصال دائم وسريع بهذه التطورات ، عبـر يوليـان وجماعته ممـا أعطاهم القدرة على التحرك بشيء من الثقة في تلك الأرض البعيدة .

وما لبث طارق أن نزل بحملته تحت أقدام الجبل الذي عرف حتى اليوم باسمه (مضيق جبل طارق Gibraltar) وقام بعمليات عسكرية ناجحة ، أسفرت عن احتلال قرطاجة Cartega والجـزيرة الخضـراء Algercia [3] . وقبل أن يصمم على التحرك شمالا في العمق الاسباني،

---

(١) بيضون : الدولة العربية في اسبانية ٦٨-٦٩ .

(٢) ٩٢ هـ/نيسان ٧١١ م .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصـر والمغرب ٢٧٨ . سيديو : تاريـخ العرب العام ١٠٢ .

كان يتلقى دعما جديدا من موسى . الذي راقب باهتمام وشغف أخبار الحملة من الساحل الأفريقي . هذا على الجانب العربي ، حيث كانت البداية مشجعة والمواقع العسكرية معززة . أما على الجانب القوطي ، فيبدو أن روذريق استخف بأخبار التطورات التي بلغته عن نزول العرب على الحدود الجنوبية من مملكته ، وتصور العملية في نطاق لا يتجاوز الغارات التقليدية أو أنها احدى غزوات النهب ، بحيث أن القضاء عليها لن يأخذ منه ذلك الجهد الكبير . بيد أن الملك القوطي سرعان ما اكتشف عكس تصوراته ، اذ وجد جيشا منظما ومتلاحما يشق طريقه بهدوء الى المدن الاسبانية . فعاد الى عاصمته للقيام بعملية تعبئة سريعة واستجماع مختلف الطاقات لدى أنصاره وخصومه على السواء . ومن هنا توجه بقواته الضخمة [1] جنوبا حيث عسكر العرب حول بحيرة لاخاندا Lago de Janda . التي يقطعها نهر برباط عبر وادي لكة الشهير . وعلى الضفة اليمنى لهذا النهر ، جرت معركة طاحنة قضت على الجيش القوطي ومعه الملك الذي اختفى منذ ذلك الحين ، الا في الأساطير الاسبانية ، التي تمسكت بعودته ليقود حركة الانتقام ضد العرب [2] .

والحقيقة ، أن الانتصار الباهر الذي حققه العرب في وادي لكة ، كان حدثا غير عادي في تاريخ اسبانية ، التي خضعت حينذاك لتحولات جذرية ، أصابت المجتمع فيها بكافة طبقاته . فقد كانت هذه المعركة ، الباب الكبير الذي دخلت منه السيادة العربية الى هذه المنطقة ، لتستقر فيها نحو ثمانية قرون من الزمن ، كما كانت المدخل الى عدة محاولات ،

(١) اخبار مجموعة ٨ .
(٢) اخبار مجموعة ٩ . ابن عذاري : البيان المغرب ٢/ ١٠ .

استهدفت تغيير الخارطة السياسية في العالم الوسيط ، حيث أصبح الخطر الأموي في قلب القارة الأوروبية •

ومن البديهي أن النظام القوطي في اسبانية دفع غاليا ثمن أخطائه التي عزلته عن الشعب ، المرهق بفساد الحكم ووطأة الضرائب • فكان موقفه من الهزيمة أقرب الى اللامبالاة وربما الى التعاطف مع العرب • ذلك أن تمزق المجتمع القوطي وانهيار القيم فيه ، والصراع السياسي الذي تمحور حول الأرستقراطية الحاكمة • كل ذلك ساهم بشكل أو بآخر في تهيئة الظروف العسكرية والنفسية ، التي استخدمها العرب في تحقيق انتصارهم العظيم • ومن الواضح أن هؤلاء عاشوا مجددا قضيتهم المبدئية، التي تجسدت في أسلافهم صانعي الفتوحات الراشدية• ولا ريب أن ذلك كان أحد أبرز عوامل هذا النجاح ، فهم خارجون لتوهم من انجاز كبير، أسفر عن اكمال فتح المغرب والمضي شوطا في عملية تعريبه، كان من ثمارها الايجابية أن البربر اقتحموا ميدان الفتوح بنفسية المقاتل المحترف وبشعور صاحب القضية المؤمن ، قبل أن ينجرفوا بدورهم في خضم الصراعات السياسية التي عطلت دور الابداع في هذا المجال •

ولم يعد هناك سبيل لتطويق ما حدث أو تعديل حتمية النتائج المستقبلية • فقد انهارت المقاومة ومعها النظام القوطي ، وانفتحت أبواب لمدن الكبرى أمام القائد العربي • وباستثناء معركة أستجه [١] Astigi التي خاضتها فلول الجيش القوطي المهزوم ، فان العرب لم يصطدموا بأية مجابهة جدية • وخلال ما يمكن أن نسميه حرب المدن، لم تكن المقاومة كذلك مؤهلة لعرقلة مسيرة التقدم . ولا ريب أن ذلك يعكس الموقف

---

(١) اخبار مجموعة ٩ •

الشعبي من النظام القوطي ، حيث لم يتمسك بالدفاع عنه سوى القليل. ولعل احدى المفارقات في التاريخ ، أن يكون اليهود في خدمة العمليات العسكرية العربية أثناء هذه المرحلة . فقد تصرفوا بوحي مصالحهم المتضررة تحت الحكم القوطي ؛ ووجدوا في النظام الجديد المنفتح ؛ فرصة الخلاص من الضرائب المرهقة والاضطهاد الديني. وهكذا سقطت قرطبة Cordoba الواقعة على نهر الوادي الكبير ؛ ولحقت بها طليطلة Toledo العاصمة القوطية الشهيرة ، التي كرست سقوط الملامح الأخيرة للنظام القديم . ومن هذه المدينة طارد القائد الأموي فلول الهاربين منها باتجاه الشمال الغربي الى وادي الحجارة Guda La Jara ، لينتهي الى مدينة صغيرة (المائدة) [١] في المنطقة التي تقع فيها (مدريد) ، العاصمة الحالية ؛ قبل أن يعود الى طليطله(خريف ٩٣هـ/٧٢١م) .

ومع عودة طارق الى العاصمة القوطية ، تنتهي بنجاح باهر المرحلة الأولى من الخطة التوسعية الضخمة ؛ التي استهدفت السيطرة على اسبانية . ذلك أن مرحلة أخرى ستقترن بالحاكم الأموي موسى بن نصير ، الذي أقلع بدوره الى الجزيرة الخضراء بعد الأخبار المشجعة التي وصلته من قائده المنتصر . ولعله أدرك خطر الانتشار الواسع للقوات العربية في بلاد لا يزال معظمها مجهولا ، فأراد أن يعزز بوجوده موقعها المعنوي والعسكري . وبالفعل جاء التحاقه بقائده مجرد تدبير واقعي استدعته حاجات المرحلة المستجدة [٢] . ولم يكن يحمل بالضرورة أية خلفية، يمكن أن يتحكم فيها شعور المنافسة ازاء قائده المقرب والأثير،

(١) اخبار مجموعة ١٤ .

(٢) Levi-Provençal: Histoire de l'Espagne Musulman 1/24,

كما هو شائع في بعض الروايات التاريخية [١] . فلو كان الدافع الى هذه المبادرة ،خاضعا للعلاقه الشخصية بين طارق وموسى ، لاختار الأخير الطريق السهل الى تحقيق مآربه الخاصة ومحاسبة قائده، الذي قد يكون تجاوز التعليمات والأوامر؟ [٢]. ولكن موسى سلك طريقا لم تمر عليه أقدام عربية ، فاتجه نحو الشمال الغربي الى أشبيلية Sevilla ، الهدف الرئيسي في خطته ، الواقعة أيضا على نهر الوادي الكبير على غرار قرطبة ، وهي مدينة عريقة اشتهرت بتحصيناتها المنيعة [٣] ، الأمر الذي جعل من سقوطها مهمة غير يسيرة . وبعد استسلامها (شوال ٩٤ هـ/ حزيران ٧١٣م) [٤] ، اتجه الى مارده (على نهر وادي آنه) التي سقطت بدورها . وكان لصعوبة الاستيلاء على أشبيلية ، أن لجأ موسى الى اعطاء فرصة للتنظيمات الادارية في هذه المدن ، بحيث بدأت عملية التعريب في وقت مبكر في هذه المنطقة ، وكان عبد العزيز ابنه ، الساعد الأيمن له في هذا الاتجاه [٥] .

وفي هذه الأثناء كان طارق متتبعا لخطوات موسى ، فلما شعر باقترابه من طليطلة خرج لاستقباله في طلبيرة Talavera [٦]، التي شهدت

---

(١) اخبار مجموعة ١٥ . ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٨٠ ، حسين مؤنس : فجر الاندلس ٨٤ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٨٠ .

(٣) الحميري : الروض المعطار ١٨ .

(٤) اخبار مجموعة ١٧ .

(٥) المصدر نفسه ١٨

Levi-Provençal : Histoire de l'Espagne Musulman 1/25.

(٦) تقع على بعد سبعين ميلا الى الغرب من طيطلة . الحميري : الروض المعطار ١٢٧ـ١٢٨ .

على الأرجح مجلسا حربيا ، لدراسة تطورات المرحلة التالية من الخطة التوسعية . ذلك أن القائدين خرجا بعد قليل في حملة مشتركة استهدفت سرقسطة Zaragoza في أقليم أراغون Aragone ، ثم افترقا بعد سقوطها ، حيث سار موسى الى طركونة على البحر المتوسط . وهناك افتراض بأنه تقدم الى برشلونة ولكنه غير مؤكد ، لأن هذه الأخيرة سقطت على الأرجح على يد عبد العزيز بن موسى في وقت لاحق [1] . ومعنى ذلك أن الزحف العربي بلغ عتبة البرينيه ، الجبال الفاصلة بين اسبانية وفرنسا ، في الوقت الذي حمل مغيث الرومي أمرا من الخليفة بالتوقف عند هذا الحد . فما هو مدى الواقعية في هذه الأحداث المثيرة؟ وهل وقف قرار الخليفة عقبة في وجه الحلم الكبير في اختراق هذه الجبال ؟ هذا ما سنحاول التعرض له عند بحثنا لموضوع الخطر الأموي على أوروبة . أما بالنسبة لطارق فقد اجتاز وادي الابرو Val de Lebro الى ليون Leon ومنها الى استورقة Astorga في أقصى الشمال الغربي ، وطارد في منطقة جبلية وعرة بقايا القوط الذين التجأوا الى كهوفها بقيادة بلاي . وهنا يتحدث المؤرخون كذلك عن ثغرة في مهمة طارق ، الذي لم تتح له تصفية هذه المجموعة بصورة نهائية . ومهما كان الجواب على ذلك ، فان اقليم استورقة كان الأرض الخصبة لنمو الشعور الوطني لدى الاسبان ، بحيث لم يمض غير قليل من الوقت حتى كانت عملية التحرير أو الاسترداد Reconquista ، تشق طريقها ربما بشيء من البطء نحو الجنوب .

وهكذا تم انجاز احدى أهم العمليات العسكرية في التاريخ العربي، نجح خلالها موسى بن نصير وطارق بن زياد في حمل راية الحكم العربي

---

(١) Levi-Provençal : Histoire de l'Espagne Musulman 1/28.

الى أوروبة ، التي بدأت همومها الاسلامية تأخذ الطابع الجدي منذ ذلك الحين [1] . واذا كانت الانتصارات العظيمة تبتلع قياداتها ، فان ذلك أكثر ما ينطبق على أبطال هذه العملية ، الذين انعكست عليهم خلفيات الصراع السياسي في عاصمة الخلافة وتحملوا أعباء خطأ الاخرين . ذلك أن العودة في الموكب الظافر ، كان متربصا بها سوء الحظ ، حيث توفي بعيد قليل الخليفة الوليد وجاء أخوه سليمان الى الحكم . وهذا الأخير كان حاقدا ، لأسباب تتعلق ربما بالمحاولة التي استهدفت ابعاده عن ولاية العهد ، على كل مظاهر الحكم السابق بما فيها المنجزات والقيادات . ومن هذه الرؤية كان سليمان خاضعا في الواقع لمزاجه المتقلب وشديد الانفعال بعواطفه القبلية ، التي أودت بحياة شخصيات لامعة في التاريخ الأموي . أما بشأن قادة العملية التي أسفرت عن فتح اسبانية، فكان نصيبهم الملاحقة والاضطهاد . فمات موسى فقيرا معدما بينما غاب اسم طارق في النسيان دون ذكر في المصادر لنهايته ، التي يفترض أنها كانت شبيهة بما جرى لسلفه . وكذلك افتقد البلاط في دمشق مغيث الرومي الذي عاش منفيا بدوره في اسبانية [2] . وامتدت سياسة التصفية لتستهدف عبد العزيز بن موسى ، أول حاكم عربي على اسبانية الذي أتم سيطرة العرب على هذه البلاد . فاغتالته أجهزة الخليفة تحت زعم التأثر بسلوك وتقاليد القوط عبر زوجته أجيلون Egilona ، أرملة الملك القوطي الأخير روذريق [3] .

---

(١) بيضون : الدولة العربية في اسبانية ٨١ .

(٢) درزي : تاريخ مسلمي اسبانية ١/١٣٤ .

Levi-Provençal : Histoire de l'Espagne Musulman 1/29 .

(٣) المقري : نفح الطيب ١/٢٨٠ .

Levi - Provençal : Histoire de l'Espagne Musulman 1/33 .

اوروبة في مواجهة الخطر الأموي

هل توجد ثمة علاقة بين الجبهة البيزنطية وبين خطة الفتح في اسبانية؟ وهل كان فشل العرب في الاستيلاء على القسطنطينية حافزا للوصول اليها من الغرب ، بعد أن أثبتت مناعتها البحرية في الشرق ؟ واذا كان تحقيق هذه الفكرة غير مستحيل في زمن المد التوسعي العظيم ، فان تنفيذها كذلك ليس على قدر من السهولة . فهناك الاعتبارات غير العربية، التي لا بد من مناقشتها قبل العثور على جواب محدد ونهائي . وفي الحقيقة ان فكرة الهجوم على القسطنطينية عبر الطريق الأوروبي، تداولتها بعض كتابات المؤرخين العرب بشيء من الجزم، ومنها قول ابن خلدون: «وجمع — أي موسى بن نصير — أن يأتي المشرق على القسطنطينية ويتجاوز الى الشام ودروب الأندلس ويخصص ما بينها من بلاد الأعاجم أمما نصرانية، مجاهدا مستلحما لهم الى أن يلحق بدار الخلافة » [1] . وقد يتعدى الأمر حدود الاستنتاج عندما تتكشف الجهود الدائبة لاجتياح القارة الأوروبية، مما لا يدع مجالا للتشكيك بهذه الحقيقة. وسواء كان موسى بن نصير ، حين وجد نفسه تحت أقدام البرينيه ، عازما على التقدم الى بلاد الفرنجة (فرنسا) ، أم أنه اقتنع بالذخيرة الكبيرة من انتصاراته في اسبانية، فان هذا القائد يعتبر رائد السياسة التوسعية في القارة الأوروبية، وكانت عملياته المتقدمة التي بلغت مشارف الحدود الفرنسية ، نواة الاستراتيجية العسكرية التي بلغت ذروتها مع الغافقي بعد نحو أقل من ربع قرن .

---

(١) ابن خلدون : العبر ١٧٤/٤ . سيديو : تاريخ العرب العام ١٦٦ . لين بول : العرب في اسبانية ٤٧ .

وكانت بدايات المرحلة الاولى من تاريخ اسبانية العربية ، كولاية مرتبطة اداريا بالحكم المركزي في دمشق ، قد اقترنت بعدة محاولات توسعية وراء البرينيه ، تراوحت بين الغزوات العابرة والحملات المنظمة. ذلك أن ولاية اسبانية أو الأندلس (الاسم الذي غلب عليها) تمتعت بقدر من الاستقلال منذ تأسيسها ، بتأثير من الاعتبارات الجغرافية . ومن هذه الرؤية كان عليها أن ترتبط بحتميات الظروف المحيطة بها ، قبل ارتباطها بقرارات الخلافة من مركزها البعيد . غير أن الاوضاع الداخلية في الدولة المجاورة لم تعد على تلك الصورة من الانهيار ، كما كانت عليه ابان الفترة التي اقترب خلالها موسى بن نصير من (البرينيه) ، وهي في جوهرها لم تختلف كثيرا عن أوضاع اسبانية القوطية التي تهاوت بسرعة أمام الفاتحين العرب . فالفرنجة هم في الأصل كالقوط الغربيين ، احدى الموجات الجرمانية التي اجتاحت امبراطورية الرومان واستقرت في هذه البلاد بزعامة كلوفيس Clovis ، الذي أسس نظاما وراثيا في أسرته الميروفنجية يدين المسيحية . بيد أن الوراثة كانت نقطة الضعف البارزة فيه ، حيث توزع ممتلكاته أبناء الملوك على طريقة النظام الاقطاعي المعروف في أوروبا في ذلك الوقت . وكان التنافس بين هؤلاء قد أوقعهم في صراعات داخلية عنيفة استأثرت بكل ما لديهم من طاقات ، مما أدى الى افراز طبقة ادارية ، استولت تدريجيا على السلطة الفعلية وهي التي مثلها محافظ القصر أو حاجب القصر (Maire du palais) [١] .

في مثل هذه الظروف من الانهيار والتمزق الداخلي في الدولة الفرنجية ، كان العرب في ابان ذلك يطلون بروح معنوية مرتفعة على حدودها الجنوبية . ولا ريب أن توقف هؤلاء منحها فرصة كافية

---

(١) سعيد عاشور : أوروبة في العصور الوسطى ١٨٨/١ .

لدراسة الموقف الجديد الذي قدر لها أن تحمل أعباءه بجسارة وصبر ، دفاعا عن القارة الأوروبية . فبعد عام واحد فقط من عودة موسى الى دمشق ، قام أحد الاقطاعيين من أسرة هرستال Pepin de Herstal بانقلاب داخلي ، أوصله الى أن يكون محافظ القصر القوي ، ونجح من خلال ذلك في استعادة الوحدة السياسية للدولة الممزقة ، وذلك بدعم من الكنيسة والأمراء الاقطاعيين [1]. ولقد أعطى انقلاب (بيان) أبعادا جديدة للعلاقات المستقبلية بين العرب وأوروبة ، ذلك أن أسرة جديدة تولت مقادير الأمور في هذه الدولة هي الأسرة الكارولنجية ، التي ساهمت بنصيب كبير في شحن الروح الصليبية ومواجهة المد التوسعي العربي . ولقد بلغ هذا التيار الأوروبي المعاكس ذروته مع كارل Karlo أو شارل Charls ، فكان مجيئه الى السلطة حدثا غير عادي في تاريخ العلاقات بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي [2] ، حيث اقترن بأعظم مراحل المجابهة ضد الولاة الأمويين في الأندلس .

وكانت محاولة السمح بن مالك الخولاني ــ الوالي الرابع في الأندلس ــ تمثل بداية الاهتمام الجدي بالحركة التوسعية وراء البرينيه ، وذلك عبر حملته الشهيرة (١٠٢هـ/٧٢٢ م) التي اجتاحت اقليم سبتمانيه Septimanie بما فيها المدينة الساحلية ناربون Narbonne التي احتفظ بها العرب نحو نصف قرن من الزمن ، ثم توغلت في أقليم أكيتانيه Aquitaine حتى وصلت الى أسوار طولوشه Toulouse [3] .

---

(١) محمد عبدالله عنان : دولة الاسلام في الاندلس ١/٧٥ .
Levi - Provensal: Histoire de l'Espagne Musulman 1/55 .

(٢) بيضون : الدولة العربية في اسبانية ١٦٥–١٦٦ .

(٣) Levi - Provensal : Histoire de l'Espagne Musulman 1/58 .

وكان يحكم هذا الاقليم الـدوق أوديس Eudes، حيث أبرزته تلـك الأحداث الى جانب شارل في التصدي للخطر الأموي ، خاصة في أعقاب الهزيمة التي أنزلها بالسمح ، حيث أسفرت عن مقتل هذا الأخير والقضاء على الجزء الأكبر من حملته. ولمع حينذاك اسم القائد العربي عبد الرحمن الغافقي الذي قاد بنجاح عملية الانسحاب والتراجع الى قرطبة . وكـان يبـدو أنه أبرز قـادة الجيش ، والرجـل المؤهل لوراثتـه في ادارة الولاية ، حتى أنه مارس أعمالها بصورة مؤقتة بعد عودتـه . غيـر أن السياسة القبلية حالت دون استمرار الغافقي في السلطة ، بعد أن فرض حاكم أفريقية بشر بن صفوان أحد أقاربه مـن الأسـرة الكلبية وهـو عنبسة بن سحيم ، وكانت الأندلس لا تزال مرتبطة من الناحية الاداريـة بالقيروان .

على أن الحاكم الجديد ، رغم الاعتبارات التي حملته الى السلطة في الأندلس ، كان متأثرا الى حد كبير بهذه السياسة التوسعية . ولعل المحاولة التي قام بها في هذا الاتجاه تعتبر من أوسع المحاولات انتشارا في بلاد الفرنجة . اذ أنه ركز اهتمامه على سبتمانية ومنها توغل شرقـا في وادي الرون ، ثم قطع برغندية الى أوتانAutan في أعـالي الـرون (١٠٥هـ/٧٢٥م) . ولكن هذه الانجـازات المذهـلة اختفت بالسرعـة نفسها التي تحققت فيها ، واختفى معها اسم القائد الأموي [١] ، وربمـا اقترنت نهايته الغامضة بأسباب لا تتصل بحملته العسكرية وانما بظروف داخلية في قرطبة ، حيث عانت هذه الأخيرة من فترة قلقة امتدت نحو خمس سنوات ، تعاقب خلالها خمسة من الولاة الأمويين .

---

(١) عنان : دولة الاسلام في الاندلس ١/٨٣ .

ولكن الصراع المحلي حسم أخيرا لمصلحة عبد الرحمن الغافقي ، الذي جاء ربما بضغط من الجيش لانقاذ الوضع المتدهور (١١٢هـ/ ٧٣٠ م) • ولقد ظهر الغافقي من خلال كتابات المؤرخين ، شخصية ذات عمق صوفي ، تركت بصماتها على مسلكيته ، كحاكم تجاوز العصبيات القبلية والاقليمية ، وقائد محترف شغف بالحرب واستأثرت به نزعة الفتح وراء البرينيه • والحقيقة أن حملة الغافقي الذي عبر بها ممر الرونسسفال Roncesvalles مباشرة الى أكيتانيه ، كانت نموذجا آخر تميز عن الحملات السابقة ، سواء من ناحية الاعداد النفسي والمادي للمقاتلين أو من ناحية البعد الاستراتيجي الذي بلغ مرحلة النضج في محاولة الاستقرار والفتح الدائم •

وكان الدوق أوديس هدف الغافقي المرحلي في هجومه على أكيتانيه، بعد أن أثبت أنه العقبة الكأداء في وجه التقدم العربي في أوروبة• وما لبث أن تهاوت أمام القائد الأموي جميع محاولات المقاومة في مدن الأقليم، فسقطت تولوز Toulouse وبوردو (بردال) Bordeau، قبل أن يشتبك معه في معركة طاحنة على ضفاف الدوردوني Dordogne (أحد روافد نهر الجارون Garonne) ، حقق فيها الغافقي انتصارا باهرا على الدوق أوديس الذي هرب بعد تحطيم جيشه الى بلاط شارل، الرجل القوي في مملكة الفرنجة، ليضع بين يديه صورة التطورات المقلقة [١] • أما الغافقي فقد تابع تقدمه الظافر الى بواتييه Poitiers في الشمال ، وامتدت قواته على ضفاف نهر اللوار Loire حيث مدينة تور Tours العريقة [٢]• وكان ذلك آخر

---

(١) Levi -Provencal : Histoire de l'Espagne Musulman p. 60 - 61

(٢) O. P. Cit I/61

امتداد منظم للقوات العربية في عمق المملكة الفرنجية ، لأن التصدي العنيف الذي حمل معه للمرة الأولى ملامح الحرب الصليبية ، قضى على هذه الانتصارات ومعها طموح العرب في السيطرة على أوروبة . فقد نهض شارل يراوده ليس فقط شعور القائد الوطني المهددة بلاده بالاحتلال ، ولكن أيضا بشعور الزعيم الأوروبي الذي حمل آمال شعوب القارة ، في انقاذها من الخطر العربي الاسلامي .

وما لبث شارل أن تحرّك بقواته الضخمة الى اللوار ، في الوقت الذي اتخذ الغافقي معسكره في سهول بواتييه . وكان هذا الأخير يعاني من متاعب تموينية بعد ابتعاده عن قواعده في اسبانية ، كما كان يفتقد الى التفوق العددي والتنظيمي ، الذي تجلى في القوات الفرنجية . ولعل هذه الثغرة لم تكن وليدة ظروف طارئة ، بقدر ما كانت مشكلة الجيش بصورة عامة . فمن الواضح أن الغافقي حشد جلّ طاقات ولايته العسكرية في هذه الحملة ، أي أنه كان غير قادر على تقويم الاختلال العددي بين القوتين العربية والأوروبية . ومن ناحية أخرى فان هذا الجيش كان في تركيبه ، انعكاسا للمجتمع الأندلسي المضطرب وغير المتلاحم ، حيث خرج لتوه من محنة السنوات الخمس ، بما رافقها من عصبيات ومؤامرات لم يكن في قياداته بعيدا عنها . كما أن البربر ، الذين افتقدوا كثيرا من المكاسب السياسية والاجتماعية التي تمتعوا بها عشية فتح الأندلس ، كانوا غير متحمسين للمعركة مؤثرين عليها الانسحاب . كانت تلك ملامح الصورة التي سبقت المعركة الحاسمة .. اختلال واضح في موازين القوى بين جيش متفوق في العدد وفي الانسجام وفي الادارة ، لاكتساب معركة مصيرية ، وبين جيش يعاني من النقص في الكثافة والتموين ، فضلا عن

الحساسيات القبلية والعنصرية (١) .

وكانت معركة التصدي العظيم بين شارل والغافقي حيث نجح هذا الأخير في تحقيق انتصارات أولية محدودة، ولكنه سقط بعد قتال بطولي انتهى لمصلحة شارل والشعوب الاوروبية (٢) . وتعرف هذه المعركة ببلاط الشهداء في المصادر العربية ؛ اذ يبدو أن لهذه التسمية علاقة بطبيعة المكان حيث جرت المعركة على مقربة من بواتييه ؛ فقد كان على الأرجح اطلالا لقصر قديم وهو يعرف حاليا باسم موسيه لاباتاي Moussais - La - Bataillə (٣) .

ولقد ظلت هذه المعركة ، الحدث البارز في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، حيث تجسدت فيها ابعاد الصراع العقائدي والسياسي في الجزء الغربي من القارة الاوروبية ، بما تعنيه هذه الكلمة . واذا كانت نتائجها المرحلية على الجانب الأموي ، في أنها أوقفت طموحه التقليدي في السيطرة على أوروبة ، ودفعته منذ ذلك الحين الى الاقتناع باسبانية وبعض ما وصل اليه من مواقع على السفوح الشمالية لجبال البرينيه ، فان الجانب الآخر قد نجح في التصدي للزحف العربي وايقافه، ومن ثم انقاذ القارة من الخطر العربي الاسلامي . واستحق

---

(١) Levi - Provençal : Histoire de i'Espagne Musulman 1/61 - 62

حسين مؤنس : فجر الاندلس : ٢٦٧ . عنان : دولة الاسلام في الاندلس : ١/١٠٠ . بيضون : الدولة العربية في اسبانية ١٥٢-١٥٣ .

(٢) جرت هذه المعركة في أواخر شعبان ١١٤ هـ/تشرين الاول ٧٣٢ م.

(٣) المقري : نفح الطيب ٢/٥٦ . حسين مؤنس : فجر الاندلس ٢٧١ .

Levi - Provençal : Histoire de L-Espagne Musulman 1/62

شارل عن جدارة لقب المطرقة Marteau التي «سحقت» الخطر، بعدما اطلقه عليه البابا غريغوري الثالث تقديرا لموقفه التاريخي ، فصار يعرف بشارل مارتل Charls Martel • ورغم الجنوح الى المبالغة في تصوير الاوروبيين للكارثة التي كانت ستحل بهم لو قدر للعرب أن ينتصروا في بواتييه ، فان كثيرا من مخاوفهم قد تبدو واقعية الى حد كبير • ذلك انها تحولت الى هاجس يعيش في ضمير السياسيين والمفكرين في أوروبة ، يتطلعون اليها كرمز ويستعيدونها بفخر واعتزاز • اما العرب فقد عاشوا بعد نكبتهم في بواتييه ، فجيعة أحلامهم التوسعية وراء البرينيه ، كما عاشوا بداية الانحسار لقوتهم العسكرية في اوروبة ، وافتقاد المبادرة الهجومية التي كانت في يدهم حتى ذلك الحين • لأن خلفاء شارل تجاوزوا الدور الدفاعي ، الى القيام بتهديد الحكم العربي في اسبانية، بحيث كان عليه ان يخوض معركة المصير والبقاء على عدة جبهات داخلية وخارجية• علىأن أكثرها خطورةهيحرب الاسترداد المقدسة، التي كان لاوروبا الدور الكبير في دعمها وتشجيعها •

★★★

ان المد التوسعي العظيم بلغ ذروته في عهد الوليد بن عبد الملك ، أحد اكثر الخلفاء الامويين تشجيعا لهذا الاتجاه • وكان لديه من الظروف المساعدة ما دفعه الى اعطاء السياسة الخارجية المحل الأول من اهتمامه • ومن البديهي أن استقرار هذا العهد وخلوه من الاضطرابات الداخلية ، أوجد المناخ الملائم لتحقيق منجزات عسكرية على عدة جبهات وفي وقت واحد • فكانت المرة الأولى في تاريخ الدولة الأموية، التيتتفرغ فيها الجيشالى مهمات غير داخلية ، وهي بدون ريب من ثمرات العهد السابق ، الذي

ساهم بجهود غير عادية لتحقيق الاستقرار ، وهو ما نعم به عهد الوليد •

وكانت أعظم انجازات تلك السياسة التوسعية بلا جدال، هي استكمال فتوح المغرب والعملية الكبرى التي أسفر عنها الاستيلاء على اسبانية •

وفي أواسط آسيا كانت عمليات على جانب من الاهمية تتم بنجاح في البلاد الواقعة وراء نهري جيحون وسيحون ، حيث حقق القائد العربي قتيبة بن مسلم الباهلي حاكم خراسان السيطرة الأموية على بخارى وسمرقند وبيكند والشاش وفرغانة، على مدى السنوات العشر التي قضاها الوليد في الخلافة (١) • والى الجنوب الغربي كان قائد آخر هو محمد بن القاسم الثقفي حاكم كرمان ، يقوم في الوقت نفسه بتنفيذ عمليات عسكرية مشابهة في المناطق الواقعة الى جنوبي نهر السند • فاستولى على الديبل (٢) الواقعة على دلتا النهر ، ومنها صعد شمالا الى راور ثم الى ملتان ، الواقعة الى الجنوب من البنجاب (٣) • ولقد جاءت العمليات العسكرية الناجحة التي قام بها كل من قتيبة ومحمد بن القاسم متكاملة مع بعضها الى حد كبير ، سواء من حيث التوقيت او من حيث الوصول الى تحقيق اهداف توسعية في اواسط آسيا ، التي انتقلت اليها السيادة الاموية بصورة دائمة •

وكانت الجبهة الوحيدة التي لم تتجاوز العمليات الحربية فيها النطاق التقليدي المحدود هي الجبهة الشمالية، حيث ابتعدت عنها الجيوش الأموية الى جبهات أخرى في الشرق والغرب ، فاصابها الجمود وتراجعت الى الوراء في اهتمامات الدولة التوسعية • ولم يكن هذا الموقف نابعا

---

(١) شكري فيصل : حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول ٢١٣ — ٢١٤ • ابن الاثير : ٢٥٤/٤ •

(٢) كراتشي حاليا •

(٣) ابن الاثير ٢٥٧/٤ — ٢٥٨ •

Robert Mantran : l'Expansion Musulmane p. 133 .

من تغيير ما في العلاقات العدائية بين العرب والبيزنطيين، حيث لا زال هؤلاء مصدر الخطر الرئيسي على النظام الاموي • غير ان معطيات الواقع العسكري، لم تشجع على توسيع دائرة العمليات الحربية ضد البيزنطيين• فهناك سلسلة من التجارب ، وقف العرب من خلالها على الصعوبات التي تحول دون سيطرتهم على القسطنطينية المعقل البيزنطي الحصين• بالاضافة الى ذلك فان طبيعة الارض في آسيا الصغرى ، وهي كادت ان تكون خلوا من السكان لاعتبارات جغرافية ومناخية ، اوجدت مشكلة من العسير تذليلها • فقد ظلت هذه المنطقة الواسعة ، نقطة الضعف في المحاولات الأموية التي استهدفت عاصمة البيزنطيين ، بحيث أنها عانت من التغطية اللازمة لخطوطها الخلفية • فراهنت هذه الأخيرة على الوقت الذي حالفها بصورة شبه دائمة، كما اعتمدت على جيوبها المتناثرة في هذه المنطقة والتي كانت تزودها بالمعلومات وبأخبار التحركات العسكرية المعادية • فضلا عن ذلك فان الامويين كقوة بحرية ، لم يبلغوا حينذاك، رغم النمو المتصاعد لهذا السلاح ، المستوى المتكافىء مع البيزنطيين ، خاصة الادوات المتطورة للحصار البحري • وانطلاقا من هذا الواقع اقتصرت العلاقات العدائية بين دمشق والقسطنطينية على حرب الحصون [1] في عهد الوليد ، وهي احدى نتائج النظام الحربي التقليدي المعروف بالصوائف والشواتي • وهناك من يعتقد ان هذه الحرب كانت مقدمة لعملية، جرى التخطيط لها في بلاط الخليفة تستهدف الهجوم على القسطنطينية ، ولكن موت الوليد حال دون تنفيذها • على أن ذلك يبقى في حدود الافتراض والاجتهاد ، لأن فكرة القضاء على

---

(١) سقطت في ايدي الامويين مجموعة من هذه الحصون مثل :عمورية وسلوقية ومرعش وهرقلة •

ابن الاثير ٤/٢٥٥ ، ٢٥٧ •

الدوله البيزنطية ، لم تعد موضع نقاش في ذلك الوقت بعد الفشل الدي احاق بالمحاولات الامويه في هدا السبيل •

بيد ان الفكرة تستعيد بريقها مع خلافة سليمان بن عبد الملك الدي جاء بعد اخيه الوليد ، تنجاذبه مجموعه من العقد ، ابرزها الشعور بالعظمه والتفوق • وكانت الدوله الامويه في عهد هدا الخليفة قد بلغت من الاستقرار والترف حدا بعيدا ، مما يفترض ان يكون لدلك تاثير على اهتمام هدا العهد بالسياسة التوسعية ، على غرار العهد السابق • ولكن سليمان رغم انه لم يختلف عن أسلافه الخلفاء الأمويين في الطموح التقليدي للقضاء على الامبراطورية البيزنطية، فان مؤثرات خاصه كانت تتحكم في قراراته السياسية، بما فيها قرار الحملة الى القسطنطينية، ومن المعتقد واستنادا على مؤشرات عديدة، ان تآمر أخيه الوليد لابعاده عن ولاية العهد، قد ترك في نفسه تحاملا حتى الحقد على العهد السابق، بكل ما يمثله من قيادات وانجازات • ولا يستبعد أن تكون ملاحقة وتصفية كبار الشخصيات القيادية التي لمعت في عهد الوليد ، احدى حالات هذا الموقف العدائي من اخيه الوليد وجماعته • ومن الطبيعي أن يكون لهذا التصرف نتائجه العكسية على السياسة التوسعية بصورة عامة ، حيث حرم الدولة من كفاءات قيادية عالية ، كان من الاجدى التعاون معها وتوجيهها في خدمة اهدافه العسكرية •

لقد اراد هذا الخليفة الاستئثار بالقرار الخطير في الانفراد بفتح القسطنطينية ، ذلك الهدف الذي فشل دون تحقيقه اسلافه الخلفاء • فكرس كل جهوده وطاقاته في هذا السبيل، حتى لا يقع بدوره في التجربة نفسها ، وانتقل مع أركانه وادارته الى دابق في شمالي الشام ليكون قريبا من الأحداث ، مراقبا لتطوراتها • ففي سنة ٩٨هـ/٧١٧م كانت الحملة الكبيرة تأخذ طريقها الى آسيا الصغرى ، بقيادة اخيه مسلمة

الذي امتلك خبرة طويلة في الحروب الأموية ــ البيزنطية [1] . ومــــن المعتقد ان القيادة الامويه راسنت بحدود معينة على اضطرابات الحكم في القسطنطينية ، حيث كانت معارضة قوية للامبراطور تشق وحدة الجبهه الداخلية . وكان من آشد المناوئين له حاكم عمورية (ليو)، الذي استدرج القيادة الامويه الى الاعتقاد بأنه سينضم الى الحملةمقابل انقاذ مدينته[2]. وبالفعل رافق مسلمه الى القسطنطينية ، ولكن ليخوض معركته الخاصة في الوصول الى عرش الامبراطورية . وما لبث ان حقق آماله واصبــح سيد الموقف في العاصمة البيزنطية ، فــي اعقاب انقلاب اطاح بسلفه . وكانت المناداة به امبراطورا في وقتكانت المدينةمهددة بالحصار الأموي، يمثل الدور الانقاذي الذي ترتب عليه القيام به ، ولا ريب أن معرفتــه بظروف الحملة العربية وطبيعتها وامكاناتها ، قد ساعده على توفير فرص افضل للصمود والدفاع .

بيد ان مهمة الامبراطور البيزنطي الجديد لم تكن على قدر مــن السهولة ، لأن الطاقات العسكرية التي استخدمها الخليفة في هذهالحملة كانت غير عادية ، بحيث لم يسبق تجنيد هذا الحشد من المقاتلين وهذه القوة البحرية ، اللذين استخدما في حصار القسطنطينية . وكان التنسيق على اتمه بين القائد العام للحملة وبين القائد البحري ، في محاولة لاحكام حصار شديد على المدينة . فعاشت هذه الأخيرة شهورا طويلة وسكانها مهددون بالتجويع ، دون ان يطرأ تغير ما على الوضع العسكري لأي من الطرفين . ويبدو أن القائد الاموي كان غير قادر على اختراق الاســوار الحصينة للقسطنطينية ، بما لديه من وسائل متواضعة فيالسلاح البحري،

---

(١) الطبري : ١١٧/٨ .

(٢) المصدر نفسه : ١١٨/٨ .

فكانت الخطة البديلة التي اعتمد عليها ، هي اطالة الحصار ومحالفة الوقت • وهذا ما يفسره توقف العمليات الهجومية في الشتاء واعداد بيوت خشبية لاقامة الجند ، تخفيفا من وطأة البرد الشديد [1] • ولكن القسطنطينية تحدت كل اساليب الحصار بما فيها التجويع ، بينما الجيش الاموي الكبير ، الذي طالت مهمته حتى تجاوزت العام ، لم يكن خاليا من المشاكل لا سيما التموينية ، التي أخذت تنعكس على نفسية المقاتلين. الا أن الضربة المفاجئة التي أصيبت بها معنويات الحملة ، كانت في وفاة الخليفة عبر ظروف غير متوقعة ، فانطفأ معه الحماس الخاص الذي رافق الحملة والاصرار على تنفيذ المهمة الصعبة • ولم يكن الخليفة الجديد متحمسا كسلفه للمضي بعيدا في هذا الحصار ، فما لبث أن استدعى القائد الاموي وقواته الى دمشق ، معلنا النهاية الفاشلة لمحاولة أخرى من محاولات العرب الهادفة الى تدمير القوة البيزنطية ، مما دفع الأمويين الى طوي ذلك الحلم ، والعزوف عن هذه الجبهة ، تاركين المهمة الصعبة لمن يأتي بعدهم •

---

(١) الطبري : ١١٧/٨ •

المحاولة اليائسة

ان تاريخ العراق السياسي ، كأحد المحاور الاستقطابية الأولى التي ناوأت الحكم الاموي ، يكاد ان يكون المدخل الضروري لدراسة هـذا العصر وادراك ملامحه الخاصة . فقد بدأ هذا النظام كخلافة موحدة من العراق ، ولكنها كانت بداية الغالب والمغلوب ، التي لم تلبث ان أصبحت نهج السياسة الاموية بجميع مراحلها المتلاحقة. ولعل النهاية ستأخذ طريقها أيضا من العراق، كنتيجة طبيعية لذلك الصراع الطويل بين اقليمين متنافرين، في الاهداف والمصالح والمستوى الاجتماعي . فالتحرك المتواصل عبـر الاتجاهات السياسية المختلفة، التي كانت تمثلها احزاب الشيعة والخوارج، فضلا عن بعض حركات الارستقراطيين التي كانت لها دوافعها الخاصـة ، ولكنها عمليا كانت قادرة على شحن الجماهير وتفجيرها بصرف النظـر عن التباين المصلحي بين الطرفين .. كل ذلك جعل من العراق البـؤرة الثورية الخطيرة ، التي انهكت نظام الامويين واستنزفت طاقاته في معركة جانبية ، ولكنها مستمرة .

وفي بدايات القرن الثاني للهجرة كان على المعارضة السياسية في العراق ، أن تأخذ مسارا جديدا ، اكثر بلورة في نضالها التقليدي ضـد السلطة الاموية . غير أن التغيير قد تناول الأطر العامة للمعارضة ، دون أن يستهدف المضامين المبدئية ، الا في جوانب محددة ، أكثر ما أصابت الاتجاه الاجتماعي ، وذلك مع ازدياد تأثير الفئات المسحوقة في المجـرى العام للتحرك الثوري . اذ أن الموالي الذين عاشوا في اطار التبعيـة المطلقة للاقلية الحاكمة في العراق ، أخذوا يتحررون تلقائيا من هذا الموقع

المهزوم، حيث اصبحوا جزءا من المجتمع العربي الاسلامي، رغم المحاولات المضادة التي بذلها بعض المتطرفين في الادارة الاموية ، للحد من نتائج هذا الانقلاب التي تهدد مباشرة معادلات النظام التقليدية •

وكان مؤشر التناقض بين السلطة الاموية ، التي رفضت عمليا الاعتراف بمبدأ المساواة في العراق وبين الموالي [١] ، القوة الفاعلة في المعارضة السياسية، هو انتقال التيار الثوري قيادة وجماهيرا الى العناصر غير العربية • ففي المشرق ، اخذ الموالي يتحركون بحثا عن شخصيتهم المفقودة في اطار ما عرف بالشعوبية، التي ظهرت فيأواخر العصرالأموي• ولقد وجدوا طريقهم الى الثورة عبر النضال السري الطويل في الدعوة العباسية • وفي المغرب أخذ البربر وهم اكثر حداثة بتراثهم القومي ، يتلمسون بدورهم طريق التغيير، خاصة وان هجرة الخوارج بأفكارهم المعروفة الى هذه المنطقة، قد تركت بصماتها الواضحة على أفكار البربر وموقفهم من السلطة ، التي يمثلها متطرفو الحزب القيسي من الولاة الأمويين [٢] •

وهكذا حدث تحول ملموس في حركات المعارضة التي ناهضت الحكم الاموي ، وذلك باتخاذها اتجاهات غير عربية بعد انتقال ثقلها الجماهيري ، الى الموالي في المشرق والبربر في المغرب • وهذا ما أدى الى اكتساب التيار الثوري بعدا اجتماعيا في الصميم خلافا للحركات الثورية السابقة ، حيث كانت مضامينها الراجحة سياسية او عقائدية •

---

(١) زاهية قدورة : الشعوبية ص ٤٥ .

(٢) امتازت هذه الفترة بتعاقب عدد من الولاة القيسيين على حكم المغرب ، الذين ساهموا بتعصبهم في انفجار ثورة البربر الكبرى ، المعاصرة للخليفة هشام بن عبد الملك . ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٩٣ ـ ٢٩٤ . ابن عذاري : البيان المغرب ١/٥٢ .

وهو تنيجة حتمية لانتقال المبادرة في هذا المجال الى الفئات المسحوقة ، التي استغلت ذلك الاختلال في قاعدة المساواة للمطالبة بحقوقها في المجتمع ، متوسلة لذلك مختلف الطرق ، بما فيها الثورة [1] .

ولعل التساؤل يفرض نفسه ، لمعرفة مدى الجدية في موقف الخلافة الاموية ازاء هذا الانقلاب الخطير في هيكلية المعارضة ، الذي تبلور في الثلث الأخير من تاريخها ؟ والحقيقة أن أي خليفة لم يكن لديه التصور الواقعي لمشاكل دولته ، التي أخذت تستفحل مع تزايد مساحتها وارتفاع عدد سكانها . فقد ظلت المعادلة الأولى التي استعملها معاوية ، المعتمدة على التوازن النسبي بين القبائل ، وتجاهلت أوضاع الشعوب غير العربية وموقع الحكم منها ، هي السائدة لدى خلفائه حتى الكبار منهم امثال عبد الملك والوليد . ولا شك ان طبيعة النظام الاموي ، الذي قام أساسا في ظروف غير عادية ، كانت وراء الاسباب التي جعلت من الخلفاء يلتبسون تلك الشخصية الصدامية ، محافظة على هذا النظام المهدد دائما بالسقوط . ولذلك نستطيع القول ان جهود الخلفاء الأمويين انصبت في اتجاهين : الاول هو التصدي للتيارات السياسية المناوئة ، واحباط محاولاتهم الثورية . والآخر هو تشجيع الاتجاه التوسعي بحيث تحول الى هدف في ذاته ، وليس مدخلا الى حلول متبادلة ، تأخذ في الاعتبار مصالح مختلف الاطراف بمن فيها الشعوب المغلوبة .

وكان عمر بن عبد العزيز ، اول خليفة في الأسرة الاموية ، يشذ على القاعدة التقليدية ، ويعطي هذه المشكلة نصيبها من الاهتمام ومن الجدية . ولقد كان هذا الرجل مختلفا عن أقرانه ، حتى في حياته الخ ـ

---

(١) ابن عبد الحكم : ٢٩٣ .

التي وصفت بالبساطة والابتعاد عن المظاهر الملكية [1] . ولعل الخلافة سعت اليه ، دون أن يلهث في الوصول اليها ، فكان للصدفة ربما الدور الرئيسي في اختياره . اذ أن ظروفا غير عادية أسهمت في ذلك ، أهمها موت الخليفة سليمان في دابق وهو يتابع أخبار حملته الى القسطنطينية ، التي كان أحد قادتها أبنه داوود [2] ، وهو على الارجح ولي عهده . فكان ان استغل هذا الفراغ أحد الفقهاء المقربين منه وهو رجاء بن حيوه ، وتوصل الى اقناعه بتعيين عمر بن عبد العزيز ، خليفة له . وجاء القرار صدمة لابناء عبد الملك ، وفي طليعتهم هشام الذي رفض في البدء الاعتراف بالأمر الواقع ولم يبايع الا مرغما [3] . وهذا الموقف يكشف ذهنية الحكم لدى الأسرة المروانية ، التي وجدت في تعيين هذا الخليفة أمرا غير مألوف في الاعراف السائدة ، التي تضع عادة المقاييس المناسبة للخليفة المرشح .

ومن البديهي ان الموقف المرواني لم يناقش حق الافضلية في خلافة عمر بن عبد العزيز ، بقدر ما كان اعتراضا على ما يمثله هذا الأخير من اتجاه اصلاحي ، لا بد أن تكون الأسرة بامتيازاتها الواسعة ، المتضررة الأولى من قوانينه الصارمة . والخليفة عمر من هذا المنطلق ليس جديدا على المسرح السياسي ، فقد كان ابوه عبد العزيز بن مروان ، حاكم مصر والمرشح للخلافة بعد عبد الملك ، وصاحب الدور الكبير في توجيه الفتوحات الافريقية . وكانت وفاته في حياة أخيه ، قد حسمت

(1) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز : ٣٨ ــ ٣٩ . تحقيق احمد عبده . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٦٧ . ابن طباطبا : الفخري ١٢٩ .

(2) الطبري : ٨/١٢٩ .

(3) الطبري : ٨/١٣٠ . عبد العزيز سيد الاهل : الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز . ٩٤ ــ ٩٥ . دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٩ .

لجدل الذي اثاره هذا الاخير بصدد ولاية العهد ، ومحاولته استبدال عبد العزيز بابنه الوليد (١) . وقد يكون عبد الملك ، احس بالمرارة ازاء هذا الموقف، الأمر الذي دعاه الى الاهتمام بابن أخيه عمر وأصهاره من ابنته (٢) . ولكن حياة القصر على فخامتها في عهد هذا الخليفة ، لم تؤثر في شخصية عمر فكان منصرفا عنها الى قضايا جدية ، جذبت اهتمامه منذ يفاعته الاولى . ذلك أن لثقافته القرآنية التي اخذها عن مجموعة من كبار فقهاء (المدينة) (٣) تركت أثرها البارز على مجرى حياته في ذلك الوقت . بيد أن عمر لم يبلغ في سلوكه الاجتماعي مرحلة من الصوفية، كما تحاول اظهاره معظم الكتابات القديمة والحديثة (٤) ، مما يترك انطباعا في ذهن المتتبع لأخباره ، انه كان ثائرا على أسرته الأموية ، أكثر منه خليفة وممثلا للنظام . ولعل المبالغة في التقويم كانت من صنع الأحزاب المعارضة للامويين التي وجدت متنفسا لها في عهد هذا الخليفة ، سواء من حيث رفع القيود السياسية وتوقيف الاجراءات القمعية المختلفة ، أم من حيث الاصلاحات المتعددة التي أفادت منها على الأخص ، الفئات المضطهدة والمسحوقة في المجتمع الأموي. حتى أن بعض المؤرخين يشكك أصلا بوجود اتجاهات اصلاحية لهذا الرجل في مطلع حياته ، يمكن الاعتماد عليها في بناء تصور خاص حول ما يمكن أن نسميه ثورة من داخل النظام . ومن هؤلاء (بلياييف) الذي يتبنى فكرة متناقضة تماما مع الانطباع التقليدي ، الذي أظهر عمر بن عبدالعزيز في تلك الشخصية

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ٤/٢٤٧ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ٢٢٩ .

(٣) ابن عبد الحكم : سير عمر بن عبد العزيز ص ٢٥ . عبد العزيز سيد الاهل : الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ٣٢ .

(٤) ابن طباطبا : الفخري ١٢٩ . عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الاسلامي ٣١ .

الزاهدة والمتقشفة [١] . وهو يعتمد في تصوره على رأي المؤرخ (بارتولد)، الذي يعتقد بدوره بأن خلافا واضحا بين جدية هذا الرجل ومثاليته في الخلافة ، وبين ترفه واشباع هواياته حتى العبث قبل ذلك [٢] ويبدو أن رواية المؤرخ العربي القديم ابن عبد الحكم قد أوحت بهذا الاعتقاد ، حيث تشير فقط الى تأنقه في مظهره ، مع النفي لأي ابتذال في حياته الخاصة [٣] .

وليس الهدف من هذه المناقشة ، سوى القاء بعض الضوء على شخصية هذا الخليفة خارج الحكم ، اذ لا يستطيع انسان ما أن يكون مقطوع الصلة بماضيه الذي فطر عليه مهما ابتعدت به الظروف عنه . ولا ريب أن عمر بن عبدالعزيز قد جاء الى الخلافة وهو يحمل تراثا من التجربة ورصيدا من التقدير في الأوساط الدينية والعلمية على الخصوص ، اذ أن اقامته في (المدينة) وهي احد أهم المراكز الثقافية في ذلك الوقت، قد أكسبته هذه المكانة المميزة . حتى الخلافة ، كما رأينا جاءته عن طريق الفقهاء الذين استهوتهم شخصيته الرصينة ، وليس من التأييد المرواني الذي كان شبه مفقود في باديء الأمر .

وكانت أول تجربة ادارية ناجحة لعمر بن عبد العزيز ، ومنسجمة مع أفكاره الاصلاحية ، عندما عيّن حاكما على (المدينة)في خلافة الوليد بن عبد الملك. فقد ظهرت حينذاك بواكير سياسته الاقتصادية المتشددة[١]،

---

(١) أ . بليايبف : العرب والاسلام والخلافة العربية ٢٤٥ .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) يروي ابن عبد الحكم في هذا السبيل : « وكان مع ذلك يعصف ريحه ويرخي شعره وهو مع ذلك لا يغمص عليه بطن ولا فرج ولا حكم » سيرة عمر بن عبد العزيز ٢٥ .
(٤) الطبري ٨/٦١-٦٦ .

وحرص على ان تكون ولايته ، مركزا مثاليا للتعايش المتكافيء بين مختلف الفئات ، وذلك في اطار القوانين الاسلامية ، متأثـرا الى حـد كبيـر بشخصية عمر بن الخطاب ونهجه في الحكم . وما لبثت (المدينة) أن أصبحت خلال وقت قصير ، مجتمعا منفتحـا يلتجيء اليـه المضطهدون والملاحقون ، خاصة من قبضة الحجاج في العراق فوجـدوا الاستقرار الذي افتقدوه . ولكن ذلك كان سببا في توتير العلاقة مع الأرستقراطية المروانية التي بدأت تتضايق من ممارسات هذا الوالي ، حيث رأت فيها شذوذا على التقاليد وانقلابا على النهج المتوارث . وجـاء الحجاج ، الوالي الاثير لدى الخلافة ، يحتج بدوره لدى الوليد ويطالب بعزله[1]. فترك منصبه ليعتكف في منـزله في (المدينة) ، مبتعـدا عن أجـواء السياسة حتى جاءته الخلافة وسعـتاليه [2] .

لقد عاش عمر بن عبد العزيز تجربة الحكم ، في وقت بلغت فيـه العلاقة بين الأسرة الحاكمة وبين الفئات الشعبية العريضة ، حدا كبيرا من التعثر والانهيار . وأدرك عن وعي جسامة الخطر الذي يتربص بالنظام الأموي ، مع استمرار الأقلية الحاكمة معـزولة خلف جدران التـرف والامتيازات عن الأغلبية المتذمرة ، الفاقدة أحيانا أبسط قواعد الاستقرار والحياة الكريمة . فكانت أثقل همومه بعد أن أصبحت في يده السلطة العليا ، الاحاطة بهذه المشكلة وتطويق أسباب النقمة مـا استطاع الى ذلك سبيلا . ومن البديهي ، أن محاولته الاصلاحية كانت ثورة من أجل النظام وليس عليه ، استهدفت تقويم المسار الذي انجـرف به أسلافه الخلفاء عن قصد أو عن غير قصد .

---

(١) الطبري ٨/٩٠ .
(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ٣٣ .

مشكلة الارض او الموقف من الفتوحات

يعتبر القرار الأول الذي اتخذه عمر بن عبد العزيز ، بانسحاب مسلمة بن عبد الملك قائد الحملة العسكرية عن أسوار القسطنطينية [١] ، المدخل الى معرفة موقفه من قضية الفتوح، الاستراتيجية التقليدية للخلفاء الأمويين . ففي عهده انكفأت السياسة التوسعية وأصاب الجمود الا قليلا [٢] جبهات الحدود المختلفة . ولم تكن دوافع ذلك زهدا في هذا الاتجاه بقدر ما كانت تصحيحا لا بدّ منه لحماية هذه المكاسب والدفاع عنها من الأخطار الداخلية والخارجية . فهو يحذّر عامله على خراسان [٣] من المضي بعيدا في غزواته الشرقية وراء نهر جيحون بقوله : « فلا تغزُ بالمسلمين فحسبهم الذي قد فتح الله عليهم » [٤] . فهذه العبارة تجسد واقعية الخليفة في نظرته الى الفتوحات ، وهي مبنية على قناعات ثابتة بضرورة التوقف عند حدّ في هذه السياسة ، التي فقدت محتواها المبدئي عبر ذلك الامتداد الأفقي ، الذي استنفذ طاقات الدولة وجعل من علاقاتها مع بعض الشعوب المغلوبة موضع اتهام [٥] .

ولقد كانت ضريبة الأرض أو ما يعرف بالخراج أحد الموارد الرئيسية

---

(١) الطبري ٨/١٣٠ . ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ٣٧
(٢) حملة السمح بن مالك الخولاني الى فرنسا . بيضون : الدولة العربية في اسبانية ١٤٦-١٤٧ .
(٣) عبد الرحمن بن نعم . الطبري ٨/١٣٩ .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) المصدر نفسه ٨/١٣٣-١٣٤ . اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢/٣٠١-٣٠٢ .

لبيت المال في العصر الأموي ، واعتاد أسلافه الخلفاء مقاضاة هذه الضريبة حتى في الحالات غير المشروعة ؛ أي بعد تحول أصحابها الى الاسلام (١) . وكان ذلك من الأسباب التي أبطأت عملية التلاحم في المجتمع الأموي ؛ بعد افتقاد الموالي العنصر التشجيعي في الانضمام الى العقيدة الاسلامية . ومن ناحية أخرى فان هذه السياسة الاقتصادية كان لها مردود عكسي على الانتاج الزراعي ؛ الذي أصابه الاهمال بدوره . نتيجة الصدمة التي منى بها ملاكو الموالي المسلمين . في ارغامهم على دفع الخراج ، دون أن ننسى تأثير الاضطرابات السياسية خاصة في مناطق الخصب كالسواد في العراق ، التي ساهمت كذلك في تحجيم العائدات المالية ، التي كان مصدرها الارض ، مما جر الدولة الى البحث عن مختلف المنابع لتغطية حاجتها الى المال . فاستبدلت ضريبة الخراج على مالكي الأرض في عهد عمر بن عبدالعزيز بضريبة «العشر» المفروضة على المسلمين ، القدامى منهم والجدد (٢) .

لقد تناول هذا الخليفة في اصلاحاته مختلف جوانب المجتمع الأموي ، بحيث أعاد النظر في النهج والأسلوب ، اللذين تحكما في سياسة أسلافه الخلفاء . فجاء عهده ثورة على الذهنية الأموية بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، سواء في انفتاحه على الأحزاب المعارضة بالتخفيف من عدائها التقليدي للامويين ، كالشيعة في مجانبة استفزازهم بتوقيف

---

(١) الطبري ١٣٤/٨ . ضياء الدين الريس : الخراج في الدولة الاسلامية ٢٢٨ .

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ٩٤ .

التعريض بالزعماء العلويين [١] ، أو الخوارج في أخذهم بالحوار والدعوة الى حقن الدماء [٢] ، أو التسامح الديني مع أصحاب العقائد غير الاسلامية ، لا سيما النصارى (أهل الذمة) الذين تعززت مواقعهم الاجتماعية في عهده بشكل محسوس [٣] • وكذلك في محاولته الرائدة لايجاد طبقة ادارية متطورة ، متأثرة بأفكاره الاصلاحية • وكان العقاب ملاحقا للذين يشذون من الولاة ، ويسيئون استخدام السلطة وتطبيق القوانين [٤] •

على أن مشكلة الاراضي المفتوحة كانت في طليعة المشاكل التي عالجها عمر بن عبد العزيز بحكمة ورصانة ، مستوحيا أهميتها من اختلال التوازن بين الاتساع العظيم للدولة الأموية وبين طاقاتها الادارية والعسكرية المحدودة • فجعل في مقدمة الأولويات الاهتمام بالانسان قبل الأرض ، اذ أنه القوة القادرة على الاحتفاظ بها والدفاع عنها ، وليست الحاميات العربية الوحيدة ، المؤهلة بحكم منطق الغلبة على تحقيق هذا الهدف • لقد كان القاسم المشترك لجميع أطراف المحاولة الاصلاحية الرائدة التي قام بها هذا الخليفة ، هو الوصول الى تهيئة الأجواء المناسبة أمام انتشار الاسلام وتثبيته بين شعوب البلاد المفتوحة ، واقامة مجتمع متحرر من العقد الاجتماعية والحساسيات القومية والقبلية . ففي هذا المجتمع وحده تنبت الحلول الجذرية لمشاكل النظام الأموي وتبتعد أشباح

---

(١) ابن طباطبا : الفخري ١٢٩ •

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ •

(٣) المصدر نفسه ٦٨ •

(٤) الطبري ٨/١٣٢-١٣٣ • ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ٥ •

الخطر ، التي عاشت على هذا الاختلال المتوارث في الرؤية بين الحاكم والمحكوم .

كانت خلافة عمر بن عبد العزيز ، احد أهم المنعطفات في التاريخ الأموي ، من حيث كونها محاولة رائدة في استيعاب المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي أفرزتها الفتوحات والعلاقة المتدهورة بين النظام وخصومه . ولكنها محاولة رغم أهميتها ، لم يتح لها الوقت الكافي لاعطاء نتائجها على المدى البعيد . فكانت تجربة مرحلية ، عاشت مع خلافة صاحبها القصيرة وانتهت معه بعد أقل من ثلاثة أعوام من الجهود المتواصلة . فقد جاء الى الحكم في ظروف ، كانت الدولة الأموية قد بلغت معها أبعد مراحل الانتشار والتوسع . ومن هنا اتخذت هذه المبادرة ، توقيتها الضروري ودورها التاريخي ، في وقت اشتدت الحاجة الى اصلاح جذري ، يتناول أولا ذهنية الحكم ونظرته العقيمة الى القضايا المصيرية الخطيرة . ولا شك أن ملامح هذه المحاولة ، انما هي في جوهرها أموية ، استهدفت عمليا انقاذ النظام وحمايته من الأخطار الداخلية والخارجية المتربصة به . ومن الخطأ أساسا مناقشة الانجازات التي قام بها عمر بن عبد العزيز خارج اطار الأسرة الأموية ، حيث كان أحد رجالاتها الكبار في الحكم .

ولكن نقطة الخلاف على الصعيد الأموي تجسدت في التباين بين خطين يفترق كلاهما عن الاخر : أحدهما اسلامي ثيوقراطي ، تأثر الى حدّ كبير بنهج الخلفاء الراشدين ، وهو الخط الذي تبناه عمر بن عبد العزيز ، والثاني دنيوي سياسي ، اقتصرت اهتماماته على رعاية مصالح الأرستقراطية القبلية ، وتدعيم امتيازاتها المتوارثة ، وهو الاتجاه الممثل بالبيت المرواني، الذي لم يشأ التعاطف مع الثورة الاصلاحية ، التي تزعمها

هذا الخليفة والهادفة من حيث المبدأ الى تحجيم نفوذ الأسرة الحاكمة ، انسجاما مع نظرية المساواة والغاء الفوارق الاجتماعية والاقتصادية [١] . وجاء موته المبكر وهو لم يتجاوز الأربعين بعد ، ربما نتيجة لهذا التصادم المبدئي بين الطرفين [٢] .

وجيء بيزيد بن عبد الملك الى الخلافة (١٠١هـ/٧١٩م) ومعه الارادة المسبقة في العودة الى الخط التقليدي الأموي ، خاصة وان عمر بن عبد العزيز لم يشأ لثورته الاصلاحية أن تكون على حساب النظام الوراثي في أسرته ، بل كانت في مصلحته أولا وأخيرا . ولكن الخليفة الجديد عاد كنهج سياسي الى الوراء ، بخطوات ربما تجاوزت السرعة التي أرادتها المشيئة الأموية . وجاء حكمه يمثل انقلابا مضادا للمتطرفين من الأرستقراطية القبلية ، استهدف القضاء على انجازات العهد السابق بكل تفاصيلها . بيد أن يزيد الثاني في شخصيته السياسية مثل العقلية الأكثر تحجرا في البيت الأموي ، لا سيما انه أول خليفة يظهر تعاطفه العلني مع الخط القيسي ، المعروف بعصبيته الشديدة ، وذلك خلافا لأسلافه المتعاطفين بصورة متفاوتة مع الخط اليمني المنفتح نسبيا . وكان ارتباطه بعلاقة مصاهرة مع الأسرة الثقفية التي ينتمي اليها الحجاج الزعيم القيسي الشهير ، اضافة الى الخلفية القبلية المتجذرة فيه ، أن أصبحت الخلافة طرفا في الصراع التقليدي بين الحزبين القيسي واليمني . ومن ناحية أخرى ، فان شخصية هذا الخليفة كما أبرزتها كتابات المؤرخين ، هي

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ٤٦ .

(٢) اليعقوبي ٣٠٨/٢ . نبيه عاقل : تاريخ خلفاء بني امية ٢٩٨ .

شخصية عبثية منصرفة بكل طاقاتها الى مجالس الغناء والجواري [1]، أكثر من ارتباطها بمشاكل الناس وقضايا الدوله وبقية الاهتمامات الجدية • وقد تحمل هذه الصورة بعض المبالغة أو أن هذه الكتابات التي تناولت بصورة خاصة ، الفترة المتأخرة من العصر الأموي ، كانت تهدف الى التركيز على مساويء الخلفاء الأمويين وتضخيم آخطائهم ، وذلك لاضفاء نوع من التسويغ على الدعوة العباسية ، التي أريد لها أن تكون ثورة على الظلم والانحراف •

ولكن يزيد الثاني كان على الأرجح أسير عصبيته القبلية، وهو ما أظهرته الأحداث البارزة في عهده ، لا سيما أن مجيئه بعد خليفه اصلاحي متنور هو عمر بن عبد العزيز ، قد أضفى عليه تلك الصورة القاتمة ، فظهر وكأنه متجرد من الكفاءات التي تؤهله لهذا المنصب الكبير • ذلك أن أعماله خارج الاطار الخاص ، اقترنت بالتعصب الشديد للحزب القيسي حيث كان من نتيجتها حركة يزيد بن المهلب أحد كبار الزعماء اليمنيين • وتعود الأسباب الأولى لهذه الحركة التي قامت في سنة ١٠٢هـ/٧٢٠م ، الى ذلك الخلاف القديم بين الحجاج حاكم العراق الأسبق وبين يزيد بن المهلب حاكم خراسان في ذلك الحين (٨٢هـ/٧٠٢ م)[2] ، الذي جر الى عزل هذا الأخير لأسباب غير واضحة تماما • ولعل الخلافات القبلية كانت وراء تدهور العلاقة بين الرجلين ، حيث أن كلاهما كان زعيما بارزا في قومه• ويبدو أن الحجاج اصطدم حينذاك بموقف عبد الملك المتعاطف مع الأسرة المهلبية ، قبل أن ينجح في انتزاع موافقته وهو في آخر أيامه

---

(١) يرتبط اسم هذا الخليفة في الكتابات التاريخية بجاريتين هما : حبابة وسلامة القس ، خاصة الاولى التي قيل أن موته كان حزنا عليها لشدة تعلقه بها . الطبري ١٧٩/٨ . ابن طباطبا : الفخري ١٣١ .

(٢) ابن الاثير : ٢٢٩/٤-٢٣٠ .

على عزل يزيد ومن ثم القبض عليه في وقت لاحق • فبقي في سجن الحجاج حتى سنة (٩٠ هـ) ، عندما هرب الى الشام والتجأ لدى ولي العهد حينذاك سليمان بن عبد الملك ، حيث أن صداقة قديمة جمعت بين الرجلين ، خاصة وان سليمان كانت له ميول يمنية واضحة [(١)] • واستطاع هذا الأخير بفضل نفوذه، انقاذ صديقه من ملاحقة الحجاج، حتى اذا تولى الخلافة أعاد اليه الاعتبار ، بتعيينه حاكما على العراق والمشرق الاسلامي ، وهو المنصب الذي احتله طويلا الحجاج • وكان مفترضا أن يكون لابن المهلب دوره البارز مع أسرته في النظام الأموي ، لولا غياب سليمان المبكر ، مما أعاده مجددا الى مأزق الملاحقة ، خاصة وان عمر بن عبد العزيز لم يكن يستسيغ كثيرا هذا النوع من الرجال ذوي النزعة الأرستقراطية • فعاد مجددا الى السجن بتهمة اخفاء الأموال ، المطلوب تسليمها الى الخلافة منذ العهد السابق [(٢)] •

وهكذا حكم على يزيد بن المهلب أن يظل طريد السلطة وسجينها من عهد الى آخر • ولكن الكارثة كانت تتربص به على يد يزيد بن عبد الملك ، وهو انطلاقا من كراهيته لليمنيين ، فان مجيئه الى الحكم بعث الرعب لدى ابن المهلب ، الخصم الشديد للقيسية ولجماعة الحجاج على الخصوص ، حيث أشبعهم تنكيلا أثناء ولايته على العراق • فأدرك أنها النهاية القريبة، ولم يجد لنفسه سبيلا غير الهرب[(٣)] • ولكن الزعيم اليمني، لم يشأ الاستكانة وهي مطلب في النهاية غير يسير ، بل توجه الى البصرة حيث ارتبط بعلاقات تاريخية بها منذ أيام والده المهلب بن أبي صفره بطل حرب الخوارج، اذ كانت احد أبرز أهدافهم العسكرية• فعمل

---

(١) ابن الاثير ٢٤٢/٤ — ٢٦٢ •

(٢) الطبري ١٣٢/٨—١٣٣ •

(٣) المصدر نفسه : ١٤٢/٨ •

على تفجير الوضع في العراق معتمدا على أنصاره في هذه المدينة ، رافضا دعوة أخيه (١) الى خراسان ، الأرض الصالحة ، حسب رأيه لمقارعة النظام الأموي . فآثر أن يكون العراق محور تحركه العسكري ، معتمدا ربما على انهيار سمعة الخلافة الأموية في هذا الاقليم ، المزدحم بشتى الأحزاب والتكتلات المعارضة .

وكان سقوط البصرة واخراج حاكمها الأموي ، ومحاورة الخليفة له بشأن العفو تجنبا للانفجار المسلح ، عاملا مشجعا للمضي في حركته ، خاصة بعد التعاطف الذي لقيته في الكوفة من عدد من زعماء الحزب الشيعي وبعض الأرستقراطية القبلية (٢) . ولقد أظهرت الأجواء المحيطة بهذه الحركة ونوعية التأييد الذي حظيت به ، وكأنها ثورة انتقامية ضد تراث الحجاج ، الذي بُعث مجددا في هذا العهد . فكان الموقف العدائي من الحاكم الأسبق ، هو القاسم المشترك بين يزيد بن المهلب وأنصاره العراقيين (٣) .

غير أن هذه الحركة لم تكن سوى تدبير ارتجالي كان قائدها مضطرا الى اتخاذه ، خوفا من العقاب المتربص به على يد خليفة لا يجمع بينهما سوى الكراهية والتعصب القبلي . ولذلك لم يكن لها من مقومات التنظيم ما يؤمن لها الوقوف في وجه القوات النظامية ، التي لا زالت تحتفظ بمواقعها الثابتة في العراق . فتم تصفيتها بغير صعوبة على يد

---

(١) حبيب بن المهلب . الطبري ٨/١٠ .

(٢) كان ابرز الذين انضموا الى ابن المهلب ، النعمان بن ابراهيم الاشتر . ومن الارستقراطية ، اسحق بن محمد بن الاشعث . الطبري ١٥٢/٨ .

(٣) لقد اورد الطبري شعار الحركة بأنه بيعة « على كتاب الله وسنة نبيه وعلى أن لا تطأ الجنود بلادنا ولا بيضتنا ولا يعاد علينا سيرة الفاسق الحجاج . فمن بايعنا على ذلك قبلناه ومن أبى جاهدناه » تاريخ الامم والملوك ١٥٢/٨ . ثابت الراوي : العراق في العصر الاموي ٢١٦-٢١٧ .

مسلمة بن عبد الملك • ولم يخيّب القائد الأموي الشهير آمال الخليفة الانتقامية ، فارتكب مجزرة دموية ليست أقل جرأة من مجازر الحجاج المعروفة ، التي كان يلجأ اليها غالبا في أعقاب انتصاراته [1] • ويبدو أن مسلمة تطلع الى ارضاء أخيه الضعيف ، ليتاح له من خلال طموحه في السيطرة على العراق مركز الثقل في الخلافة ، أن يكون رجل هذا العهد القوي • وبالفعل جاءت المكافأة كما اشتهاها مسلمة ، حيث أتاحت له فرصة الانتقال للمرة الأولى من عمله التقليدي في الجيش ، الى الميدان الاداري كحاكم على العراق والمشرق • ولكن الخليفة الذي كان مرتهنا لتحالفاته القبلية ، وهي مصدر قوته بشكل أساسي ، ما لبث أن استبدل مسلمة ، بحاكم آخر يوصف بأنه من تلامذة الحجاج ومعاونيه الكبار هو عمر بن هبيرة الفزاري [2] •

كانت حركة يزيد بن المهلب الارتجالية ، احد أهم الأحداث الداخلية في هذا العهد . واذا استثنينا ما قام به الخوارج من تحرك محدود بقيادة شوذب [3] ، فان خلافة يزيد بن عبد الملك كانت خالية من أي نشاط توسعي أو اصلاحي يمكن التوقف عنده • فالتصارع القبلي ، الذي كان الخليفة أحد الأطراف الأساسية فيه ، يعتبر الطابع المميّز لهذا العهد • وقد لا يكون بعيدا عن الواقع في رأي بعض المؤرخين ، أن النهاية المأساوية للنظام الأموي ، أخذت تنسج خيوطها على يد هذا الخليفة ، حيث تبلورت حينذاك معالم التيار الشعوبي، وذلك في أعقاب ارتفاع موجة التذمر لدى الفئات غير العربية ، التي عانت من ارهاب الولاة وثقل الضرائب •

---

(١) الطبري ١٥٩/٨ .
(٢) المصدر نفسه ١٦٦/٨–١٦٧ .
(٣) المصدر نفسه ١٤٢/٨ – ١٤٣ .

اليقظة الاخيرة

بعد وفاة يزيد الثاني (١٠٥هـ/٧٢٤م) ظهرت الدولة الأموية وكأنها بدأت المسيرة المتعثرة نحو مصيرها القلق • فالسنوات الأربع التي قضاها هذا الخليفة على رأس هذه الدولة ، كانت كافية لاختصار رحلة السقوط• ولكن الأسرة المروانية كانت لا تزال تملك القدرة على مزيد من التحدّي، فأعطت خليفة آخر ، استطاع ايقاف عجلة التدهور وكبح الانفجار المتربص بها وهو هشام بن عبد الملك . رابع الأخوة من أبناء الخليفة الأسبق الذين تعاقبوا على الحكم ، ولقد عمل هشام بمنتهى الجدّية لانقاذ دولته من الحرب الأهلية ، وتطويق التيار الانفصالي الذي أخذ ينمو بشكل خاص في الولايات البعيدة • والحقيقة فان المرحلة الأخيرة من دولة الأمويين ، تكاد تكون انعكاسا لشخصية هذا الخليفة القوي • ولعله من خلال هذا الموقع قد ساهم بشكل أو بآخر في عرقلة مشاريع الدعوة العباسية ، التي كانت قد بدأت كحركة سرّية في عهد سليمان بن عبد الملك (١) • فكان العباسيون ، بعد نجاح ثورتهم التي أطاحت بالخلافة الأموية ، موتورين بشكل خاص من هذا الخليفة ، من دون انتقاص في تقويم شخصيته الكبيرة التي أعجب بها أبو جعفر المنصور ، الذي لم يتردّد في وصف هشام بأنه « رجل بني أمية » (٢) •

---

(١) فاروق عمر: طبيعة الدعوة العباسية ١١١-١١٤ . دار الارشاد. بيروت ١٩٧٠ .

(٢) عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ٢/٢٨١ .

ومن أولى المبادرات الاصلاحية التي قام بها هشام بن عبد الملك ، محاولة اعادة التوازن بين التيارات القبلية لدى العرب • وكان خلافا لسلفه يتعاطف مع الخط اليمني على غرار معظم الخلفاء الأمويين ، الذين وجدوا في القبائل اليمنية دعامتهم السياسية الأولى • بيد أنه كان يميل الى الاعتدال ، بحيث أن موقفه لم يثر حفيظة القبائل القيسية أو يضعها في الجبهة المضادة للخليفة • فقد كانت ادارته مزيجا من الاتجاهين ، من دون اشعار أي منهما بالتفوق على الاخر • ففي خراسان أخطر الولايات الأموية لاستقطابها معظم العناصر المتطرفة والمناوئة للدولة ، عيّن عددا من الزعماء القيسيين [1] ، بينما استعان في المغرب ببعض اليمنيين من الأسرة الكلبية بعد فشل ولاة الحزب القيسي • واختار للعراق أحد المقربين منه وهو خالد بن عبدالله القسري ، الذي يتحدّر من قبيلة (بجلة) المحايدة نسبيا وغير المتورطة في الصراعات المحلية [2] •

العراق في عهد القسري (٣)

السياسة الاصلاحية :

لقد تابعت السياسة الأموية خطها التقليدي في العراق ، من خلال الأدوات البشرية المنتقاة ، والمعدّة لمهماتها الدقيقة تحت ضغط الأحداث والمتغيرات السياسية المتلاحقة • غير أن ثلاثة من كبار الولاة الأمويين ، لم يكن مرورهم عابرا في هذا الأقليم ولكنهم كانوا جزءا بارزا من تاريخه،

---

(١) الطبري : ٨/٢٠٤–٢٥٧ .

(٢) المصدر نفسه : ٨/١٨٨ .

(٣) هذا الموضوع هو جزء من بحث اعد للنشر في مجلة المؤرخ العربي تحت عنوان : خالد بن عبدالله القسري ، رائد السياسة الاصلاحية في العراق الاموي .

انطبعت عليه بصماتهم دون ان تنل منها القرون الطويلة • ولقد حظي اثنان منهم (زياد والحجاج) بنصيب غير قليل من الجدل والاهتمام ، واختلف بشأنهما التقويم التاريخي • أما الثالث (خالد بن عبد الله القسري) ، فكانت له رؤيته المنفردة في الحكم ، وتميّز عن سلفيه بأنه كان خارج اطار المدرسة الثقفية المعروفة ، سياسة وأسلوبا وذهنية • واذا كان لكل خليفة قوي ممثله القوي أيضا في العراق، فلا بدّ أن هشام بن عبد الملك اختار بدوره (القسري) أحد قلائل اليمنيين الذين عبروا السلطة في العراق ، حيث كانت في معظم مراحلها قيسية الملامح •

ولو أردنا ملاحقة أخبار هذا الحاكم خارج دائرة الولاية ، لوجدنا اسمه يتكرر في سجلات الادارة الأموية منذ خلافة الوليد بن عبد الملك• ويبدو أن الأحداث السياسية في العراق حملته الى هذا الأقليم ، كما حملت غيره من رجالات الدولة الأموية • فعاش عن كثب تجربة الحجاج، وأدرك على ما يبدو الضعف والفشل في سياسة الحاكم الثقفي • وكان أول امتحان لكفاءته الادارية ، عندما نصح الحجاج بتعيينه حاكما على مكة اثر استبعاد عمر بن عبد العزيز ، المتهم حينذاك بمحاباة العراقيين ، الفارين الى الحجاز من قبضة الحاكم الأموي [1] •

وفي مطلع عهد سليمان بن عبد الملك ، بقي خالد لوقت قصير في منصبه ، قبل أن يدفع ثمن علاقته بالحجاج في نطاق المحنة التي عصفت بجماعة هذا الأخير ، أثناء الحملة الضارية على العهد السابق • فعزل خالد من منصبه دون أن يتعرض لأي نوع من الملاحقة والاضطهاد • وهنا يكمن مؤشر الاعتدال في سلوك هذا الرجل ، الذي حظي — في أصعب الظروف — برضى الأصدقاء وتفادي غضب الخصوم • فكانت

(١) الطبري : ٦٧/٨ •

هذه الصفة عاملا رئيسيا من عوامل نجاحه ، وبلوغه أرقى درجات الطموح في وقت لاحق • وفي خلال السنوات العشر التالية،تقوقع خالد في بيته معتزلا السياسة أو مرغما على اعتزالها . حتى اذا جاء هشام بن عبد الملك الى الخلافة . أعيد اليه الاعتبار ، بتعيينه حاكما على الولاية الشرقية بما فيها العراق • وكان هذا المنصب من أخطر المناصب وأكثرها حساسية ، خاصة في تلك الفترة ، حيث بدايات التحرك السري للحركة العباسية ، التي اتخذت هذه المنطقة الأرض الخصبة لدعاتها وأنصارها •

تسلم خالد منصبه من سلفه الوالي القيسي عمر بن هبيرة ، ومعه صلاحيات مطلقة لم يتمتع بمثلها أحد من الولاة الأمويين في العراق ، باستثناء زياد والحجاج . وكانت (واسط) عاصمة هذا الأخير ، المقر الذي اتخذه مركزا لادارته ، مؤثرا الابتعاد عن تيارات الكوفة وأجوائها المشحونة بالعداء للسلطة الأموية • وكان على الحاكم الجديد ، المتحدر من قبيلة يمنية الأصل ، حيادية الانتماء السياسي ، أن يبدأ صفحة جديدة في العلاقات بين العراق والخلافة الأموية ، بعيدا عن العقد العصبية والخلفيات الأقليمية •• فهو يملك المعطيات الكافية والشروط المطلوبة لتحقيق هذا الهدف وتسهيل المهمة التي يحمل أعباءها الثقيلة •

واذا ما تساءلنا عن مواقف الفئات السياسية في العراق من تعيين القسري ، فلا بد أن القيسيين كانوا أكثر الفئات تشنجا وأسرعهم الى التعبير عن المعارضة الشديدة ، خاصة وانه ورث السلطة من زعيم قيسي كبير (عمر بن هبيرة) • فاعتبر هؤلاء أن تعيينه يمثل تحديا مباشرا لهم، في وقت كان هشام يظهر تعاطفه النسبي مع الاتجاه اليمني • أما الفئات السياسية الأخرى ، فكانت تراقب عن كثب ، وتتثاقل ربما لأول مرة في اعلان موقفها الصريح ، اذ أنها وجدت طرازا غير مألوف من الولاة في

شخصية (القسري) المرنة والايجابية • فسقطت المجابهة الأولى لغير مصلحة المعارضة ، التي اكتشفت ما وراء هذا الرجل الهادىء من صلابة، وقدرة على استعمال القبضة الحديدية ، اذا ما دعت الحاجة • والحقيقة أن (القسري) جاء الى العراق يحمل وقارا فرضته السنون ، ويتسلح بكفاءة عالية وتجربة طويلة في الحكم • ولعل أبرز أعماله التي حقق من خلالها نجاحا خاصا ، هي تحرير النفوس من الخوف ، وتقريب المسافة بين السلطة الأموية الحاكمة وبين جمهور المعارضة العراقية ، فكان ذلك ثمرة سياسية الحوار والانفتاح ، التي التصقت بعهده وأعطته الشخصية المميزة والتقويم المختلف في روايات المؤرخين •

وهكذا كانت ولاية خالد بن عبدالله القسري بداية عهد جديد في العراق، بكل ما توحي به هذه العبارة• فقد تبلورت حينذاك مفاهيم متطورة في ذهنية الحكم الأموي ، تجاوزت الفردية المطلقة الى اطار الدولة بمؤسساتها الادارية ومشاريعها الاصلاحية في السياسة والاقتصاد ، وذلك بما يتوافق والتطوير البشري والعمراني للاقليم • فالضرائب التي كانت تجبى أحيانا بطرق غير عادلة ، ان لم نقل غير مشروعة [١] لم تعد وحدها المورد الرئيسي الذي يغطي نفقات الولاية والتزاماتها • اذ أن جهود القسري في استصلاح الأراضي الزراعية ، وتحسين أساليبها ونظمها ، أعطت الثمار المطلوبة ، وانعكست على مختلف الفعاليات البشرية في العراق • فسياسته الاقتصادية خلقت الفرص الجيدة لتحقيق السلام المنشود ، وذلك بانصراف فئة غير قليلة الى الاهتمام بالأرض ، بعيدا عن المعارضة وضروب الجدل ، كما أتاحت له استقطاب عدد من زعماء

---

(١) ثابت الراوي : العراق في العصر الاموي ٧٥/٧٧ •

القبائل ، العاطلين بالوراثة ، فاكتسب ولاءهم وضمن سكوتهم بغير عناء . واذا كان الحجاج قد اعتمد في عهده على اشغال الناس بحملات عسكرية لم يكن ما يسوّغها أحيانا ، وذلك من أجل امتصاص المعارضة، فان (القسري) بجهوده الايجابية ، حقق هذا الهدف ، مضافا اليه علاقة ودية ومصلحية مع الاتجاهات السياسية المختلفة .

لقد نجح اذن في كسر التقليد السائد في العلاقات الأموية ــ العراقية، وذلك عبر المسيرة الطويلة التي قضاها في الحكم ، معاصرا الجزء الأكبر من خلافة هشام . فكانت هذه الرؤية الجديدة من أهم العوامل التي ساعدته على تنفيذ برنامجه الاصلاحي ، متوفرا لديه المتسع من الوقت لقطف حصيلة جهوده الدائبة وانعكاساتها الايجابية على العراق ، سياسيا وأمنيا واقتصاديا . ولا شك أن هذه الفرصة كانت تخون معظم الولاة الأمويين في هذا الأقليم ، الذين غالبا ما تقاذفت بهم المتغيرات السياسية وفقدوا مناصبهم تحت ضغط الأحداث وحركات التمرد .

ومن الواضح أن سياسة الانفتاح التي نفّذها (القسري) خلال عهده الطويل ، وجسور الحوار التي أقامها مع ذوي الاتجاهات السياسية والعقائدية المتباينة ، هي العنوان الرئيسي لذلك العهد . واذا كانت علاقته بالخوارج ــ تلك الفئة الرافضة ــ لم تتجاوز الاطار التقليدي المعروف للسياسة الأموية ازاء هؤلاء وموقفهم المتطرف منها ، فان موقفه من المعارضة الكوفية ، كان موضع نقاش وتأمل . فهذه الجبهة التي التقت مع الخوارج في الموقف العدائي من الحكم الأموي ، كانت تتجاذبها أكثر التيارات السياسية في العراق ، مقدرة على الاستقطاب وتحريك العواطف الشعبية، وذلك على ضوء فلسفتها الخاصة في الحكم،

حيث كان النضال من أجل هذا الهدف قضية لا تقبل المساومة ولا التردد [١] .

ومن الأهمية الاعتراف ، بأن الكوفة التي استوعبت مختلف الاتجاهات السياسية في ذلك الحين ، نعمت لأول مرة في تاريخها الأموي بأجواء التسامح وتحررت من قيود الملاحقة . والانفتاح الديني أوجد مناخا مثاليا للعلاقات العامة . بين السلطة وبين بقية الأطراف في هذا المجتمع ، ومنها أصحاب العقائد الدينية غير الاسلامية ، فتلمست دورها المفقود في العهود السابقة وذلك مع بقية الكفاءات والطاقات ، في معزل عن الانتماء الديني أو السياسي . غير أن هذه العلاقة وجدت من تعرض لها عبر تقويم خاطيء من المؤرخين التقليديين ، الذين افترضوا أن وراء هذه العلاقة خاصة مع النصارى، خلفية معينة لدى القسري المولود من أم تدين بهذا المعتقد . وأشاروا أنه بدافع من التكريم لوالدته ، أقام لها كنيسة على مقربة من مسجد الكوفة [٢] ، فانغمس هؤلاء في الحملة التي كان هدفها القسري بعد عزله : طاعنة بسلوكه الايماني .

ولقد أصابت هذه السياسة الجديدة من هم في أقصى المعارضة ، فنجحت في كبح مواقفها العدائية المتطرفة من السلطة ، رغم أن (القسري) تابع التقليد الأموي السائد في التهجم على زعماء البيت العلوي في الخطب والمناسبات الرسمية . فهل كان ذلك الاجراء نتيجة قناعة ذاتية أم أنه كان يلجأ الى تغطية مواقفه : بالتزام الموقف الرسمي المفروض عليه؟. اذ أن سياسته العلوية أغرقته لاحقا في خضم الاتهامات ، فوضعته

---

(١) بيضون : التوابون ص ١٠٦ . دار التعارف . الطبعة الثانية ١٩٧٨ .

(٢) الطبري ٢٤٦/٨ . نبيه عاقل : تاريخ خلفاء بني امية ٣٠٩ .

موضع الشك لدى خصومه ، حيث أن خليفته يوسف بن عمر الثقفي لم يتردد في التهديد بكشف علاقاته مع العلويين ، والمساعدات المالية التي قدمها الى زعمائهم .

واذا ما حاولنا البحث عن جوانب الحقيقة في هذا التعاطف المزعوم، نجد أن الموضوع يتحول الى قضية لدى الحاكم الثقفي الذي كان أكثر ما يعنيه تشويه تلك الثقة التي منحها هشام لسلفه (١) . ومن البديهي أن تلويح يوسف بن عمر لهذا الأخير بقضية حساسة هي الخلافة، قد أصاب منه الهدف المطلوب ، لما كانت تثيره من تشنج لدى الأمويين ، خاصة عندما يتعلق الأمر ببني هاشم منافسيهم التقليديين . وهذا التشنج انعكس على موقف الخليفة السلبي بعيد ذلك من الزعيم العلوي زيد ، رافضا اعطاءه الفرصة للدفاع عن نفسه (٢) .

لقد جاء يوسف بن عمر الى السلطة في العراق ، بعد نجاح القيسيين وحلفائهم في توتير العلاقة بين الخليفة وعامله (القسري) . فاستجاب هشام مترددا تحت تأثير الحملة المفتعلة التي ازدادت تصعيدا مع انتقال ابن عمر الى مركزه في (الحيرة) . وكان تحول الادارة الأموية في العراق الى عاصمة المناذرة القديمة ، بداية افتراق جذري بين العراقيين وبين المكاسب الاقتصادية والسياسية التي حققها الوالي السابق ، كما كان مؤشرا لعودة النظام الأموي الى خطه التقليدي المعروف . ذلك أن الحاكم الجديد الذي حمل ذهنية قريبه (الحجاج) ، آثر الابتعاد عن (واسط) أو الكوفة (العاصمتان القديمتان) حيث التأييد للقسري .

---

(١) الطبري : ١٨٠/٨ .

(٢) أبو الفرج الاصفهاني : مقاتل الطالبيين ٩٠-٩١ . تحقيق كاظم المظفر . الطبعة الثانية . المكتبة الحيدرية ، النجف ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .

ولقد دأب على اجتثاث الانجازات التي حققها هذا الأخير ، واعتبرت أحد المنعطفات البارزة في تاريخ العراق الأموي •

ان علاقة (القسري) بزعماء البيت الهاشمي ، كانت منسجمة الى حد كبير مع تفكيره المتقدم ، وجزءا لا يبتعد عن نهجه السياسي العام • فقد هدف الى تحقيق حد نسبي من التفاهم بين السلطة الأموية وبين المعارضة العراقية ، عبر عملية احتواء لهذه الأخيرة ، تصب عمليا في اتجاه المصلحة العامة للدولة • من هنا كان (القسري) شاذا بين أقرانه الولاة الأمويين ، في محاولته الرائدة لاقرار السلام في العراق ، الى آفاق جديدة من أبرز سماتها التعايش والانفتاح والاستقرار السياسي والاقتصادي •

العلاقة مع العلويين

كانت سياسة خالد العلوية ، الجانب المثير في عهده الطويل (١٠٦هـ/٧٢٤م ــ ١٢٠ هـ/٧٣٨م) [(١)] ، لما أثارته من جدل في الحياة السياسية الأموية بصورة عامة • فالحملة القيسية التي استهدفته كانت في منتهى الشراسة وفي غاية الاتقان • وتشابكت التهم من حوله ، مطوقة عهده بما فيه الايجابيات ، لتلقي عليه ستارا كثيفا من الضباب ومن التساؤلات •• من تهمة التواطؤ مع الزعماء العلويين واغداق الأموال عليهم، وأخيرا محاباة الفئات غير الاسلامية وتكثيفها في جهازه الاداري• لقد ظهر (القسري) لخصومه ، وكأنه اخترق التقاليد التاريخية ، بتحرره من رواسب التعصب القبلي والاقليمي ، ومحاولته تجذير العلاقات المتكافئة بين مختلف الاتجاهات السياسية •

---

(١) الطبري ١٨٢/٨ ، ٢٥٢ •

غير أن (القسري) كان عليه أن يسدد حسابات أفكاره المتقدمة ، فعزل من منصبه تحت ضغط الحملات المتصاعدة والمركزة ، في غياب الدعم الخلافي الرادع • وكان خصمه الحاكم الجديد (يوسف بن عمر الثقفي) يتطلع الى دور غير عادي في العراق ، متلمسا خطى قريبه الحجاج ، ومعجبا حتى التشبث بأسلوبه الصدامي المعروف • ولعل أكثر ما يستلفت الانتباه في التجانس النوعي بين الثقفيين ، تلك المبادرة الهجومية المشتركة بين خطبة الحجاج الشهيرة في الكوفة ، وبين خطبة ابن عمر المنسوبة له عند قدومه الى الحيرة ، اذ شابهت الأولى حتى في الاطار النفسي العام والمفردات اللغوية المختارة ، كقوله مثلا : « يا أهل العراق ، لأقتلن منافقيكم بالسيف وجناتكم بالعذاب » [1]•

لقد كشفت هذه الممارسات الانفعالية أبعاد المخطط المحبوك الهادف الى تصفية المواقع، التي استمد منها (القسري) قوته السياسية والمعنوية • فارسل الى السجن بتهمة الاختلاس والاثراء الفاحش على حساب منصبه • وفي نفس الوقت كانت قبضة الحاكم الجديد تشتد فوق المعارضة الكوفية في محاولة لاستدراجها الى مجابهة أخرى ، وذلك عبر توريط زيد بن علي بن الحسين ، أحد زعمائها البارزين ، في مأزق مع السلطة ، ومن ثم دفعه الى الثورة • وكان زيد أكثر العلويين تأهيلا في ذلك الوقت ، للقيام بدور ما على الساحة العراقية • فبينما كان (القسري) يتنقل تحت وطأة التعذيب في السجن ، بين واسط والحيرة [2] ، كان الزعيم العلوي يدفع ضريبة علاقته الودية مع الحاكم السابق ، ويلاحق بتهمة التواطؤ معه في اخفاء مبلغ كبير من المال ، زعم ابن عمر أن سلفه قد أودعه لدى زيد في وقت سابق •

---

(١) الطبري ٨/٢٥٤ •

(٢) المصدر نفسه ٨/٢٦١ •

وهكذا ، لم تكن التهمة مستهدفة (القسري) وحده ، بل كان لها هدف أبعد من مجرد محاكمة سلوكية لوال معزول . ذلك أن زيدا،ذي الشخصية القوية والطموح البعيد حسب مصادر المؤرخين ، كان يثير حفيظة النظام الأموي وهواجسه التقليدية . فهو أول زعيم علوي يمارس تحركا سياسيا شبه علني ، خارج الدائرة المفروضة على أسرته منذ النكبة التي حلت بها في كربلاء . وهذا القلق الأموي ، لا يلبث أن يتجلى في انفعال الخليفة هشام من زيد ، ورفضه التحاور معه بشأن التهمة المذكورة، واصراره بشيء من الاهانة على أن يكون حاكم العراق الثقفي ، هو المرجع المباشر لهذه القضية .

ولم يكن أمام زيد سوى الامتثال لأوامر الخليفة والتوجه الى الحيرة . وكان يعرف سلفا أية مقابلة عقيمة ستكون مع الوالي القيسي ، ويدرك أي مخطط تنسجه له أصابع هذا الأخير . فالعلاقات بين الثقفيين والعلويين كان لها سجل حافل في ذاكرته ، تزدحم فيه الكوارث والتصفيات . ولم تلبث مخاوفه أن تحققت بعد استدعاء يوسف بن عمر لطرفي التهمة (زيد وخالد) ، في محاولة لانتزاع الاعتراف منهما تحت التهديد ، والتلويح بالعقاب . ولكن أحدا من الرجلين لم يحقق له هذه الرغبة ، حيث رفضا التهمة بجرأة واصرار . فعاد (القسري) الى سجنه وقبض على زيد وقتا ما ، قبل أن يفرج عنه بأمر من الخليفة ، ليجد ثورة تنتظر قيادته ، وتلقى عنده الاستجابة والتسويغ .

وقد لا نجد صعوبة في تقويم الأحداث التي كانت مسرحها مدينة الكوفة بعيد ذلك . فالتهمة التي حققت للحاكم الثقفي ابن عمر ذريعة الملاحقة لخصومه السياسيين في العراق ، وجدت من اكتشف سذاجتها حتى في أوساط الخلافة ، التي ترددت في الانسجام أحيانا مع قرارات

واليها المرتجلة • أما القضية في جوهرها ، فلم تكن غير وسيلة لتحقيق هدف سياسي ، يجري توظيفه في خدمة المصالح المستقبلية لحاكم العراق • واذا رجعنا الى متابعة الشريط المتزامن مع الموقف الذي اتخذه هذا الأخير من (القسري) ، لوجدنا أنه يتمحور حول نقطة أساسية ، وهي التشكيك بالولاء الأموي لسلفه ، والتركيز على صلاته الودية مع العلويين •

ويبقى موقف (القسري) غامضا يحتاج الى معطيات ، تتجاوز الحملة الهادفة ، الى حقائق ليست مطروحة من هذا المنطلق • ذلك أن حاكم العراق السابق الذي حظي بتقدير أحد أقوى الخلفاء الأمويين ، ورافقه جانبا من ولايته المديدة ، لم يكن موضع شك في انتمائه الفكري أو السياسي ، أو ارتياب في سلوكه العام • ولم تكن تهمة التواطؤ والضلوع مع العلويين ، سوى تغطية لهدف أبعد منه وأكثر خطورة من التهمة الساذجة الملصقة به • فضحت الخلافة بواليها القوي والمخلص ، وصولا الى أهداف تعتبرها مصيرية وحاسمة •

لقد خسر العلويون زعيما اخرا ، ذهب ضحية القضية التي أثارها يوسف بن عمر بعيد تعيينه على العراق • كما خسرت (بجلة) القبيلة اليمنية أحد زعمائها المتنورين، الذي كان من أقدر موظفي الدولة الأموية وألمعهم ذكاء وأبعدهم نظرا • أما الأول فقد خرج من سجن الثقفي ، ومعه كبرياؤه المهان ورغبته في الانتقام •• فاذا الكوفة متعطشة بدورها للثورة ، في وقت غاب عنها مركز الحكم وظل السلطة الثقيل ، حيث كان في قلب أحداثها يعد نفسه منذ زمن لعمل ما على أرضها • غير أن الفكرة لم تكن ناضجة ، فوقع زيد في التجربة نفسها التي عصفت بأسرته في

ظروف متشابهة مع بعض الاختلاف في التفاصيل ، وذلك قبل أكثر من نصف قرن من الزمن [1] .

أما (القسري) ، شريك زيد في التهمة التي حولها يوسف بن عمر الى قضية سياسية ، استنزف من خلالها مواقع الرجلين ، فقد أفرج عنه بعيد القضاء على حركة الكوفة التي تزعمها زيد . ورغم أن الخليفة كان وراء ذلك القرار ، الا أنه رفض فتح ملف القضية مع صديقه القديم ، الذي أقام حينا في (القرية) [2] في محاولة لتبرئة نفسه أمام الخليفة ، ولكن دون طائل . فقدظل شبح حاكم العراق الثقفي يلاحقه ، حتى بعد انتقاله الى دمشق ويطارده بالاتهامات والشكوك . ولم يعد هشام كثير الحرص على علاقته بالقسري ، بقدر حرصه على التجاوب مع رغبات واليه المتصلب في العراق . فكان على ما يبدو بحاجة الى هذا النوع من الولاة، لا سيما بعد تدهور الموقف السياسي على أكثر جبهات الدولة الأموية ، وعلى الأخص جبهة المغرب في أعقاب اندلاع ثورة البربر الكبرى .

وفي دمشق ، تنقل (القسري) ما بين داره والسجن ، منكفئا وراء جدران الصمت ، وذلك في أواخر عهد هشام حيث بقي هذا الخليفة ، حافظا رغم كل الظروف بعض التقدير لواليه السابق . ولكن وفاته [3] انعكست سلبا على مصير القسري فأفقدته الغطاء الأخير الذي صد عنه

---

(١) أحبطت ثورة الكوفيين وقتل زعيمها زيد سنة ١٢٢هـ/٧٣٠م. راجع أخبار هذه الثورة في : الطبري ٨/٢٧١–٢٧٩ . ناجي حسن : ثورة زيد بن علي . المقرم : زيد الشهيد .

(٢) قرية على مقربة من الرصافة مصيف هشام الواقعة غربي الرقة.

(٣) توفي هشام في الرصافة في ربيع الاول سنة ١٣٥ هـ. تاريخ خليفة بن خياط ٢/٥٣٣ .

شبح التصفية . ذلك أن الخليفة الجديد [1] ، القيسي المتطرف والاكثر انسجاما مع افكار الثقفي حاكم العراق ، منح هذا الاخير حرية التحرك في ملاحقة (القسري) . فقبض عليه وحوكم بالتهمة ذاتها ، ثم أعدم في الحيرة مع عدد من جماعته [2] .

لقد كان خالد بن عبد الله القسري، بافكاره ونهجه السياسي ظاهرة فريدة في تاريخ الأدارة الأموية . فالسلطة كما نظر اليها ، لم تكن سيفا تقطر منه الدماء ، أو سجونا يتكدس فيها المعتقلون من المعارضة ، بل كانت طريقا الى قلوب الناس ، واكتساب ثقتهم وتبديد الخوف من نفوسهم ، فضلا عن تحسين أوضاعهم الأجتماعية والأقتصادية . كما كانت تجربته الرائدة ، مؤشرا الى أن لغة الحوار اكثر جدوى وأعمق تأثيرا من أساليب القمع وحملات الملاحقة. فنجح (القسري) حيث أخفق أسلافه، الذين لم يجدوا في السلطة غير مصالحهم الذاتية وسبيلا الى اكتساب مودة الخلفاء دون الشعب . ولا نبالغ اذا ما نظرنا الى هذه الحقبة من تاريخ العراق الأموي، على أنها انعطاف جذري، حيث تفوق هذا الأقليم على غيره من ولايات الدولة ، بتحقيق تلك التجربة المتقدمة في اطار السياسة الاصلاحية. غير أن الذهنية الثقفية لم تستوعب هذه التجربة، فتآمرت عليها مدعومة من جماعة التيار التقليدي ، المتشبثة بمصالحها وامتيازاتها ، وبأفكارها المغلقة .

ولا جدال في أن القضاء على اصلاحات (القسري) على يد أحد المنتمين الى المدرسة التقليدية الأرستقراطية وهو يوسف بن عمر الثقفي، قد مثّل انكفاء الى الوراء وعودة حتمية بالعراق الى المجابهة المباشرة مع

---

(١) الوليد بن يزيد من عبد الملك . الطبري ٩/١٧ — ٢٢ .
(٢) تاريخ خليفة بن خياط ٢/٥٤٦ .

النظام الأموي . ولم يعد خفيا ما ينتظر هذا الأخير ، وقد أخذت أركانه حينذاك في الأهتزاز ليصبح بعد بضع سنوات امام السقوط المرتقب . ولعل المؤرخ الألماني يوليوس فلهوزن Julius Wellhausen ، قد أصاب هذه الحقيقة بعبارته التالية : « كان سقوط خالد بن عبدالله القسري ، فاتحة الفترة الأخيرة المحملة بالكوارث ، والتي انتهت بسقوط الدولة الأموية » (١) .

---

(١) فلهوزن : الدولة العربية وسقوطها ص ٤٥٠ . ترجمة يوسف العشي ، دمشق ١٩٦٢ .

ثورة البربر الكبرى

كان تحرك البربر في عهد هشام ، جزءا من التحرك الثوري العام الذي اجتاح ولايات الدولة الأموية ، من المغرب حتى أواسط آسيا في المشرق ، مرورا بالانتفاضة العلوية الأخيرة في العراق • واذا كانت قوات الخلافة ، قد نجحت في تجميد الأنفجار وتطويق تمرد الترك وراء نهر جيحون الذي قام بالتحريض عليه، أحد الزعماء العرب (الحرث بن سريج)، مستقطبا الفئات المتذمرة والمضطهدة ومدافعا عن حقوقهم السياسية والاجتماعية (١) • واذا كانت هذه القوات نفسها قد سحقت في وقت لاحق حركة زيد بن علي ؛ وهي مجرد مشروع للثورة ، لم يكتمل بعد •• فان التحدي الكبير الذي جابه النظام المركزي ، في أقاصي المغرب كان من العنف بحيث أن محاولاته التأديبية باءت في معظمها بالفشل ، قبل استعادة السيطرة على الوضع وأخماد الثورة في أواخر عهد هشام •

لقد تدخلت بضعة عوامل نفسية وعقائدية واجتماعية ، في تهيئة الأجواء المناسبة لأنفجار ثورة البربر الكبرى في المغرب • فهي ولا شك أحدى محصلات العلاقة المتشنجة وغير المستقرة بين البربر والحكام الأمويين ، ومفهوم هؤلاء الغامض لها من خلال الممارسات الخاطئة والسلبية، خاصة في السنوات القليلة السابقة على الثورة• ومن ناحية أخرى فان النظام الاداري المحلي ، أعطى ولاية المغرب ، وضعا خاصا ربما لاعتبارات جغرافية ، حيث أن حاكم مصر كاد أن يكون المسؤول

---

(١) الطبري ٨ /٢١٩ — ٢٢٠ •

المطلق عن هذا الجزء من الدولة • وهذا ما دفع الحكام الأمويين غالبا الى التصرف بذهنية غير واقعية، تحت تأثير خلفيات قبلية أو عنصرية، ساهمت عمليا في توتير الأجواء وشحن النفوس بروح التمرد على النظام • فجاء اتصال الثورة كامتداد جذري بعهد يزيد بن عبد الملك ، اول خليفة أموي تأخذ سياسته بعدا فئويا لمصلحة الأتجاه القيسي ، المعروف بتصلبه مع العناصر غير العربية • وكانت أول معالم هذه السياسة المتطرفة ، تعيين يزيد بن مسلم ، كاتب الحجاج وأحد المتأثرين حتى الألتزام بنهجه القمعي المعروف في الادارة ، الذي افتتح عهدا من الحكم الفردي ، تفوق به على سلفه حاكم العراق في مظاهر السلطان والترف والحاشيات الخاصة [1] •

ويحتل الخوارج (الأباضية والصفرية) [2] دورا خاصا في ثورة البربر، وهو دور مقنّع بالطروحات المتطورة التي استهوت المسحوقين منهم لا سيما نظرية الحكم ، وهي تجعل من الكفاءة وحدها دون الأنتماء القبلي او الأجتماعي ، المدخل الى بلوغ السلطة العليا وبقية المراكز في الدولة • لقد جاء انتشار هذه الأفكار الجديدة ، في وقت كان العرب يشكلون ارستقراطية متفوقة في الامتيازات والمناصب ، بينما كان البربر مطاردين رغم اسلامهم ، بالضرائب [3] ومنطوين على الحرمان

---

(١) بيضون : الدولة العربية في أسبانية ١٠٠ ــ ١٠١ دار النهضة ١٩٧٨ . عبدالله العروي : تاريخ المغرب ، محاولة في التركيب ٩٥ . ت ذوقان قرقوط . المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٧ .

(٢) انتشر المذهب الاباضي في القسم الشمالي من المغرب الاقصى والاوسط . بينما انتشر المذهب الصفري الاكثر تطرفا في القسم الجنوبي من المغرب الاقصى . عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ٣٠١ . القاهرة ١٩٦٦ .

(٣) الطبري : ١٦٧/٨ .

في مراكزهم المتواضعة • ومن البديهي أن العقائد المتطرفة تعثر على ضالتها في هذه الظروف، حيث وجد البربر فيها المتنفس لتراكمات الغضب المخزونة في نفوسهم ، والطريق الى تحسين أوضاعهم واسترداد حقوقهم المفقودة (١) •

هذه هي أبرز الملامح العامة لثورة البربر في المغرب ، حيث تداخلت عوامل اجتماعية وعقائدية في تفجيرها ، وانتشارها حتى القيروان . فجاءت وكأنها انقلاب غير مباشر للخوارج ، الذين استفادوا من فشل تجربتهم في المشرق ، باعتماد نهج آخر في سلوكهم الثوري الهادف الى اسقاط الخلافة الأموية • ووجد هؤلاء فرصتهم التاريخية في مناطق ليست لها مركزية العراق ــ محور نشاطهم السابق ــ وتتجمع فيها اعداد كبيرة ، يعم بينها السخط والتذمر ، وتصلح كأداة عسكرية لتفجير الوضع ، وتهيئة السبيل للخوارج في تحقيق اهدافهم السياسية •

ولم تولد هذه الثورة بدون مقدمات ، بل كانت لها جذورها البعيدة التي تعود الى مطلع القرن الثاني للهجرة • وكان يزيد بن عبد الملك بسياسته الفئوية ، قد وضع البربر في موقع العداء والمجابهة للدولة ، حيث كان واليه على المغرب يزيد بن أبي مسلم ، المنفذ المتحمس لأرادة الخليفة • فحاول التمثل بأساليب استاذه الحجاج ، ولكن بشيء من التهور والمبالغة، الأمر الذي جر عليه موجة من الحقد ، انتهت به قتيلا على عتبة المسجد في القيروان (٣) • ولقد أصابت هذه الحادثة في جرأتها واسبقيتها موقعا من الخليفة ، الذي وجد نفسه مرغما على اعادة النظر في

---

(١) ر. دوزي : تاريخ مسلمي اسبانية ١١٤ . أ. بيضون : الدولة العربية في اسبانية ١٠٥ . عبد الله العروي : تاريخ المغرب ٩٥ .

(٢) الطبري : ١٦٧/٨ .

سياسته الأفريقية والاعتراف بفشل المنطق القيسي في الحكم • وهذا ما دفعه الى تعيين يمني من الأسرة الكلبية هو بشر بن صفوان في اعقاب اغتيال واليه يزيد •

بيد أن تغيير الحاكم لم يؤد بالضرورة الى تعديل في الأتجاه العام للسياسة الأموية الذي اتخذ اطاره التقليدي في المغرب ، لأن الوالي الجديد وهو من اركان الارستقراطية التقليدية في هذا النظام ، كان حريصا على مصالحه الذاتية المتأقلمة حتى الانصهار مع خليفة له نزعة قبلية متعارضة (١) • وهذا ما جعل من السنوات السبع التي قضاها بشر بن صفوان في السلطة(٢) ، استمرارا للنهج الذي بدأ مع سلفه ، في استعداء البربر وازدياد نفورهم من الحكم الأموي • وما لبث القيسيون أن عادوا الى السلطة في المغرب ، ومعهم رؤيتهم التقليدية ومنطقهم المتطرف • ولعل اشدهم تمسكا بتقاليده القيسية ، كان عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (٣) ، الذي تبلورت معه مرحلة جديدة من المجابهة بين الأمويين والبربر • فكانت سياسته الاقتصادية الاداة التي دمرت ما تبقى من مظاهر التعايش بين الطرفين ، حيث اقترنت بالأساليب القمعية المتطرفة • واعترف السلمي أخيرا بأخفاق مهمته ، قبل أن يصيبه ما أصاب الوالي الأسبق يزيد بن أبي مسلم ، فتنحى طوعا عن منصبه وغادر القيروان(٤)•

وبلغ من خطورة التطورات الداخلية في المغرب ، أن الخلافة لم تعثر سريعاً على الرجل المناسب لأدارة هذا الأقليم ، حيث شغلها بصورة

---

(١) ر. دوزي : تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٣٩ .
(٢) توفي بشر بن صفوان سنة ١٠٩ هـ/٧٢٧ م . تاريخ خليفة بن خياط ٤٩٦/٢ . دمشق ١٩٦٨ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٩١ .
(٤) المصدر نفسه ٤٨٩ .

مؤقتة أحد معاوني السلمي [1] . وأخيرا لجأ هشام بن عبد الملك الـى تعيين عبيد الله بن الحبحاب خلفا لهذا الأخير ، على أن يحتفظ بمنصبه كحاكم على مصر . ويبدو أنه كان مقربا من الخليفة وحائزا على ثقته ، فجاء الى القيروان ومعه تفويض خاص لمعالجة الأزمة مع البربر . ولكن ابن الحبحاب الذي حكم مصر بأسلوب نال اعجاب الخليفة ، لـم يكن بالضرورة قادرا على القيام بالمهمة نفسها وبالنجاح ذاته في المغرب. فمصر لم تكن تعاني من مشاكل قومية أو قبلية، وبالتالي فان ادارتها لا تتطلب أي مجهود غير عادي ، بخلاف المغرب وهو بؤرة التيارات المتعددة ، المهددة لاستقراره ونظام التعايش فيه . فعجز ابن الحبحاب وهو القيسي فـي الانتماء والنهج السياسي والمصالح الذاتية ، في التصدي للمهمة الثقيلة التي كلف القيام بها ، وخابت معه آمال الخلافة في الوصول الى تهدئـة الوضع الذي يوشك على الانفجار .

وفي ذلك الوقت كان الخوارج ينشطون ، كمـا أسلفنا ، فـي التغلغل بين صفوف البربر خاصة المسحوقين منهم ، والعمل على استثمار نقمتهم المتزايدة ضد الحاكم القيسي ، في اطار قضية موحدة ومرحـلة جديدة . ولقد وجد هؤلاء الأرضية المناسبة لنمو أفكارهم الخاصة فـي قبيلة زناتة البترية ، بفروعها الأساسية (مكناسة وبرغواطة ومطغرة) ، لا سيما هذه الأخيرة التي تحدر منها زعيم الثورة ، ميسرة المطغري [2] . وكان ميسرة يتمتع بقسط من الثقافة الدينية ، توصل اليها مـن خـلال اقامته المبكرة في القيروان ، وتحول الى المذهب الصفري في وقت لاحق

---

(١) عقبة بن قداحة . ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٩٣ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٩٣ . عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ١٣٨ .

أثناء وجوده في طنجة ، حيث تمحور نشاط الصفرية في هذه المنطقة من المغرب الأقصى. فنشأ على الأرجح متأثرا ببيئته الفقيرة ومتحمسا لأفكار الخوارج ، مما كان له أثره البارز في مجرى حياته المستقبلية ، فنجح في التأثير على جماعته في هذه المنطقة النائية واستقطاب عدد غير قليل من البربر المتذمرين تحت زعامته (١) . ويبدو أن الاتجاه المتصلب الذي اشتهر به عمر بن عبدالله المرادي مساعد ابن الحبحاب ونائبه على طنجه، قد شجع ميسرة على اثارة العلاقة مع النظام الأموي .

بيد أن مؤشرين ، لا نستطيع تجاهلهما في سياق التطورات الأخيرة، قبيل انفجار الثورة وهما : مقابلة ميسرة للخليفة هشام ومناقشته في سياسة الولاة الأمويين ازاء البربر . والفراغ العسكري في ولاية المغرب، اثر قيام الجزء الأكبر من المقاتلين بحملة على صقلية بقيادة حبيب بن أبي عبيدة (٢) . فكانت الفرصة مثالية للتحرك ، حيث كان الاستعداد النفسي والحربي ، قد وصل الى مستوى متكافيء في الصراع على السلطة . يضاف الى ذلك الموقع الجغرافي الملائم ، حيث انفجرت الثورة في منطقة السوس الأدنى على ساحل المحيط ، ملتقى المتذمرين والمضطهدين من البربر . فسقطت طنجة وقتل حاكمها المرادي ، مما أدى الى استسلام المنطقة بكاملها في قبضة الثورة . ولقد روعت هذه التطورات ابن الحبحاب لا سيما بعد مقتل ابنه حاكم السوس (٣) ، فاستبد به الغضب وعوّل على الانتقام الفوري . غير أنه كان في وضع لا يشجعه على اتخاذ قرار

---

(١) تصف المصادر العربية ميسرة بأنه كان يعمل سقاء للماء في القيروان في مطلع حياته . ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٩٣ . تاريخ خليفة بن خياط ٥٢٥/٢ .

(٢) بيضون : الدولة العربية في اسبانية ١٠٥ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٩٣ .

من هذا النوع ، حيث الجزء الأكبر من جيشه في مهمة خارجية . فحاول ما استطاع حشد ما تبقى من طاقاته بقيادة خالد بن أبي حبيب وارسالها الى (السوس الأدنى) ، في الوقت الذ ياستدعى قائده حبيب بن أبي عبيدة للالتحاق بدوره في منطقة التمرد [1] . ويبدو أن التنسيق كان مفقودا بين القائدين ، بل ان شكوكا تحيط بموقف هذا الأخير واذا كان قد وصل في الوقت المناسب ، خاصة وان ظهوره في الحملة التالية الانتقامية على رأس ما عرف بالعرب الأفارقة يرجّح هذه الشكوك [2] . وعلى مقربة من طنجة مركز الثورة ، تعرض الجيش الأموي لهزيمة ساحقة في معركة (وادي شلف) أو (الشليف) [3] ، حيث قضي على الحملة بمن فيها القائد (خالد بن أبي حبيب) . وهي معروفة في مصادر المؤرخين التقليديين بـ (غزوة الأشراف) [4] ، وذلك بما أسفرت عنه من تضحية جماعية ونكبة جسيمة حلت بالعرب المقاتلين .

وانعكست نتائج هذه الهزيمة على البلاط الخلافي في دمشق ، حيث بادر هشام الى اعداد حملة من الجيش الشامي ، الأداة العسكرية الرئيسية في دولة الأمويين . فغالبا ما كان هذا الجيش القوة الضاربة التي يلتجيء اليها الخلفاء في المهمات الدقيقة . وفي القيروان ، كانت اثار الهزيمة أكثر ما أصابت عبيد الله بن الحبحاب ، فحاول التقليل من سلبياتها على مركزه ، بافتعال معارك جانبية ، وذلك باجراء مزيد من الضغط والملاحقة ضد خصومه اليمنيين ، حيث اتهمهم بالتواطؤ مع

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٩٣-٢٩٤ .

(٢) المصدر نفسه ٢٩٤ . ابن عذاري: البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ١/٤١ .

(٣) عبد الله العروي : تاريخ المغرب ، محاولة في التركيب ٩٦ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٩٤ .

البربر [١] . ولكن محاولة الخروج من تبعات المحنة التي كان أحد أطرافها المباشرين ، لم تجد تسويغا لدى الخلافة . فأمرت بعزله ، بعد تحميله مسؤولية التدهور الأخير للوضع في المغرب ، وعينت بديلا له أحد القادة الشاميين وهو كلثوم بن عياض القشيري [٢] . غير أن هذا الاجراء ، كان يحمل معه ضعف الخلافة ، وعدم قدرتها على التحرر من عقدها التقليدية . فقد جاء تعيين هذا الأخير وهو في الوقت نفسه القائد العام للحملة العسكرية ، بفعل المحافظة على التوازنات القبلية وليس نتيجة كفاءاته القيادية المفقودة ، فهو لا يختلف عن سلفه الا أنه أكثر تقدما منه في السن . وكي يتفادى هشام هذه الثغرة لجأ الى تعيين نائب له في القيادة ، هو ابن أخيه بلج بن بشر القشيري [٣] . وسيحتل هذا الأخير موقعا خاصا في تاريخ الأندلس ، خاصة في الصراع القبلي والأقليمي الضاري الذي تزامن مع الأيام الأخيرة للدولة الاموية [٤] .

ولم تكن جبهة البربر بدورها خالية من المتاعب ، فاغتيل ميسرة قائد الثورة في أعقاب انقلاب قام به المتطرفون من الخوارج بزعامة خالد بن حميد الزناتي . غير أن هذا الأخير نجح في تطويق الانقسام ومنع الثورة من التشرذم ، خاصة وانه من زعماء (زناتة) القبيلة الكبرى ، والمحور الرئيسي لهذه الحركة .

واذا كان البربر قد أمكنهم تجاوز خلافاتهم الداخلية ، فان

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٩٤ .
(٢) المصدر نفسه . اخبار مجموعة ٣٠ .
(٣) اخبار مجموعة ٣٠–٣١ .
(٤) ابراهيم بيضون : الدولة العربية في اسبانية ١١٥–١٢٠ .

الانسجام على الجبهة الأموية كاد يكون مفقودا . فقد حمل الجيش حساسيته الخاصة وعقدة التفوق التقليدية ، وهذا ما أوقع الجبهة في صراع مكبوت ، تجاوز الخلفية القبلية الى النزعة الاقليمية ، بين مقاتلي الشام تحت قيادة كلثوم بن عياض ، وبين مقاتلي المغرب بقيادة حبيب بن أبي عبيدة ، أو بين العرب الشاميين والعرب الأفارقة . فبينما تصرف الأوائل على أنهم جيش الخلافة المركزي بما لديه من قوة معنوية وامتيازات متوارثة ، كان الاخرون يتجاذبهم ما يشبه الشعور الوطني ، بأنهم أهل البلاد ، والمعنيين مباشرة بالدفاع عن مركزهم فيها .. وقد نمّى لديهم هذا الاحساس حبيب بن أبي عبيدة ، قائدهم الطموح والمغامر [1] .

ولم تفارق هذه الحساسيات الجيش الأموي ، بجناحيه الشامي والأفريقي حتى في معركة (سبو) الحاسمة [2] . فقاتل هذا الجيش رغم كثافته ببطء وتثاقل ، مما أدى الى تكرار التجربة والهزيمة معا ، ولكن بنتائج أكثر خطورة . ولقد أسفرت المعركة عن مقتل القائدين المتناحرين (كلثوم وحبيب) وتدمير الجزء الأعظم من الحملة الأموية . ولم ينجُ سوى بضعة الاف من العرب الشاميين ، نجحوا في الافلات من مطاردة البربر والاعتصام في مرفأ سبته Ceuta، أقرب موقع في المغرب الى الساحل الاسباني ، وذلك بقيادة بلج بن بشر . ولقد بقي لفترة يفاوض حاكم الأندلس حينذاك ، عبد الملك بن قطن، من أجل السماح له بالعبور الى ولايته ، حيث كان ذلك مخرجه الوحيد مع فرقته للتخلص

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٩٥ . ابن عذاري : البيان المغرب ٤٠١/١ .

(٢) وقعت المعركة الفاصلة عند قرية (بقدورة) الواقعة على نهر سبو . ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٩٥ .

من حصار البربر . ولم يحقق له هذا الأخير استغاثته الا بعد اشتداد الثورة في الأندلس ، التي فجرها البربر في هذا الأقليم تجاوبا مع ثورة المغرب . اذ أن عبد الملك بن قطن الذي كان يمارس نفوذا شبه مستقل في ولايته ، وتستأثر به في الوقت نفسه عصبيته الأقليمية ضد الأمويين ، وجد في موافقته على الحاح بلج نوعا من المغامرة ، وارتهانا لهذه الفرقة النظامية ، التي أثبتت كفاءتها العالية في احباط الحصار الشديد الذي فرضه البربر عليها في سبته [1] .

وبعد معركة (سبو) ، انتزع البربر زمام الموقف من العرب ، الذين تراجعوا عن المغربين الأقصى والأوسط وانكفأوا داخل القيروان يدافعون عنها بضراوة [2]. وفي ذلك الوقت كانت الثورة قد بلغت أقصى مراحل انتشارها ، وقطعت شوطا كبيرا في محاولتها الاستقلالية . ولكن دمشق لم تفقد الأمل في اعادة سيطرتها على الوضع في المغرب ، خاصة وان القيروان ظلت صامدة وسط هذه الهجمة الشرسة التي امتدت آثارها الى الأندلس ، فهددتها بالسقوط أيضا . وأعد الخليفة هشام حملة جديدة بقيادة يمني ، هو حنظلة بن صفوان الكلبي ، فكان أوفر حظا من أسلافه: حيث خدمته الظروف بانتشار الثوار البربر على عدة محاور ، وتوزيع قواتهم على أكثر من جبهة . ولقد ساعده ذلك في استرداد المبادرة بانتصاره على القوة الرئيسية المهددة للقيروان ، في معركة (القرن) الحاسمة ، وما أسفر عنها من مقاومة بطولية لانقاذ هذه الأخيرة [3] .

وهكذا نجح الأمويون في اخماد ثورة البربر الكبرى ، التي استمرت

---

(١) أخبار مجموعة ٣٣ . دوزي : تاريخ مسلمي اسبانية ١٥٢ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٩٩ . أخبار مجموعة ٣٣ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٩٩ .

تتحدى السيادة العربية في المغرب طيلة سنوات ثلاث من المجابهة الدموية العنيفة (١٢٢هـ ــ ١٢٥ هـ) • وعادت هذه الولاية الى دائرة النفوذ الأموي ؛ ولكن بقدر أقل من المركزية • ذلك أن معركة الانتقام لم تكن على مستوى هزيمتي (شليف) و (سبو) ، والدولة الأموية التي فقدت آخر خلفائها الكبار هشام بن عبد الملك ، ربما قبل الانتصار الأخير ، لم تعد قادرة على استرجاع مواقعها السابقة في المغرب • فقد انتقل الصراع الدموي الى العاصمة (دمشق) ، وفشل خلفاء هشام [1] خلال السنوات القليلة المتبقية من عمر هذه الدولة، في انقاذ الوضع العربي الذي تدهور بصورة مذهلة ؛ ليس فقط في المغرب ولكن في بقية الولايات • غير أن هــذا الأقليم استرد الجزء الأكبر من شخصيته التاريخية ، حيث ربح معركــة الحكم الذاتي ؛ رغم التجديد الذي طرأ على مركزية النظام ؛ وانتقــال السيادة الى الأسرة العباسية •

---

(١) الوليد الثاني (بن يزيد بن عبد الملــك) ١٢٥ هـ ــ ١٢٦ هـ . يزيد الثالث (بن الوليد بن عبد الملك) ١٢٦هـ/٧٤٤م ــ دامت خلافته ستة أشهر فقط ــ. ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك وقد دام حكمه اربعين يوما حيث أطاح به انقلاب مروان الثاني (بن محمد بن مروان بن الحكم)، وهو اخر الخلفاء الامويين . الطبري ٢٨٨/٨ . ٢٢/٩ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٣ .

نظرة خاصة

لقد انفردت خلافة الأمويين بشخصيتها القومية ، دون ما سبقها أو جاء بعدها من الدول الاسلامية • فالطابع العربي كان متلازما مع نشأتها وطبيعة ظهورها ، حتى اكتسبت عن جدارة في التاريخ الحديث اسم « الدولة العربية » ، بما لذلك من مدلول سياسي تحددت أطره الخاصة مع قيام هذه الدولة • ومن المفترض أن ظروف الصراع الشامي العراقي ، المتزامنة وهذه الأخيرة ، انعكست على شخصيتها وألبستها تلك الملامح العنصرية ربما المنطرفة في بعض الأحيان . فالأسرة الأموية ليست بالضرورة مفطورة أكثر من بقية القرشيين على التعصب للعرب، الا بحدود ما فرضته المتغيرات السياسية والاستراتيجية في ذلك الوقت • فقد نضجت فكرة الدولة لدى الأمويين في الشام ، حيث كان معاوية واليا عليها منذ خلافة عمر بن الخطاب • اذ أن وجوده في منطقة حدودية على تخوم أعداء تقليديين ، كان أحد العوامل التي ساهمت في نمو الشعور القومي لدى الأمويين ، الذين ارتبطوا عضويا بهذه المنطقة وبذلوا جهودا غير عادية للدفاع عنها ، كان في طليعتها محاولة تحقيق توازن متكافيء في السلاح البحري بين القوتين المتصارعتين الاسلامية والبيزنطية •

ومن هذا الموقع شبه المستقل الذي حققه معاوية لأسرته الأموية في الشام ، حتى في أوج المركزية الراشدية ، كانت لديه المقدرة على تفجير أزمة سياسية في مستوى الخلافة • ولقد كشفت الأحداث الدامية بفصولها المتلاحقة في (المدينة) ، ما يطمح اليه (عامل الشام) من وراء منجزاته

الادارية والعسكرية التي تجاوزت مهام الحاكم الأقليمي ، خاصة مع الانعطاف الذي تحولت معه الخلافة كمضمون الى ادارة أموية بعد انتقالها الى عثمان ، أحد البارزين في هذه الأسرة . فحينذاك اعتبر الامويون وحلفاؤهم من الأرستقراطية التقليدية أن أبواب السلطة والامتيازات التي أحكم اغلاقها الخليفة السابق ، انفتحت على مصاريعها في هذا العهد وأخذت هذه الفئة تتسلل بذكاء الى مراكز النفوذ ، مستخدمة أدواتها الفاعلة في المعركة المصيرية .

ولم يكن عثمان وهو من الجيل المتقدم في الاسلام يمثل في مطلق الأحوال هذا التيار ، بقدر ما كان ستارا لتحقيق مكاسب مرحلية . ذلك أن ممثله الحقيقي كان لا يزال بعيدا عن الأضواء ويعمل بهدوء وحذر في الشام ، مخططا لما بعد مرحلة الخليفة المسن . فمعاوية اذن هو رجل التيار التقليدي القوي والممثل الحقيقي لمصالحه في السلطة . ولم يكن صدفة بعد عثمان أن تتظافر القوى الأرستقراطية وتتكتل وراء معاوية ، موزعة فيما بينها الأدوار بصرف النظر عن مواقعها السياسية الظاهرة ، ولم يكن غريبا كذلك أن بعض هذه الفئة ، كان الى جانب علي في صفين ولكن بحضور سطحي ، مشدودا بمصالحه وانتماءاته الاجتماعية ربما بصورة غير مباشرة الى الجانب الأموي [1] .

لقد فرضت الحرب الأهلية التي تمحورت في صفين ، نوعا من الصراع المتناقض في المنطلقات وفي الأبعاد . فعلي كان يمثل الذهنية المتصلبة في الاسلام التي اتخذت اطارها المبدئي في النصف الأول من العهد الراشدي ، تلك الشخصية التي انطبع عليها منذ التزامه المبكر

---

(١) البلاذري : انساب الاشراف ٤٩٣ .

بهذه العقيدة ، نظرية وممارسة وأسلوبا ، ومنذ أن تبنى المثالية السياسية كنهج خاص ، قد يوصف أحيانا بالتزمت • ومن هذه الرؤية نستطيع القول بأن حروب صفين ، كانت صراعا بين تيارين مختلفين ، أحدهما مبدئي متصلب ، والاخر سياسي منفتح • فعلي زعيم التيار الأول ،كان مقيدا بتراثه الاسلامي ، وبالثورة على الحكم العائلي الاستئثاري ، التي أطاحت بالخليفة عثمان• بينما تحرر معاوية من ضغوط هذه الالتزامات وبات أكثر مرونة ، ومن ثم أكثر قدرة على التحرك •

كان معاوية وهو يعد خططه للسيطرةعلى الخلافة يجتهد فياستخدام مختلف الأسلحة ، العسكرية والنفسية والاعلامية من أجل الفوز بمعركة ، كان يدرك مدى صعوبتها وخطورتها • ولهذا فرضت عليه تمسكا بالعصبية القبلية ، التي أخمدت الى حد ما في أعقاب حروب الردة والتحام العرب في حركة الفتوح • فقد أنشأ من خلال تحالفاته المحلية جيشه الشامي المنظم ، الذي كان أحد أبرز الوسائل لتحقيق أهدافه السياسية • وهكذا الجيش كان نواة القوة الضاربة ، التي التجأ اليها الخلفاء الأمويون في مراحل صراعاتهم الطويلة ضد الأحزاب والتيارات المناوئة لهم • ومن الواضح أن احياء الروح القبلية كان في الوقت نفسه بعثا للنظام القديم ، الذي ساد قبائل شبه الجزيرة قبيل الاسلام ، بما فيه من تناحر وتخاصم ، وهي من حيث المنطلق موصولة بالنزعة العربية، السمة البارزة لدولة الأمويين • ولعل الاعتبارات القبلية أكثر ما استبدت بالأسرة الأموية كتيار سياسي حاكم ، مع عدم النفي بأنها كانت موجودة في صفوف التيارات المعارضة • ذلك أن زمنا مضى قبل أن يتاح للفئات غير العربية وتحديدا الموالي ، القيام بأدوار قيادية في الحركات الثورية والسياسية التي كان مسرحها حينذاك العراق • غير أن الأحزاب المعارضة لا سيما الشيعة ، كانت أقدر على التحاور مع الموالي،

وذلك من موقع المعاناة المشتركة ، والطرح المتقدم الذي جذب انتباه هؤلاء ، ومن ثم حاجة الحزب الى توسيع دائرته الشعبية ، حيث كان الموالي يشكلون الأرض الخصبة والمثالية لهذا الاتجاه الاستقطابي •

ولم يكن مرفوضا على مستوى القيادة أن يتزعم زيد بن علي مثلا احدى انتفاضات المعارضة ، دون أن يحوز على الشرط الذي تمسك به الأمويون وهو عروبة الأم [1] • ولقد حال ذلك دون وصول عدد من الأكفياء منهم الى الخلافة لعدم استيفاء هذا الشرط • وكان مروان بن محمد ، الذي قيل أنه من أم كردية الأصل [2] ، الوحيد الذي خرق القاعدة الأموية • غير أن آخر خلفاء هذه الأسرة ، لم يأت الى الحكم في ظل ظروف عادية ، وباجماع من البيت الحاكم ، ولكن عبر انقلاب دموي قام به هذا الخليفة بالتحالف مع الحزب القيسي •

وليس هناك ما يدين هذه النزعة العربية لدى الأمويين وهم في الأصل أحد فروع القبيلة القيسية الشهيرة (قريش) ، ولكن الخلل الذي أصاب دولتهم منذ نشأتها ، هو عدم التأقلم مع المتغيرات الجديدة التي كان مطلوب من هذه الأخيرة أن تكون في مركز الريادة الدائمة لها ، وليس العكس • اذ أنها بقيت محتفظة بطابعها المحلي والقبلي ، دون استيعاب ما أحدثته العقيدة الاسلامية وحركة الفتوح التي أفرزتها ، من انقلاب جذري وحاسم في تاريخ المنطقة • فالتحول الى النظام الملكي الوراثي في عهد معاوية جاء في غير أوانه ، في وقت لم يكن الانصهار السياسي والاجتماعي ، قد بلغ من التقدم حدا يتكافأ معه التغيير في نظام الحكم •

---

(١) كانت أم زيد جارية من السند . الطبري ٢٦٣/٨ .

(٢) المصدر نفسه ١٣٧/٩ .

فكان ذلك يعني بنظر الأغلبية الساحقة تجاهلا لقضايا حيوية ، لم يعد لها من الاهتمام ما لقيته في العصر السابق ، حيث فقد التلاحم انسجامه المثالي بين عنصري الخلافة المتكاملين الديني والزمني •

ولا بد أن يجرنا ذلك بالضرورة ، الى البحث عن القوى السياسية الفاعلة التي أطاحت بدولة الأمويين • هل هم الموالي أصحاب ذلك الدور الكبير ، كما هو شائع في الكتابات التاريخية لا سيما الاستشراقية ، بصرف النظر عن الطروحات المتباينة فيها ؟ [1] أم أن الثورة كانت عربية الملامح ، لا تختلف في دوافعها وقيادتها عن المحاولات الثورية التي سبقتها في العراق ؟• ولعل الافتراض الثاني قد يكون له ما يسوغه في عملية الترجيح بين اتجاه وآخر • ذلك أن الثورة العباسية كحركة سياسية ، ليست الا محصلة لنضال طويل ارتبط بالحزب الشيعي منذ قيام الدولة الأموية • بيد أن التباين كان واضحا في التنظيم وفي اتقان العمل السري ، حيث كان للعباسيين قصب السبق في هذا المجال ، بينما رأى العلويون في أطروحتهم الأساسية ، أن مهادنة النظام الأموي ، نوع من الخيانة للمبدأ والعقيدة • ومن هنا جاءت الحركات العلوية في معظمها مشحونة بالعواطف ، أكثر ما اتسمت به من التنظيم والتهيئة المسبقة •

ولقد رافق الدولة الأموية في الثلث الأخير من حياتها السياسية ؛ انقلاب في مسار المعارضة أدى الى نضج في مفاهيم الحركة الشعبية ؛ التي كان يمثلها الموالي بشكل خاص • وكان من نتائج ذلك ؛ تحول الصراع العربي (السياسي والأرستقراطي) الى صراع يحمل وراءه خلفية اجتماعية وربما قومية • وهنا لا بد من التحديد لطبيعة هذين

---

(١) فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ١٣٠ . كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ٧٠ .

الموقفين المتشابكين • فالعرب الذين التزموا بالخط المناوىء للامويين في العراق ، تجاذبوا بين فئة نخبوية تقاتل في سبيل مبدأ هو الاسلام ، وأخرى تناضل من أجل هدف سياسي محوره الصراع على السلطة والامتيازات • أما الفرس ، فكانت لدى السواد الأعظم منهم مشاكله الاجتماعية والاقتصادية ، وذلك كفئة مسحوقة ، قبل أن تنفجر فيهم النزعة القومية في وقت متأخر •

ومن الثابت أن مشاركة الموالي في الحياة السياسية العراقية ، لم تأخذ دورها المحسوس الا في الربع الأخير من القرن الأول للهجرة • فقد تحولوا حينذاك الى أداة جماهيرية فاعلة للاحزاب المعارضة والقيادات ، التي كان لها مواقف سلبية من النظام الأموي • غير أن الموالي كتيار سياسي لم يتبلور الا في اطار الدعوة العباسية ، اذ حركت هذه الأخيرة ما كان يتطلع اليه هؤلاء من تكافؤ مع العرب في ظل شعار المساواة [١] • والعباسيون بدورهم ساروا في المراهنة الفارسية ، ليس فقط في التحالف مع الموالي كشعب ، ولكن في اختيار الأرض أيضا ، حيث كانت احدى ولاياتهم القديمة (خراسان) ، المسرح الأول للمجابهة المسلحة مع الأمويين • ولم يكن في ذلك خيار للعباسيين ، وهم أصلا أحد جناحي الحزب الشيعي ، بعد افتقاد الثقة بالقبائل العربية في أعقاب سلسلة من المحاولات الفاشلة • فالدعوة العباسية التي خططت لثورتها ضد الأمويين في قرية الحميمة [٢] ، مقر الزعيم أو الامام ، تبنت طروحات الحزب الشيعي المعروفة ، ضد الاستئثار والتباين الاجتماعي والاقتصادي . فاستقطبت بذلك جماهير الفرس ، الذين سبق

---

(١) محمود اسماعيل : الحركات السرية في الاسلام ٧١ •

(٢) الى الجنوب من البحر الميت .

أن تعاطفوا من الموقع نفسه مع الحزب الشيعي ، وتأثروا جذريا بأفكاره الاصلاحية •

ولو تابعنا مضمون العلاقة بين العباسيين والفرس بعد نجاح الثورة، لأدركنا عمق الخلاف الذي ساد الطرفين طيلة ما يسمى بالعصر الأول • فقد ناضل الفرس بشراسة لتحقيق هدفهم السياسي ، بالسيطرة الفعلية على الحكم • ولكن خلفاء هذه المرحلة استحقوا بعد سلسلة من التصفيات، التي استهدفت عددا من الشخصيات الفارسية البارزة ، أن يطلق على عصرهم « عصر السيطرة العربية » •

ان دولة الأمويين التي هي في وجدان العربي المتفاخر بماضيه الباهر ، الصورة الساطعة والمتألقة ، تبقى بدون تردد احدى الصفحات الخالدة في التاريخ العربي الاسلامي • وكان من أبرز سماتها ، أنها تحولت مع ولادتها الى مجتمع عسكري، استطاعت من خلاله تحطيم المحاولات العديدة التي استهدفت القضاء عليها • ومن ناحية أخرى نجحت في احياء حركة الفتح ، التي توقفت اثناء الحروب الأهلية ، فأضافت الى التراث التوسعي ، انجازات في غاية الأهمية ، وسجلت في هذا الاتجاه المنظم تقدما للعرب ، سواء في المشرق ، حيث بلغت السيادة الأموية أطراف الهند ، أم في المغرب مع تلك المغامرة الجريئة التي أسفرت عن سقوط اسبانية ، وما أعقبه من تهديد مباشر للقارة الأوروبية • ولكن ذكريات العظمة موصولة بتراكمات الأخطاء التي أعاقت عملية الانتصار على الذات والخلفية ، والعبور من أفق القبيلة المحدود الى موقع الدولة المسؤولة •

المصادر والمراجع

المصادر

ابن الاثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم)

ــ الكامل في التاريخ . المطبعــة الازهرية المصرية . القاهرة ١٣٠١ هـ .

ــ أسد الغابة في معرفة الصحابة . تحقيق محمد صبيح . القاهرة ١٩٦٤

الازدي (أبو اسماعيل)

ــ ــ كتاب فتوح الشام . ١٨٥٤

الاصفهاني (أبو الفرج)

ــ مقاتل الطالبيين . منشورات المكتبة الحيدرية ــ النجف . ١٣٨٥ ــ ١٩٦٥

ابن الاعثم الكوفي

ــ **مخطوطة اسطنبول**

البغدادي

ــ الفرق بين الفرق القاهرة ١٣٦٧ هـ

البلاذري (أحمد بن يحي بن جابر)

ــ فتوح البلدان ليدن ١٨٦٦

ــ انساب الاشراف . تحقيق الشيخ محمد باقــر المحمودي دار الاعلمي ــ بيروت ١٩٧٤

ابن تغري بردي
ـ النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة
طبعة القاهرة

ابن الجوزي
ـ تاريخ عمر بن الخطاب . تحقيق حسن الهادي حسين
طبعة القاهرة

الجهشياري (أبو عبدالله محمد بن عبدوس)
ـ كتاب الوزراء والكتاب . تحقيق : السقا ، الابياري ، شلبي
الطبعة الاولى . القاهرة ١٩٣٨

الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم)
ـ الروض المطار في أخبار الاقطار. تحقيق : ليفي بروفنسال
القاهرة ١٩٣٧

ابن حوقل (أبو القاسم محمد النصيبي)
ـ صورة الارض بيروت ١٩٦٣

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)
ـ المقدمة القاهرة ١٩٥٧
ـ كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الاكبر
القاهرة ١٨٦٧

خليفة بن خياط
ـ تاريخ خليفة بن خياط . تحقيق : د. سهيل زكار
دمشق ١٩٦٨

الدينوري (أبو حنيفة)
ـ الاخبار الطوال . تحقيق عبد المنعم عامر القاهرة ١٩٦٠

ابن سعد (أبو عبدالله محمد)
ـ كتاب الطبقات ليدن ١٩٠٥

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر)
ـ تاريخ الخلفاء . تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد .
الطبعة الرابعة . القاهرة ١٩٦٩
ـ حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة . القاهرة ١٣٢٧
ـ كتاب الاتقان في علوم القرآن . الطبعة الثالثة
القاهرة ١٩٤١

الضبي الاسدي (سيف بن عمر)
ـ الفتنة الاولى ووقعة الجمل . جمع وتصنيف :
احمد راتب عرموش ، الطبعة الاولى . دار النفائس
بيروت ١٩٧٢

ابن طباطبا (محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي)
ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية
دار بيروت ١٣٨٥ ـ ١٩٦٦

الطبري (محمد بن جرير)
ـ تاريخ الامم والملوك . مكتبة خياط . بيروت

ابن عبد البر (ابو عمر يوسف)
ـ الاستيعاب في معرفة الاصحاب
تحقيق علي البجاوي . مطبعة نهضة مصر . القاهرة

ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله القرشي)
ـ فتوح مصر والمغرب والاندلس . تحقيق عبد المنعم عامر
القاهرة ١٩٦١
ـ سيرة عمر بن عبد العزيز . تحقيق احمد عبيدة .
الطبعة الخامسة ، دار العلم للملايين . بيروت ١٩٦٧

ابن عبد ربه الاندلسي
ـ العقد الفريد . تحقيق محمد سعيد العريان .
دار الفكر ـ بيروت

ابن عذاري المراكشي
ـ البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب . ليدن ١٩٤٢

ابن عساكر
ـ تاريخ مدينة دمشق . تحقيق : د. صلاح الدين المنجد
دمشق ١٩٥١

ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبدالله بن مسلم)
ـ الامامة والسياسة . المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة

ابن القوطية (أبو بكر محمد القرطبي)
ـ تاريخ افتتاح الاندلس مدريد ١٩٦٢

ابن كثير الدمشقي (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل)
ـ البداية والنهاية . الطبعة الاولى . مكتبة المعارف
بيروت ١٩٦٦

الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد)
ـ الاحكام السلطانية والولايات الدينية
المطبعة المحمودية ـ القاهرة

المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين)
ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر
دار الأندلس ـ بيروت
ـ التنبيه والاشراف مكتبة خياط . بيروت ١٩٦٥

المقري التلمساني
ـ نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب
تحقيق : د. احسان عباس بيروت ١٩٦٨

المقريزي (تقي الدين احمد بن علي)
ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . بولاق ١٢٧٠ هـ
ـ النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم
القاهرة ١٩٣٧

المنقري (نصر بن مزاحم)
ـ وقعة صفين . تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون
الطبعة الثانية ١٣٨٢ هـ

مؤلف مجهول
ـ اخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر امرائها والحروب الواقعة بينهم . مدريد ١٨٦٧

الواقدي (ابو عبدالله محمد بن عمر)
ـ فتوح الشام . ١٨٥٤

ياقوت الحموي (شهاب الدين ابو عبدالله)
ـ معجم البلدان . القاهرة ١٩٦٠

اليعقوبي (احمد بن ابي يعقوب)
ـ تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ـ دار بيروت ١٩٦٠

ابو يوسف (يعقوب بن ابراهيم)
ـ كتاب الخراج . القاهرة ١٣٤٦ هـ

المراجع (العربية والاجنبية) .

الابيـاري (ابراهيم)
ـ معاوية . سلسلة اعلام العرب . القاهرة

الاب انستاس الكرملي
ـ النقود العربية وعلم النميات . طبعة بيروت

اسماعيل (د. محمود)
ـ الحركات السرية في الاسلام ، رؤية عصرية ؛ دار القلم بيروت ١٩٧٣

باركـر (ارنست)
ـ الحروب الصليبية ، ترجمة : د . السيد الباز العريني . دارالنهضة العربيـة . بيـروت ١٩٦٧

بتلـر
ـ فتـح العرب لمصر . ترجمة : محمـد فريـد ابو حديـد القاهـرة ١٩٦٦

بخيت (د . عبد الحميد)
ـ عصر الراشدين . مكتبة الانجلو المصرية . الطبعةالاولى١٩٦٩

Perier. J.
— Vie d'Al-Hadjadj Ibn Yousof. Paris 1904.

بيضون (د . ابراهيم)
ـ تاريخ العرب السياسي، من فجر الاسلام حتى سقوط بغداد بالاشتراك مع د . سهيل زكار . دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٤
ـ التوابون . دار التعارف . الطبعة الثانية ١٩٧٨
ـ الدولة العربية في اسبانيا . دار النهضة العربية ١٩٧٨

— La Revolte d'Ibn Al-Ach'Ath : Elements d'Analyse de l'Irrédentisme Iraqien sous les Omayyades. Grénoble 1971.

بينز (نورمان)
ـ الامبراطورية البيزنطية . ترجمة : د . حسين مؤنس . الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٥٧

Gabrieli. F.
— Les Arabes. Paris 1963.

Goldziher. I.
— Le Dogme et la Loi de L'Islam. Traduction de Felix Arin. Paris 1920.

Julien. A.
— Histoire de l'Afrique de Nord. Paris 1955.

حسن (ناجي)
ـ ثورة زيد بن علي . مكتبة النهضة ـ بغداد

حسين (د . طه)
ـ علي وبنوه . القاهرة ١٩٥٣

حسيني (س. ا.ف مولوي)
ـ الادارة العربية . ترجمة د . ابراهيم العدوي . مراجعة عبد العزيز عبد الحق ـ القاهرة

خالـد (خالد محمد)

ـ ابناء الرسول في كربلاء . الطبعة الاولى . القاهرة ١٩٦٨

الخربوطلي (د . علي حسني)

ـ تاريخ العراق في ظل العصر الامـوي . دار المعـارف ـ القاهرة ١٩٥٩

خليل (د . عماد الدين)

ـ ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافـة عمر بن عبد العزيـز الطبعة الثانية . الدار العلمية . بيروت ١٩٧١

ـ دائرة المعارف الاسلامية

ترجمة : الشـنتاوي ـ خورشـيد ـ يونس . جلال .

ـ دائرة المعارف الاسلامية الشيعية

باشراف السـيد حسـن الامين ـ بيروت

Daussaud. R.

— La Lutte en Syrie avant l'Islam .1907.

Dozy. R.

— Histoire de Musulman d'Espagne. Lyde 1932.

— Etudes sur la conquête de l'Espagne par les Arabes. Lyde 1881.

رستم (د . اسد)

ـ الروم في سياستهم وحضـارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب . بيروت ١٩٥٦

الرفاعي (د . احمد فريد)

ـ عصر المأمون . الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٢٧

Rondot. P.

— Les Forces Religieuses et la vie politique de l'Islam. Institut d'etude politique. Paris 1956.

Roux. J.P.

— L'Islam au Proche Orient. Paris 1960.

الريس (د . ضياء الدين)
ــ الخراج في الدولة الاسلامية . الطبعة الاولى . مكتبة النهضة . القاهرة ١٩٥٧
ــ عبد الملك بن مروان . سلسلة اعلام العرب . القاهرة ١٩٦٢

سالم (د . السيد عبد العزيز)
ــ تاريخ الدولة العربية . دار النهضة العربية . بيروت ١٩٧١
ــ تاريخ البحرية الاسلامية . بالاشتراك مع د . أحمد مختار العبادي منشورات جامعة بيروت العربية

سرور (د . محمد جمال الدين)
ــ الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الاول والثاني بعد الهجرة . دار الفكر العربي ١٩٦٦ .

Sanhoury. A.
— Le Califat. Librairie Orientaliste. Paris 1926.

سيد الاهل (عبد العزيز)
ــ الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز
دار العلم للملايين . بيروت ١٩٦٩

Cheira. A.
— La Lutte entre Arabes et Byzantins. Alexandrie 1947.

شمس الدين (الشيخ محمد مهدي)
ــ ثورة الحسين ؛ ظروفها الاجتماعية وآثارها الانسانية الطبعة الثالثة . دار التراث الاسلامي . بيروت ١٩٧٤
ــ انصار الحسين : الرجال والدلالات . دار الفكر . بيروت ١٩٧٥

صالح (احمد عباس)
ــ اليمين واليسار في الاسلام
المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٣ .

صبحي (د . احمد)
ـ نظرية الامامة عند الشيعة الاثني عشر ـ دار المعارف ـ القاهرة

عاشور (د . سعيد عبد الفتاح)
ـ اوروبا في العصور الوسطى . مطبعة الانجلو المصرية ١٩٦٤

العبادي (عبد الحميد)
ـ المجمل في تاريخ الاندلس . القاهرة ١٩٦٤

عبد العليم (د . أنور)
ـ الملاحة وعلوم البحر عند العرب ، الكويت ١٩٧٩

عبد اللطيف (بدوي)
ـ قيام دولة الامويين في الشرق . الطبعة الرابعة . القاهرة ١٩٤٨

العجلاني (د . منير)
ـ عبقرية الاسلام في اصول الحكم
الطبعة الثانية . دار الكتاب الجديد ١٩٦٥

العدوي (د . ابراهيم)
ـ الامويون والبيزنطيون . الطبعة الثانية ـ الدار القومية . القاهرة

العروي (د. عبدالله)
ـ تاريخ المغرب ، محاولة في التركيب
ترجمة : د. ذوقان قرقوط . المؤسسة العربية ـ بيروت

العزيز (د . حسين قاسم)
ـ البابكية أو انتفاضة الشعب الاذربيجاني ضد الخلافة العباسية . دار الفارابي ـ بيروت

علي (أمير)
مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي
القاهرة ١٩٣٨

عمارة (د . محمد)
ـ مسلمون ثوار. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت
ـ الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت
ـ نظرة جديدة الى التراث . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت

عمر (د . فاروق)
ـ طبيعة الدعوة العباسية . دار الارشاد ـ بيروت

عنان (محمد عبد الله)
ـ دولة الاسلام في الاندلس . الطبعة الرابعة . القاهرة ١٩٦٩

Vasiliev
— Byzance et les Arabes. Paris 1953.

فضل الله (محمد جواد)
ـ صلح الامام الحسن . دار الغدير . بيروت ١٩٧٣
ـ حجر بن عدي الكندي . دار التراث الاسلامي . بيروت ١٩٧٤

فلوتن (فان)
ـ السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية ترجمة : د. حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم . الطبعة الاولى . القاهرة ١٩٣٤

فلهوزن (يوليوس)
ـ الدولة العربية وسقوطها. ترجمة : يوسف العشي. دمشق ١٩٦٢
ـ الخوارج والشيعة . ترجمة : د . عبد الرحمن بدوي . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨

Fournel H.
— Etude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes. Paris 1881.

فيصل (د . شكري)

ـ حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول
دار العلم للملايين . الطبعة الاولى . بيروت ١٩٥٢

قدورة (د . زاهية)

ـ الشعوبية واثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الاسلامية في العصر العباسي الاول . دار الكتاب اللبناني . بيروت ١٩٧٢

كاشف (د . سيدة اسماعيل)

ـ الوليد بن عبد الملك . سلسلة اعلام العرب . القاهرة ١٩٦٢

كاهن (كلود)

ـ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية
ترجمة : د . بدر الدين القاسم . دار الحقيقة . بيروت ١٩٧٢

Cahen. C.

— Mouvement Populaire et Autonomisme Urbain dans l'Asie Musulmane de Moyen Age. Paris 1958.

Caetani

— Studi di storia orientale. Milano 1911.

Lammens. H.

— La Syrie, Précis Historique. Beyrouth 1921.

— Etudens sur le Regne de Calife Mo'awia 1r. 1921.

— Etudes sur le siècle des Omayyades, Imprimerie Catholique. Beyrouth 1930.

Lando. R.

— Islam and the Arabs.

الاسلام والعرب . ترجمة منير بعلبكي . الطبعة الاولى . ١٩٦٢

Lombard. M.

— L'Islam dans sa Première Grandeur. Paris 1971.

لويس (أرشيبالد)
ـ القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط
ترجمة : أحمد محمد عيسى . مكتبة النهضة المصريـة .
القاهرة ١٩٢٠

Levi — Provençal.
— Histoire de l'Espagne Musulmane. Paris 1950.

Lane - Poole. S.
لين بول (ستانلي)
ـ العرب في اسبانيا . ترجمة علي الجارم . القاهرة ١٩٦٣

ماجد (د . عبد المنعم)
ـ التاريخ السياسي للدولة العربية . الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٦٠
ـ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى .
مكتبة الجامعة العربية . بيروت
مجلة البلاغ ـ الكاظمية . العراق . عدد ٧ ـ ١٩٦٧
ـ مقال (ثورة الاحرار على الحجاج) للسيد حسن الامين .

المقرم (عبد الرزاق)
ـ زيد الشهيد . النجف ١٣٧٢ هـ

مؤنس (د . حسين)
ـ فتح العرب للمغرب . القاهرة ١٩٤٧
ـ فجر الاندلس . القاهرة ١٩٥٩ .

النجار (عبد الوهاب)
ـ الخلفاء الراشدون . المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٨ هـ

نصر (د . سيد حسين)
ـ الاسلام ، اهدافه وحقائقه
الدار المتحدة للنشر . بيروت ١٩٧٤

نولدكه

ـ امراء غسان . ترجمة بندلي خـوري ـ قسطنطين زريق بيروت ١٩٣٣

Wiet. G.

— Grandeur de l'Islam. 1961.

فهرس الاشخاص والاماكن

الاشخاص :

(ا)

(ب)

الاماكن

(ا)

(ب)

(ت)

(ج)

(ك)

(ل)

(م)

محتويات الكتاب

القسم الثاني

كتب صدرت للمؤلف

١ ـ تاريخ العرب السياسي ، من فجر الاسلام حتى سقوط بغداد

بالأشتراك مع د. سهيل زكار . دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٤

٢ ـ التوابون

الطبعة الأولى ـ دار التراث الأسلامي ـ بيروت ١٩٧٤

الطبعة الثانية ـ دار التعارف ـ بيروت ١٩٧٨

٣ ـ الدوله العربية في اسبانيا

دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٨

٤ ـ ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري

دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٩